

ناتج غزو العرب

في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط

تأليف

الأمير شكيب أرسلان

من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق

وفقه الله لما يرضاه

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ربنا إليك نفرع من مداحص القدم : وبك نستعصم في ما يجري به القلم .
ونشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك بارئ النسم ومفيض النعم ، وباسط
الوجود على العدم ، شهادة نعوذ بها للنجاة اذا اشتدت النعم ، وتتيق بها النار ذات الضر .
ونشهد أن محمداً عبدك ورسولك سيد من دعا الى توحيدك من بين الأمم ، وسultan
من طهر الأرض من عبادة الصنم ، المنزل عليه كلامك الموصوف بالقدم ، المبعوث بالآيات
الباهرة والحكم . اللهم صل عليه وعلى آله لهاميم العرب ومعادن الكرم ، وأصحابه
حملة الكتاب وليوث الكتائب في المزدحم ، الذين أشرقت شمسهم في الشرق
والغرب فأماطت الظلم وأنارت الظلم ، وسلم يارب كثيرًا

وبعد فانه مما يجب أن يخلد في الصدور قبل السطور ، وأن يكتب على الحديق
قبل الورق ، ان حفظ التاريخ هو الشرط الأول لحفظ الأمم ونموها ، ورقى الأقوام
وسموها ، وانه لا يتصور على وجه الكرة وجود أمة تشعر بذاتها وتعرف نفسها قائمة
بنفسها الا اذا كانت حافظة لتاريخها واعية لماضيها ، متذكرة لأوليئها ومبادئها ، مقيدة
لوقائعها مسلسل لا نسائها حاشدة لاحسابها خازنة لأدائها ، مما لا يقوم به الا علم
التاريخ الذى هو الواصل بين الماضى والمستقبل ، والرابط بين الآن والمستأنف . وانه
لا جدال فى كون الأمة العربية التى تتحفز لتنباع وتستوفز لتمد طائل الباع ، لم تكن
لتحدث نفسها بالنهوض الذى جعلته نصب نواظرها والاتحاد الذى سببرته شغل
خواطرها لو لم تكن رقت من رئاسة الممالك فيما عبر هاتيك الدرجات العالية ، وطالعت
من تاريخها تلك الصفحات المتلاية فجعلت الحاضر منها ينجل أن يقصر عن شأو
الغابر ويستطار أن يعلم أباه سيداً فى الأوائل وهو عبد فى الأواخر ، فكان اذاً تاريخ
العرب هو عمدة العرب فيما يطمحون اليه من معال ، ووسيلتهم فيما يندفعون الى تحقيقه .

من آمال. ولعمري ان هذا التاريخ المجيد وان سقته سيول المحابر واخضرت له أعواد المنابر، وسبقت فيه تأليف استولى أصحابها على الأمد إخراجا، ولعت فيه كتب لو لاحت لكانت بروجاً ولو نضدت لكانت أبراجا، لاتزال فيه نواقص بادية العوار ومعالم طامسة الآثار. ومظان متوارية غامضة، ومعلومات قاعدة غير ناهضة، تحتاج إلى همم بعيدة من الأفواج الآتية لينثروا من دقائنها، وإلى معارف واسعة عند السلائل المقبلة لينثروا من كنائنها. وان من أخص ما أهمل العرب فيه التأليف مع أنه من أعجود ماضيهم وألع ما لعت فيه مواضعهم هو الدور الذي كان لهم في القارة الأوربية خارجا عن الأندلس، وذلك كفتوحاتهم في ديار فرنسة وإيطاليا وسويسرة وما كانوا يقولون له الأرض الكبيرة، وكفتوحاتهم لجزائر البحر المتوسط التي رفعوا فوقها أعلامهم حقبا طويلة، وأثروا فيها آثاراً كثيرة أئيرة. فان هذا الدور من أدوارهم يكاد يكون عند أبنائهم مجهولاً، بل ان كثيراً من ناشئتهم لا يعرفون عنه كثيراً ولا قليلاً. والحال انه من أقسى فتوحاتهم مجداً وأوعى منازلهم غوراً ونجداً، وأدل أعمالهم على ما أوتوه من علو الهمم ومضاء المزايم. وما كان غالباً على أخلاقهم يومئذ من احتقار الطوائف واستصغار العظائم. فلماذا خصصت بهذا الموضوع كتاباً مستقلاً أسميته « الخبيثة المنسية في مقام العرب ببحال الالب والبلاد الافرنسية » وجعلت هذا الكتاب أشبه بجزء من أجزاء كتابي الذي أنا مباشر تأليفه عن الأندلس باسم « الحملة السندسية في الرحلة الانداسية » وسيكون فيما أحزر أربعة أو خمسة أجزاء ان لم يكن أكثر

هذا وقد رأيت أن أزوج هذا الكتاب باسم الملك العربي العظيم منزعاً ونسباً، ذؤابة بيت الرسول الكريم وحسبك بذلك شرفاً وطهرراً وأماً وأباً، الذي وقف نفسه الآبية على خدمة أمته العربية عاملاً نهضتها بعد ربضتها، ومجاهداً في ربوتها بعد كبوتها فيحصل بن الحسين ملك العراق والرافدين، أطال الله أيامه ونصر أعلامه وسدد آراءه وأحكامه، وأبلغه من مجد العرب مرامه. وذلك بالاتفاق مع أخويه الامامين المهامين

الماهلين العادلين ملكي الجزيرة العربية في هذا العصر، المكتوب لهافيه باذن الله التمكن
والنصر، الامام يحيى بن محمد بن حميد الدين صاحب مملكة اليمن السعيدة ، والملك عبد
العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود صاحب الدولة العربية السعودية، أيدهم الله جميعاً
لتأييد هذه الأمة وصيانة ذمارها، وألهمهم دوام الائتلاف والاتحاد لما به تجديد مجدها
وإزالة عثارها، حتى يعود أمرها كما بدا وترجع أيام عزها جُددًا، وما ذلك على الله بعزيز
جنيف ١٩ ربيع الأول ١٣٥٢
شكيب أرسلان

ملحوظ

قد كنت حررت هذه المقدمة منذ أشهر قلائل والملك فيصل في الحياة والأمة العربية
تستمد حياتها السياسية من حياته، وتبنى معظم آمالها على أصيل آرائه ومنصور راياته،
وقبل أن يوشع طبع هذا الكتاب اختار الله هذا العربي الكبير لجواره، وكانت بموته
الفادحة التي لم يرزأ العرب بمثلها، وقامت نواذبهم وسالت مدامعهم في كل غور ونجد من
أجلها، فلم نشأ أن نغير شيئاً من مقدمة هذا الكتاب بل أبقيناه متوجاً باسمه كما لو كان
في الحياة إذ أننا لا نزال نعد فيصلاً حياً في القلوب والخواطر وإن غاب بوجهه الكريم
عن النواظر لا سيما ان المرحوم كان قد سمع بخبر هذا التأليف وسألني ، واحسرتاه عليه
إذ كان مؤخراً في برن ، عنه وعن مباحثه وعما أمكنني الاطلاع عليه من آثار العرب
في القرى السويسرية التي كان انتهى الى سمعه أنني ذهبت إليها ونقبت فيها . وكان مهتماً
بهذا الموضوع مرتاحاً الى نشر هذا الكتاب كما كان مرتاحاً الى نشر كل أثر عربي .
وما كان فيصل رحمه الله إلا رمزاً للقضية العربية والرمز لا يموت عند قومه . فإذا
كان فيصل قد مات فلن يموت تذكاره ولا تتمحى آثاره . ولنا نعم العزاء في جلالة ولده
المعظم الملك غازي الأول الذي ترتقب من هلاله بدرًا نامياً ، ونرجو من كرم الحق
تعالى أن يجعله فيصلاً ثانياً . آمين

شكيب أرسلان

جنيف ١٤ جادى الثانية ١٣٥٢

كلمة بين يدي رحلتى

للتبج الآثار العربية فى الأقطار الغربية

ليس بعجيب أن يكون مثلى مغرماً بالأندلس وآثار العرب فيها وفيما جاورها من الأصقاع الأوربية ، فإن كل عربى صميم حقيق بأن يبحث عن آثار قوميه ويتعلم مناقب أجداده ويتدارس معالى هممهم مع إخوانه ويترك من ذلك تراثاً خالداً لأعقابهم . ولعمري إن آثار العرب فى الأندلس هى غرة شاذخة وهمة شاذخة فى تاريخ الأمة العربية . بل نقول ولا نخشى مغالطاً أنها من أنفس ما أثمره العرب ، بل من أنفس ما أثمره البشر فى الأرض . فلا غرو أن يعجب بها العربى وينقب عنها ويشد الرحال إليها ويأخذ العبرة اللازمة منها ، فليست هى الآلة الناطقة والبيئة القاطعة على مجدنا الماضى وعلى ما قدرنا أن نعمله فى سالف الحقب فحسب ، بل هى الحجة الملمزة والآلة المعجزة المفحمة على جدارتنا بالاستقلال التام ، وكفايتنا إذا ملكنا الاستقلال أن نحسن الانضطلاع بالأحكام . وهى أيضاً الدلالة على أننا نقدر أن نعمل فى العصر المستأنف ما عملناه فى العصر السالف إذا تركنا الأجانب وشأننا

كنت إذاً منذ ريعان شبابه وغضاضة إهابى مولماً بحضارة الأندلس العربية وآثارها، مشغوفاً بتاريخها وأخبارها حتى أنى منذ أربع وثلاثين سنة وهى مدة يضح أن تسمى دهرأً نقلت من الافرنسية الى العربية رواية الكاتب الأشهر شاتوبريان المسماة بآخر بنى سراج ، وذيلت تلك الرواية المترجمة بتاريخ الأندلس استخلصته من المكتب العربية والأوربية ، وأجلت معظم قدامح البحث فيه عن سقوط مملكة غرناطة وجلاء العرب الأخير عن تلك الجزيرة لأن هذه الحقبة من ذلك التاريخ كادت تكون فى عصرنا مجهولة، وقد صادف ظهور هذا الكتاب مبدأ النهضة العربية فكان

له في النواحي رنة نواح، وسال له من المآ في مدمع سفّاح، وتجددت تذكارات أشع
وبلغ التأثير من قلوب جميع الذين قرأوه انهم كانوا يتلونه المرة بعد المرة شفاء لما
صدورهم، أشبه بالشكلى التى لا يشفى ما بها سوى ذرف دموعها ولطم خدودها وتله
آثار مفقودها، وكانت بازدياد الهضة العربية تزداد الرغبة في هذا المقام وتشرئب
الأندلس الأعناق وتتخلّب على ذكرها الشفاء، فأعدت من سنين قلائل طبع الرو
المذكورة «آخر بنى سراج» مع ذيلها، وأضفت اليهما تاريخاً قديماً عن سقوط غرنا
عثرت عليه في مدينة مونيخ عاصمة بافاريا يسمى «أخبار العصر في انقضاء د
بنى نصر» مؤلف لم يذكر اسمه فيه، لكنه يترجى كثيراً مما لحظنا من كلامه أنه
من حضر الوقائع بنفسه أو ممن عاصر أهلها، لأنه يسرد أخبارها سرد من شاه
بالعيان، أو من روى عن من شاهدها، وأظن المقرئ عند ما كتب نفح الطيب
مطلعاً على ذلك الكتاب، لأنى رأيت في كتاب «أخبار العصر» هذا جملاً كثيرة رأ
في النفخ بحروفها. نعم أعدت طبع كتابى ذاك عن الأندلس مضموماً اليه هذا الكت
الذى عثرت عليه في مونيخ غفلاً من اسم مؤلفه ومعه أربعة مراسيم سلطانية
السلطان أبى الحسن علي بن الأحمر والد أبى عبد الله آخر ملوك العرب بالأندلس ال
سلم غرناطة الى الملك فرديناند والملكة ايزابلا، وكان طبعى لهذه الكتب منذ ث
سنوات بمطبعة المنار الشهيرة بمصر

ولكن كل هذا لم ينقع غلتي ولم يشف ما بى من أمر الأندلس، وبقيت بعد معرفة
بالقلم متشوقاً الى مشاهدتها بالعيان والتجوال فيها بالقدم، استزادة من معرفة أخبار
واقصص آثارها ووفاء بواجب ازديارها . وما زلت أحدث نفسى برحلة أقوم بها
تلك الديار التى ترك لنا عنها آباؤنا أجل تذكّار وتعوقى الموائق عنها وتعترضنى الأش
من دونها وأنا أخشى أن توافينى النية قبل تحقيق هذه الأمنية الى أن يسر الله ه
الرحلة منذ ثلاث سنوات والأمور مثل النفوس مرهونة بالآجال . وكنت مو

النفس على السفر الى الأندلس في ربيع سنة ١٣٤٨ وفق سنة ١٩٣٠ فجدت شؤون وطرات طوارئ اقتضت أن تراجع جمعية الأمم في جنيف مراجعات مستمرة قضت على " بأن لا أفارق جنيف في تلك الآونة بحيث انه أقبل الصيف يسحب من ذيله ، وجاء الحر هاجما برجله وخيله ، فأخذ بعض الإخوان يشيرون على " بتأخير الرحلة الى الشتاء التالى أو الى الربيع الذى وراءه ذهابا الى أن السياحة فى أسبانية لا تلتئم فى أيام القيظ لا سيما القطعة الأندلسية التى أنا قاصدها . فلم يكن ذلك لينير من نيتي ولا ليرخى من مشدود طيتي ، لأنى لم أبرح فى هذه المسألة منذ ثلاثين سنة أمنى بها النفس ، وكلما حدا سائق بدا عائق ، ونحن نعتمد على التأخير والتسويق ونعلل النفس بشتاء وصيف وربيع وخريف ، وقد عرفنا أكثر البلاد الأوروبية ولم تبق مدينة فيها الا دخلناها وربما بدل المرة الواحدة مراراً ، وقتلنا أحوالها درساً واختباراً ، ولم يبق من أوردية ما لم نعرفه سوى الاصقاع الإسكندنافية فى الشمال والبلاد الأسبانية فى الجنوب . فأما الأولى فانه يجوز لثلاثنا أن يعرفها كما أنه يجوز له أن لا يعرفها إذا عاقته العوائق عن معرفتها ، ولكن الأندلس التى نحن اليها منذ نعومة الأظفار ونقرأ عنها بل نؤلف الأسفار ، فانه لا يجوز لثلاثنا أن يتأخر عن السفر اليها ونحن لا نزال انضاء أسفار بين الأقطار . وعليه انتهزنا هذه الفرصة واغتنمنا من وقتنا هذه الجلسة قاصدين الى الأندلس عن طريق فرنسة التى حصلنا على رخصة المرور بها أياما معدودات . وذلك أنه لما كان الغرض الأصلي من الرحلة اقتراء آثار العرب كيف حلّوا وأنى ارتحلوا من هذه الديار الغربية كان لا بد لنا أولاً من زيارة فرنسة التى كانت للعرب فيها جولة ، بل كانت لهم فى جنوبها دولة وصولاً ، وطالما عصفت ريحهم ببلاد الإفرنجية بعد أن عصفت ببلاد القوط والجلالقة والباشكنس وغيرهم من أمم الغرب التى خفضوا دعائمها ونقضوا مراثيها ، وكادوا يلحقون بأولها آخرها . وها أنا ذا أحدث عن سياحتي :

في ١٨ يونيو قبل الظهر من سنة ١٩٣٠ فصلت من لوزان قاصداً الى باريس فوصلت الى تلك العاصمة ليلاً . وكان قد عرف بقدمي شابان من نخبة أدباء المغاربة السيد احمد بلافريج من ذوائب بيوتات الأندلسيين في رباط الفتح، والسيد محمد الفاسي من آل الجد الفهريين الأندلسيين من أعيان فاس . فلما نزلت من القطار حتى وجدهما أُمّمي في المحطة وركبنا معاً الى فندق أورليان بالاس في شارع برون « Boulevard Brune » وتحدثت اليهما في موضوع رحلتي وكان ذلك قبل ميماد عطلة الدروس التي كانا يريدان بعدها السفر الى وطنهما فاتفقنا على أن يوافيانني الى مجريط ليرافقاني في بعض هذه السياحة، وبعد ذلك بأيام قلائل مرّاً علىّ بالفعل إذ أنا في فندق رومة في عاصمة الأسبانيول . وكان في اليوم التالي من وصولي الى باريس أقبل علينا أولادنا الطلبة السوريون وأنسنا بلقائهم واجتمعنا مع فئة من نخبتهم في المطعم العربي الذي بقرب الجامع . وبعدها ذهبت أنا والسيدان محمد الفاسي وأحمد بلافريج الى مكتبة غوتتر المتخصصة بالكتب الشرقية حيث اشترت بعض كتب عربية أكثرها يتعلق بالأندلس . وصادف أني لدى نزولي في أورليان بالاس وجدت صديق الحميم حسين رؤوف بك بطل الدارعة حميدية الشهير ورئيس نظار أنقرة سابقاً وناظر البحرية العثمانية من قبل، فسررت بلقائه كثيراً لأن آخر العهد بيننا كان في الاستانة سنة ١٩٢٤ وكذلك جاء لزيارتي هناك رحى بك الذي كان والياً للأزمير أيام الحرب الكبرى وكان من أركان جمعية الاتحاد والترقي في تركيا وهو من أعز إخواني وإخوان ابن عمي الأمير أمين مصطفى أرسلان، فكانت لي بغير ميماد فرحة عظيمة بالاجتماع بهذين الخليلين اللذين طال عهدى بلقائهما وذهبنا الى المعلم العربي فأوصينا على مطاعم مغربية ، وسمعنا من شجى ألحان الموسيقى العربية ولا سيما الألحان الأندلسية ، وسمرنا أجمل سمر وكانت ليلة كلها سحر . وبعد إقامة خمسة أيام بباريز

«ركبت القطار الحديدى الى تولوز « طلوze » وجاء لوداعى الى المحطة جمهور من شبان العرب يباريز وهتفوا فى المحطة : فليحى العرب

ووصلت الى طلوze بعد مسيرة ثمانى ساعات بالقطار ونزلت فى فندق قريب من محطتها اسمه « ترمينوس ^(١) » وفى اليوم التالى قصدت قرقشونة ^(٢) التى فيها الآثار الشهيرة فزرت البسلة والقلمة وصعدت الى الأسوار وجولت فى تلك الحصون نحواً من ساعتين، ورجعت فى المساء الى طلوze، والمسافة بالقطار بين هاتين البلدين لا تزيد على ساعتين

﴿ الكلام على طلوze وقرقشونة ﴾

رأيت مناسباً ابتداء الكلام على فرنسة العربية قبل الانتقال الى اسبانية العربية وذلك بناء على كوفى بدأت رحلتى من فرنسة . ولما كان غرضى من هذه الرحلة هو استقصاء آثار العرب وأخبارهم أينما كانوا وحلوا من القارة الأوربية توخيت أن لا أخرج عن هذا الصدد الا نادراً مما يقتضيه سياق البحث . فلو كنت زرت الأندلس مبتدئاً من المكان الذى دخل منه العرب أى من الجنوب لكان الترتيب يقضى علىّ بأن أبدأ ببجل طارق فالجزيرة الخضراء فشرش فاشبيلية فقرطبة فطليطلة . وهلم جراً نحو الشمال، وأن أنتهى بأربونة فقرقشونة ونيم وأفينيون الى جبال الألب بين ايطالية وفرنسة وسويسرة . وهكذا كان ينبئ أن أفعل لو كنت حراً أن أسكن فى هذه الأيام وطنى سورية فكان السفر منها الى الأندلس على الطريق الذى سلكه أجدادنا عند فتحهم تلك الديار وهى طريق المغرب . ولكن الغربة التى تطوحنها بسبب نضالنا عن استقلال وطننا قضت علينا بأن نسكن أوردية وأن نقصد الأندلس

(1) Terminus

(2) Carcassonne

من شاليها لا من جنوبيها أى من حيث نحن مقيمون الآن ومن حيث انتهى العرب في فتوحاتهم الأوربية لا من حيث ابتدأوا بها . ولما كان المقصود هو كما قلنا من استقراء آثار السلف وتأثر خطواتهم حيث دل عليها التاريخ وأثبتها الأثر من قارة أوروبة بدون تقييد بمكان معين وبدون التزام ما شاهدناه من هذه الأماكن بالعين بل باطراد الكلام على ما شاهدناه الى ما لم نشاهده مما جاوره ودخل تحت حكمه ، أى جميع ما قيل ان أقدم العرب وطئته من هذه البلدان في حملتهم الأولى على الغرب ، لم يكن لنا بد من أن نتناول طلويزة وقرقشونة وأربونة ونيم وأفينيون وليون . وليست هذه فقط بل جميع البلاد التي احتلوها من جنوبي فرنسا وما صاقت ذلك من شمالي ايطالية، وما نواح ذلك من جبال الالب العالية الواقعة اليوم بين هذه الممالك الثلاث : فرنسا وإيطالية وسويسرة ، الى حدود بحيرة كونستانزة من ألمانية

فكان هذا الكتاب وإن استقل باسم «تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط» هو في الحقيقة جزءاً من رحلتى الأندلسية التي نحن بسبيلها لأنها هي خاتمة مطاف العرب في أوروبة وفتحة ما أفاضوا اليه من الممالك بعد فتحهم للأندلس . واذا لحظت أنى قد بدأت بالرحلة وتاريخ حملة العرب على أوروبة من هذه الجهة كان لك أن تقول انى جعلت أولاً ما كان ينبغي أن يكون آخراً، فان هذا الجزء هو الآخر باعتبار فتوحات العرب ولكن قضت الأقدار بأن يكون هو الأول . باعتبار ترتيب سياحتى التي بدأت فيها من الشمال الى الجنوب فرأيت أنا أولاً ما فتحوه هم أخيراً ورأيت آخراً ما احتلوه هم أولاً .

وبالجملة فموضوع هذا الكتاب هو أيام العرب، في فرنسا وفي شمالي ايطالية وقلب سويسرة . وهو أول تأليف عربى مستقل في هذا الموضوع

طلوزة TOULOUSE

كانت طلويزة في قديم الدهر حارات متفرقة ولم تأخذ شكل مدينة الا في أيام الرومانيين ، ومن ثم صارت قاعدة مملكة التكتوزاجيين ^(١) ومركز علم وصناعة ودخلت فيها النصرانية بواسطة القديس سيرنيه . وبعد أن سقطت سلطنة رومة صارت طلويزة عاصمة ماوك القوط ، وبقيت دار مملكتهم من سنة ٤١٩ للمسيح الى سنة ٥٠٨ وكانت حينئذ قاعدة بلاد أكتانية المنضمة الى أسبانية . وسنة ٧٧٨ صارت كوتية مستقلة واشتهر من أمراءها الكونت ريموند الرابع ولم تنضم الى مملكة فرنسة إلا سنة ١٢٧١ للمسيح ^(٢) . ففي القرن الخامس كانت دار ملك القوط وفي القرن السابع والثامن كانت مركز دوقية أكتانية ، وفي القرن الحادي عشر والثاني عشر صارت قاعدة كوتية طلويزة . ولما شن العرب الغارة على فرنسة كانت طلويزة من المدن التي قصاصوها لكنهم لم يتمكنوا منها كما تمكنوا من أربونة وقرقشونة وغيرها .

وقد كانت غارة العرب على طلويزة في أيام امارة السمع بن مالك الخولاني على الأندلس وذلك لمضى إحدى عشرة سنة على دخول العرب الى اسبانية كما سيأتي عند الكلام على غارات العرب في جنوب فرنسة

(١) وهم جيل من الغولوا ولا نعلم Vales Tectosages هل هم الذين أشار اليهم صاحب نفع الطيب في أوائل الجزء الأول عند ذكر الأمم التي عمرت الأندلس وسماهم البشتولقات أم لا ؟ وقد تكون اللفظة مصحفة عن تشتولقات . وفي صبح الأعشى يذكر الشبوتقات ويقول إنهم ملكوا الأندلس وبلاد الأفرنجية معاً وإن القوط خرجوا عليهم .

قرقسونة CARCASSONNE

مدينة على نهر الأود Aude وقناة الجنوب وهي قسبان: الأول الذى فيه القلعة وهو مبنى على متن رابية مشرفة على القسم الثانى وفيه بعض بيوت وشوارع ضيقة وكنيسة معروفة بكنيسة سان نازير Saint-Nazaire من بناء القرن الحادى عشر . وجميع أبنية هذا القسم العالى لا تزال كما كانت فى القرون الوسطى ، وليس مثلها فى كل فرنسة فى هذا الباب ، ولهذا هى مقصد السياح من كل فج . والقسم الثانى هو الذى على شاطئ النهر ويسمى قرقسونة الجديدة، وهى جديدة بالنسبة الى قرقسونة القديمة التى على الرابية . ولكن هى فى الحقيقة من زمن لويس التاسع ملك فرنسة ، أى القديس لويس الذى عاش فى أواسط القرن الثالث عشر ^(١) . وأما تاريخ العرب فيها فالشهور أنهم افتتحوها فى سنة ٧١٣ للمسيح وأنها بقيت فى أيديهم الى سنة ٧٥٩ على ماستقرأه عند الكلام على غارات العرب فى جنوبى فرنسة

مبدأ غارات العرب على فرنسة

وما اعتمدنا عليه من الروايات عنها

أهم كتاب وضع فى هذا الموضوع هو كتاب المستشرق الفرنسى الشهير المسيو « رينو ^(٢) » الذى عاش فى الثلاثين الأولين من القرن الماضى ، وكتابه يسمى

(١) هو الذى قام بالحرب الصليبية وغزا مصر ، ووقع فى الأسر واعتقل فى دار ابن لقمان وقيل فيه :

وقل لهم ان أزمعوا عودة لأخذ ثار أو لفعل قبيح

دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشى صبيح

(٢) Reinaud واسمه جوزيف رينو ولد سنة ١٧٩٥ وتوفى سنة ١٨٦٧

« غارات العرب على فرنسا ومن فرنسا على سافواى وبيمونت وسويسرة فى القرن الثامن والتاسع والعاشر من التاريخ المسيحى بحسب روايات المؤرخين المسيحيين والمسلمين » (١)

فان جميع المؤرخين الاوروبيين ذكروا غارات العرب على فرنسا بعد استيلائهم على اسبانية وأجمعوا على أن شارل مارتيل الذى يسميه العرب قارله هو الذى أنقذ أوروبا فى وقعة « پواتيه » الشهيرة من الوقوع تحت سلطة العرب ، وأنه لولا انهزام العرب فى تلك المعركة لكانوا استولوا على أوروبا كلها وربما كانت بأجمعها قد دخلت فى الاسلام . ولا تقدر أن نخصى ما جاء فى كتب الاوروبيين من فرنسيس وألمان وانكليز واسبانيول وطلينان فى هذا الموضوع ، ولا نجد لزوما لهذا الاستقصاء بعد أن قرروه فى الجملة وأجمع عليه مؤرخوهم وأيدت ذلك تواريننا العربية . وانما

Invasion Des Sarrazins En France et De France (١)
en Savoie , en Piémont et dans La Suisse

Pendant les huitième, neuvième et dixième siècles de notre ère .

D'après Les auteurs Chrétiens et Mahométans .

Par M . Reinaud

Membre de L'institut (Académie royale des inscriptions et belles - lettres) , conservateur - adjoint des manuscrits orientaux de la bibliothèque Royale , etc

وهو يعبر عن المسلمين بلفظة « سارازين » التى قيل انها أطلقت على العرب لكونهم غالباً سمر الألوان أشبه بالحنطة السمراء التى يقال لها « سارازين » وقيل بل هى محرفة عن « سرا كنو » التى هى المسلمون بلغة الروم وهذه محرفة عن Scharaka أى شرقى أو « شراقة » أى شرقيين بالجمع . وقد ذكر ابن بطوطة فى رحلته أن ملك القسطنطينية سأل عنه هل هو سرا كنو ؟ أى مسلم

كان غرضنا في هذا الكتاب استقصاء جزئيات هذه الغارات العربية الى قلب أورو
والإحاطة بما يتسنى لنا من تفاصيلها . ولم نجد في هذا الباب كتاباً أوعى من كتاب
المسيورينو المذكور لأنه وضع خاصاً بتاريخ هذه الغارات ولأن واضعه هو من أشد
المحققين في المسائل التاريخية والمطلعين حق الاطلاع على اللغة العربية بحيث يمكن
عند كل رواية أن يقابل ما جاء عنها في الكتب اللاتينية القديمة بما جاء في الكتب
العربية . وإنك لتجده لا يروى رواية ولا خبراً إلا ذكر في الحاشية مأخذ تلك الروا
أو ذلك الخبر مع تعيين المؤلف والمؤلف والجزء والصفحة وأحياناً خزانة الكتب
التي فيها ذلك المؤلف . وقد يورد النصوص بعينها لاسيما إذا كانت من التواريخ التي
وضعت في عصر تلك الفتوحات . وكما أنه يستعمل هذه الدقة في الاستشهاد مر
كتب الإفرنجية فإنه يستعمل الدقة نفسها في الاستشهاد من كتب العرب ومن أج
ذلك كان أكثر اعتمادنا في تاريخ هذه الوقائع على المستشرق المشار إليه ، كما أن
اعتمدنا في تاريخ استيلاء العرب على قسم من شمالي إيطاليا ومن أهالي سويسرة على
أيضاً وعلى مؤلف آخر من أهالي سويسرة الألمانية اسمه فرديناند كيلمر^(١) سنأخذ
بتلخيص تأليفه بعد الانتهاء من تلخيص كتاب المسيورينو وسنقابل جميع رواياتهم :
لدينا من التواريخ العربية الشهيرة
قال المسيورينو في مقدمة كتابه :

جاء وقت كانت فيه فرنسة عرضة لغارات شعب أجنبي كان قد استولى على
أسبانية وبلدان أخرى مجاورة لها ، وجاء بلدين جديد ولسان جديد وأوضاع جديد

(١) Der Einfall der Sarazenen in der Schwabeiz um die mitte des x .
Yahrhends , Von Dr

Ferdinand Keller

Mitteilungen der antiquarischen Gesellschaft in Zürich

غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر تأليف الدكتور فرديناند كيلمر
- من مطبوعات جمعية الآثار القديمة في زوريخ -

فأصبحت المسألة مسألة هل فرنسة وسائر ممالك أوربة التي لما تخضع لهذا الشعب الجديد تقدر أن تحتفظ بأعز ما يحتفظ به الانسان من دين ووطن وأوضاع أم لا ؟ وكان الناس يتساءلون عن كنه هذه الوقائع التي ترتب عليها احتلال ذلك الشعب لقسم من بلادنا ومن أية جهة وامت ، وأية أحوال أحاطت بها ، وهل كان الغيرون كلهم من الغرب أم كانوا من أمم شتى ؟ وما كانت نتائج هذه الغارات المتكررة كثيراً ؟ وهل بقي في البلاد منها آثار أم لا ؟

ولقد جرى البحث أكثر من مرة عن هذه القضية ولكن لم يمن أحد فيما يظهر لنا بأن يضع لهذا الموضوع تأليفاً خاصاً يحيط بجميع الوقائع التي نحن بصددها ويستنبط منها نتائج عامة ^(١) ولا شك في أن تأليفاً وافياً بهذا الغرض ينبغي له الجمع بين الروايات الأوربية المسيحية والروايات العربية الاسلامية ليعرف قول الغالب وقول المغلوب معاً .

ومن مدة طويلة كان الناس في أوربة قد لاحظوا أن روايات مؤرخي أوربة المسيحية عن هذه الوقائع لم تكن كافية ، وإن الزمن الذي قد حصلت فيه هذه الحوادث وأغار فيه العرب على فرنسة هو أشد الأزمنة على هذه البلاد وأحلكها سواداً . ففي سنة ٧١٢ عندما بدأت هذه الحملات على فرنسة كانت هذه البلاد مقسمة بين أفرنج الشمال الذين كانوا يملكون « نوستريا » ^(٢) و « اومسترازيا » ^(٣)

(١) على أن رينو يستدرك هنا بقوله انه سبقه فيه مؤرخان أحدهما صاحب « خلاصة تاريخية لحروب المسلمين في بلاد الغال » والآخر صاحب « التاريخ العام للقرون الوسطى » قال :

Nous devons cependant faire mention du « précis historique des Guerres des Sarrazins dans les Gaules » par M . B . . . N . C . F. Paris 1810; et de " l' histoire générale du moyen - âge ,, Par M . Desmichels, Paris 1831, T . II

(٢) Neustrie بلاد واقعة بين نهر اللوار وبرتانيا الافرنسية وبحر المانش ونهر الموز

(٣) Austrasie في شرق فرنسة قاعدتها متر

و « بورغونيا »^(١) وبين افرنج الجنوب الذين كانوا يملكون « ا كيتانية »^(٢) من نهر اللوار الى جبال الپيرانه ، وبين بقايا القوط الغربيين^(٣) الذين كان بقى في ايليهم قسم من مقاطعة « لانغدوك »^(٤) وقسم من مقاطعة « بروفانس »^(٥) وكانت الفوضى قد وقعت في الحكومة والمجتمع فلذلك لم تأتينا إلا معلومات ضئيلة عن ذلك العهد . ولم تبدأ الأخبار التاريخية تنجلي الا في أيام « بين » ابن « شارل مارتل » وفي أيام شارلمان بن بين . ولكن في ذلك الوقت كان المسلمون قد نكصوا الى الوراء . ثم عاد جو فرنسا فاربء ثانية في زمان أولاد لويس الحليم « Le Débonnaire » وجدد العرب غاراتهم على فرنسا أيام كان النورمنديون من جهة والمجار من جهة أخرى يشنون مثلها ويعيثون في الأرض مفسدين

ولا نقدر أن نقول ان تواريخ العرب عن تلك الحوادث كانت مستوفية الشروط ، فان المؤلفين الذين كتبوا عنها جاءوا بعدها بزمن فلم يعاصروها ، إلا أن يكون ثمة مؤرخون لم تصل إلينا كتبهم . فقد ذكر العرب أن لموسى بن نصير تاريخاً ألفه حفيده ، وان لأحد الشعراء قصيدة في تاريخ طارق بن زياد نظمها بعد عهده بقرنين . ولكن هذه الكتب التي كتبت بعد الحوادث بمدة غير قصيرة لم تكن مستوفية شروط التحقيق . وأكثر الأحيان يروى أصحابها روايات شفهية

(١) Bourgogne مقاطعة ذات شأن في شرق فرنسا قاعدتها ديجون كانت مملكة مستقلة ثم صارت دوقية كبيرة وكانت تجاذب ملك فرنسا الجبل ولم تخضع تماماً للناج الا سنة ١٤٧٧

(٢) Aquitaine مقاطعة من بلاد الغال القديمة تقع على ضفاف الغارون اليوم

(٣) Visigoths القوط الغربيون سنة ٤١٢ مسيحية زحفوا على بلاد الغال واستولوا عليها وسنة ٤١٨ جعلوا طلويزة قاعدة ملكهم

(٤) Languedoc ولاية من جنوبي فرنسا قاعدتها طلويزة أوتولوز

(٥) Provence كانت مملكة مستقلة لها ملوك ثم أكناد . ثم استلحقها الفرنسيين في زمان كارلس الثامن وهي الآن تشتمل على بلاد الالب السفلى ومصاب الرون ومقاطعة القار وفوكلوز

عن أفواه الرواة^(١) وغير خاف أن العرب كانوا في ذلك الدور، دور الحماسة والمجد، لا يفكرون إلا في اعلاء شأن دينهم . فكان لا يهمهم شئ بقدر الشعر والضرب في أبودية الخيال

إذا حكاية العرب لوقائع غارات العرب على فرنسة كانت متأخرة عن زمن حدوثها في القرن التاسع المسيحي، كما أن منها ما لم يتعرض العرب للبحث عنه أصلاً ولقد كان في أيدي العرب وسائل لمعرفة أحوال فرنسة الداخلية وما جاورها، لأنهم عدا احتلالهم مدة مديدة جانباً منها كانت صلاتهم مع هذه البلاد مستمرة، وكانت السفراء تختلف بين الفريقين الفينة بعد الفينة، فقد ذكر المسعودي أنه في نواحي سنة ٩٣٩ مسيحية توجه إلى قرطبة مطران جيرون من كتالونية وكان اسمه « غودمار » Godmar وذلك في أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر، وألف لولده الحكم المشهور بحبه للعلم تاريخاً لبلاد فرنسة من زمن كلوفيس إلى ذلك العهد^(٢) وكانت

(١) يقول رينو في حاشية هذه الجملة مايلي : ولا نقول شيئاً عن تاريخ « فتح العرب لاسبانية مرين » لأبي القاسم طريف بن طارق أحد الذين حضروا الوقائع، فإن هذا التاريخ مقتل وضعه في القرن السادس عشر للمسيح ميكال دولونا Miguel de Luna ترجمان الملك فيليب الثاني (٢) قال رينو في الحاشية على هذه الجملة : « إن اسم غودمار واسم جيرون وجميع هذا البحث قد تناورها الحذف والتبديل في أكثر نسخ مروج الذهب للمسعودي التي في الخزنة الملكية (في باريس) وإنما اعتمدنا على نسخة كانت تخص الميسو شواز » اهـ

قلت : وجدنا في مروج الذهب للمسعودي طبعة مصر التي طبعت بالمطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٢ هجرية سرد هذه الرواية كما يلي : وجدت في كتاب وقع إلى السعاط بمصر سنة ست وثلاثين وثلاثمائة أهداه غومار الأسقف بمدينة زهرة من مدن الافرنجة في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة إلى الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، ولي عهد أبيه عبد الرحمن صاحب الأندلس في هذا الوقت، في عهده : يأمر المؤمنين إن أول ملوك افرنجة « قلووزيه » وكان مجوسياً فتتصر هو وابنه لذريق وابنه دفشرت . ثم ولي بعده ابنه لذريق . ثم ولي بعده قركان بن دفشرت . ثم ولي بعده ابنه تنين . ثم ولي بعده نازلة بن تنين وكانت ولايته ستاً وعشرين سنة . وكان في أيام الحكم صاحب الأندلس . وقد توافق أولاده ووقع الاختلاف بينهم حتى تفانت الافرنجة بسببهم،

كتالونية أيام شارلمان خاضعة لملكة فرنسة وكان مطران جيرون يعترف بسيادة لويس دوتريمير Louis - d'Outremer وعليه نعتقد أن تاريخ فرنسة هذا الذى قال المسعودى أنه عثر على نسخة منه فى مصر تاريخ صحيح . ولكن مع الأسف لم نعلم عن هذا التاريخ شيئاً الا هذا القليل الذى رواه منه المسعودى^(١) ومما كان يشق جداً على العرب كثرة الأسماء الأعجمية من أسماء الرجال والبقاع التى كانت تعرض لهم وكانت مجهولة عندهم . ولم يكن من المألوف عندهم وضع

وصار لذريق بن نازلة صاحب ملكهم فللك ثمانياً وعشرين سنة وستة أشهر . وهو الذى أقبل الى طرطوشة فحاصرها . ثم ولى بعده ابنه نازلة وهو الذى تهادى مع محمد بن عبدالرحمن بن الحكم ابن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان . وكان محمد يخاطب بالإمام . وكانت ولايته تسعاً وثلاثين سنة وستة أشهر . ثم ولى بعده ابنه لذريق ستة أعوام . ثم وثب عليه قائد الافرنجةسمى برشة وملك افرنجة فأقام فى ملكهم ثمانى سنين ، وهو الذى صالح المجوس عن بلده سبع سنين بستمائة رطل ذهب وستمائة رطل فضة يؤديها صاحب الافرنج اليهم . ثم ولى بعده نازلة بن بربرت أربع سنين . ثم ملك بعد نازلة أخوه ومكث إحدى وثلاثين سنة وثلاثمائة أشهر . ثم ولى بعده لذريق بن نازلة وهو ملك افرنجة الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة . واستوت مملكته عشر سنين الى هذا التاريخ على حسب ما نرى اليانا من خبره اه قلت : فى الأسماء تحريف كثير عن الأصل ، فأما « قلووزيه » فهو كلوفيس ، هذا ظاهره . وأما أن له ولداً اسمه « لذريق » فهذا الاسم بدوت شك هو هنا خطأ من النساخ ، إذ أنه لم يكن لكلوفيس أو قلووزيه ولد يقال له لذريق Rodrigue وإنما كان له ولد اسمه « كلودومير » Clodomir ولعل العرب لفظوها « قلزمير » فجاء النساخ للكتاب وقلبوها الى لذريق . وأما « دفشرت » بن كلوفيس فهو تحريف أيضاً وأصله بدون شك « شيلدبرت » Childbert لأنه اسم أحد أولاد كلوفيس . وأما « تين » فهو تحريف أيضاً وأصله « تييري » Thierry اسم أحد أبناء كلوفيس الذى كان له أربعة أولاد ، هؤلاء الثلاثة ، والرابع هو « كلوتير » Clotaire فأما نازلة فنظنه مجرد خطأ من النساخ وربما كان أصل اللفظة « كلوتر » « أو » « كلاتره » ولم يحسنوا قراءتها وقلبوها راءها زايأ فابتعدت جداً عن أصلها . وأما قول المسعودى عن مؤلف هذا الكتاب أنه غومار مطران زهرة من مدن الافرنجة ، فقد تحققنا أن أصل اسمه غودمار وأنه من جيرون ، وأنه كان أسقفاً على « سيريه » Ceret من مدن « روسيون » Roussillon التى هى اليوم من مدن ولاية البيرانية المرفقة من فرسة . فزهرة تحريف عن « سيريه » أو « سره »^(١) غير موجود هذا التاريخ بالفرنسية ولا بالاسبانية

الحركات . ثم كان نساخهم كثيرى السقط فى التنقيط فتبعد اللفظة عن أصلها بعدما يجعلها مجهولة تماماً^(١)

وقد كان مما يفيد فى هذا الباب المسكوكات التى كان يضربها الفاتحون . إلا أن العرب فى إسبانية وفرنسة لم يكونوا الى القرن العاشر يعرفون سوى مسكوكات قرطبة . فأما مسكوكات ما قبل هذا التاريخ فلم يكن فيها شئ سوى آيات قرآنية ولم يكن فيها ذكر ملك ولا أمير

فمن أجل هذا كان من الصعب جداً معرفة أخبار العرب فى الأدوار الأولى من استيلائهم على إسبانية . وأصعب منه معرفة أخبار استيلائهم على ما استولوا عليه من فرنسة

ومن الكتب النفيسة فى هذا الموضوع تاريخ « استيلاء العرب على إسبانية » الذى ظهر بالاسبانيولية فى السنوات الأخيرة لمؤلفه « كوند » Conde الذى كان لديه كتب عربية كثيرة فى مكتبة الاسكوريال وغيرها فاستقى بدون شك من منابع غزيرة إلا أنه لم ينتدح له أن ينقح كتابه كما يجب وربما كان هو نفسه غير ماهر فى التمهيص^(٢) . وهناك تأليف آخر لم يطلع عليه كوند وهو مجموعة رسائل مفيدة فى إيضاح

(١) هذا شأن الفريقين سواء العرب أو الافرنج عند ما يخوض كل فريق فى لغة الفريق الآخر . فليس تحريف « شيلدبرت » الى « دفشرت » إلا من قبيل تحريف ابن رشد الى « افرويس »

(٢) اسم الكتاب Historia de la dominacion de los Arabes en Espana

ذكر رينو أنه ظهر ترجمتان لهذا الكتاب بالافرنسية إحداهما ترجمة مائخة بقلم المسيو أوديفره Audiffret فى كتابه عن تحقيق تواريخ السنين ، والثانية بقلم المسيو « دومارليس » DeMarlés قلت : ونحن عندنا ترجمة دومارليس مع حواشيتها وسنقل فى بعض الأماكن عنها . ولكن كتاب كوند هذا — والاسبانيول يقولون له « كوندى » — موصوف بعدم الضبط وكثرة الخطأ . وأكثر من أنمى عليه بالتخطئة المستشرق دوزى الهولاندى الذى يعده الأوربيون أفضل مؤلف عن الأندلس قرا ودرى . وقال قديره Kodeira المستشرق الاسبانيولى الذى يقال انه من أصل عربى : انه لم يكن أشأم على تاريخ الأندلس من كتاب كوندى هذا

تاريخ اسبانية أيام العرب بقلم « فوستينو بوربون » الذى اطلع على المخطوطات العربية التى فى خزانة الاسكوريال وكان معظم همه تخطيط « تاريخ اسبانية » تأليف « ماسدو » Masdeu

وفى كتاب فوستينو بوربون هذا شواهد عربية محرفة الا أنه عنده بصر بالنقد واثق لتجد فى كلامه على جيوش العرب الفاتحين واختلاف أصولها الذى أدى الى تنازعها تدقيقات لا يعرفها كوند .

اننا نحن لم نكن فى هذا التأليف لنجهل المشكلات التى ستعترضنا فى طريقنا لكننا برغم ذلك وجدنا فى استطاعتنا اضافة معلومات جيدة الى ما تقرر فى هذا الباب الى حد الآن . وفى الغزوات العربية التى لم نجد لها أثر رواية الا فى كتب الاوربيين أمكننا أن نصل الى أبعد مما وصل اليه « موراتورى »^(١) والدون « بوكه »^(٢)

ولقد اتبعنا فى عملنا هذا الطريقة الآتية وهى أن نحصى عن الوقائع شهادات المعاصرين أو الذين كانوا فى العهد أقرب من غيرهم اليها . ومهما قيل عن النقصان الذى فى روايات المؤرخين المسيحيين الذين كانوا فى ذلك العهد فأننا قد وجدنا فيها ما يستحق كثيراً من الاعتبار بحيث اذا تطابقت مع روايات العرب جزمنا بأن الحقيقة هى هناك . وأما ان لم تطابق روايات هؤلاء روايات أولئك فأننا ننقل حينئذ ما قاله كل من الفريقين ونبدى رأينا فى ترجيح الأقرب الى العقل . وأما المنابع التى لم نقدر أن نصل اليها فقد نهنا عليها وأشرنا الى أما كتبها وذلك كبعض وقائع رواها كوندى نقلا عن كتب العرب فقد كان الأحسن أن ننقل تلك النصوص بمينها ولكننا لم نظفر بها

(١) Muratori واسمه لودوفيكو اتونيو مؤرخ آثارى طليانى توفى سنة ١٧٥٠

(٢) Don Bouquet اسمه مارتين : راهب بنديكتينى مؤرخ بحامة مشهور ولد فى (آمين)

Amiens بفرنسة وتوفى سنة ١٧٥٤

وفي آخر كتابنا هذا نذكر الشعوب التي انضمت الى العرب وأوشكت بالاتحاد مع العرب أن تخضع أوربة كلها لشريعة القرآن . فنحن نطلق على الجميع اسم « سارازين » وهي لفظة لم يجزم الى الآن في وجه اشتقاقها ، أو لفظ « المور » أي المغاربة . وذلك لأن العرب جاءوا أولاً الى المغرب ومنه دخلوا الى اسبانية قسموا من أجل هذا مغاربة . وليعلم أنه في أثناء ما كان المسلمون يكتسحون أراضي فرنسة ويحتاحون شمالى ايطالية وبلاد سويسرة كانت منهم عصائب حاكمة في صقلية وجنوبى ايطانية . ولم يكن لغارات هؤلاء صلة بغارات أولئك ولكن كان لها تأثير بعضها في بعض مما لم تفتنا الاشارة اليه

ثم انه في جميع البلاد التي احتلها العرب طويلاً أو قصيراً كانت بقيت لهم آثار وسرت عنهم أخبار ، فهنا كنت ترى قلعة كانوا يعتصمون بها عندما يحتاحون تلك الأرض ، وهناك كانت مخاضة نهر أو قنطرة كانوا يأخذون عندها رسماً على المارين ، وهناك كهف في واد كانوا يضعون فيه الغنائم ، وعلى تلك الجبال أبراج متناوحة كانوا يتبادلون منها الإشارات النارية لأجل توحيد حركاتهم ، وهلم جراً . فالآثار والأخبار التي لا ترتكز على دليل وثيق من ذلك العصر نفسه لم تتعرض لها .

ومثل ذلك فعلنا بالقصص التي قصها الرواة الذين لم يعاصروا تلك الحوادث والتي هي أقرب الى أن تكون من عمل خيالات القصاص المولعين بأخبار الحماسة والمفرمين بأحاديث المجد والرئاسة

ففي القصص التي تروى الرواة عندنا أغلاط كثيرة منها ما وقع فيه بعض مؤرخى ذلك الوقت مثل تلقيبهم المسلمين « السارازين » بلفظة « بايين » Payens أى وثنيين . وذلك ان المسيحيين كان من عادتهم أن يسموا جميع الأمم السالفة للنصرانية « وثنيين » وجميع الأمم التي حاربها الافرنسيس وثنيين . ومن جملة هؤلاء حسوا المسلمين ! ولهذا فقد عزوا الى هؤلاء آثاراً ومباني وهياكل كانت في الحقيقة هي

من عمل غيرهم وليسوا منها في قبيل ولا ديز
وكذلك لما كانت شهرة شارلمان قد غلبت شهرة الجميع فان القصاص نسبوا الى
أيامه حوادث وقعت من قبله وحوادث أخرى وقعت من بعده . فالوقائع التي
جرت في زمان شارل مارتل جعلوها في زمان شارلمان وما زالوا ينسبون الى أيام
شارلمان غزوات جميع الافرنج في بلاد المسلمين الى القرن العاشر بل الى آخر القرن
الحادى عشر أى الزمن الذى استصرخ فيه مسلمو الأندلس يوسف بن تاشفين ملك
المرابطين . فتأمل

ومن هذا النمط تعتمد بعض القصاص والزجالين أن ينحلوا أجساد ممدوحهم
فضل تحرير البلاد وطرد الأعداء . وذلك مثل قصيدة غيليوم دى الانف
الاصلم الذى ينسب اليه الشاعر اجلاء العرب عن تولوز ونيم واورانج وغيرها من
مدن فرنسا

ثم انه كان المجار قد جاءوا من شرقي أوربة وعاثوا في نواحي فرنسا ، فاختلط على
الناس ما عاثه المجار بما عاثه العرب ، بحيث كثيراً ما كان أولئك القصاص يسمون
المجار « سارازين » ويسمون الفاندال « سارازين » ومن قال بذلك الأب
« لوكوانت » P. Lecoq مؤلف التاريخ الاكليريكي في فرنسا والدون
« مايون » Mabillon والأب « باجى » Pagi والدون « فاسيت » Vaissette
والدون « بوكه » Bonquet والحقيقة انه لم يوجد دليل واحد من رواية مرجعها
الى القرن الثامن يدل على كون الفاندال اجتاحت فرنسا في ذلك العصر . وقد يقال
ان هذه الأقاويل وردت في تواريخ القديس « دنيس » Saint - Denis الشهيرة
التي هي الحجة الكبرى عند آبائنا . ولكن تواريخ القديس كتبت في أواسط القرن
الثانى عشر وقد حشر فيها كاتبوها كل الأساطير التي كانت تدور في ذلك الوقت .
ولم يزل التاريخ لم يحص ولم ينفصل عن الاقاصيص الى القرن السابع عشر

ولنعد الى موضوع كتابنا هذا فنقول: ليست المسئلة مسئلة اجتياح بعض مقاطعات محدودة بل قد بقى جانب كبير من فرنسة ميداناً لجيوش العرب مدة طويلة . ثم تجاوزوا منها الى « سافواى » و « ييمونت » و « سويسرة » واحتلوا أمنع الحصون من قلب أوربة، وذلك من خليج « سان ترويس » الى بحيرة « كونستانزة » ومن نهر الرن وجبل « جورا » الى سهل جبل « فرات » و « لومبارديه » ومما لا جدال فيه أن تذكر الغزوات العربية فى هذه الديار لم يكن بدون تأثير فى الحملات الصليبية وفى هذه الحركة العامة التى اندرأت بها أوربة على آسية وافريقية ووضعت أصحاب الأنجيل فى وجه أصحاب القرآن مدة قرون مستطيلة

لقد فسحنا بهذا الكتاب مجالاً للباحثين فى هذا الموضوع بحيث يمكن من يأتى بعدنا أن يأتوا بمعلومات جديدة عنه . ولما كانت الشقة بعيدة بين زمن هذه الوقائع والزمان الحاضر فقد بقيت فى كتابنا مواضع كثيرة مفتقرة الى الجلاء . ومع هذا فإن كنا قد قدرنا أن نأتى بعض الشعاع على هذا القسم الذى هو أغمض قسم من تاريخ فرنسة فلا يكون ذهب عناؤنا سدى

ولقد قسمنا كتابنا هذا الى أربعة أقسام : الأول ما يتعلق بحملات العرب الزاحفين من الأندلس مخترقين جبال البيرانه ^(١) الى أن طردهم « بين » القصير من « ناربون » وكل « اللاندوق » سنة ٧٥٩ مسيحية . الثانى ما يتعلق بغارات العرب برآ وبحراً على « پروفانس » فى نواحى ٨٨٩ . الثالث ذكر توغل المسلمين من پروفانس الى « دوفينى » و « سافواى » و « ييمونت » وسويسرة . الرابع شكل هذه الغزوات والنتائج التى ترتبت عليها .

انتهى ملخصاً كلام المستشرق الافرنسى رينو فى مقدمة كتابه ثم شرع رينو فى سرد الوقائع فقال تحت عنوان « القسم الأول فى حملات

(١) العرب يقولون جبال البرانس

العرب الأولى على فرنسا الى عهد اخراجهم من أربونة واللائغدوق سنة ٧٥٩ مسيحية :
لما وصف أحد مؤرخي العرب كيفية فتح أبناء ملته لاسبانية روى عن محمد (ص)
الكلمات الآتية : « زُوِيَتْ لِي مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي
مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا » (١)

وقد كاد يكون هذا هو الواقع . وجاء زمن ظن الناس فيه أن جميع الربع العاصم
سيعنولاية النبي . فانه مامضت سنوات قلائل حتى ضرب الاسلام بحرانه على العراق
وفارس والشام ومصر وافريقية الى سيف الاوقيانوس الاطلنتيكي . ثم من افريقية
اغار العرب على اسبانية وما زالوا يجوسون خلال البلاد الى أن بلغوا فرنسا وصارت
جميع قارة أوربة تحت خطر استيلائهم . ثم من الجهة الاخرى تجاوزوا سيجحون
وجيحون وما زالوا يفتحون البلدان حتى ظن أنه لن يقف في وجههم شيء إلا ان

(١) ذكر رينو في الحاشية أن هذا الحديث ورد في تاريخ اسبانية للمقرى وقال ان منه مخطوطاً
في الخزانة الملكية وانه عبارة عن مجموع في عدة أجزاء قد ألفه صاحبه في أوائل القرن السابع
عشر ونقل عن كتب لم تصل الينا . وقد ظهر أن المؤرخ كوندى الأسبانيولى لم يطالع على هذا
الكتاب . اهـ

قلت : هذا الكتاب هو « فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين
ابن الخطيب » للعلامة احمد بن محمد بن احمد المقرئ المغربي التلمساني المالكي الأشعري رحمه الله .
وهو من أشهر كتب الأدب والتاريخ في العربية . ألفه صاحبه في سنة ١٠٣٧ هـ ، وذلك في
الشام حيث كان قد ألقى عصا التسيار بعد أن حج البيت الحرام وزار المسجد الأقصى . وقد ذكر
في مقدمة الكتاب أن له بالشام تعاقباً من وجوه عديدة : أولها أن الداعي لتأليفه أهل الشام . ثانيها
ان الفاتحين للاندلس هم أهل الشام . ثالثها ان غالب أهل الأندلس هم من عرب الشام الذين اتخذوا
بالاندلس وطناً مستأنفاً . رابعها ان غرناطة نزل بها أهل دمشق وسبواها باسم الشبهها بها في القصر
والنهر والدوح والزهرة الخ

أما حديث « زُوِيَتْ لِي مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي
مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا » فقد رواه مسلم وأحمد والنسائي وهو مروي عن أبي الربيع العتكي وقتيبة
ابن سعيد عن حماد بن زيد (واللفظ لقتيبة) : حدثنا حماد عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي أسماء

كان من الحدود الطبيعية التي للكرة الأرضية
وكان مركز هذه السلطنة التي لانهاية لها هو في سورية بمدينة دمشق القديمة
وكانت الرئاسة الروحية والدنيوية في الخلفاء بني أمية . وكان الخليفة يومئذ هو
الوليد^(١)

وكان العرب قد وجدوا في افريقية أمة تسكن جبال الاطلس اسمها البربر
اشتهرت بصعوبة المراس وبحب الحرية والاستقلال وقاتلت القرطاجيين والرومانين من
دونها . وكان بعض هؤلاء البربر يهوداً وبعضهم نصارى وبعضهم وثنيين . وكان هؤلاء البربر
لسن خاص بهم . ومنهم من كان يتكلم بلغة تقرب من العربي والعبري والفينيقي^(٢)
فسواء كان هؤلاء البربر بقايا شعوب جاءت من أرض كنعان وفينيقية^(٣) أو كانوا

عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ
مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلَغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا وَأُعْطِيتُ الْكَزْبَيْنِ
الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يَهْلِكَهَا بَسَنَةٌ بَعَامَةٌ (وعلى رواية
أخرى : بسنة عامّة) وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ
وَإِنَّ رَبِّي قَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ وَإِنِّي أُعْطِيتُكَ لِأُمَّتِكَ
أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بَسَنَةً بَعَامَةً وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ
بَيْضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا (أو قال : مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا) حَتَّى
يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا » اهـ

(١) الوليد بن عبد الملك بن مروان

(٢) استند رينو في ذلك على الجريدة الآسيوية الجديدة نقلا عن مقدمة ابن خلدون والأصح أن
يكون ابن خلدون تكلم عن ذلك في تاريخه الخاص بالبربر وهو أحسن تاريخ لهذه الأمة . وقد
ترجم الى الأفرنسية بقلم البارون « دوسلان » De Slane وأعيد طبعه سنة ١٩٢٧ تحت
إشراف « بول كازانوف » من أساتيد مدرسة فرنسة Collège de France وهو جزآن
(٣) استشهد رينو على هذه الرواية بكلام بروكوب Procope في تاريخ حروب الفندال

قد رحلوا من اليمن فرارا من وجه الاحابيش الذين كانوا قد استولوا على بلاد اليمن^(١) فهذا التشابه في اللغة كان عاملا كبيرا في استقرار دولة العرب في افريقية واعان البربر العرب في فتوحاتهم ومغازيهم . وأضف الى ذلك كون العرب والبربر متشابهين أيضا في البداوة وسكنى الودى وشغل العيش وطلب النجعة وحب القتال وشن الغارات

خبر موسى بن نصير وطارق بن زياد

فما رسخت أقدام العرب في افريقية حتى فكروا في عبور بحر الزقاق الفاصل بين افريقية واوربة . وكان ذلك سنة ٧١٠م وأمير افريقية من قبل الخليفة هو موسى ابن نصير من أهل الحجاز، ولد في زمان عمر بن الخطاب ورضع مع اللبن الغرام بالغزو حبا في نشر عقيدة التوحيد^(٢) . وكان عمره يوم قام بهذه الغزوات ثمانين سنة . ولكن كانت فيه همه الشبان تتوقد نارها لم يفتقر منها شيء . وكانت اسبانيا تحت

وتاريخ لوبو Lebeau الفرنسى الذى ألف تاريخ دولة يزنطية Histoire du Bas - empire (١) استشهد رينو بكلام ابن خلدون وتاريخ أهالى افريقية الشمالية الذى وضعته لجنة من أكاديمية الآثار الكتابية والآداب بفرنسة ونشر سنة ١٨٣٥ وبغير ذلك

(٢) ولد موسى بن نصير اللخمي بالولاء المسكنى بأبى عبدالرحمن في سنة ١٩ للهجرة في خلافة عمر رضى الله عنه . قال ابن خلدون انه كان عاقلا كريما شجاعا نقيما وكان من التابعين روى عن تميم الدارى . وكانت ولاية موسى على افريقية سنة ٨٩ بأسر الخليفة الوليد بن عبدالملك وهو الذى أداخ البربر بعد حروب شديدة، وبعد أن دوح المغرب كله الى السوس الأقصى استعمل مولاه طارق بن زياد البربرى على طنجة وترك عنده ١٩ ألف فارس من البربر بالعدد الكاملة وكانوا أسلموا وحسن اسلامهم وترك عندهم بعض العرب لتعليم البربر القرآن وفرائض الاسلام ورجع الى افريقية أى بلاد تونس اليوم ، وقد أطاعته كل بلاد المغرب ، وعند ذلك أرسل الى طارق بنزول الأندلس . وسياق خبر موسى وطارق وغزواتها مفصلا في باطن هذا الجزء ثم في الأجزاء المتعلقة بفتح العرب لاسبانياه وكانت وفاة موسى سنة ٩٨ بوادى القرى من الحجاز وعمره ٧٩ سنة فالصحيح أنه لما فتح الأندلس كان ابن ٧٣ سنة

حكم القوط وكان الأمير عليها لذريق^(١) . وكان يتبعها من أرض فرنسة مقاطعة «روسيون»^(٢) وقسم من «اللانغدوق»^(٣) من (بروفنس)^(٤) وكانت في اسبانية حواضر حافلة بالمراتب زاهرة، إلا أن روح الانتقاض كان كامناً في النفوس، وفساد الاخلاق كان قد تغلغل في جسم الأمة فلم يكن عجباً أن تسقط مملكة كهذه ولو عظيمة في ظاهرها بيد عدد قليل من المتدينين الأحامس الذين يسوقهم الى الحرب حب الفناء، فضلاً عما يمتقدونه من انهم مرسلون من الله لهداية البشر

فارتب موسى التجربة الاولى يعض برابر أجازهم الى طريفة^(٥) فعاثوا ونهبوا ولم يصادفوا مقاومة فاشتد بذلك عزم موسى . وفي السنة التالية (٧١١) جرد تجريدة جديدة اثني عشر ألف مقاتل كان أكثرهم من البربر عقد عليهم لطارق بن زياد ، فهزم طارف بهذا الجيش الصغير جيش القوط كله ، واحتز رأس لذريق وبعث

(١) Rodrigue روبرتي والعرب يقول لذريق آخر ملوك القوط باسبانية كان أبوه دوق قرطبة بعضت عنه غبطة ملك البلاد وسمل عينيه نثار لذريق على غبطة وقاتله وهزمه واستوى على عرش اسبانية مكانه . فانفق أولاد غبطة مع السكونت يايان والى سبعة واستجدوا العرب وأجاز طارق بن زياد الى الأندلس وهزم لذريق وجوعه بالعرب من شريش كما سيأتي الكلام عليه في الأجزاء التالية . وقيل لذريق في المعركة وأخذ العرب رأسه . وقيل بل غاب ولم يدر أين وقع ونا وجد السلون مرسه الأندلس وهذه رواية « أخبار مجموعة »

(٢) Roussillon هي المقاطعة المسماة بالبيراية الشرقية استولت عليها فرنسة سنة ١٦٥٩ قاعدتها (بريغان) Perpignan

(٣) Languedoc هي المقاطعة الواقعة الى الشمال من روسيون وقاعدتها تولوز وكان استيلاء فرنسة عليها سنة ١٢٧١

(٤) Provence هي مقاطعة عظيمة في جنوبي فرنسة تضم جبال الالب السفلى ومصاب نهر الرون وبلاد القار والموكاتور وقد تقدم التعريف بها

(٥) Turis والعرب يقولون طريف مرسى في جنوبي الأندلس بازاء جبل طارق الى الغرب ، سمى كذلك باسم أبي زرع طريف بن مالك النخعي من جماعة موسى بن نصير كما سيأتي الكلام عليه في الجزء التالي

به الى الخليفة ^(١) في دمشق . وفي أقل من سنة تم لطارق فتح قرطبة وماتقة وطليلة . وقد روى أحد مؤرخي العرب أنه لأجل أن يلقى الرعب في القلوب أمر مرة بقتل بعض الأسرى الذين وقعوا في يده وجعل من لحومهم شواء أضغم منه عسكره . وطارق بن زياد ^(٢) هو الذي سمي باسمه هذا الصخر المسمى بجبل طارق .

(١) هذا على إحدى الروايات وقيل إن لذريق لم يوجد بعد المعركة لاجياً ولا ميتاً .
(٢) ذكر ابن عذارى المراكشي صاحب « البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب » نسب طارق بن زياد فقال : هو طارق بن زياد بن عبد الله بن ولفو بن ورغوم بن بزغاس بن ولها من بن يطومت بن نزاو ، فهو نفزي ، ذكر أنه من سبي البربر وكان مولى موسى بن نصير ، وقال : في سنة ٩٢ من الهجرة خرج طارق الى الأندلس وافتتحها بمن كان معه من العرب والبربر ورهائنهم الذين ترك موسى عنده وكان قد أخذهم حسان (أي حسان بن النعمان أمير إفريقية لعهد عبد الملك بن مروان) من المغرب الأوسط قبله . وكانت ولاية طارق على طنجة والمغرب الأقصى في سنة ٨٥ وفي هذا التاريخ تم اسلام أهل المغرب الأقصى وحولوا المساجد التي كان فيها المشركون الى القبلة وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات ، اه وسنذكر عن طارق ما هو أوسع من هذا في الأجزاء الآتية من هذا الكتاب . وأما ان طارقاً أطعم عسكره من لحم أسرى العدو فقد ذكر رينو في حاشية كتابه أن راوى هذا الخبر هو ابن القوطية في كتابه « فتح المسلمين للأندلس » قال رينو : وقد عاش ابن القوطية في النصف الثاني من القرن العاشر للمسيح . وقيل له ابن القوطية لانه من ذراري ملوك القوط باسبانية اه

قلت : قيل له ابن القوطية نسبة إلى جدته ابنة « وبة » ابن « غيطشة » ملك اسبانية الذي انتزع لذريق منه الملك وانضم بسبب ذلك أولاد غيطشة الى العرب . هذه رواية ابن خلكان قال : وكانت القوطية المذكورة وفدت على هشام بن عبد الملك متظلمة من عمها أرتباس ، فتزوجها في الشام عيسى بن مزاحم من موالى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وسافر معها الى الأندلس ، وجاءت القوطية بكتاب من الخليفة الى عامله على الأندلس فكف عنها عنها وأنصفها مما كان لها قبله ورعى حرمتها وطالت حياتها الى أيام الأمير عبد الرحمن الداخل فكانت تدخل عليه وتقضى حاجتها وغلب اسمها على ذريتها وعرفوا بها الى اليوم . ذكر ذلك في كتاب الاحتفال في أعلام الرجال تأليف أبي عمر أحمد بن محمد بن عفيف . انتهى ملخصاً . وابن القوطية المؤرخ هو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز ابن ابراهيم بن عيسى بن مزاحم الأندلسي الأشبيلي الاصل القرطبي المولد والدار

فالمسلمون المؤمنون كانوا يرون هذا الجهاد مما يزيد سواد المسلمين ويضمن لهم الجنة ،
والمسلمون الذين لم يكونوا يفكرون في أمر الآخرة قد رأوا في الأندلس قطراً خصباً
فياضاً بالخيرات فيه كل ما تشتهي الأنفس وتلد الأعين . فاجتمعت أذاً في هذا الفتح
مقاصد الدنيا والأخرى وانتظم فيه الاحتساب مع الاكتساب . ومما لا نزاع فيه أنه
قد كان من أهم أسباب فوز طارق في الأندلس عضد اليهود الذين كانوا كثيرين في
اسبانية وكان المسيحيون يغلظون في معاملتهم ويمدون عليهم أنفاسهم فلما أقبل
العرب وجدوا فيهم إخواناً يأخذون بثأرهم^(١) وينفسون من خناقهم

أما في نفع الطيب فيقول انها سارة بنت « المد » كبير أولاد غيطشة ، بسطعها ارطاباش يده
على ضياعها فأنشأت سارة مركباً حصيناً في اشبيلية وركبت فيه مع أخويها الصغيرين تريد الشام
حق نزلت بعسقلان من ساحلها ، ثم قصدت باب الحليفة هشام بدمشق ، فأثبت خبرها وشكت
علامتها من عمها واحتجبت بالعهد المنعقد لابنها واخوته على الحليفة الوليد ، فأوصلها هشام الى نفسه
وأعجبه صورتها وحزمها ، وكتب الى حنظلة بن صدوان عامله على إفريقية بانصافها من عمها
ارطاباش ، فأفند لها السكناج بذلك الى عامله بالأندلس أبي الحظار ابن عمه فتم لها ذلك وأنكحها
الحليفة عيسى بن مزاحم فابن يسا في الشام . ثم قدم بها الى الأندلس وولده منها ولداه ابراهيم
واسحاق فأدركا الشرف المؤثر والرئاسة باشبيلية . انتهى ملخصاً

(١) ذكر دوزي R. Dozy المستعرق الهولاندي الشهير في الجزء الثاني من تاريخه لدولة
المسلمين في اسبانية غللا كثيرة لمرعة فتح العرب لتلك البلاد سنذكرها في مكانها ، الا اذا نجعل
مهما همنا بقضية اليهود التي قد أشار اليها رينو في كتابه . فقال دوزي : ان رجال الدين
الكاثوليك كانوا يرهقون اليهود عسراً وبالعنف في إبدائهم . قال المؤرخ الافرنسي المشهور
ميشله Michellet كان الناس في القرون الوسطى كلما سألوا : لا ذا هذا العالم الذي يلغى أن يكون
المنزل الاعلى من الفراديس في ظل الكنيسة نراه انقلب جميعاً ؟ أجابهم الكنيسة : « لان هذا
من غضب الله الذي يرى أن قلة ربنا لا يزالون وافرين »

فبدأ اضطهاد الكنيسة لليهود سنة ٦١٦ في أيام الملك « سيسبوت » Sisebut وقرر اعطاء
اليهود مهلة سنة لينتصروا فان لم ينتصروا في خلال تلك السنة نفوا الى خارج اسبانية وضبطت
أبنائهم وجلد كل منهم مائة جلدة . فتصبر منهم تسعون ألفاً من مجرد الرعب ، ولكن المنتصرين
كما لا يخفى لبوا يخننوا أولادهم سرا ويدنون بدين موسى . فقرر بجمع الاساقفة الرابع المنعقد

فلما بلغ موسى بن نصير ما فتحه الله على يد طارق هاج أشد هياج للأخذ بنصيبه من هذا الفتح وأقبل بجيش من العرب والبربر ^(١) ومعه واحد من أصحاب محمد عمره مائة سنة وكثير من أبناء الصحابة ^(٢) . وقد انتحى موسى طريقاً

في طليطلة تركهم أخيراً وشأنهم بشرط أن يسلموا أطفالهم لاجل تنقيتهم في النصرانية . ثم في الحجم السادس في طليطلة قرر الاساقفة أنه لا يؤذن بمبايعة ملك على اسبانية الا على شرط انفاذ قرارات المجامع الاسقفية بحق اليهود . ورغم هذا كله بقي يهود في تلك البلاد كثيرون ، ولكن استمر المسيحيون يعذبونهم نحو من ثمانين سنة الى أن فرغت جعبة اضطبارهم فأججوا الثورة بمظاهرة يهود البربر في افريقية ، ووعدهم هؤلاء بالاجازة الى الاندلس لاجل نجبتهم . وكان ذلك في زمن الملك « اجيكا » Egica الذي بلغه هذا الخبر فجمع الاساقفة وبعد أن استوثقوا من صحة الخبر قرروا استعباد اليهود بأجمعهم وضبط جميع أملاكهم . ومن الغريب أنه قضى على بعض اليهود بأن يكونوا عبيداً لمن كانوا عبيداً ، وتقرر أن يؤخذ أولادهم من بعد بلوغ سن السابعة وينشأوا في النصرانية ولم يكن يؤذن بزواج اليهودي من اليهودية ، بل كان لا بد لليهودي بعد أن صار عبداً من أن يتزوج بأمة مسيحية . وكان لا بد لليهودية من أن تتزوج بعبد مسيحي الخ فلما جاء المسلمون وفتحوا اسبانية كان اليهود هناك في أشد العذاب ، فحررهم المسلمون من الرق ، وتركوا لهم الحرية التامة بأن يمارسوا شعائر دينهم فتنشقوا نسيم الفرج ، فلذلك كانوا هم والارقاء وجميع الضعفاء من أعظم أنصار الاسلام . انتهى ملخصاً

(١) جاء في فتح الطيب نقلاً عن الرازي أن موسى خرج من افريقية الى الاندلس في رجب سنة ٩٣ واستخلف على افريقية أسن ولده عبد الله بن موسى وكان موسى في عشرة آلاف

(٢) جاء في الفتح : زعم ابن حبيب أنه دخل الاندلس رجل واحد من أصاغر الصحابة اسمه المنيفر . قال : ودخلها من التابعين (الذين صحبوا من صحب النبي صلى الله عليه وسلم) ثلاثة : الأمير موسى بن نصير ، وعلى بن رباح اللخمي ، وحيرة بن رجاء التميمي . وقيل ان ثالثهم إنما هو حنش الصنعاني ، صنعاء الشام ، (قرية كانت على باب دمشق دون المزة) وانهم قفلوا عنها بقول موسى . وأهل سرقسطة يزعمون أن حنشا مات عندهم ولم يقفل للمشرق وقبره لديهم مشهور يتبركون به ولا يختلفون فيه اه . وقيل ان التابعين الذين دخلوا الاندلس أربعة بأبي عبد الرحمن الجليلى الانصاري وخمسهم بعضهم بجيان أبي جبلة مولى نبي عبد الدار كان في ديوان مصر فأرسله عمر بن عبد العزيز الى افريقية في جماعة من الفقهاء ليفقهوا أهلها . وكان روى

غير الطريق التي سلكها مولاه طارق وفتح بلداناً أخرى مثل ماردة^(١) وسرقسطة^(٢) وكان أكثر جنده من الفرسان وكانت تتبع كل كوكبة من فرسانه طائفة

عن عمرو بن العاص وابن عباس وابن عمر وغزا مع موسى بن نصير وانتهى معه الحصن من حصون العدو يقال له قرقشونة (هي حصن Carassonne في جنوبي فرنسا) اهـ . وقال ابن الأبار في التكملة : حبة بن رجاء النخعي ، ذكر عبد الملك بن حبيب أنه دخل الأندلس مع موسى بن نصير وأصحابه وأنه من جملة الناجين . قاله ابن بشكوال . وقال ياقوت في معجمه عند ذكر صنعاء الشام : وحش بن عبد الله السعدي - صنعاء الشام - مع فضالة بن عبيد ، روى عنه خالد بن معدان والحلاج أبو كبير وعامر بن يحيى السامري . قال ابن الفرضي عداؤه في المصريين ، وهو ناجي كبير نفة ، ودخل الأندلس . قال : وهو وحش بن عبد الله بن عمرو بن حنظلة بن فهد بن غسان بن ثعلبة بن عبد الله بن نازم السبأى وهو السعدي يكنى أبا رشيد (يفتح الباء) كان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالسكوفة ، وقدم مصر بعد قتل علي ، وغزا المغرب مع ربيعة ابن ثابت والأندلس مع موسى بن نصير (إلى أن يقول) ومات بآفريقية وولده بمصر . وقيل مات بمصر . وقيل بسرقسطة ، وقبره بها معروف ، كل ذلك عن ابن الفرضي . اهـ . وأما الميذر الصبحي فقد جاء في الفتح أن ابن حبيب لم ينسبه وإنما ذكره ابن عبد البر (الأندلسي) في الصحابة ، وقال ابن الميذر الأفرنجي . وروى عنه أبو عبد الرحمن الجليل . قال : حدثنا الميذر الأفرنجي ، وكان سكن أرمينية ، وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أنه سمعه صلى الله عليه وسلم يقول : « من قال رزيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً فأنا الزعيم له فلا تخذن بعه فلا تخافه الجاه » رواه ابن عبد البر رحمه الله

(١) Mirida من ولاية طائوس والى الشرق منها وهي بلدة من بلاد أغسطس الروماني استولى عليها العرب نحواً من ٥١٥ هـ . وقد أتى ذكرها في الجزء الثاني من الحلة

(٢) أصل اسمها عند الأبريين « سالدويه » وقد سميت سرقسطة . في زمان الرومانين باسم الاله اذون أغسطس وهي Giant-Augustin أي سيجار أو عصفه وقد حرمها العرب إلى سرقسطة وكان يقال لها القبر الأعلى لأنها قاعدة الحدود بين العرب والأدنة ، وكان العرب استولوا عليها ١٧٦ هـ وحصنها الأبريج (الأبرسيون) في زمان أمراء كتاموس فحجزوا عنها ، ولما استولى العرب على أسانها كانت من القواعد السكار ، وحصنها شارلدين في أيام عبد الرحمن الداخل وعجز عنها واسترجعها الأسابول سنة ١١١٨ كما سبأ في السطام عليه ، بعد حصار اسمر تسمه أشهر وسرب استرجع خمس سنوات . دخل إليها عمر بن عبد العزيز سنة ١٩٣٠ في أواخر (م - ٣)

من حملة الارزاق بالبغال . وان مؤرخى العرب متفقون على أن موسى بن نصير وصل بغزواته الى فرنسة ، وأنه في « ناربون »^(١) وجد في احدى الكنائس سبعة تماثيل فضية منقوشة ، وكذلك في قرقشونة عرضت لمطامعه في كنيسة « سانت مارى » سبعة أعمدة كبار هائلة من الفضة^(٢)

وكان العرب يطلقون على فرنسة اسم « الأرض الكبيرة » ويعنون بها جميع الأرض الواقعة بين جبال اليرانه (التى يقول لها العرب البرانس) وجبال الألب والاقيانوس ونهر الباي ومملكة الروم . وهذه البلاد تنطبق في الحقيقة على فرنسة

يونيو وشاهد أهم آثارها ومن جلتها قصر الجعفرية المنسوب الى أبى جعفر أحمد ، بناه في أواسط القرن الحادى عشر للمسيح ، ولا يزال الجامع الذى فيه محفوظاً . ومما شاهدناه فيها كنيسة « السيو » التى بنيت على انقاض الجامع الاعظم . وبقي الاسبانول يشتغلون بها من سنة ١١١٩ الى سنة ١٥٢٠ فجاءت من أفخم كنائس أوربة . ولها باب من الجهة الشمالية الشرقية لا تزال عليه الصنعة العربية والزليج الذى تمتاز به قصور العرب . وفي هذه الكنيسة قبة بالنحاس الاصفر من صنع المهندس العربى الذى كان يقال له الرامى ، بنيت سنة ١٤٩٨ وفيها من الزخرف شئ كثير يحار له العقل . وفي سرقسطة كنائس كثيرة بديعة غير هذه وقصور وجسر على نهر « ايره » يصل بين البلدة والربض Rabal ويلفظون الربض « ربال » وهو لفظ غريب ، ولكن له أصل فى العرب ، وقد سمعت أناساً من تقيف ومن هذيل يلقبون الضاد لأمأ ، وذكرت ذلك فى رحلتى الحجازية المسماة بالارتسامات اللطاف . هذا وسكان سرقسطة اليوم ١١٠ آلاف نسمة

(١) Narbonne والعرب يقولون لها أربونة كانت قاعدة ثغورهم الشمالية مدة نصف قرن ، وهى مدينة على مسافة قريبة من البحر يمر بها جدول من نهر الاود ، وقد دخلتها سنة ١٩٣٠ فى أوائل سبتمبر وأنا قافل من الاندلس ، ورأيتها تشبه كثيراً المدن العربية فى ضيق أزقتها وازدحام بيوتها ، ورأيت فيها الاشجار التى تكثر فى البلاد العربية كالتيين والصبير والرمان وما أشبه ذلك . وفيها زقاق منسوب الى السمح Zama وهو السمح بن مالك الخولاني . وعدد سكانها الآن لا يزيد على ٣٠ ألف نسمة

(٢) فى الصفحة ١٣٠ من نفع الطيب الجزء الاول الطبعة الازهرية يقول : قال بعضهم ان بين قرقشونة وبرشلونة مسافة خمسة وعشرين يوماً وفيها الكنيسة المعظمة عند الفرنج المسماة « سنت مريه » وقد حكى ابن حيان أن فيها سبع سوار من فضة خالصة لم ير الراءوث مثلها ، لا يحيط الانسان بذراعيه على واحد منها مع طول مقرط

في زمن شارل مارتل^(١) وابنه بين^(٢) ولا سيما في زمان شارلمان^(٣) . وكانت الأمم التي في هذه المملكة تتكلم بعدة لغات كما يقول مؤرخو العرب

(١) Charles Martel أى كارل المطرقة ، والعرب يقول « قارله » ابن « باين دريستال » ولد سنة ٦٨٩ واتهمه أبوه بقتل أخيه « غريوالد » فحبسه في « كولوني » ولما مات أبوه سنة ٧١٤ صار هو حاجب الملك مكان أبيه بمساعدة الاوسترازيين وقهر النوستريين في عدة وقائع واستبد بأمر الملك شيلريك الثاني ، ثم بأمر « تييرى » الرابع ، ولم يبق لأحد منها من الملك سوى الانم، وحارب الصكسون والبافارين وتغلب عليهم ، وهزم أولاد دوق اكيثانية، الا أن هذا لما رأى العرب فتحوا بلاده استصرخ قارله ، وعند الشدائد تذهب الأحقاد ، فحشد لقتال العرب عصائب الاوسترازيين والألمان، وتغلب على الأمير عبد الرحمن النافقي في وقعة بواتيه سنة ٧٣٢ ومن بعدها لقب بالمطرقة أو الصاقور . وأجمع الأوروبيون على أن هذه الواقعة هي التي أهذت أوربة والنصرانية من الاسلام . ثم طرد العرب من « نيم » وغيرها ، لكنه لم يقدر على طردهم من أربونة أو ناربون . وكانت وفاته سنة ٧٤١ وقد ترك من الولد « بين القصير » و « كرلومان » و « غرينون » و « رمى » و « برنار » و « جيروم » فاقتسم المملكة الأولان فيما بينهما وصار « رمى » مطراناً على مدينة روان Rouen

(٢) Pepin le Bref بين القصير ابن قارله، حارب الصكسون والبافارين وأمير اكيثانية . وفي سنة ٧٥١ بويع ملكاً على الفرنج Les Trancs وهو أول الدولة الكارلوفنجية Carlovingienne وكانت مبايعته بعهد الكنيسة له. وترك من الولد شارلمان Charlemagne و كارلومان Carloman ومات سنة ٧٦٨ وهو الذى استرد أربونة وقرقشونة من أيدي العرب (٣) هو كبير ولد بين القصير، كانت ولادته في نوستريا سنة ٧٤٢ وتولى الملك هو وأخوه كارلومان الى أن مات هذا سنة ٧٧١ فانفرد شارلمان بالملك وحارب الاكيثانيين واللومباردين وقهرهم وأخذ ملك لومباردية أسيراً ، وحارب الصكسونيين والبافارين والتورنجيين والسلاف والآفارين والداغمركين، ودوخهم جميعاً . ولكن أشد حروبه كانت مع الصكسونيين اذ جرد عليهم ٣٣ تجريدة ولم يبرح حتى أدخلهم في الطاعة وفي النصرانية ممأ ، وكانوا من أشد أعدائها فبث فيهم الدعاة والمبشرين حتى تنصروا قاطبة . وبلغت جيوشه شرقى أوربة ، وانتزع من يد روم القسطنطينية سواحل دالماسيا (اليوم في يوغوسلافيا) وبلدان الدانوب ، وهكذا دخل في حوزته كل ما كان يسمى بأوربة المسيحية . وتوجه البابا لاون الثالث امبراطوراً على الغرب في سنة ٨٠٠ وجذبه السلطنة الرومانية . وكان عدا غرامه بالفتوحات مجتهداً في تنظيم ادارة رعيته وتوزيع العدالة بينها ، وفي تهذيب الأهالى وتعليمهم وايداب الثوار منهم ، فهو أعظم ملوك الغرب في القرون الوسطى،

وقد كان أشد ما بهت له المسيحيون: أوائتد أنهم كانوا يرون أعداءهم هؤلاء في كل مكان وفي وقت واحد . وكانت طريقتهم في الفتح أنه إذا خضع لهم بلد بدون قتال لم يعتدوا على سكانه في مالهم ولا في دينهم، وإنما كانوا يحولون جانباً من الكنائس الى جوامع ويغنمون ما فيها من النفائس، ويضعون أيديهم على الأراضي التي نزع أهلها وعلى الخيل والأعتدة التي كانت ضرورية لهم في تلك الغزوات المتواصلة . وكانت الجزية التي يضربونها على الأهالي متفاوتة بحسب الاحوال وربما أخذوا من الأهالي رهائن ليستوثقوا منهم . فأما البلاد التي لم تخضع لهم الا بالسيف فقد كانت عرضة لجميع المظالم التي تصحب الفتوحات وكان يضرب عليها ضعف جزية البلاد الخاضعة بلا قتال . وكانوا يتركون فيها حامية لحفظها وربما جعلوا في هذه الحامية بعض اليهود الذين كانت عداوتهم للمسيحيين أضمن سبب للثقة بهم

وقد ذكر مؤرخو العرب في عرض السكلام على الفتوحات العربية في فرنسا أنه قد كان مقصد موسى بن نصير رحمه الله المعاد الى دمشق حضرة الخلافة عن طريق المانيا ماراً بالقسطنطينية وبآسية الصغرى ، بحيث يصبح البحر المتوسط كله عبارة عن بحر متوسط للمملكة الاسلامية ، يخدم مواسلات بعضها مع بعض . أما مؤرخو المسيحيين فلم يذكروا شيئاً عن دخول موسى الى أرض فرنسا . ولعل زحفة

خطب وده نيقوفور ملك الروم وهارون الرشيد خليفة العرب وأدارسة المغرب وغيرهم من الملوك المعاصرين

وقاتل شارلمان العرب قتالا مستمراً، براً وبحراً، وأجلاهم عن جزيرتي كورسيكا وسردينيا ، واسترجع منهم بلاد كتالونية وأراغون الى سرقسطة . وذلك بمساعدة اسبانيول آستوريا وإبارة . ولكنه لم يتمكن من فتح سرقسطة . وبينما هو قافل عنها دهمه الباشكنس في « رونسلماس » فاستأصلوا ساقة جيشه وقتل في ذلك اليوم « رولان » Roland أحد الأبطال الذين راغفوا شارلمان في تلك الحملة ، وهو الذي وضعت له الأفاصيص في فرسة وتغنت بقائمه شعراؤهم وزجلوهم أشبه بمترة عندنا . وقيل ان العرب هم الذين هزموا جيش شارلمان في البيرانه وظاهرهم الباشكنس

موسى عليها كانت قاصرة على غارات سريعة مر بها . كخطفة البازى ورجع . ومما لا مشاحة فيه أن النصرانية كانت يومئذ تحت أشد الأخطار . وأن الانسان ليرتجف رعباً عندما يفكر فيما كان يمكن أن يحلّ بأوربة لو لم يقع الخلف من أول الأمر بين العرب الغالبين « اه كلام رينو ملخصاً

وقد استشهد رينو هنا بكلام المقرئ فوجب أن ننقل قول المقرئ في هذا الصدد جاء في الصفحة ١٢٩ من الجزء الأول من نفح الطيب ما يأتي ببعض اختصار : كانت نفس موسى بن نصير تزعم الى جليقية (وهى ما يسميه الافرنج Galicie) غاليسيا وقاعدتها مدينة كان العرب يسمونها شانت ياقو Santingo ويقول لها الافرنج (Saint - Jacques De Compostelle) فيها هو يعمل في ذلك ويُعيد له اذ أتاه مغيث الرومى رسول الوليد بن عبد الملك يأمره بالخروج عن الأندلس والاضراب عن الوجود فيها ، فسأه ذلك وتعلم به عن ارادته ، اذ لم يكن في الأندلس بلد لم تدخله العرب الى وقت ذلك غير جليقية ، فكان شديد الحرص على اقتحامها ، فلاحف موسى مغيثاً رسول الخليفة وسأله انظاره الى أن ينفذ عزمه في الدخول اليها ويكون شريكه في الأجر والنعمة ، ففعل ومشى معه حتى بلغ المفازة فافتتح حصن بارو وحصن لك (هو في الافرنجية Iaquar) فأقام هناك وبث السرايا حتى بلغوا صخرة بلاى على البحر الأخضر وطاعت الأعاجم فلاذوا بالاسلم وبذل الجزية ، وسكنت العرب المفاوز . وكان العرب والبربر كلهم قوم منهم بموضع استحسنوه حطوا به ونزلوه قاطنين . فاتسع نطاق الاسلام بأرض الأندلس . وبينما موسى كذلك في اشتداد الظهور وقوة الأمل اذ قدم عليه رسول آخر من الخليفة يكنى أبا نصر أردف به الوليد مغيثاً لما استبطأ موسى في القبول وكتب اليه يوبخه وألزم رسوله ازعاجه . فانقلع حينئذ من مدينة « لك » بجليقية وخرج على الفج المعروف بفج موسى ، ووافاه طارق في الطريق منصرفاً من الثغر الأعلى ، فأقفله مع نفسه ومضيا جميعاً ، وقفل معها الرسولان مغيث وأبو نصر

حتى احتلوا اشبيلية . فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على امانة الأندلس وأقره
بمدينة اشبيلية لاتصالها بالبحر . وركب موسى البحر الى المشرق بذى الحجة سنة خمس
وتسعين وطارق معه . وكان مقام طارق قبل دخول موسى سنة ، وبعد دخوله سنتين
وأربعة أشهر . وحمل موسى الفنائم والسبي وهو ثلاثون ألف رأس والمائنة (سيأتي
ذكر ذلك كله في محله من الجزء الآتي) منوهاً بها ومعها من الجواهر مالا يقدر قدره
وهو مع ذلك متلف على الجهاد الذي فاته أسف على مالحقه من الازعاج ، وكان يؤمل
أن يخترق مابقي عليه من بلاد افرنجية ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يتصل بالناس
في الشام ، متخذاً مخترقه بتلك الأرض طريقاً مهيماً يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم
ومجيئهم من المشرق واليه على البر لا يركبون بحراً . وقيل انه أوغل في أرض الفرنجة
حتى انتهى الى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فأصاب فيها صنماً عظيماً قائماً
كالسارية مكتوباً فيه بالنقر كتابة عربية قرئت فاذا هي : « يا بني اسماعيل انتهيتم
فارجعوا » فهاله ذلك ، وقال : ما كتب هذا الا لعني كبير . فشاور أصحابه في الاعراض
عنه وجوازه الى ما وراءه فاختلفوا عليه ، فأخذ برأى جمهورهم وانصرف بالناس وقد
أشرفوا على قطع البلاد وتقصى الغاية اه

وجاء في نفح الطيب بعد ذلك بصفتين ما يأتي : وذكر بعض المؤرخين أنهم
وجدوا في الحجر بعد ما تقدم من الكتابة التي هي : ارجعوا يا بني اسماعيل الخ - مامعناه :
(وان سألتهم لم ترجعون فاعلموا أنكم ترجعون ليضرب بعضكم رقاب بعض ^(١)) اه

(١) قصة الكتابة العربية هذه أشبه بأن تكون ملفقة أو محرفة عن قصة أخرى . والحقيقة أن
عدم تحقيق موسى بن نصير مقصده العظيم ذاك من اختراق أوروبا من الغرب الى الشرق ونفوذه
الى دمشق عن طريق القسطنطينية لم يكن عن قراءته في الصخر كتابة عربية أو سريانية ، فالذي
يقوم بتلك الأعمال الكبيرة الحارقة للعادة لا يكون ممن يعمل فيه الوسواس لكتابة كهذه يجوز
- ان صح خبرها - أن تكون كتابة محدثة تقرأها الافرنج أنفسهم ليدخلوا الوهل على قلوب العرب
بعد أن رأوهم أوغلوا في بلادهم وصمموا أن يصلوا الى غايتها . وانما لم يتمكن موسى بن نصير

وقال ابن خلدون عن دخول موسى بن نصير الى الأندلس ما يلي :

« نهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين في عسكر ضخم من وجوه العرب .
والموالى وعرفاء البربر ، فوافوا خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء ، فأجاز الى
الأندلس ، وتلقاه طارق فانقاد واتبع . ويقال ان موسى لما سار الى الأندلس عبر البحر
من ناحية الجبل المنسوب اليه المعروف اليوم بجبل موسى ، وتنكب النزول على جبل
طارق وتم الفتح وتوغل في الأندلس الى برشلونة في جهة المشرق ، وأربونة في الجوف ،
وصنم قادس في الغرب . ودوخ أقطارها وجمع غنائمها ، وأجمع أن يأتي المشرق من ناحية
القسطنطينية ، ويتجاوز الى الشام ودروب الأندلس ودروبه ، ويغوض اليه ما بينهما من

من الكمال مشروعه بسبب الحاح الحاجة الوليد عليه في القدوم الى دمشق ليوقف منه على حقيقة خبر
الأندلس وافرنته ويشافيه في عمل عظيم كهذا لا تنكح المسكينة من بعيد في تدبيره . وقد يكون
الوليد خاف على المسلمين أن تأكلهم الفاسية أو تنزل بهم داهية ، وأنت تعلم أن موسى بن نصير
لما اتصل به بليان كونه سببة وشوقه الى غزو الأندلس انتقاماً من الملك لذريق الذي كان اغتصب
العرس ، ان على ما سياتي خبره في الجزء التالي ، وكتب موسى الى الوليد يخبره بما دعاه اليه بليان
ويستأذنه في اقتحام الأندلس كان جواب الوليد أن : خضها بالسرايا حتى ترى وتخبر شأنها ولا
تفرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال . فراجعهم موسى بأنه ليس ببحر زحار وإنما هو خليج منه
يبين لناظر ما خلفه . فكتب اليه الخليفة : وإن كان فلا بد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه

فإذا كان الخليفة لم يسمح لموسى بعبور بحر الزقاق وهو خليج ضيق عرضه ١٤ كيلو متراً الا
بعد مراجعات متعددة فكيف يسمح له باختراق أوربة من اسبانية الى فرنسا الى ايطالية الى بلاد
البلقان الى القسطنطينية الى آسيا الصغرى بدون أن يتروى في الأمر ويرويه مرة قبل أن يقدم
عليه ، فقد كانوا في اشتغال دائم على جيوش المسلمين أن ينقطعوا عن مركز الخلافة وتحمل بهم نائبة
وسترى فيما بعد أن الأندلس كانت امتلات بالمسلمين ، وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه
لا يزال يذكر في إخراج المسلمين منها وإعادتهم الى افريقية خوفاً عليهم لا تقطعها عن بلاد الاسلام .
ولقد صبح خوفه من بعد ثمانمائة سنة . فالخليفة الوليد باستقدامه موسى بن نصير اليه كان قد وقف
المفروغ حتى يتروى فيه ، ولكن ما وصل موسى الى دمشق حتى مات الوليد وخلفه سليمان
أخوه وكان حائداً على موسى فنكبه تلك السكسة الشنيعة وجازاه على فتوحاته جزاء سنبل ،
وعطل ذلك المفروغ بمحمده واثباته الى هواء دون المصاحبة العامة . وسترى في كلام ابن خلدون
أن استخدام الوليد لموسى لم يكن الا من خوفه على المسلمين

بلاد أعاجم أمم النصرانية مجاهداً فيهم ومستلحماً لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة من دمشق . ونفى الخبر إلى الخليفة الوليد فاشتدّ قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ورأى أن ما همّ به موسى تقرير بالمسلمين، فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف وأسرّ إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين أن لم يرجع هو، وكتب له بذلك عهده . ففتّ ذلك في عزم موسى وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية في ثغورها . واستعمل ابنه عبد العزيز لسدّها وجهاد عدوها وأنزله بقرطبة فأخذها دار أمانة . واحتلّ موسى القيروان سنة خمس وتسعين، وارتحل إلى المشرق سنة ست بعدها ، بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال على العجل والظهر . يقال أن من جملتها ثلاثين ألف رأس من السبي . وولى على إفريقية ابنه عبد الله ، واندرجت ولاية الأندلس يومئذ في ولاية الغرب ، فكان صاحب القيروان ناظراً في الجميع . وقدم موسى على سليمان بن عبد الملك وقد ولى الخلافة بعد الوليد فسخطه ونكبه . وثارَت عساكر الأندلس بابنه عبد العزيز فقتلوه لسنتين من ولايته باغراء الخليفة سليمان ، وكان خيراً فاضلاً وافتتح في ولايته مدناً كثيرة . وكان الذي تولى قتله حبيب بن أبي عبيدة الفهري . وكان سبب غضب سليمان على موسى أنه لما توجه إلى المشرق وانتهى إلى مصر وصل أشرفها وفقهاءها وبلغه الخبر بمرض الوليد، ووافاه كتابه يستحثه على القدوم، ووافاه كتاب آخر من سليمان يثبطه ، فأسرع موسى بالحقاق بالوليد فقدم عليه قبل وفاته بثلاثة أيام ودفع إليه ما معه من الذخائر والأموال، فغاض ذلك سليمان ، وأساء مكافأته حين أفضى الأمر إليه فنكبه ونكب آل بيته أجمع . وكانت وفاة موسى رحمه الله بالمدينة المنورة سنة ثمان وتسعين وقيل غير ذلك . اهـ

وقال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد القيرواني : ارتدت البربر اثنتي عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة ولم يستقر إسلامهم حتى عبر موسى بن نصير البحر إلى الأندلس وأجاز معه كثيراً من رجال البربر برسم الجهاد فاستقروا هنالك حينئذ استقر الإسلام

بالمغرب واذعن البربر لحكمه وتناسوا الردة . اهـ

وقال ابن عذارى المراكشي في «المغرب في أخبار ملوك الاندلس والمغرب» ما يلي :
وفي سنة ٩٦ توفي الوليد بن عبد الملك في جادى الآخرة وولى الخلافة سليمان
فغضب على موسى غضباً عظيماً وأمر عليه فأوقف في يوم شديد الحر ، في الشمس ، وكان
رجلاً بادنًا ذا نسمة ، فوقف حتى سقط منشيئاً عليه ، وقال له سليمان : كتبت اليك فلم
تنظر كتابي هلمّ مائة ألف دينار . فقال : يا أمير المؤمنين : قد أخذتم ما كان معي من
الأموال فمن أين لي مائة ألف ؟ فقال سليمان : لا بد من مائتي ألف . فاعتذر . فقال :
لا بد من ثلاثمائة ألف دينار وأمر بتمذييه وعزم على قتله . فاستجار يزيد بن المهلب
وكانت له حظوة عند سليمان فاستوهبه منه وقال : يؤدي ما عنده . وقيل ان موسى
افتدى من سليمان بألف ألف دينار . ذكر ذلك ابن حبيب وغيره . ثم ان يزيد بن
المهلب سهر ليلة مع الأمير موسى فقال له : يا أبا عبد الرحمن في كم تمتد أنت وأهل
بيتك من الموال والحسد أم أتكونون في ألف ؟ فقال : نعم وألف وألف . قال : فلم
ألقيت بيدك الى التهلكة ؟ أفلا أقت في قرار عزك وموضع سلطانك ؟ فقال : والله لو
أردت ذلك لما نالوا من أطرافي شيئاً ، ولكني آثرت الله عز وجل ولم أر الخروج
عن الطاعة . اهـ

قلت : لم يكن يزيد بن المهلب بالذي يجهل فضل الطاعة للخليفة وشناعة شق
المصا ، ولكنه قال لموسى هذا الكلام لما أثار من غيظه عمل خليفة كسليان بن
عبد الملك برجل عظيم خدم الإسلام ما لم يخدمه أحد مثل موسى بن نصير . فقد كافأه
بملا يكافأ به مجرم . وهو في الحقيقة لا من أعظم رجال الإسلام فقط بل من أعظم
رجال العالم . وحسبك أنه هو الذي دوخ البربر المشهورين بشدة البأس وصموبة المراس
بعد أن أشعلوا ثورات ، لا ينادى وليدها ولا يحصى عديدها ، وبعد أن ارتدوا عن
الإسلام اثنتي عشرة مرة . فلم يستقر إسلامهم الا على يد موسى بن نصير . وحسبك

أنه دخل الأندلس واستتم فتحها واستصفي ممالكها وهو ابن ٧٥ سنة وكان جميع جيشه هم وطارق لا يزيد على ثلاثين ألف مقاتل . ولو أن قائداً معه ثلثمائة ألف مقاتل ما أحاط بالأندلس وأثنى فيها ما أحاطه موسى وأثنى في ذلك الأمد القصير بين أمم أعداء تبوج حوالبه كالأبحر الزاخرة . وما رأى الأندلس وحدها كفوفاً لهمة بل حدثته نفسه التي قل مثلها في نفوس البشر، في بعد الهمة، أن يوغل في أرض الأفرنج ويمطف منها إلى الشرق حتى ينفذ من القسطنطينية .

وقرأت في تاريخ « دول الاسلام » للامام الذهبي أن موسى بن نصير توفي في وادي القرى عن ٧٨ عاماً ، وأنه كان يقول : لو أطاعني عسكري نفذتهم حتى أفتح رومية

وروى ابن عذارى أنه أقام على المغرب والأندلس أميراً نحواً من ١٨ سنة ومما ذكر في وفاته أنه حج مع الخليفة سليمان فلما وصلا إلى المدينة قال موسى لأصحابه : ليموتن بعد غد رجل قد ملأ ذكره المشرق والمغرب . وبالفعل كان موسى الرجل الذي ملأ اسمه المشرق والمغرب وكان في الرجولية كالصخرة التي تنحط عنها السيول

هذا ولم يكتفِ سليمان بن كبة موسى في شخصه حتى نكب جميع أولاده . فأمر محمد بن يزيد أمير إفريقية بأخذ عبد الله بن موسى بن نصير وتعذيبه واستئصال أموال بني موسى ، فسجنه محمد وعذبه ثم قتله .

وأما عبد العزيز بن موسى فقد رويت في أسباب قتله روايات كثيرة، أقربها إلى العقل أنه لما بلغه ما حل بأبيه وأخيه وأهل بيته خلع طاعة بني مروان، فجاء أمر سليمان إلى وجوه العرب بالأندلس بقتله، فقتلوه وحل رأسه ورأس أخيه عبد الله حتى وضعها بين يدي أبيهما موسى وهو في عذابه (١) .

(١) جاء في كتاب « بقية المنتسب في تاريخ رجال الأندلس » لابن عميرة الضبي ترجمة عبد العزيز ابن موسى بن نصير قال : كان والده قد استخلفه على الأندلس عند خروجه منها سنة ٩٥ فأقام بها إلى أن كتب سليمان بن عبد الملك إلى الجند هناك فقتلوه وأتوه برأسه . كذا قال سعيد بن يونس . وكان قتله فيما قال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم في سنة ٩٩ وقال : إن الجند

قال ابن عذاري : « فكان فعل سليمان هذا بموسى من هفوات سليمان التي لم تزل تنقم عليه »

قلت : من هفوات ابن عذاري أن يعبر عن أعمال سليمان هذه بلفظة هفوات . وهي في الواقع من الجرائم التي لا تنفر . ولكن مما لا يجوز أن ننساه أن موسى بن نصير أخذته النيرة مما وفق اليه طارق بن زياد من الفتوح ، وأهانته ، بعد أن تلاقيا في الأندلس . وكان هذا العمل الصغير غير متناسب مع كبراة نفس موسى وعلو همته ولم يغل من تأثير في قضية نكبتة لأن طارقاً شكاً الى الخليفة ما فعله به وظاهره في ذلك منيئ الرومي رسول الوليد الى الأندلس . قال صاحب « أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم » وهو من أقدم ما كتب من تواريخ الأندلس يظهر أن صاحبه حرره ^(١) في عهد الحكم

اجتمعوا على قتله لأمر نفموها منه وبلغتهم عنه فثاروا به وقتلوه وخرجوا برأسه الى سليمان بن عبد الملك وأنه لا احضر بين يدي سليمان يحضر موسى بن نصير فقال له سليمان : أتعرف هذا ؟ قال : نعم أعرفه صواماً قواماً فعليه لعنة الله ان كان الذي قتله خيراً منه اه
(١) قد أورد دوزي المستعرق المولاني الذي اتخذ من بتاريخ الأندلس عن كتاب « أخبار مجموعة » هذا بحثاً مدققاً كما أدته في المقدمة التي وضعها بالانجليزية على كتاب « المغرب في أخبار المغرب » لابن عذاري المراكشي فقال دوزي ما يحصله :

« ان العرب لم يكونوا يكتبون التاريخ في القرنين الأولين من استيلائهم على اسبانية وذلك لأن العرب كانوا يعتمدون كثيراً على الروايات الشفهية وان قوة ذاكرتهم لسجية فليس في الأمم أمه نساهم في حفظ ما يمشونه من وقائع وسنين وأعلام وأسباب وذلك بدون ضياع ولا تحريف الا ما لا بال له . فلم يكن بهم حاجة اذا الى كتب مدونة . وكان التاريخ في جميع الأفواه يتناقله الأبناء عن الآباء . ثم ان الذين كانوا يشتغلون بالكتابة كان عددهم نزرأ جداً وكانوا اذا كتبوا اختاروا الألف في الديانة وكانت التأليف في غير الديانة مكروهة . فلمذا ندرت الكتابة في التاريخ في المصدر من أيام أمراء بني أمية بالأندلس . ومع هذا فقد وجدت شذرات تاريخية من ذلك العهد ملاحظة تاريخ ابن الفوطي وعليها هذا الاسم التالي : أخبار مجموعة في افتتاح الأندلس وذكر من فيها من الأمراء الى دخول عبيد الرحمن بن معاوية وتغايه عيسى وملكه فيها هو وولده والحروب المكثنة في ذلك بينهم . ومن تأمل في هذا الاسم علم أنه موضوع الكتاب وشك في أن يكون هو اسمه . لهذا قد كنت ظننت أن « أخبار مجموعة » هو « الكتاب الثاني »

المستنصر بن عبد الرحمن الناصر - : انه لما دخل موسى الأندلس كان ذلك سنة ثلاث

الا أنى رأيت ابن الخطيب ينقل في كتابته عن الصميل بن حاتم فصلا عن الخرائتي لم أجده في مخطوط « أخبار مجموعة » الذي في خزانة باريز . فعدلت عن هذا الرأي . والذي يدور عليه الكلام في أخبار مجموعة هو كيفية فتح العرب للأندلس ثم الحروب الأهلية التي وقعت بينهم الى زمان عبد الرحمن الداخل ومن عهده الى زمان عبد الرحمن الثالث وهناك ينتهى الكتاب . ويظهر أن المؤلف عاش الى ما بعد سنة ٣٥٠ لأنه يذكر أن عبد الرحمن الثالث ملك مدة خمسين سنة . بل أظن أن المؤلف عاش بعد ذلك بكثير لا في أيام الحكم بن عبد الرحمن الثالث ولا في زمن المنصور ابن أبي عامر بل في القرن الحادى عشر للمسيح لأنه عندما ذكر كيف فكر عمر بن عبد العزيز في قتل المسلمين من الأندلس هتف قائلا : « وليت الله كان أبقاه حتى يفعل فان مصيرهم الى بوار الا أن يرحمهم الله » وغير ممكن أن يكون كاتب شاهد لفتوحات الحكم الثانى وفتوحات المنصور ابن أبي عامر ويقول هذا الكلام وهو كلام جدير بالعربى الذى شاهد حوادث الأندلس في عهد تفقر العرب فيها كالقرن الحادى عشر للمسيح (أى بداية الأربعمئة للهجرة) الذى كاد فيه الاذفئش السادس يستولى على جميع ديار المسلمين فى الجزيرة الأندلسية ، ولكن يوجد فى هذا الكتاب فصل لا يمكن أن يكون قد كتب الا فى الثمن العاشر للمسيح وهو الذى يقول فيه : أخبرنا محمد ابن الوليد . وهو رجل محدث ترجمه الحميدى مات سنة ٣٠٩ . ثم انه يقول فى مكان آخر انه سمع رواية قرار عبد الرحمن الداخل عن فم أحد معاصرى هذا الأمير ؟ وهو تناقض غريب اذ ينبغى أن يكون سمع من فم رجل عاش فى القرن الثامن . وعبارته هذه هى : أخبرنى من سمع عبد الرحمن بن معاوية يحدث طائفة من بدء حديث هربه قال الخ. فلاجل التوفيق بين هذين الأمرين المتناقضين ينبغى أن يكون بعض هذا الكتاب كتب فى أواخر القرن الثامن وأن النسخة المحفوظة فى مكتبة باريز قد اشتملت على فصول كتبها بعض رجال القرن الحادى عشر فهو بالحقيقة مجموعة تواريخ لا تاريخ واحد وما يجدر بالذكر أن كل من تأمل فى هذا الكتاب يرى مؤلفيه من أنصار دولة بنى أمية اه

قلت : يجوز أن يكون فى هذا الكتاب روايات مجموعة لعدة رواة منهم من تقدم ومنهم من تأخر ولكن تشاؤم مؤلف الكتاب بعصير الأندلس لا أراه بسبب كون المنشأ عاش فى القرن الحادى عشر للمسيح أو الرابع للهجرة ، بل يجوز أن يكون قد عاش أيام الفتوحات والطوائل ويبقى متشائماً وذلك لاستمرار الفتن بين مسلمى الأندلس بدون انقطاع ولأن الشيطان ألقى بينهم روقه فأطاعوه وهذا مع قتل حملهم وكثرة عدوهم واتصال الأندلس بالأرض الكبيرة أى أوربة ولم يكن يخفى على عقلاء المسلمين خطر هذا المقام من بداية الأمر والعامل بشفوف بصيرته يدرك طرفاً من خرائن الغيب، وصدور الأمور مؤذونات بأعجازها . وسنذكر فيما يلى من الأجزاء خلاصة ما قاله دوزى عن تواريخ الأندلس العربية .

وتسعين ومعه ثمانية عشر ألفاً - وهذا خلاف الرواية التي نقلها المقرئ وهي أنه دخلها بمشرة آلاف - وقد بلغه ما صنع طارق فحسده فلما نزل الجزيرة قيل له : اسلك طريقه . قال : ما كنت لأسلك طريقه ، فقال له العلوج الأدلاء : نحن نذلك على طريق هي أشرف من طريقه ومدائن هي أعظم خطباً من مدائنه لم تفتح بعد يفتحها الله عليك ان شاء الله . فامتلاً بذلك سروراً ، فكان فعل طارق قد غمّه ، فساروا به الى مدينة شذونة فافتتحها عنوة ألقوا بأيديهم اليه ، ثم سار الى مدينة قرمونة ^(١) فقدم اليها العلوج الذين معه وهي مدينة ليس في الأندلس أحصن منها ولا أبعد من أن ترجى بقتال أو حصار . وقد قيل له حين دعا اليه ليست تؤخذ الا باللطف ، فقدّم اليها علوجاً ممن قد أمنه واستأمن اليه مثل يليان ولعلمهم أصحاب يليان ، فأتوهم على خال الافلال معهم السلاح فأدخلوهم مدينتهم فلما دخلوها بعث اليهم الخليل ليلاً وفتحوا لهم باب قرطبة - من أبواب قرمونة - فوثبوا على أحراسه ودخل المسلمون قرمونة . ومضى موسى الى اشبيلية وهي أعظم مدائن الأندلس شأنًا وخطبًا وأعجبها بنيانًا وآثارًا ، وكانت دار الملك قبل غلبة القوطيين على الأندلس ، فلما غلب القوطيون حولوا السلطان الى طليطلة ، وبقي شرف الرومانيين . وقمهم ودينهم ورئاستهم في دنياهم باشبيلية ، فأثاها موسى بن نصير حتى حصرها أشهراً . ثم ان الله فتحها وهرب العلوج الى مدينة باجة فضمّ موسى يهودها ومضى الى مدينة ماردة . وكانت أيضاً دار بعض ملوك الأندلس ، ذات آثار وقنطرة وقصور وكنائس تفوت الوصف ، فحصرها وقد كان أهلها خرجوا اليه وزحمهم دفعة ، فقاتلوه من سورها على قدر ميل أو أكثر ، قتالا شديداً . فلما رأى خروجهم اليه أبصر فيها حفراً كانت مقاطع للصخر فأكن فيها الرجال والخليل ليلاً ، فلما أصبح زحف اليهم فخرجوا اليه كهيئة خروجهم بالأمن ، فركبهم المسلمون وخرج عليهم الكمين وقتلوا قتلاً ذريعاً ونجا من نجا منهم الى المدينة . وهي مدينة حصينة لها سور لم يبن الناس مثله ، فثبت

(١) مدينة مبنية على متن أكمة عالية تنحط عنها الأرض من جميع جهاتها وحولها سهول فيح الى مسافة بعيدة قد زرتها سنة ١٩٣٠ في سياحتي الى الأندلس وشاهدت آثارها وحصونها المتهدمة وهي من عمل اشبيلية

عليهم يقاتلهم أشهراً حتى عمل دابة فذبّ المسلمون تحتها الى برج من أبراجها فنقبوا صخره فلما نزعوا صخره أفضوا في داخله الى الصماء التي يقال لها « اللاشة ماشة » بلسان أهل الأندلس، فنبت عنها معاولهم وفؤوسهم . فبينما هم يضربون فيها إذ استفاق عليهم العلوج فاستشهد المسلمون تحت الدابة فسمى بذلك البرج « برج الشهداء » الى اليوم . وما أقل من يعرف هذا . وكان فتحه لها في رمضان سنة أربع وتسعين يوم الفطر . فلما كان من أمر الشهداء ما كان ، قال العلوج : قد كسرناه فان كان يوماً مجيباً الى الصلح فالיום فاطلبوه اليه . فخرجوا اليه فألقوه أبيض اللحية فراوضوه على شيء لم يوافقهم ثم رجعوا . فلما كان قبل العيد بيوم خرجوا اليه ليراضوه فاذا هو قد شبب لحيته بالحناء ، فألقوه أحمر اللحية ، فمجبوا وقال قائلهم : أظنه يأكل ولد آدم أو ما هذا الذي رأيناه بالأمس . ثم خرجوا اليه يوم الفطر فاذا اللحية سوداء فرجعوا الى أهل مدينتهم فقالوا : يا حماق انما تقاتلون أنبياء يتخلقون كيف شاءوا يتشبيون ^(١) قد صار ملكهم حدثاً بعد أن كان شيخاً ، اذهبوا فأعطوه ما سأل . فصالحوه على أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهارين الى جليقية للمسلمين وأموال الكنائس وحليها له . ثم فتحوا له المدينة يوم الفطر في سنة أربع وتسعين . ثم ان عجم أهل اشبيلية تحيلوا على من بها من المسلمين وجاءوا من مدينة يقال لها لبلّة ومدينة يقال لها باجة وقتلوا من بها من المسلمين - قتل فيها ثمانون رجلاً - فقدم فلّهم على موسى بن نصير بماردة فلما فتح ماردة بعث ابنه عبد العزيز على جيش الى اشبيلية فافتتحها ورجع . ثم مضى موسى من ماردة في عقب شوال يريد طليطلة . وبلغ طارقاً اقباله فخرج معظماً له متلقياً فلقيه بكورة طلبيرة ، فلما رآه نزل اليه ، فوضع موسى السوط على رأسه ووبه فيما كان من خلاف رأيه ، ثم سار به الى مدينة طليطلة ، ثم قال له : أحضرني بما أصبت وبالمائدة ^(٢) فأتاه بها وقد اقتلع رجلاً كسرهما من أرجلها فقال له : أين هذه الرجل ؟ فقال : انى لا

(١) ماورد في كتب اللغة فعل « تشبب » بمعنى جعل نفسه شاباً ويظهر أن الكاتب فاسها على فعل « تشيخ » أى صار شيخاً

(٢) سنأتى بغير هذه المائدة التي أصابوها بطليطلة في الجزء القادم عند الكلام على فتح طليطلة

علم لي، كذلك أصبتها . فأمر بالرجل فعمل لها من ذهب وعمل لها سفظ من خوص فأدخلها فيه ثم سار حتى افتتح سرقسطة ومدانها . اه
ولم يرد في « أخبار مجموعة » أن موسى دخل بلاد افرنجة . ومقتضى كلام صاحب هذا التاريخ أن هذا حصل من بعده فانه يذكر بعد ولاية موسى بن نصير ولاية ابنه عبد العزيز، ولا يذكر ان مقتل عبد العزيز كان بإشارة من سليمان بن عبد الملك كما ذكر كثير من المؤرخين ، ولا يقول ان عبد العزيز بن موسى خرج عن الطاعة بعد ما بلغه ما فعل الخليفة بأبيه، بل بالعكس هو يقول انه لما بلغ الخليفة سليمان قتل عبد العزيز شق ذلك عليه وأمر عبيد الله بن زيد عامله على افرريقية بأن يتشدد في قضية قتل عبد العزيز وأن يقبض على حبيب بن أبي عبيدة وزيد بن النابغة اللذين قتلاه ، وان يقلعهما اليه مع من شركهما في قتله من وجوه الناس

الولاية على الأندلس بعد موسى بن نصير

وهو يذكر أن أهل الأندلس ولوا عليهم بعد عبد العزيز والياً صالحاً كان يؤمهم في صلاتهم هو أيوب بن حبيب اللخمي^(١) ابن اخت موسى بن نصير . وتولى بعده الحرب عبد الله الثقفي . ثم في خلافة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه تولى السماح ابن مالك الخولاني، وأمره الخليفة بأن يخمس الأراضي ويخرج منها ما كان عنوة خمساً لله من أرضها وعقارها ويقر القرى في أيدي غنائمها بعد أن يأخذ الخمس، وأمره بأن يكتب اليه بصفة الأندلس وأنهاها . وكان رأيه انتقال أهلها منها لا تقطاعهم عن المسلمين .

قال صاحب « أخبار مجموعة » : ولبت الله كان أبقاه حتى يفعل فان مصيرهم الى بوار الا أن يرحمهم الله .

وهذه العبارة تدل على أن عقلاء المسلمين ، من أول الفتح وفي أيام عنجبية

(١) هو الذي بنى « قلعة أيوب » والاسبانيول يقولون Calatayoud وهي مدينة مرونة

عليها في طريقنا من سرقسطة الى مجريط

العرب بالأندلس وأيام كانت قرطبة عاصمة فيها مليون ونصف من السكان وكان في الأندلس من عز الاسلام ما كان ، لم يزالوا يستشعرون خطر المقام بتلك البلاد نظراً لانقطاعها عن بلاد الاسلام ولكثرة فتن العرب بعضهم مع بعض وفتن العرب مع البربر وغير ذلك .

هذا وبعد السمع بن مالك الخولاني تولى عنبة بن سحيم الكلبي ، ثم يحيى بن مسلمة الكلبي ، ثم عثمان بن أبي سعيد الخثعمي ، ثم حذيفة بن الاحوص القيسي ، ثم الهيثم بن عفير الكناني ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الذي استشهد في واقعة بلاط الشهداء ^(١) ثم عبد الملك بن قطن المحاربي القرشي ^(٢) .

قال صاحب « أخبار مجموعة » : وكان من وصفنا من الولاة يجاهدون العدو ويتوسعون في البلاد حتى بلغوا افرنجة وحتى افتتحت عامة الأندلس اه

وذكر المؤرخ (كوندي) الاسبانيولى أن الحر الثقي هو الذي تجاوز حدود الأندلس الى بلاد افرنجة ونواحي أربونة وسبي وغنم وقفل بالأسارى والغنائم وقال : ان غزو الحر لافرنجة وصرف قوته الى الجهاد في بلاد الغال كانا من الأسباب التي سهلت للمسيحيين المتجنئين الى جبال آستوريا الاجتماع على العصيان

(١) هي واقعة بواتيه الشهيرة

(٢) في الجزء الخامس من صبح الأعمى ورد ترتيب أمراء الأندلس كما يلي : موسى بن نصير أقام بالأندلس سنتين واستخلف عليها ابنه عبد العزيز ، ثم وليها بعد قتله عبد العزيز بن عبد الرحمن القيسي سنتين وثلاثة أشهر ، ثم وليها السمع بن مالك الخولاني سنتين وتسعة أشهر ، ثم وليها عنبة ابن سحيم الكلبي أربع سنين وخمسة أشهر ، ثم وليها يحيى بن مسلمة سنتين وستة أشهر ، ثم وليها حذيفة بن الأحوص القيسي سنة واحدة ، ثم وليها عثمان بن أبي سعة الخثعمي خمسة أشهر ، ثم وليها الهيثم بن عبيد خمسة أشهر ، ثم وليها عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي سنتين وثمانية أشهر ، ثم وليها عبد الملك بن قطن الفهري أربع سنين ، ثم وليها عقبة بن الحجاج خمس سنين ، وشهرين ، ثم وليها مفلح ابن بشر القيسي أحد عشر شهراً ، ثم وليها حسام بن ضرار الكلبي سنتين ، ثم وليها ثوابة الجذامي سنة واحدة ، ثم وليها يوسف بن عبد الرحمن الفهري تسع سنين وتسعة أشهر ، وكانت دولة بني أمية بالأندلس . انتهى

وقد جاء في الحاشية في الطبعة الأميرية من الكتاب تصحيح لهذا الترتيب من ذلك أن أول وال بعد عبد العزيز هو أيوب بن حبيب اللخمي كما في نفع الطيب والبر

وزرع نواة المقاومة ووضع أساس دولة مسيحية في اسبانية محل الدولة التي كانت قد بادت . وقد انضم الى هذا السبب سبب آخر أراد الله به تيسير أمرهم هو سخط الناس على ادارة الحرّ، وتبرّم الدهاء بعسفه ، المسلمون والمسيحيون في ذلك سواء . فان الحرّ كان قد آسف الخاصة والقواد والأمرء وصاروا إلباً عليه، وكانت الأهالي في غاليسيا وليون والجبّال الأشثورية حديثة العهد بالخضوع للعرب ، فنقل عليهم الظلم أكثر مما ثقل على الذين أطاعوا من قبل . وظهر في ذلك الوقت رجل استفاد من هذه الأحوال الروحية في الشعب وجمع شمل بقايا حزب المقاومة وثار به ، وهو ييلاي^(١) أول ملك لاسبانيول بعد دخول العرب للأندلس اه

وذكر صاحب « أخبار مجموعة في فتح الأندلس وأخبار أمرائها والحروب الواقعة بينهم » أن عبيد الله بن الحبحاب بن الحارث ، مولى بني سلول من قيس ، عندما ولاه الخليفة مصر أقرّ بشر بن صفوان على افريقية وولى عقبة بن الحجاج السلولى الأندلس فدخلها سنة ١١٠ وافتتح الأرض حتى بلغ اربونة

ثم ذكر أنه لما وقعت الواقعة بين العسكر الشامي وعبد الملك بن قطن أمير الأندلس في خبر سيأتي ذكره في الجزء الآتي، وقتل الشاميون عبد الملك وصلبوه في قرطبة، كان ابنه في نواحي اربونة . قال صاحب « أخبار مجموعة » : فلما بلغ ابنه ما كان حبشدا من أقصى اربونة وراجما أهل البلد والبربر، وسيوفهم تقطر من دماء البربر، فرضيت البربر أن تنال ثارها من أهل الشام^(٢) فاذا فرغوا كان لهم في أهل البلد رأى . فأقبل

Pélagie (١)

(٢) وذلك أن عبد الملك بن قطن كان قاتل البربر الثأرين عليه، بأهل الشام، وهزمهم وأوقع بهم وأخذ ثأر العرب الذين كان البربر قد أخرجوهم من جليقية واسترقه وشمالى الأندلس . ولكن لم تستقر الغلبة للعرب حتى عادوا الى أحقادهم القديمة وثار الجند الشامي ببعد الملك وقتلوه واضطر ولداه قطن وأمية أن يرجعا الى البربر ويستعينا بهم على العرب . وقد جاء نسب عبد الملك بن قطن في بغية الملتبس هكذا : عبد الملك بن قطن بن عصمة بن أنيس بن عبد الله بن حجوان بن عمر بن حبيب بن عمرو بن شيبان بن محارب بن فهر الفهرى أمير الأندلس وليها سنة ١١٥ بعد عبد الرحمن العكي من قبل عبيدة بن عبد الرحمن القيسى الأمير بافريقية وقتل بالأندلس سنة ١٢٥

قطن وأمية ومعهما عبد الرحمن بن حبيب، وأقبل معهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمي صاحب أربونة، فأقبلوا في مائة ألف أو يزيدون اه
ومن هنا يعلم القارئ ما كان من بال العرب بأربونة منذ خيم الإسلام بمقرتها
وما كان من وفرة جيوشهم فيها لأجل الرباط وسداد الثغور

رجع الى حديث استيلاء العرب على جنوبي فرنسا

نعود الى كلام المستشرق «رينو» في موضوع غارات العرب على جنوبي فرنسا
فهو يذكر ان فتن العرب المستمرة المصطلمة، بعضهم مع بعض، قد نفست من
خناق المسيحيين في الاندلس وإفريقية. ويقول: ان معظم اهتمام الخلفاء كان وقتئذ
توجه الى الاستيلاء على القسطنطينية التي كانوا أغزوها جيشاً عدته مائة وعشرون
ألف مقاتل وأسطولا عدده ألف وثمانمائة سفينة. ولا شك ان سموهم الى فتح
شرقي أوربة شغلهم عن الزحف على غربي أوربة. ولكنه يقول: ان مؤرخي
العرب ذكروا مع ذلك بعض غارات على «اللانغدوق» في أيام ولاية الحر الثقفي
سنة ٧١٨ مسيحية.

وقد أيد هذه الرواية «إيزيدور» اسقف «باجة»^(١) وهو من المؤرخين الذين
عاشوا في ذلك العصر، و«لندريق شيمينيس» مطران طليطلة^(٢) وقالوا: ان العرب
زحفوا الى الأمام حتى وصلوا الى مدينة «نيم» ولم يجدوا مقاومة ورجعوا بالغنائم
والسبي الكثير.

قال رينو: ولم تكن مقاطعات جنوبي فرنسا لتقدر أن تقف في وجه
العرب المتدفقين عليها من جبال البيرانه، وكان الحكم للدولة المعروفة بدولة
«الكسالي»^(٣) اذ ذاك، وكانت بلاد اللانغدوق يقال لها «القوطية» Gótie

(١) قال رينو في الحاشية انه نقل روايات إيزيدور الباجي عن مخطوطات متعددة.

(٢) لندريق شيمينيس: كتب في القرن الثالث عشر للمسيح. واعتمد على كتب العرب. قال رينو
ان تاريخه مطبوع بالعربي واللاتيني في ليدن

(٣) Fainéants هو اللقب الذي أطلقه المؤرخون على أواخر ملوك الدولة الميروفنجية الذين

بسبب طول مقام القوط بها . وقد يقال لها أيضاً « سبتيانية » أى « السبعية » لاشتغالها على المدن السبع : اربونة، ونيم، وإقند، وبينيه، ولوديف، وقرقشونة، وماقلونة^(١) وكانت من جملة مملكة « اود » دوق اكيثانية^(٢) وكان هذا يدعى انه من ذرية الملك كلوفيس^(٣) وبهذا السبب كان من أبناء عم ملوك فرنسة الشمالية فكان يكرم بطبيعة الحال حجاب القصر الذين قد استولوا على الامور واستبدوا بها من دون الملوك ولم يبق لهم هم الا فى توطيد سلطتهم وسلطة جنس الفرنج^(٤) فى تلك المملكة مما نثى أعتهم عن صدّ العرب الموجفين على جنوبى فرنسة

فصارت بلاد اللانغدوق والبروفانس متروكة لاهلها الغالين^(٥) وكان هؤلاء شعباً مركباً من أعقاب الرومانيين القدماء ومن القوط . وكانت لكل من الفريقين عادات خاصة وشرائع يمتاز بها . فلم يكن من واق لجنوبى فرنسة فى ذلك الوقت أحسن من وقوع بأس العرب فيما بينهم . وذلك ان حكومة اسبانية العربية كان مرجعها القيروان فى افريقية ، وحكومة افريقية كانت عائدة الى دمشق دار الخلافة . فلم يكن من الممكن أن تكون سلطة موزعة الى هذا الحد، وأن تعتمد مراكزها كل هذا التعدد وأن يستتب بها النظام ، وأن تقيم على الطاعة رجالات نشأوا فى ظلال السيوف . ثم ان النزاع كان وقع بين العرب والبربر، وبين المسلمين وغير المسلمين من الجيوش الفاتحة ولما كانت أراضى المسيحيين التى دخلت فى جوزة الفاتحين قد صارت الى أيدى عدد

سلموا الأحكام لحجاب القصر تسليم خلفاء قرطبة بعد الحكم المستنصر الى المنصور بن أبى عامر ثم الى أولاده من بعده . وقد استمرت هذه الحالة فى فرنسة من عهد « تيرى » الثالث (سنة ٦٧٥) الى عهد « شيلديك » الثالث (٧٥٢)

Narbonne Nîmes Arde Beziers Lodève Carcassonne et m. aguelonne (١)

من ذوى الأطماع، وحرّم كثير من المستحقين، النىء الذى يستحقونه، أدّى ذلك النزاع أخيراً الى القتال وسالت الدماء ومشت الصفوف بعضها الى بعض. وهناك سبب آخر كان به أعظم الفرج لفرنسة نفس من خناقها وأرغى من رباقيها وهو انتقاض غصابة من مسيحي اسبانية فيهم شماس وصعوبة مراس ثاروا بالعرب ثورة الضواري ، وأبوا الا الدفاع عن دينهم ووطنهم، فلهجأوا الى جبال آستورية^(١) وغاليسية^(٢) ونابار^(٣) وهناك بدأوا بمقاومة لم تضع عصاها الا باجلاء المسلمين أجمع عن تلك البلاد وكان الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز اطلع على مادب من الخلل الى موقف العرب بالاندلس، فأنفذ اليها السمع بن مالك الخولاني أميراً، وعهد اليه باصلاح الامور ورم الثغور . وكان السمع مدبراً حكماً وقائداً باسلاً وسائساً حازماً، ذا دربة بتمشية الأمور، فرتق الفتوق ووازن بين الدخل والخرج وأنصف الجند فى الاعطيات ووزع على المجاهدين جانباً من الأراضى وعهد بما بقى منها الى وكلاء من ذوى الأمانة ورد ريمها الى بيت المال . وكان الخليفة قد أمر السمع بأن يقدم له بياناً عن البلدان المفتوحة وما فيها من النفوس والجبايات، ليبرم فى أمر الاندلس رأياً، فقد كان عمر بن عبد العزيز شديد الخوف على الاسلام، وكان قد هاله بقاء ذلك العدد الكبير من المسيحيين فى تلك البلاد واستشعر من ورائهم خطراً على مستقبل المسلمين، ففكر فى اجلاء مسيحي اسبانية وجنوب فرنسة الى افريقية حيث لا يكون من وجودهم تهلكة على الدولة، الا أن السمع طمأن مخاضه ، الخليفة قائلاً له: ان الاسلام نعمة . ينتشر . تمتد

ولنقابل الآن كلام رينو وكلام من نقل عنهم من مؤرخي الاسبانيرل والافريج
بكلام العرب لتزداد الحقائق وضوحاً فنقول :

نقل المقرئ في النفع عن ابن حيان مايلي :

قالوا ان موسى اضطلع مع طارق وأظهر الرضى عنه وأقره على مقدمته على رسمه
وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه وسار موسى خلفه في جيوشه فارتقى الى الثغر الأعلى
وافتح سرقسطة وأعمالها وأوغل في البلاد ، وطارق أمامه ، لايمران بموضع الافتح
عليهما وغنمهما الله تعالى مافيه . وقد ألقى الله الرعب في قلوب الكفرة فلم يعارضهما
أحد الا بطلب صلح . وموسى يجي على أثر طارق في ذلك كله ويكمل ابتداءه ويوثق
للناس ما عاهدوه عليه . فلما صفا القطر كله وطأمن نفوس من أقام على سلمه
ووطأ لأقدام المسلمين في الحلول به أقام لتمييز ذلك وقتاً ، وأمضى المسلمين الى افرنجية
ففتحوا وغنموا وسلموا وعلاوا وأوغلوا حتى انتهوا الى وادى « ردونة ^(١) » فكان
أقصى أثر العرب ومنتهى موطنهم من أرض العجم . وقد دوت تحت بعوث طارق
وسراياه بلد افرنجية ، فلكت مدينتى برشلونة ^(٢) وأريونة ^(٣) وصخرة « اينيون ^(٤) » .
وحصن « لودون ^(٥) » على وادى ردونة ، فبعدوا عن الساحل الذى منه دخلوا جداراً .

(١) نهر الرون Rhone وهكذا لفظ اسمه اليوم ولكن أصل اسمه هو « رودانوس »
باللاتينى ومنه قال العرب « ردونه » كما كان الافرنج يقولون له في أيام قدومهم الى تلك الديار .
وهذا النهر يخرج فى سويسرة وينصب فى بحيرة ليان ثم يخرج منها عند جنيف ويدخل أرض فرنسة
ويتصبب الى البحر المتوسط وطول مجراه ٨١٢ كيلو متراً

(٢) Barcelone قاعدة كتالونيا وأكبر مدينة فى اسبانية وارقاها وسيأتى عليها الكلام
فيها يأتى

(٣) Narbonne

(٤) Avignon والعرب تقول « اينيون » لأنها تجعل الفاء باء وربما قالت « اينيون »
بالفاء الموحدة . وصخرة اينيون هى المكان الذى بنى عليه قصر الباباوات الذين جاوروا اقامتهم .
بافينيون من سنة ١٣٠٩ الى سنة ١٣٧٧

(٥) Lyon ثالث مدينة فى فرنسة فى عدد السكان . وأصل اسمها « لودونوم » يربها نهر
الرون والصاورون ويقسمها الى ثلاثة أقسام وهى من أعظم المدن الصناعية فى أوربة . وقد بنى ليون

وذكر أن مسافة ما بين قرطبة وأربونة من بلاد افرنجة ثلاثمائة فرسخ وخمسة وثلاثون فرسخاً وقيل ثلاثمائة فرسخ وخمسون فرسخاً . ولما أوغل المسلمون الى اربونة ارتاع لهم قارله ملك الافرنجة بالأرض الكبيرة وانزعج لانبساطهم فشد لهم وخرج عليهم في جمع عظيم . فلما انتهى الى حصن لودون وعلمت العرب بكثرة جموعه زالت عن وجهه وأقبل حتى انتهى الى صخرة ايبيون فلم يجد بها أحداً وقد عسكر المسلمون قدأمنة فيما بين الأجيل المجاورة لمدينة أربونة، وهم بحال غرة لاعيون لهم ولا طلائع، فما شعروا حتى أحاط بهم عدو الله قارله، فاقتطعهم عن اللجا الى مدينة أربونة ، وواضعهم الحرب فقاتلوا قتالا شديداً استشهد فيه جماعة منهم، وحمل جمهورهم على صفوفه حتى اخترقوها ودخلوا المدينة ولاذوا بمحصاتها، فنازلهم بها أياماً أصيب له فيها رجال، وتعذر عليه المقام وخامره زعر وخوف مدد للمسلمين، فزال عنهم راحلا الى بلده، وقد نصب في وجوه المسلمين حصوناً على وادي ردونة شككها بالرجال فصيرها ثغراً بين بلده والمسلمين وذلك بالأرض الكبيرة خلف الأندلس انتهى

ان كلام ابن حيان هذا يجمل خبر غزوات العرب لافرنجة أو فرنسة من أيام موسى بن نصير وطارق بن زياد الى زمان عبد الرحمن النافق . ومنه يعرف أن غزو العرب لافرنجة يرجع الى أول الفتح الأندلسي، وان كان مؤرخو الافرنج لا يذكرون مغازي العرب لفرنسة الا من بعد ولاية السمع بن مالك الخولاني . وأما المؤرخان المسيحيان ايزيدور الباجي وشيمينس مطران طليطلة، وأولهما عاصر زمان الفتح، فانهما يذكran غارات للعرب على فرنسة في زمان الحر بن عبد الرحمن بن عثمان الثقفي أمير الأندلس بعد عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي ثار به الجند وقتلوه حسبما تقدم الكلام عليه

والذي في نفح الطيب نقلا عن ابن خلدون أن محمد بن يزيد عامل الخليفة سليمان ابن عبد الملك على افريقية لما بلغه مهلك عبد العزيز بن موسى بن نصير بعث الحر بن

الوالي الروماني لوسيوس موناتيوس سنة ٤١ قبل المسيح وصارت عاصمة بلاد الغال في زمان أغسطس ولا تزال من أمهات مدن فرنسة

عبد الرحمن الثقفي أميراً على الأندلس . وفي صفحة ١٤٠ من فتح الطيب من الجزء الأول الطبعة الأزهرية يذكر أمراء الأندلس على النسق الآتي :

طارق بن زياد مولى موسى بن نصير . ثم الأمير موسى بن نصير، وكلاهما لم يتخذ سريراً للسلطنة . ثم عبد العزيز بن موسى بن نصير، وسريه اشبيلية . ثم أيوب بن حبيب اللخمي ، وسريه قرطبة . وكل من يأتي بعده فسريه قرطبة والزهراء والأزهرية بجانبيها إلى أن انقضت دولة بني مروان على ما ينبت عليه . ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفي . ثم السمع بن مالك الخولاني . ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي . ثم عنبسة بن سحيم الكلبي . ثم عذرة بن عبد الله الفهري . ثم يحيى بن سلمة الكلبي . ثم عثمان ابن أبي نسة الخثعمي . ثم حذيفة بن الأحوص القيسي . ثم الهيثم بن عبيد الكلبي . ثم محمد بن عبد الله الأشجعي . ثم عبد الملك بن فطن الفهري . ثم بلج بن بشر ابن عياض القشيري . ثم ثعلبة بن سلامة العاملي . ثم أبو الخطار بن ضرار الكلبي . ثم ثوبة بن سلامة الجذامي . ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهري . قال : وههنا انتهى الولاية الذين ملكوا الأندلس من غير موارثة أفراداً عدهم عشرون فيما ذكره ابن سعيد ولم يتعدوا في السمة لفظ الأمير . قال ابن حيان : مدتهم منذ تاريخ الفتح من لدريق سلطان الأندلس النصراني وهو يوم الأحد لحس خلون من شوال سنة ٩٢ إلى يوم الهزيمة على يوسف بن عبد الرحمن الفهري وتغلب عبد الرحمن بن معاوية المرواني على سرير الملك قرطبة وهو يوم الاثنين لعشر خلون من ذي الحجة سنة ١٣٨ ست وأربعون سنة وخمسة أيام انتهى .

وأما ابن عذارى في « البيان المغرب » فيذكر في الجزء الأول أن محمد بن يزيد أمير إفريقية استعمل على الأندلس الحر بن عبد الرحمن القيسي ، وكانت الأندلس إذ ذاك إلى وإلى إفريقية كما كان أيضاً وإلى إفريقية من قبل وإلى مصر . ثم قال : وسنة ٩٩ توفي سليمان بن عبد الملك واستخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يوم وفاته فاستعمل على إفريقية اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم . قال : واستعمل اسماعيل بن أبي المهاجر على الأندلس السمع بن مالك الخولاني . ثم ذكر

ابن عذارى أنه عند ولاية بشر بن صفوان على إفريقية ولى الأندلس عنبة بن سحيم الكلبي . ثم ذكر أنه عند ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمي على إفريقية تولى عثمان ابن أبي نسعة على الأندلس، ثم من بعده حذيفة بن الأحوص القيسي ، ثم الهيثم بن عبيد الكنانى ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى الذى استشهد ببلط الشهداء . ثم ذكر اماره عبد الملك بن قطن على الأندلس ، ثم ولاية بلج بعد مقتل عبد الملك ، ثم ولاية ثعلبة بن سلامة العاملي ، ثم ولاية أبي الخطار الكلبي ، ثم ولاية ثوابه بن سلامة الذى ثار على أبي الخطار وهزمه ، ثم ولاية يوسف الفهري آخر أمراء الأندلس الذى دخل فى زمانه عبد الرحمن بن معاوية الأموى الى تلك البلاد

وأما صاحب « أخبار مجموعة فى تاريخ أمراء الأندلس » فذكر بعد اماره عبد العزيز بن موسى بن نصير اماره أيوب بن حبيب اللخمي، كان يؤم أهل الأندلس فى صلاتهم وكان رجالاً صالحاً، فولوه أمرهم بعد قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير، وهو ابن عمه عبد العزيز . وجاء بعده الحر بن عبد الله الثقفى^(١) (ولم يقل الحر بن عبد الرحمن الثقفى) ثم ذكر انه لم يستقر بالحرّ القرار حتى ولى عمر بن عبد العزيز رحمه الله الخلافة فعزل عبد الله بن يزيد والى إفريقية (ولم يقل محمد بن يزيد) وولاه اسماعيل بن عبد الله مولى بنى مخزوم وذلك أن الخلفاء كانوا اذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق يأتهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس واجنادها فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذى لا إله الا هو ما فيها دينار ولا درهم الا أخذ بحقه وانه فضل اعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية بعد أن أخذ كل ذى حق حقه . فأتى وفد إفريقية بخراجها وذلك أنها لم تكن يومئذ تفرأ فكان ما فضل بعد اعطيات الأجناد وقرائض الناس ينقل الى الخليفة . فلما وفدوا بخراج إفريقية فى زمان سليمان أمروا بأن يحلفوا خلف الثمانية وتكمل اسمعيل بن عبيد الله

(١) وبعض المؤرخين يسمونه الحر بن عبد الرحمن القيسى وهو واحد لان الثقفى قيسى وثقيف من بطون هوازن . وهوازن هو ابن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان

مولى بنى غزوم ، وتكل بنكوله السمع بن مالك الخولاني . فأعجب ذلك عمر بن عبد العزيز من فعلهما ثم ضمهما الى نفسه فاختر منهما صلاحاً وفضلاً . فلما ولى عمر ولى اسماعيل افريقية وولى السمع بن مالك الأندلس وأمره أن يغمس أرضها ويخرج منها ما كان عنوة، خمساً لله من أرضها وعقارها، ويقر القرى فى أيدي غنّامها بعد أن يأخذ الخمس وأن يكتب اليه بصفة الأندلس وأنهارها . وكان رأيّه انتقال أهلها منها لا نقطاعهم عن المسلمين ولت الله كان أبقاه حتى يفعل فإن مصيرهم الى بوار الا أن يرحمهم الله . فقدمها السمع سنة مائة فوضع يداً فى السؤال عن العنوة ليميزه من الصلح وفى اخراج البعوث . وبني القنطرة وذلك انه كتب الى عمر يستشيريه ويعلمه ان مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها وكان لها جسر يعبر عليه . نهرها ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض الشتاء عامة « فان أمرني أمير المؤمنين . ببنيان سور المدينة فملتُ فان قبلى قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات . الجهاد وان أحبّ صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم » فيقال والله أعلم ان عمر رحمه الله أمر ببنيان القنطرة بصخر السور وأن يبنى السور باللبن اذ لا يجده له صخرأ فوضع يداً فبنى القنطرة فى سنة احدى ومائة

ثم هلك عمر رحمه الله ، فولى يزيد بن عبد الملك بشر بن صفوان أخا حنظلة بن صفوان افريقية، فمزل بشر السمع بن مالك وولى عنبة بن سحيم الكلبى، ثم تتابعت ولاية الاندلس بعد عنبة . فوليا يحيى بن مسلمة الكلبى ، ثم وليها بعد يحيى عثمان ابن أبي نسعة الخثعمى ، ثم وليها بعد عثمان حذيفة بن الأحوص القيسى ، ثم الهيثم بن عفير السكناني ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله النافقي ، وعلى يديه استشهد أهالى بلاط الشهداء، واستشهد معهم واليهيم عبد الرحمن . وولى عبد الملك بن قطن المحاربى محارب فمر من قریش ، وولايته الاولى نحو من ستة أشهر، لم تطل . وكان من وصفنا من الولاة يباهدون العدو ويتوسمون فى البلاد حتى بلغوا افرنجة وحتى افتتحت عامة الاندلس (الى أن يقول) : ان هشام بن عبد العزيز رحمه الله بعث على مصر عبيد الله ابن الحبشاب بن الحارث مولى بنى سلول من قيس وجعل اليه أمر افريقية والاندلس .

فأقر بشر بن صفوان على إفريقية وولى عقبة بن الحجاج الأندلس . (ثم قال) :
فدخل الأندلس (أى عقبة بن الحجاج) سنة عشر ومائه فأقام عليها سنين وافتتح
الأرض حتى بلغ أربونة ، وافتتح « جليقية »^(١) و « البة »^(٢) و « بنلونة »^(٣)
ولم يبق بجليقية قرية لم تفتتح غير الصخرة فإنه لاذ بها ملك يقال له « بلاى » فدخلها
فى ثلثة راجل ، فلم يزالوا يقاتلونه ويغاورونه حتى مات أصحابه جوعاً وترامت طائفة
منهم الى الطاعة فلم يزالوا ينقصون حتى بقى فى ثلاثين رجلاً ليست معهم عشر نسوة
فيما يقال إنما كان عيشهم بالعدل ، ولأذوا بالصخرة فلم يزالوا يتقوتون بالعدل معهم
جباح^(٤) والنحل عندهم فى خروق الصخرة ، احترزوا وأعيى المسلمين أمرهم فتركهم
وقالوا : ثلاثون علجاً ما عسى أن يكون أمرهم ؟ واحتقروهم . ثم بلغ أمرهم الى أمر عظيم
سندكره اذا بلغنا موضعه ان شاء الله اهـ

ثم ذكر صاحب « أخبار مجموعة » ان عقبة بن الحجاج بقى أميراً على الأندلس
الى سنة ١٢١ اذ ثارت البربر فى إفريقية ودخلوا طنجة وقتلوا واليها عمر بن عبد الله
المرادى ، وشغل صاحب إفريقية بشر بن صفوان بهذه الثورة ، فوثب عبد الملك بن قطن
المحاربى على عقبة بن الحجاج ، فخلعه ولا أدري أقتله أم أخرجه ؟ فملكها بقية ٢١ و ٢٢
و ٢٣ حتى دخل باج بن بشر القشيري ثم الكعبي بأهل الشام . وقد وصفنا سبب
دخوله فى أحاديث تأتى بعد هذا

(١) جليقية أو غاليسية : يحدها من الشمال والغرب بحر الأوقيانوس ، ومن الجنوب البرتغال ، ومن
الشرق بلاد ليون و جبال أستوريش ، وفيها لقي العرب أشد المقاومة . وكان انضمام هذه البلاد الى
مملكة قشتالة سنة ١٠٧٣ لكنها بقيت حافظة استقلالها الداخلى الى زمان فرديناند وايزابلا ، ففى
عندها اندمجت فى بقية اسبانية . والاسبانيون يكتبون اسمها هكذا Galicia

(٢) Alava احدى مقاطعات شمالى اسبانية واقعة فى جنوبى البيرانه أهلها من الباشكنس

(٣) العرب كانوا يسمون ناقار بنلونة وأحياناً برونونة وقد يقولون لها نبرة . وهذه اللفظة

بنلونة Pampeluna اسم مدينة فى ناقار فيها قلعة

(٤) الجبح - بضم فسكون وبكسر فسكون - حيث تعسل النحل . قال فى لسان العرب : اذا كان غير
مصنوع والجبح أجبع وجبوح وجباح . وقيل : هى مواضع النحل فى الجبل

ثم ذكر ما معناه : انه بعد موت بلج القشيري تولى الأندلس ثعلبة بن سلمة العاملي ، وجار في سياسته ، وذهب وفد من الأندلس الى حنظلة بن صفوان أمير افريقية يشكون ما هم فيه ، فأرسل عليهم والياً أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي ، فأصلح الأمور ورضى به الشاميون والبلديون ، وكان رجلاً من خيار الناس وأُنزل أهل الشام في الكوّار . وبقي أبو الخطار أربع سنين وستة أشهر الى أن دخل الأندلس الصميل بن حاتم بن ثمر بن ذي الجوشن . وشمر هو الذي قتل الامام الحسين ابن علي رضي الله عنه ، وقتله بعد ذلك المختار بالكوفة ، فارتحل ولد الشمر عن الكوفة الى الجزيرة ، ثم ارتحلوا الى الأندلس مع جند قنبرين ، ورأس الصميل بالأندلس ودانت له قيس فيها واقتتل مع أبي الخطار وانهزم هذا ، وتولى ثوبة بن سلمة الجذامي ، ثم مات سنة ١٢٩ وتولى بعده يوسف بن عبد الرحمن بن عقبة بن نافع الفهري . وفي أيامه اشتدت العداوة بين قيس واليمن ، فأنحازت مضر وربيعة الى يوسف ومعه الصميل ، واجتمعت بمن الأندلس حيرها وكندتها ومذحجها وقضاعتها تحت لواء أبي الخطار . وكانت بين الفريقين أشد حرب عرفها العرب بعضهم مع بعض . قال صاحب « أخبار مجموعة » : وهي الفتنة العظمى التي بها يخاف بوار الاسلام بالأندلس الا أن يحفظه الله .

ومن كلام هذا المؤرخ الذي كتب هذا التاريخ في أيام الحكم المستنصر يظهر انهم كانوا يخشون على اسلام الأندلس البوار ، لا من جهة انقطاع مسلمي الاندلس من وراء البحر فقط ، بل من جهة الفتنة التي لا يفتروا واراها فيما بينهم . ولقد وقع ما كانوا منه يحذرون ، فما كان زوالهم من هناك بحرب الاسبانول لحسب بل كان أقوى عامل على زوالهم من الأندلس شدة عداوة بعضهم لبعض ، وهو مرض الفرقة الذي رافقهم الى الساعة الأخيرة من ملكهم هناك^(١)

(١) كان لم يبق للعرب في كل الأندلس الا مدينة غرناطة وكان الطاغيتان فرديناند وايزابلا آخذين منهم بالخنق الذي يقطع الانفاس وقد أقاما وعساكرهما بمسكن من الحجر بدلا من الخيام ايذاءً بأنهما لن يهلما عنها . وكان أهل غرناطة مع ذلك يقاتلون الاسبانول في النهار ثم يعودون

رجع الحديث الى حرب القيسية واليانية

ذكر صاحب « أخبار مجموعة » ان ابن حريث ^(١) وأبا الخطر زحفا الى يوسف والصميل ^(٢) بقرطبة ، فأقبلا حتى نزلا على نهر قرطبة بقبليها بقرية « شقندة » ^(٣) . وعبر يوسف والصميل النهر اليهما بمن معهما . فالتقوا حين صالوا الصبح فتطاعنوا على الخيل حتى تقصفت الرماح وثبتت الخيل وحملت الشمس . ثم تداعوا الى البراز فتنازلا وتضاربوا بالسيوف حتى تقطعت . ثم تقابضوا بالأيدي والشعور ولم يكن في الاسلام صبر مثله الا ما يذكر من صفين ^(٤) . ولم يكن القوم بالكثير لاهؤلاء . ولا هؤلاء وانما كانوا خيار الفريقين ، وكانوا متقاربين ، الا ان اليمن كانوا أكثر قليلا . فلما أعيا بعضهم بعضاً تواقفوا يضرب بعضهم وجوه بعض ، بالقسي والجعاب ، ويحس بعضهم التراب على بعض ، اذ قال الصميل ليوسف : ماوقفنا اذ خلفنا جنداً نحن منهم في غفلة قال : ومن هم ؟ قال : أهل السوق بقرطبة . فرد اليهم يوسف مولاه خالد بن يزيد وصاحب سوقه ، فأخرجهم منهم نحواً من أربعائة راجل معهم الخشب والعصى ومع قليل منهم السيف والمزراق فخرج الجزّارون بسكاكينهم نجاءوا الى قوم موثق وقد مضت الظهر والعصر لم يصلوها لاصلاة خوف ولا أمن ، فجدّوهم وقتلوا وأسروا بشراً كثيراً خياراً ، وأسروا أبا الخطار وابن حريث وكانا الأميرين . وكان ابن حريث .

مساء فيقتتلون في البلدة بعضهم مع بعض ، حارة غرناطة مع حارة البيازين . راجع كتابنا « آخر نبوءة سراج » مع ذيله . واذا أراد الله شيئاً حياً أسبابه

(١) يحيى بن حريث على وزن أمير : كان أميراً بكورة رية وبها سكنى أهل الاردن

(٢) الصميل على وزن أمير

(٣) الاسبانول يكتبونها Xecunde

(٤) حرب صفين بين علي ومعاوية هي التي أخرت سير الاسلام الى الامام بعد أن كان أوشك أن يشمل الأرض . ولقد اضطر معاوية بسببها أن يهادن الروم . قال البلاذري في « فتوح البلدان » ان معاوية صالح الروم على أن يؤدى اليهم مالا . وحرب القيسية واليمينية في الاندلس كانت التلعة التي اقتنعت منها الاسبان والافرنج على العرب حتى نكص هؤلاء الى الورا . وما زالوا

لما رأى أهل سوق قرطبة يقتلون أحبابه تغيّب ودخل تحت سرير الرحي التي بموضع بيع الخشب . فلما أسروا أبا الخطار وهما يقتله قال : ليس علىّ قوت ولكن عندكم ابن السوداء ابن حريث . فدلّ عليه فأخرج وقتلا جميعاً . وكان ابن حريث يقول : لو أن دماء أهل الشام جمعت لي في قدح لشربتها . فلما استخرج قال له أبو الخطار : يا ابن السوداء هل بقي في قدحك شيء لم تشربه ؟ فقتلا ، وأسر منهم بشر كثير . ثم أتى بالأسرى وقعد الصميل في كنيسة كانت في داخل مدينة قرطبة ، وهي اليوم موضع مسجد الجامع ، فضرب أوساط سيعين منهم . فلما رأى ذلك أبو عطاء بن حمد المرّ قام إليه فقال له : أبا جوشن أغمد سيفك أو ارجع سيفك . قال له : أقعد أبا عطاء فهذا عزك وعز قومك . فجلس ولم يغمد السيف . ثم قام إليه فقال له : يا عرابي ، والله إن تقتلنا إلا بعداوة صفين لتكفن أولادعون بدعوة شامية . فأغمد سيفه وأمن الناس على يدي أبي عطاء بعد بلاء عظيم ، فيقال والله أعلم : إن تلك الواقعة توجد في بعض العلم أنها قاطعة الأرحام ^(١) . وكانت قبل سنة إحدى وثلاثين ومائة ، قال : فأعقبهم الله بالجوع والقحط فجاءت الاندلس سنة اثنتين وثلاثين ثم سنة ثلاث ، فثار أهل جليقية على المسلمين وغلظ أمر علج يقال له بلای ، قد ذكرناه في أول كتابنا ، ففرج من الصخرة ^(٢) وغلب على كورة « واستورس » ^(٣) ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه أهل « استورقة » ^(٤) « زمانا طويلا حتى كانت فتنة أبي الخطار وثوابه » ^(٥)

ينكصون إلى أن عادوا من حيث أتوا وأكروا كما أرموا وانطوى من هناك بساطهم الطويل العريض وكان وعد الله مأتياً

(١) قرأت في كتاب « تاريخ مسلمي اسبانية » لدوزي المستشرق الهولندي الذي يعده الاوربيون أفضل مؤرخ لدولة العرب في اسبانية كلاماً معناه أن بغض قيس لليمين وبغض اليمين لقيس هو أشد من بغض العرب للامم الاعجمية . فتأمل

(٢) يقال لها صخرة Aguilar « اغيلار »

(٣) Asturias

(٤) استورقة : من بلاد ليون في شمال اسبانية ، والاسبانيول يكتبونها Astorga

(٥) أي أن هذه الفتنة بين العرب بعضهم مع بعض اهتبل الاسبانيول فيها الغرة فأخرجوا المسلمين

فلما كان في سنة ثلاث وثلاثين هزمهم وأخرجهم عن جليقية كلها، وتنصر كل مذبذبه في دينه وضعف عن الخروج، وقتل من قتل وصار فلهم إلى خلف الجبل إلى « استورقة » حتى استحكم الجوع فأخرجوا أيضاً المسلمين عن استورقة وغيرها وانضم الناس إلى ماوراء الدرب الآخر وإلى « قورية ^(١) » و « ماردة ^(٢) » في سنة ست وثلاثين واشتد الجوع فخرج أهل الاندلس إلى طنجة وأصيلا وريف البربر ممتارين ومرتحلين وكانت أجازتهم من واد بكورة « شذونة ^(٣) » يقال له وادي « برباط ^(٤) » فتلك السنون تسمى سني برباط نحف سكان الاندلس وكاد أن يغلب عليهم العدو إلا أن الجوع شملهم اه

هذا ما اخترنا تلخيصه وتمحيصه من أخبار الامراء الذين تعاقبوا على الاندلس والذين كانوا يفزون افرنجية أو فرنسة . ولنصف اليهم ما ذكره ابن عميرة صاحب « بنية الملتنس في تاريخ رجال أهل الاندلس » ^(٥) فهو يذكر الحر بن عبد الرحمن القيسي ويقول انه عزل بعنسة بن سحيم الكلبي، ويقول ان عنسة تولى الاندلس سنة ١٠٦. من قبل بشر بن صفوان امير افرريقية في أيام هشام بن عبد الملك ومات سنة ١٠٧ وقيل ١٠٩

واما ابن خلدون فيذكر أن ولاية عنسة بن سحيم كانت من قبل يزيد بن أبي مسلم عامل افرريقية، لا بشر بن صفوان، وأن بشر بن صفوان كان والياً على افرريقية

من جليقية. وهكذا تأسست الدولة الأسبانية الاولى بعد الفتح العربي وما زالت تشد وتعتد حتى أخرجت المسلمين من كل اسبانية

(١) Coria

(٢) Merida من بلاد بطليوس في غرب الاندلس

(٣) Sidonia

(٤) بقرب طرف الاغر Trafalgar وتكتب بالاسبانيولي Barbate

(٥) احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة الضي. له تاريخ بنية الملتنس وصل فيه إلى أوائل دولة الموحدين وذكر واقعة الارك الشهيرة التي أдал الله فيها للمسلمين على الأذفش الملقب بالانبراطور وتاريخها ٩ شعبان ٥٩١

وقت مقتل عنبسة . ولما بلغه الخبر أرسل مكانه والياً على الأندلس يحيى بن مسلمة الكلبي . ويقول ابن خلدون : ان استشهاد عنبسة كان في أرض الفرنجة سنة ١٠٧ .
وين ابن خلدون وصاحب « أخبار مجموعة » اختلاف في الأسماء ، لعله من تصحيف النسخ . ففي نفح الطيب نقلاً عن ابن خلدون يذكر « الهيثم بن عبيد الكلبي » - وهكذا في صبح الأعشى - وفي « أخبار مجموعة » الهيثم بن عفير الكنانى . ثم ان صاحب « أخبار مجموعة » يذكر بعد الهيثم ولاية عبد الرحمن الغافقي بلا فاصل ، على حين أن ابن خلدون يذكر بعد الهيثم محمد بن عبد الله الأشجى . ولعل صاحب أخبار مجموعة أهمله لقصر مدته لأنه لم يلبث الا شهرين

وأما ابن عذارى فيذكر في « المغرب » أن بشر بن صفوان تولى افرقية مرتين وفي الثانية منهما ولى على الأندلس عنبسة بن سحيم . ثم يقول انه سنة ١٠٧ ولى على الأندلس يحيى بن سلمة الكلبي . ومن هنا يعرف أن مقتل عنبسة بن سحيم بأرض افرنجة غازياً كان سنة ١٠٧ وهذه هي رواية ابن عميرة وابن خلدون أيضاً . والمستشرق رينو^(١) يقول انه قتل سنة ٧٢٥ مسيحية . والمؤرخ كوندي الاسبانيولى يجعل قتله سنة ١٠٦ هجرية الموافقة ٧٢٤ مسيحية

ولنرجع الى تاريخ رينو عن غارات العرب على فرنسة فهو يقول :

ان السمع بن مالك الخولاني الذى تولى الأندلس فى خلافة عمر بن عبد العزيز بعد أن سكّن الدهاء وأصلح الأمور فى الداخل أعمل همته فى الجهاد ليستأنف المسلمون الحرارة الأولى وليجدد عزائمهم بعد الالتياث ويمقد صرائعهم بعد الانتكاث قال : وكان ذلك سنة ٧٢١ مسيحية ، فى خلافة يزيد بن عبد الملك ، وكان مضى على فتح العرب للأندلس احدى عشرة سنة لا غير . فأجاز السمع الى بلاد فرنسة ، تفيض بجيوشه أقطارها ، وزعم مؤرخو الافرنجة المعاصرون أن العرب جاءوا ومعهم نساؤهم

(١) . استشهاد رينو على هذه الرواية بتاريخ دير « مواساك » Abbaye de Moissac الذى فى مجموعة « مؤرخى بلاد الغال » Recueil Des Historiens des Gaules للدون « بوكيه » Don Bouquet الراهب البندىكنى المشهور فى علم التاريخ ولد فى « آميان » سنة ١٦٨ وتوفى سنة ١٧٥ . واستشهد بمجموع آخر اسمه مجموع « موزاتورى » Recueil de Muratori

وأولادهم لأنهم كانوا على نية الاستقرار في البلاد . قالوا وكان الفقراء والمحايج يأتون من جزيرة العرب والشام ومصر وأفريقية ومعهم عائلاتهم لأجل سد مفارقهم بالفتوحات وارتياح الرزق من وراء الغارات

قال رينو : ولم يزل السماح يتقدم بجيشه الى أن صار امام أربونة فحصرها ولم يلبث أن فتحها وقتل رجالها وسبي نساءها وذرائعها . وكانت أربونة بمصاقتها للبحر وسهولة الوصول اليها بالسفن من اسبانية ثم بمنعتها الطبيعية من جهة البر تصلح أن تكون مسلحة للعرب في أرض افرنجة . فزاد السماح في تحكيم حصونها ووضع الحاميات في المدن المجاورة لها

الكلام على مدينة أربونة Narbonne

كانت زيارتي لأربونة بعد أن قفلت من الأندلس، لا كما كانت زيارتي لطلوزة . وقرقشونة، أى قبل أن دخلت اليها . وأربونة هي كما لا يخفى المدينة التي توجهت اليها همة العرب أكثر من الجميع من أرض فرنسة . وذلك لكونها على كثر من البحر ولسهولة التوصل اليها من الأندلس على الماء ، وكونها لذلك العهد أهم حاضرة افرنسية في جوار اسبانية، فكان العرب اذا أفاضوا من جبال البيرانه ناحرين الشمال يجدون أربونة هي المدينة الأولى التي تستقبلهم

وموقع أربونة هو على ارتفاع ١٠ أمتار فقط عن سطح البحر الملح، وعلى مسافة ١٤ كيلومترا منه الى الشرق . ونهر الأود يمر بالقرب منها، والسهول التي بينها وبين البحر هي متكونة من الرواسب التي أبقاها هذا النهر بجريه من آلاف وآلاف من السنين وهي الآن مدينة من الدرجة الثالثة، لا يزيد عدد أهلها على ٣٠ ألفاً. ومناخها شبيه بمناخ المدن العربية أى انها لطيفة الشتاء نادرة الثلج حارة القيط لولا نسبات لطاف تهب عليها أحيانا من جهة البحر فتخفف من حرارتها . وفي مدة تزيد على نصف السنة تعصف الرياح في أربونة من الشمال الغربي، وتسفى التراب وتكدر صفو المزاج، ولكنها تفيد في تنشيف ماحول أربونة من المستنقعات . وأكثر حاصلات أربونة من الكرم

وفيهما جميع أشجار البلاد الحارة وقد شاهدت فيها التين والزيتون والصبير
ويعر بأربونة جدول اسمه «رويين»^(١) مشتق من قناة الجنوب المستمدة من الأود
وأربونة من أقدم مدن الأرض عثروا فيها على آثار الآدميين، من العصر الحجري، وعلى
قبور مما قبل التاريخ. وفي أواخر القرن الثاني عشر قبل المسيح أغار الساميون على
أربونة. واستقروا بها. وكانت لهم علاقات تجارية مع اليونانيين الذين كانوا يترددون
إلى سواحل بروفانس والكاتالان

وقد جعل الجليل المسمى «بالفولسك»^(٢) مدينة أربونة حاضرة لهم. وجاء
الرومان سنة ١٢١ قبل المسيح فافتتحوها وصارت في أيامهم مركزا تجاريا عظيما
تضارع مرسلية. وكان الولاة الرومانيون يقيمون بها، وكانت لها امتيازات لهدم
عريضة، وبلغ عدد أهلها مائة ألف نسمة في ذلك العصر. سنة ١٤١٣ استولى
عليها القوط وتزوج فيها ملكهم ادولف بالأميرة «بلاسيده غاله»^(٣) اخت الامبراطور
الروماني، وكانت لرفاهه فيها حفلة عظيمة. ثم استولى على أربونة «غونديود»^(٤) ملك
البرغونديين^(٥)، لكنه لم يتمتع بها طويلا، وعادت للقوط، وثبت هؤلاء فيها
برغم غارات الفرنج عليها

نقلنا هذه الخلاصة عن «دليل أربونة»^(٦) ولندكر ما جاء في هذا الدليل
بشأن العرب، قال: في أوائل القرن الثامن للمسيح ظهر العرب على «سبتيانة»

La Robine (١)

Volsques (٢)

Placida - Galla (٣)

Gondebaud (٤)

(٥) Burgundes شعب جرمانى أغار على بلاد الغال سنة ٤٠٦ للمسيح واستوطن
وإلى الرون أو ريدون وأخذ بالثقافة اللاتينية وامتزج بالغالين. وقد تزوج كاوفيس ملك فرنسا
بأبنة غونديود ملك البورغوندي أو البورغون هؤلاء. وكان العرب يقولون لهم البرجان

(٦) اسمه Narbonne Historique et Archéologique

وافتح « زاما »^(١) أربونة سنة ٧١٩ بعد خصار استمر ثمانية وعشرين يوماً فقتل الرجال وسبي النساء والأطفال . ثم نظر « زاما » الى أهمية أربونة الجغرافية لحصنها وشحنها بالميرة . وهكذا تمكن العرب فيها من صد غارة شارل مارتل الذي حاصر أربونة سنة ٧٣٢ بعد أن هزم العرب في معركة بواتيه . ثم ان « بين » القصير حاصر أربونة سنة ٧٥٢ ونكص عنها ، ولم يتمكن منها سوى شارلمان سنة ٧٥٩ وذلك بعد أن حاصرها مدة سبع سنوات . فان الأهالي الذين في البلدة كانوا ملوا هذا الحصار الطويل فثاروا بالحامية العربية وذبجوها . وعاد العرب سنة ٧٩٢ فحاصروا أربونة ، فبعث شارلمان لنجدة بها بعثاً عدته عشرون ألف مقاتل ، عقد لواءه للفارس المشهور غليوم^(٢) وتلاقى الجمعان بقرب أربونة ، فاستأصل العرب جيش الافرنج ولم يبق من هؤلاء الا غليوم وثلاثة عشر من رفاقه ، وسلم أنف غليوم في المعركة ولقب من ذلك اليوم بذى الأنف القصير . الا أنه أحرز مجد قتل عبد الملك أمير الجيش العربي بيده . فأما أربونة فبرغم انكسار الافرنج ذلك اليوم لم تسقط في أيدي العرب انتهى ما جاء في دليل أربونة . وهذا غير مطابق لما في تواريخ العرب . انظر الى ما جاء في نفح الطيب في هذا الصدد ، قال : « كان هشام (ابن عبد الرحمن الداخل الأموي) يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز ، وكان يبعث يقوم من ثقاته الى الكور ، فيسألون الناس عن سير عماله ويخبرونه بحقائقها . فاذا انتهى اليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه أو أنصف منه ولم يستعمله بعد . ولما وصفه زياد بن عبد الرحمن لمالك بن أنس قال : نسأل الله تعالى أن يزين موسمنا بمثل هذا »^(٣) . وفي أيامه

(١) السمح بن مالك الخولاني أمير الأندلس من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز . وفي أربونة

اليوم شارع باسم السمح Rue, de Zama

(٢) Guillaume au court nez

(٣) قد بلغ هذا الكلام عن سيدنا مالك رضى الله عنه الأمير هشاماً الأموي صاحب الأندلس . فال الى مذهبه في الفقه ، وحل عليه أهل الأندلس ، وكانوا من قبل يتفقون على مذهب سيدنا الأوزاعي رضى الله عنه . وقد استوفينا الكلام على ذلك في الكتاب الذي حررناه عن الأوزاعي وهو الآن تحت الطبع

فتحت أربونة الشهيرة، واشترط على المعاهدين من أهل جليقية^(١) من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أربونة المفتحة يحملونها إلى باب قصره بقرطبة وبني منه المسجد الذي قدام باب الجنان ونضات منه فضلة بقيت مكومة . وقاسى مع المخالفين له من أهل بيته وغيرهم حروباً، ثم كانت الدائرة له. وقصد إلى بلاد الحرب غازياً ، وقصد « ألبه »^(٢) والقلاع، فلقى العدو وظفر بهم وفتح الله عليه سنة خمس وسبعين . وبعث العساكر إلى جليقية مع يوسف بن بخت ، فلقى « ابن منده »^(٣) وهزمه، وأُخِن في العدو . وفي سنة ست وسبعين بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد ابن مغيث^(٤) لغزاة العدو، فبلغ ألبه والقلاع فأُخِن في نواحيها. ثم بعث في العساكر سنة سبع وسبعين إلى أربونة وجريدة^(٥) فأُخِن فيها ووطى أرض برطانية^(٦) .

- (١) العرب كانوا يسمون بالجلالة أهالي غاليسيا في شمالي إسبانية وأهالي جنوبي فرنسا أحياناً
(٢) Alava وقد تقدم ذكرها
(٣) لا أعلم أن كان هذا هو الاسم الحقيقي أو كان محرفاً عن « برمودة » Bermude وهو ملك كان في جليقية نزل في آخر الأمر عن الملك للأدقش لأنه كان أضلع به منه . اتنا لم نقرأ اسم مالك ولا أمير إسباني اسمه « ابن منده » وتحرير العرب أسماء الأفرنج وتحرير الأفرنج أسماء العرب بحر لا يلجج فيه
(٤) المؤرخ الأسباني كوندى يذكر أن الأمير هشاماً أرسل جيشاً إلى جبال الاشتوريش Asturica عدته ٣٩ ألف مقاتل بقيادة عبد الواحد بن مغيث لا عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث . وقد ذكرنا أن المحققين لا يمدحون تاريخ كوندى ولا يثقون بسبل تلته
(٥) Gironde هي إحدى مقاطعات فرنسا الجنوبية الغربية ، يحدّها اليوم من الشمال شارانت Gharente السفلى ، ومن الغرب خليج غامسقونيا ، ومن الجنوب مقاطعة اللاند Landes ومن الشرق مقاطعة لودوغارون Lot - et - Garonne ومقاطعة دوردون Dordogne
(٦) مقاطعة عظيمة من غربي فرنسا Bretagne أهلها من الجنس الساق ولتتهم غير الفرنسية يحد برطانية من الشمال بحر المانش ، ومن الغرب والجنوب الغربي البحر المحيط ، ومن الجنوب الشرقى « بواتو » ومن الشرق « أنجو » و « ماين » ومن الشمال بلاد نورمانديا . وكانت برطانية مستقلة في القديم تولاها ٣٥ أميراً وما استلحقها فرنسا إلا في أيام فرنسوا الأول سنة ١٥٣٥ ولا تزال فيها بقايا عصبية تنزع إلى الاستقلال عن فرنسا . والأرجح أن لا يكون أراد هنا برطانية برطانية الفرنسية بل امبرطانية الكتالانية . وعند ذلك يلزم أن لا تكون البلاد التي قبها جريدة

وتوغل عبد الملك في بلاد الكفار وهزمهم. ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد الى بلاد جليقية ، فانتهى الى «استرقة»^(١) فجمع له ملك الجلائقة واستمد بملك الباشكنس ثم خام عن اللقاء ورجع أدراجه وأتبعه عبد الملك ، وكان هشام قد بعث بالجيوش من ناحية أخرى فالتقوا بعبد الملك وأخذوا في البلاد ، واعترضتهم عساكر الفرنج فنالوا منهم بعض الشيء ثم خرجوا سالمين ظافرين اه

فمن هنا يظهر أن العرب عادوا فافتتحوا أربونة في زمان الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل، ولكن الرواية عن الفتح التام والاستقرار تضعف بقول المقرئ في النسخ: «ثم بعثه في العساكر الى أربونة، وجرندة فأخضع فيها» فإذا كان قد تم له فتحها فلاح محل لغزوها ثانية مرة والأخضع فيها. وقد جاء ذكر الأمير هشام في المعركة الإسلامية لهوتسا وباسيت ورفاقها، ولم يذكروا أنه فتح أربونة وإنما قالوا أنه أغزى مراراً الجيوش الإسلامية بلاد النصراني وجنوبي فرنسة، ووصلت جيوشه إلى «استرقة» و«أوبياده»^(٢) من المملكة التي أسسها بقايا ملوك المسيحيين في إسبانية ، ممن لم يخضعوا للعرب، من أعقاب بلای^(٣)

التي هي في جنوبي فرنسة وقاعدتها بوردو بل جرندة التي هي من مقاطعات كتالونيا أي جرندة التابعة لبرشلونة والتي يقال لها اليوم جيرونه ، فإن اسمها الروماني القديم جرندة Gerunda وكان اسمها هذا هو المستعمل يوم فتحها العرب . نبتني الى ذلك ولدنا الفاضل محمد القاسي الفهري وقال لي انه لم يزل بفاس الى الآن عائلة من الأندلس يقال لها عائلة الجرندى نبتني منها علماء أعلام مثل أبي العباس أحمد بن علي بن عبد الرحمن الجرندى الأندلسي المتوفى بفاس سنة ١١٢٥ ترجمه القادري في نشر الثاني، والكتاني محمد بن جعفر في سلوة الانفاس . ولا شك في أن العرب سكنوا جرندة الكتالونية طويلا ولكنهم لم يسكنوا جرندة التي عاصمتها بوردو ولا عرفوها الا في الغزوات عابري سبيل . روى لي محمد القاسي أن المستشرق الاسباني قديره Codera كتب فصلا خاصاً عن فتح العرب للمدن الثلاث: برشلونة وجرندة وأربونة ، يتلخص منه أن العرب فتحوا جرندة عند ما فتحوا الاندلس، وبقيت في أيديهم حتى انتزعها منهم شارلمان سنة ٧٨٥ ثم استردها العرب سنة ٧٩٣ ثم أخذت منهم سنة ٧٩٧ أو ٧٩٨ ثم عادوا ففتحوها ثم أخرجوا منها نهائياً سنة ٨٠٠

(١) Astorga من بلاد ليون في شمالي اسبانية

(٢) Oviedo وابن حوقل يسميها أوبيط

(٣) Pélage أول من ملك على فل الاسبانيون وأسس دولتهم المستقلة بعد فتح العرب للاندلس وسندكر خبره وخبر أعقابها تفصيلا في الجزء الثاني

وغزا جيرونة ^(١) وأربونة . ولم يرد في الانسيكلوبيديا الاسلامية أنه فتح أربونة
أما المؤرخ الاسبانيول كوندى فانه يذكر غزوات الأمير هشام في جليقية
بالجيش الذى أرسله تحت قيادة الحاجب عبد الواحد بن مغيث ، وغزواته في نواحي
البيرايه بالجيش الذى أرسله تحت قيادة عبد الله بن عبد الملك ، ويقول : ان عبد الله هذا فتح
جيرونة سنة ٧٩٣ وفق ١٧٧ . وبعد أن فاز بفتح هذه البلدة زحف صوب الشمال فعبّر
البيرايه وفتح أربونة وذبح أهلها واكتسح أقطارها ، ووصل إلى قرقةشونة حيث
تجمعت لصدّه أمراء البلاد قاطبة ، وناجزته الحرب بين قرقةشونة وأربونة ، فظهر المسلمون
في هذه المعركة ، وانهزم المسيحيون انهزاماً غير تام ، يدل على ذلك أن عبد الله قفل
راجماً إلى الاندلس بعد تلك الطائلة . وقيل : ان سبب تقوله هو خونه أنه بطول
القتال يفقد الغنائم الوافرة التى كان غنمها . وقالوا : ان هشاماً جعل هذه الاموال في
بناء جامع قرطبة . ثم ان الامير ولى عبد الله بن عبد الملك سرقة ، وسرح عبد الكريم
ابن الحاجب عبد الواحد إلى جليقية فمات ودمر ، ولكنه سقط في كمين دبره له
الاذفئش ، وهلك فيه أكثر عسكره وقواده ومنهم يوسف قائد الفرسان

وأما المستشرق رينو في كتابه « غارات العرب على فرنسا ومن فرنسا على
سافواى وبيجونت وسويسرة » فانه يذكر ما رواه مؤرخو العرب عن هذه الغزاة وما
تابعهم فيه لذريق شيمينييس ، ويروى قصة أحمال التراب التى حملها اسارى المسيحيين
المساكين على ظهورهم وبالجملة من مسافة مائتى مرحلة ، ويقول ان مؤرخى العرب
زعموا سقوط أربونة تلك النوبة في أيديهم ، ولكنه يستبعد هذا الأمر بسبب كون
المؤرخين المسيحيين لم يذكروا ذلك ولو بمناسبة دخول المسيحيين ثانية إلى أربونة . ثم
يقول ان النويرى الذى روى خبر هذه الغزاة يفيض تفصيلاً لم يصرح بأن جيوش
العرب استولت على أربونة في هذه الغزاة واستقرت فيها ^(٢) ، وسنذكر بقية هذا

(١) Gironna من بلاد السكنالان تابعة لبرشلونة

(٢) قال المسودى في سروج الذهب بعد أن روى واقعة سمورة على جيش عبد الرحمن الناصر

البحث فيما يأتي عند الكلام على غزوات بني أمية في فرنسا

ما نصه : وأخذ ما كان بأيدي المسلمين من ثغور الأندلس مما يلي الفرنجة . ومدينة أربونة خرجت من أيدي المسلمين سنة ٣٣٠ مع غيرها، مما كان بأيديهم من المدن والحصون، وبقي ثغر المسلمين في هذا الوقت وهو سنة ٣٣٦ من شرق الأندلس طرطوشة، وعلى سائر بحر الروم مما يلي طرطوشة إفراغة على نهر عظيم ثم لاردة. انتهى

ثم ذكر دوزي الهولندي، ادرى من حرر تاريخ عرب الأندلس من الأوربيين، وذلك في الجزء الثالث من « تاريخ الاسلام في اسبانية » انه بعد ثورة « بيلاي » جرت حوادث أخذت بأيدي الأستوريين، وهي أن مسلمي شمال اسبانية كان أكثرهم من البربر فثاروا على العرب ووقعت بين الفريقين الوقائع، وظهر البربر في البداية على العرب، ثم عاد هؤلاء فأخذوا بالنار وغلظوا على البربر فأجلبأوهم إلى الجلاء راجعين إلى أفريقية، وعلى تقيمة ذلك حصلت مجاعة شديدة استمرت نحواً من خمس سنوات متوالية، فلم يبق من البربر هناك إلا النزر . وخلت الديار تقريباً من المسلمين فثار الأستوريون تحت قيادة الأذفنش صهر « بيلاي » وذلك سنة ٧٥١ مسيحية، وذبحوا من بقي من المسلمين، ولم يبق منهم أحد في « براغة » ولعل براغة هذه هي التي يسميها المسعودي إفراغة (لأن القاء يلقظها الأسبان باء) Braga ولا في « بورتو » Porto ولا في « فيزو » Viseu . وأصبح جميع الساحل إلى مصب نهر « دورو » أي الوادي الجوفي Duero خالياً من المسلمين . ثم انكشف المسلمون عن « استرقة » Astorga و « ليون » Léon و « سمورة » Zamoura و « دجنة » Diesma و « طلمنكة » Talamancha فاستقروا في « قورية » و « ماردة » Merida وأما من جهة الشرق فجلا المسلمون عن « سردانة » Serdana و « سمينكة » Simankas و « سيقويه » Segovia و « ابيله » Avila و « أوقة » Oca و « ميرانده » Miranda على نهر « أبره » Ebra . وصارت ثغور الإسلام « قويمرة » Coimbra وقورية و « طلبيرة » Talavera و « نطيلة » Tudela و « بنبلونة » Pampelona

رجع الحديث الى السمع بن مالك الخولاني

وغارات العرب على فرنسة

قال رينو :

وبعد أن انتهى السمع من أمر أربونة ، وشجن المدن المجاورة لها بالمقاتلة ، زحف نحو
طلوزة ^(١) وكانت وقتئذ عاصمة أكيثانية ^(٢) فشد « اود » ذوق أكيثانية كل ما قدر
على حشده من الجنود ، وخف لصد العرب عن المدينة ، بينما كانوا قد أخذوا بمخنقها
واستعملوا المنجنيقات وسائر آلات الحصار في قتالها إلى أن أوشك أهلها أن يسلموها .
وإذا باود قد أقبل بجيش يسد الفضاء حتى قال مؤرخو العرب ان العثير المتطاير من
زحف أقدامهم كان ينطلي عين الشمس من كثرتهم ، فتلا السمع لعسكره الآية القرآنية :
(ان ينهركم الله فلا غالب لكم) ولما تدانى الجمعان خيل أن الجبال تلاقى بعضها
ببعض ، وكانت المعركة من أهول ما تتصوره العقل ، وكان السمع يظهر في كل مكان وسيفه
ينطاف دما وهو يشدد عساكره بقوله وبفعله . وكان كالفتح الهائج لا يرد رأسه شيء
أو كالأسد الزائر يحمل على العدو فلا يقف أحد في وجهه ، فهاهو إلا أن أصابته طمئة
خر بها صريعا عن جواده . فلما رآوه المسلمون مجذلا ^(٣) فت في أعضادهم ونكسوا على
أعقابهم ، وتركوا قتلاهم بالعراء ورجعوا إلى الورا . وكانت هذه الواقعة في شهر مايو من
سنة ٧٢١ وطاح فيها عدد من فرسان المسلمين المغاوير الذين شهدوا الفتوحات السابقة .
ولقد تولى قيادة الجيش ، بعد قتل السمع وتقهقر العرب ، عبد الرحمن (النافق) وعاد
به إلى الأندلس ^(٤)

Toulouse (١)

Aquitaine (٢)

(٣) جاء في « بنية الملتهس في تاريخ رجل الأندلس » لابن عميرة الضبي ما يلي في حرف
السين : السمع بن مالك الخولاني ثم الحياوى ؟ أمير الأندلس استشهد في قتال الروم بالأندلس في
ذي الحجة يوم التروية سنة ١٠٣

(٤) استشهد رينو هنا بكوندى الاسبانيولى وايزيدور الباجى واستاز السكتي صاحب ترجمة

ولما شاع خبر هذه الواقعة دبّت الحماسة في قلوب أهالي اللانغدوق والبيرانه وهبوا لخلع طاعة العرب وحيت أنوفهم ، إلا أن هؤلاء كانوا لا يزالون متمكنين في أربونة ، وكانت قد جاءتهم نجدات من الأندلس فعادوا يشنون الغارات منها على البلاد المجاورة ، وآذت جيوشهم تتقدم من كل مكان وتجر بجرائم الطاعة أنوف السكان وكان الرهبان والقسيسون في ذلك الوقت هم أصحاب الكلمة العليا ، وكانت الكنائس والأديار مملأة بالنفائس والذخائر ، فلم يكن من العجب أن تتوجه همه العرب قبل كل شيء إلى اجتياح هذه المعابد وصب البلاء على الرهبان . ولم يكن من العجب أن يكون هذا القسم من تاربخنا مملأ بقصص تدمير العرب للأديار والبيع ، لأن الذين كانوا يكتبون اذ ذاك إنما كانوا من الرهبان والا كاييريكين ، فكان معظم كلامهم الحديث عما حلّ بأديارهم وتقديعها على ديارهم

فقد جاء في تواربخ الرهبان الذين شهدوا تلك الوقائع أن العرب هدموا دير « جوسل »^(١) بقرب « بيزيه »^(٢) ودير القديس « بوزيل »^(٣) بقرب « نيم »^(٤) ودير « صنجيل »^(٥) بقرب « آرل »^(٦) . والدير المشهور بالثروة المسمى بدير التريل^(٧) بقرب « آغيمورت »^(٨) . وكان يسمى كذلك لأن الرهبان كانوا ألزموا أنفسهم فيه النشيد الدائم بتسبيح الرب ، وذلك على أنه كلما تعبت طائفة خلفتها طائفة في التريل فلا ينقطع التريل من الدير لا ليلاً ولا نهاراً . فدهم العرب هذه الأديار كلها بفتة ، منحدرين عليها انحدار العقبان ، بحيث لم يقدر الرهايين الذين فيها

حياة البابا غريغوار الثاني ومجموعة مواساك التي فيها كتاب مؤرخي فرنسا

Jaucels (١)

Beziers (٢)

Saint-Bausile (٣)

Nimes (٤)

Saint-Gilles (٥)

Arles (٦)

Psalmodie (٧)

Aiguemortes (٨)

الا أن يخلصوا ، نجيحاً برقابهم ويضع ذخائر القديسين التي كانت عندهم^(١) ، وكان العرب أول ما يعمدون الى الأجراس والنواقيس فيكسرونها^(٢) وكانت بعض عصائب من أهالي البلاد تقايل العرب في الاحايين ، وكان هؤلاء لا يسيئون معاملة الذين يدخلون في طاعتهم بدون مقاومة ويكفونهم القتال

ثم انه في سنة ٧٢٤ تولى امارة الأندلس غنبة (ابن سحيم السكابي)^(٣) واجتاز جبال البيرانية بجيش جرار ، وأوغل في البلاد ، وفتح قرقشونة وأوقع بمن وجد فيها ، ثم فتح نيم واخذ من أهلها رهائن أرسلهم الى برشلونة^(٤) وقد كانت فتوحات غنبة بحسب رأى ايزيدور الباجي فتوحات حذق ومهارة أكثر منها فتوحات بطش وقوة ، ولذلك تضاعف في أيام غنبة خراج بلاد الغال . وقيل ان غنبة نفسه قد زاد الخراج على الأهالي ، ولا يظهر أن ذلك صحيح . وانما ازداد الخراج بتوفيره وبحسن تديره . ثم ان غنبة وقع قتيلا في احدى الوقائع سنة ٧٢٥ فخلفه في القيادة « حديرة » وجاءت الى هذا نجدات من الأندلس ، وعادت ريح الاسلام فعمصفت ببلاد النصرانية من كل جهة ، بحسب تعبير أحد مؤرخي العرب . فالسبتيانية الى حدود الرون و«الالبيجوا»^(٥) و«الرورخ»^(٦) و«الجيفودان»^(٧) و«الابيلاي»^(٨) سارت ميدانا لفارات العرب . وشملها الخراب من كل جهة . وما لم يؤخذ بالحديد سلطوا عليه النار الى حد أن كثيرين

(١) استشهد رينو على ذلك بتاريخ نيم تأليف مينارد Menard

(٢) نقل رينو هذا الخبر عن النوري

(٣) جاء في بغية الملتبس في «تاريخ رجال أهل الأندلس» لاجد بن يحيى بن احمد بن عميرة مايلى : غنبة بن سحيم السكابي كان أمير الأندلس في سنة ١٠٦ من قبل بشر بن صفوان أمير افريقية في أيام هشام بن عبد الملك ومات سنة ١٠٧ وقيل سنة تسم . والله أعلم

(٤) نقل رينو هذا الخبر من مجموعة « مؤرخى بلاد الغال » عن تاريخ مواساك Moissac

(٥) Albigeois

(٦) Rouergue

(٧) Gevaudan

(٨) Velay

من الغزاة أنفسهم أكبروا هذا البعث الزائد في تلك البلاد . فانهم لم يكونوا يغفون عن شيء سوى الجواهر النفيسة والسلاح والخيل وكل ما يزدادون به قوة على قوة وأكثر ما شمل الخراب مقاطعة « روديس »^(١) فقد احتل العرب فيها حصناً يظنه بعضهم حصن « روكريف »^(٢) والآخر حصن « بالاغيه »^(٣) وأخذوا يحتاجون جواره فلا يلقون مناهضاً ولا عرقاً نابضاً . وقد بقيت عندنا عن تلك النوازل شهادة رجل كان يقال له « دادون »^(٤) عندما زحف العرب خرج بسلاحه ومعه جماعة مسلحون من أهل وطنه ، فجاء العرب الى بيته ولم يجدوا فيه سوى أمه فأخذوها من جملة السبي ، وعادوا الى الحصن الذي كانوا تبوأوه ، فجاء دادون بسلاحه ومعه رفاقه ، ووقفوا أمام باب الحصن ، وطلب دادون تسليم أمه وقال انه ليس يبارح حتى ينقذها فأجابه واحد من العرب : إن شئت أن نرد عليك أمك فادفع إلينا الجواد الذي أنت راكبه والا فاننا نذبح أمك أمام عينيك . فأجاب دادون وقد كاد الغضب يخرج من عقله : انعلوا بأني ماتريدون فلا أسلم جوادى . عند ذلك جاء البربرى بأمر دادون وقطع رأسها وألقاه من فوق الحصن الى ما بين يدي ذلك المسكين . فعندما شاهد دادون رأس والدته كادت نفسه ترهق من الألم وأخذ ينتحب ويصيح : باللائمة بالثائر . ولكنه لم يكن يقدر أن يدخل الى الحصن . فذهب وقد خولط في عقله وانقطع عن الناس ، وأقام على ضفاف وادي « دوردون »^(٥) في المكان الذي بنى فيه فيما بعد الدير المسمى بدير « كوندك »^(٦)

وقد استشهد رينو على هذه الحادثة بقصيدة « ارمولدس نيجلوس »^(٧) التي

Rhodés (١)

Roqueprive (٢)

Balaguier (٣)

Dadon (٤)

Dourdon (٥)

Conques (٦)

Ermoldus Nigellus (٧)

نشرها في موراتورى^(١) ثم الدون بوكيه^(٢) في مجموعة مؤرخى بلاد الغال، ثم
المسيو بيرتس^(٣) في تاريخ الجرمانيين . وقد جاءت هذه الحادثة في البيت
المائتين والسبعة من قصيدة « نيجلوس » وليس يوجد في القصيدة ولا في تاريخ
دير « كونك » ما يدل على السنة التى أغار فيها العرب على « رورغ » ولكن
إذا عرفنا أن دادون مات فى أواخر القرن الثامن علمنا الزمن الذى وقعت فيه هذه
الحادثة . فأما دير « كونك » فقد بق قائماً الى زمان الثورة الفرنسية

ولندكر حادثاً آخر يدل على ما بلغت من الفجائع تلك الغارات التى كان جانب
عظيم من فرسة مرزحألها، وهذا الحادث وقع فى دير « موناستيه^(٤) » فى جهات
« فيل^(٥) » فقد كان المسلمون اجتاحوا مقاطعات « بوى^(٦) » و « كليرمون^(٧) »
وكنيسة « بريود^(٨) » ثم أشرفوا على دير « موناستيه » فجمع القديس « شافر^(٩) »
رئيس الدير رهبانه، وأمرهم بأن ينسحبوا الى الحراج المجاورة، ويأخذوا معهم الاعلاق
النفيسة والذخائر التى فى الدير ويتواروا فى البرية، الى أن يتأذن الله بالفرج وبأوقات
أحسن فيعودوا فيها الى متبوتهم الأول . أما هو أى القديس المذكور فقد أجمع أن
يقتى فى الدير مهما كان البرابرة يريدون أن يفعلوا به، فان أمكنه أن يردهم الى
الصراط المستقيم فذاك، وإلا فان قتلوه فيكون تردى بالأحر من أثواب الشهادة.
فأخذ الرهبان يكون ويستغيثون راجين منه أن يذهب معهم الى البرية ويطلب النجاة

Muratori (١)

Banquet (٢)

Pertz (٣)

Monastier (٤)

Velay (٥)

Puy (٦)

Clermont (٧)

Brioude (٨)

Saint Chaffre (٩) وكان يقال له أيضاً Saint Theofroi

كما يطلبون أو أن يتركهم يموتون معه . فأصرَّ القديس على كلامه وقال لهم إن اتقاء الخطر ضرورى لا سيما إذا كان فى السلامة فائدة للكنيسة . وضرب لهم مثلاً مسألة الرسول بولس الذى كان اليهود أعداؤه يقتصون أثره فى دمشق للاقتصاص منه ، ففر منهم وزل ليلاً فى زنبيل تدلى به من عن سور المدينة وخاض نجياً . وكذلك بطرس رئيس الحواريين كان قد أجمع الفرار من وجه نيرون لو لم يكن سبق فى إرادة الله توقيف خطواته . ثم قال لهم القديس : أما أنا فإني لست بذهاب من هذا الدير ، فإن من واجبات الراعى أحياناً أن يضحي بنفسه فى سبيل خلاص رعيته ، وأنى إن سال دى هذه المرة فرمما يسكن بانفجاره الغضب الإلهى التأثير بدون شك من خطايا البشر فلما رأى الرهايين تصميم القديس هذا لم تسعهم إلا طاعته ، وبعد أن سمعوا القداس وأخذوا معهم النفائس التى فى الدير خرجوا إلى البرية ، وتغلغلوا فى الغابات ، ولكن انسلَّ منهم اثنان فصعدوا فوق رابية مشرفة على الدير ليشهدوا ما عساه أن يقع فيه . ولم يلبث العرب أن حضروا فوجدوا القديس « شافر » عاكفاً على الصلاة فى زاوية من الدير ، فلم يأبهوا له ، وإنما أخذوا يطوفون فى الدير أملاً بالغور على شئ يغمنونه ، وكان مرادهم أن يثقفوا الرهبان وأن يأخذوا منهم أحدثهم سنّاً وأقواهم بنيةً ليبيعوهم فى سوق النخاسين بالأندلس . فلما علموا أن الرهبان قد فروا بأسرهم وأنه لم يبق فى الدير شئ من النفائس التى كانت تخدمهم أنفسهم بها استشاطوا غضباً وانهملوا على القديس بضرب مبرح

وكان فى ذلك اليوم عند البرابرة عيد يقدمون فيه ضحية لله ، ولم يقل المؤرخ الذى ننقل عنه هذه القصة ما شكل تلك الضحية ؟ ولكنه يقول إنهم كانوا فى ذلك العيد يشربون الخمر ويطنزون ، مما يدل على أن العصاة التى أغارت على كورة « فيسلاى » لم تكن عصاة مسلمة ، ولكن عصاة بربرية لا يزال أهلها غائصين فى لجج الوثنية . فلما رآهم القديس قد انتبدوا مكاناً للقيام بشعائر عيدهم جاء إليهم ونصح لهم بأنهم بدلاً من عبادة الشياطين يكون أولى بهم أن يعبدوا خالق الأكوان الذى لولاه لم يكن شئ فى هذه الدنيا ، فلم يكن هذا الكلام ليقع منهم موقع القبول بل زادهم سخطاً

وجاء أحدهم فرماه بحجر فسقط على الأرض مغشياً عليه . ثم أراد البرابرة أن يحرقوا الدير ويدكوه الى الحضيض ، ولكن يقول المؤرخ انهم بينما هم يهيمون بأن يفعلوا سلط الله عليهم ريجاً صرصراً عاتية وصواعق مجرقة فاركنوا الى الفرار ، وتركوا الدير . ثم مات القديس بعد أيام قلائل من أثر الضرب ، بعد أن عاد الرهبان إلى ديرهم . ولا تزال الكنيسة تحتفل بميد القديس « شافر » في ١٩ أكتوبر من كل سنة . وأما الدير المذكور فقد بقي قائماً الى زمان الثورة الفرنسية الكبرى

ونظن أنه في ذلك العهد كانت قد وقعت غارة العرب على مقاطعة « دوفيني »^(١) وعلى مدينة « ليون »^(٢) وعلى بلاد « برغونيا »^(٣) وقد ذكر أحد مؤرخي العرب هذه الغزوات قائلاً : إن الله قد قذف الرعب في قلوب الكفار فلم يكن واحد منهم يقف في وجه المسلمين إلا لطلب الأمان ، ولم يزل المسلمون يتقدمون في البلاد ويؤمنون العباد إلى أن وصلوا إلى وادي « الرون » وهناك ابتعدوا عن السواحل وأوغلوا إلى الداخل

وقد نقل رينو هذا الكلام عن القرى . ولكن إن كان الكلام الذي نقله هنا هو الوارد في النفح فإن العبارة التي اطلعنا عليها هي هذه نقلاً عن ابن حيان : إن موسى اصطليح مع طارق وأظهر الرضا عنه وأقره على مقدمته ، على رسمه ، وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه ، وسار موسى خلفه في جيوشه ، فارتقى إلى الثغر الأعلى وافتتح « سرقسطة » وأعمالها وأوغل في البلاد وطارق أمامه لا يمران بموضع إلا فتح عليها وغنمها الله تعالى مافيه . وقد ألقى الله الرعب في قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد إلا بطلب صلح . وموسى يجيئ على أثر طارق في ذلك كله ويكمل ابتداءه ويوثق للناس ما عاهدوه عليه . فلما صفا القطر كله وطأ من نفوس من أقام على سلمه ، ووطأ لأقدام المسلمين في الحلول به ، أقام

.....
(١) Dauphiné مقاطعة من فرنسا قاعدتها « غرينوبل » تتألف منها الآن ولايات « الازير »

و « الدروم » و « الالب » العليا

(٢) مدينة ليون الشهيرة وقد تقدم ذكرها

(٣) تقدم ذكرها أيضاً

لتمييز ذلك وقتاً، وأمضى المسلمين إلى أفرنجة ففتحوا وغنموا وسلموا وعلوا وأوغلوا وانتهوا، حتى انتهوا إلى وادي «ردونة» فكان أقصى أثر العرب ومنتهى موطنهم من أرض المعجم. وقد دوخت بعوث طارق وسراياه بلاد أفرنجة فملكمت مدينتي «برشلونة» و«أربونة» وصخرة «آبينيون» وحصن «لودون» على «وادي ردونة» فبعدوا عن الساحل الذي منه دخلوا جدا . انتهى

فهذه العبارة قد تقدم نقلنا إياها في الكلام عن موسى بن نصير وطارق .
رجع إلى كلام ريتو . قال :

ولا نعلم في الحقيقة الأمكنة التي أشرف عليها العرب ذلك اليوم الا بأخبار الاجتياح الذي وقع فيها، فانه في نواحي « فيين ^(١) » على ضفاف « الرون » أصبحت الكنائس والأديار كلها دكاً، و « ليون » التي يسميها العرب « لودون » رأيت أيضاً تخريباً أعظم كنائسها. وكذلك شمل العيث « ماسون ^(٢) » و « شالون ^(٣) » وكذلك « بون ^(٤) » حل فيها من العيث ما لا يوصف. ووصل العرب إلى مدينة « أوتون ^(٥) » وأحرقوا كنيسة « سان ^(٦) نازير » وكنيسة « سان جان ^(٧) » ودير « سان ^(٨) مرتين » . وكذلك نهبوا دير « سين ^(٩) اندوش » في « صوليو ^(١٠) » وكذلك

(١) Vienne مدينة على وادي « الرون » تبعد ثمانين كيلو متراً عن « غرينوبل » إلى الشمال الغربي.

(٢) مدينة Maçon من مقاطعة الصاوون واللوار على مسافة ٤٤١ كيلو متراً إلى الجنوب من باريس.

(٣) قسبة Chalon على نهر الصاوون، على ٥٨ كيلو متراً من ماسون وهي غير مدينة شالون على المارن

(٤) Bon مدينة على ٣٨ كيلو متراً إلى الجنوب الشرقي من « ديجون »

(٥) مدينة Autun على مسافة ١٠٦ كيلو مترات إلى الشمال الغربي من ماسون

(٦) Saint-Nazaire

(٧) Saint-Gean

(٨) Saint-Martin

(٩) Saint-Andoche

(١٠) Saulieu قسبة من ساحل الذهب من ولاية سيمور Semur

دمر العرب دير « بيز^(١) » بقرب « ديجون^(٢) ». وقد استشهد « رينو » على هذه الحوادث بتاريخ « مواساك » من مجموعة مؤرخي بلاد الغال وبتاريخ « الدون^(٣) » بلانشيه « المسمى بتاريخ برغونيا وبتاريخ « غاليا كريستيانا^(٤) » ويذهب بعضهم إلى أن غارات العرب قد امتدت إلى أبعد مما ذكرنا، وقالوا إنهم بثوا سرايهم إلى جبهات نهر « اللوار » وأخرى بقرب « نيفير^(٥) » وأخرى إلى مقاطعة « فرانش كونتي^(٦) »

وقالوا إن دير « سان^(٧) كولومبان » قد دكه العرب في تلك الغزوة، وأنهم قتلوا أكثر الرهابين والقسيسين الذين صادفهم في « بيزانسون ». قال « رينو »: وليس في هذه الروايات شيء لا يقبله العقل ولا سيما ما تعلق منها بمقاطعة « فرانش كونتي » التي فيها أسماء وآثار عربية كثيرة. وقالوا أيضا إن الدير الذي في سفح جبال « الفوج^(٨) » المسمى بدير « لوكسول^(٩) » قد جعله العرب أيضا أثراً بعد عين، وذبحوا الرهابين الذين كانوا فيه تحت رئاسة القديس « ميلين^(١٠) ». نقل هذه الروايات « رينو » عن الأب « لكوانت^(١١) » ونقل أيضا عن « ماييرون^(١٢) » وقال: يظهر أن المسلمين لم يجدوا مقاومة

(١) Beze

(٢) Dijon قاعدة بلاد « برجونيا » على مسافة ٣١٥ كيلو متراً من الجنوب الشرق من باريس

(٣) Plancher

(٤) Gallia Christiana

(٥) Nevers

(٦) Franche-Comté مقاطعة في شرق فرنسا، قاعدتها « بيزانسون » تحتوى على ولايات

« الماؤون » « المياو » « دويس » Doubs و « جورا » Jura

(٧) Saint-Colomban

(٨) Vosges

(٩) Luxeuil

(١٠) Mellin

(١١) Lecointe

(١٢) Mabillon

حقيقه إلا أمام مدينة «سانس»^(١) فإن هذه المدينة كان فيها مطران ينتسب إلى عائلة نبيلة ، يقال له «ايول»^(٢) «اشتهر بالفضائل والكمالات حتى جعلوه في مصاف القديسين . فهذا المطران عندما سمع بإيجاف العرب قاصدين بلده بدأ بتحصين البلدة، وهيا أسباب الدفاع عنها، بحيث لما وصل العرب إليها وأخذوا يقذفونها بقذائف من جنبيقاتهم كان أهاليها يرمونهم من أعالي الأسوار بأجزاء محرقة كانت تلتهب بها آلاتهم الحربية قال «رينو» : إلا أنه يعترضنا في هذه الروايات كون المؤرخين الذين ذكروها لم يصرحوا بأن أصحاب هذه الفارات كانوا من السرازين^(٣) ولائمة لفظة تدل على أن الذين فعلوا هذه الأفاعيل هم مسلمون بدون شك ، بل كان المؤرخون يشيرون اليهم بقولهم «فندال»^(٤) وطالما كانوا يطلقون هذا الاسم في النصف الأول من القرن العاشر على الحجار عند ما جاء هؤلاء الى المانية ودخلوا الى فرنسة واكتسحوا «الازاس» و«اللورين» و«فرائش كونتى» و«برغونيا» و«شمانيا» وغيرها

ثم يعود رينو، فيقول: إنه على كل حال قد تحقق مجيء العرب الى فرنسة وتغلغلهم في أحشاء البلاد وأنهم لم يكن لهم خطة مرسومة معينة في مغازيتهم ومراميهم، وأنهم لم يجدوا في البداية من أهل فرنسة الا مقاومة واهية وعزما غير جميع . نعم تختلف فرنسة عن اسبانية في هذا الباب بأن اسبانية وجد فيها من انضم الى العرب وسعى بين أيديهم ودان بدينهم ، وأما في فرنسة فاذا استثنينا بعض أشخاص لا يعرفون معنى للدين ولا للوطن لم يوجد من الأهالي فئة كان لها شيء من الوجهة والنبالة رضيت بأن تنحاز الى العرب أو أن تصبأ عن دينها، بل انه في وسط مدينتي أربونة وقرقشونة ، حيث أقام العرب مدة طويلة، بقى الاهلون متمسكين بدينهم المسيحى لا يرضون به بدلا

(١) Sens قصبة مقاطعة إفرنسية تسمى يوند «Yonnd»

(٢) Ebbon

(٣) Sarrazins وهو لقب المسلمين عند الإفرنج في ذلك الوقت

(٤) Vandales

وكان اود دوق اكيثانية طول هذه المدة منحرفا عن القتال، متجنباً للانفاس في الحرب، لأن غارات العرب كانت واقعة على أطراف بلاده ولم تكن في قلب البلاد مثل ذي قبل . وأما « شارل مارتل » فكان مشغولاً بمحاربة « الفريزيون » و « البافاريين » و « السكسون » الذين كان يخشى أن يعبروا عليه نهر الرين وينازعوه مركز سلطانه . وكان بينه وبين « أود » ما بين النظراء الذين يغص بعضهم بمكان بعض . فأما مؤرخو العرب الذين لم يكن لهم اطلاع على تلك المنافسات الداخلية بين ملوك الافرنج فعلموا سكوت « شارل مارتل » الذي كانوا يسمونه « قارله » عن مقارعتهم بالتعليل الآتى . قالوا :

إن كثيراً من أمراء الافرنج فزعوا إلى « قارله » وشكوا له الأضرار التي حلت بهم من عيث المسلمين في البلاد ، وأوتخوا له العار الذي يلحق بها من كون جيش كالجيش العربى ، مجهز بأسلحة خفيفة ، يتغلب على جيوش شائكة باثقل الأسلحة غائصة في الزرد إلى أعناقها كالجيوش الافرنجية . فأجابهم قارله : دعوهم الآن يفعلون فانهم في إبان صولتهم أشبه بالسيل الذى يجرف كل مايقف فى وجهه ، وهم اليوم قد اتخذوا من جرأتهم دروعاً ومن اقدامهم حصوناً ، ولكنهم بعد أن تمتلئ أيديهم من الغنائم ، وبعد أن يألفوا نعيم الحضرة ويستولى الطمع عليهم فينافس بعضهم بعضاً ويدخل الشقاق فى صفوفهم ، حينئذ نرحف إليهم وتغاب عليهم ونترك جمعهم شريداً وقائمهم حصيداً .. وقد نقل هذا الكلام « رينو » عن المقرئ صاحب النفع . ونحن راجعنا المقرئ فوجدناه يقول فى آخر صفحة ١٢٨ من الطبعة الأزهرية المصرية مايلى :

وقال الجبارى فى المسهب ان موسى بن نصير نصره الله نصرأ ماعليه مزيد ، وأجفلت ملوك النصارى بين يديه حتى خرج على باب الأندلس الذى فى الجبل الحاجز بينها وبين الأرض الكبيرة ، فاجتمعت الفرنج إلى ملكها الأعظم قارلة ... وهذه سمة للمكهم . فقالت له : ما هذا الخرزى الباقى فى الأعقاب ؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من (م - ٦)

جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد، بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لا دروع لهم . فقال لهم مامعناه : الرأي عندي أن لا تعرضوهم في خرجتهم هذه فانهم كالسيل يحمل من يصادره وهم في إقبال أمرهم ولهم نيات تغني عن كثرة العدد ، وقلوب تغني عن حصانة الدروع ، ولكن أهلهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا في الرئاسة ويستعين بعضهم على بعض فحينئذ يتمكنون منهم بأيسر أمر . قال : فكان والله كذلك بالفتنة التي طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمصرية واليمنية ، وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الأعداء . انتهى

قلت : إن أعظم العوامل التي قضت برجوع بدر العرب كالمرجون القديم ، بعد أن كان تماما وأتار المشرق والمغرب ، تعود إلى عاملين كبيرين : أحدهما الفتنة التي ذكرها صاحب المسهب بين الشاميين والبلديين ، فقد طال بينها النزاع وتحول إلى فتنة صماء أوقفت سير الاسلام في أوربة بعد أن مشى فيها مشى النار في يابس العرفج . واهم من فتنة البلديين والشاميين فتنة العرب والبربر ، فقد أجمع المؤرخون من العرب والافرنجة على أن الحرب التي اصطلت بين المسلمين في شمال اسبانية والتي تغلب فيها البربر على العرب وأخرجوهم بها من تلك الديار كانت هي السبب في انتهاء الافرنج والاسبانيول تلك الغرة اللامحة لاستئناف دولتهم وصولتهم وطردهم للمسلمين من شمال اسبانية . وبعد ذلك عندما جمع العرب شملهم وكروا على البربر ووقعوا بهم ، انتقاما عما صدر من البربر من قبل ، استفاد الاسبانيول والافرنج فائدة كالفائدة الأولى ، واغتنموا أيضاً مثل تلك الفرصة ، وقد كان أنكى من الفتنتين المار ذكرهما فتنة القيسية واليمانية وواقعة شقنده المشهورة ووقائع أخرى كانت تشغل العرب بعضهم ببعض ، فيستأسد العدو في خلالها وينهض من ورائها فيكر عليهم ويسترجع منهم قلاعاً وحصوناً وحواضر عاصمة . وقد شوهد أنه لما اشتدت الفتنة في قرطبة بين العرب والبربر في أيام الخليفة المستضعف هشام الثاني كان كل فريق من المسلمين يستعين بالاسبانيول ، وكان هؤلاء يشترطون للنجدة كذا وكذا من الحصون وكذا وكذا من المدن ، وكان أولو الأمر

في قرطبة ينزلون لهم عنها (١). أما العامل الثاني الذي لم يكن يقل خطراً عن الأول فإنه ولوع العرب بالغنائم وحرصهم عليها إلى الدرجة التي كانت سبباً في الهزائم، فإن الواقعة الكبرى التي وقعت بين عبد الرحمن النافقي و«شارل مارتل» الذي يقول له العرب «قارله» كان سبب إمداد العرب فيها وتخلص أوربة من أيديهم هو شدة الخوف على الغنائم لا غير، فإنه لما تلاقي الجمعان أراد عبد الرحمن أن يأمر جيشه بترك الغنائم التي كانوا جمعوها حتى لا تبقى قلوبهم مشغولة بها عن القتال. ولكنه توجس خيفة أن يكسر بذلك من قلوبهم، فتفتت عزائمهم وتخبت نفوسهم، فأذن لهم في حفظ غنائمهم وهو كاره، فجعلوها وراء المعسكر وأعينهم فيها. وعلم بذلك الأفرنج ولحظوا شدة حرص العرب عليها، فلما حصى الوطيس زحف جانب من جيش الأفرنج من طريق آخر قاصداً المعسكر الذي فيه الغنائم، فانكفأ العرب عن ميدان القتال راجعين إلى معسكرهم الذي فيه

(١) قال ابن عذاري في البيان المغرب: قال إبراهيم بن القاسم: وكان أهل قرطبة على حال شدتهم وعظيم محنتهم لأجدين في الفتنة والتمصب على البربر، ومن ذكر الصالح قتل، حتى إن رجلاً من وجوه أهل العلم قال في الجامع: اللهم اصباح علينا فقتل في مكانه. وقال آخر في الجامع: إن الله أحب الصلح وأسر به، فقتل في الحين. وجاءت امرأة من الفرن فأوقعت قدراً فانكسرت فسكنت سوداء فقالوا بربرية سوداء فقتلت «إلى أن يقول»: وأتى رسل ابن مامة القومس زعيم لهرانيته يستنجزون تسليم الحصون إليه على ألا يعذروهم ولا يتعرض لهم من ثورهم. فرضوا بهذا وحضر الفقهاء والمدول والقاضي وكتبوا كتاباً بذلك

قال: ولما وصل الرسل إلى قرطبة حضر الفقهاء والقاضي والمدول وكتبوا كتاباً بالشروط وتسليم الحصون للنعاري وقرىء على الناس بمحضرة هشام (أي الخليفة) وواضح (أي الحاجب) وشهد فيه جميع من حضر وخرج القوم من القصر مستبشرين بما كان (تأمل كيف كانوا يستبشرون بتسليم الحصون إلى الأسبانيول بشرط أن يظهرهم على البربر) فكان الذي صار لابن مامة جيم الحصون التي كان أخذها الحسك بن عبد الرحمن ومحمد بن أبي عامر وابنه المظفر، كل ذلك استخفافاً من هشام. هكذا ذكر الرقيق في كتابه.

قال: وسمي الدين ابن شائمه أيضاً بما سلم إلى الدين ابن مامة دونه من الحصون، فكتب يطلب حصوناً آخر وتوعد وتهدد، فأجيب إلى ما سأل من ذلك وكتب بتسليمها إليه. وهذا كله بلجاً في ألا يصلح البربر اه

تلك الأسلاب ليدافعوا من دونها، ولم يبق في الميدان قوة كافية لصعد السواد الاعظم من الجيش الافرنجى . وهكذا كانت تلك الهزيمة الكبرى في المحل الذى يسميه العرب ببلاط الشهداء ، ويسميه الافرنج بمعركة «بواتيه» . فأنت ترى أن «قارلة» عندما قال للافرنج قوله ذلك «دعوا العرب يملأون أيديهم» كان كأنه يقرأ في ظهر الغيب

نعود الى سياق التاريخ بحسب رواية «رينو» فنقول :

وفي سنة ٧٣٠ تولى إمارة الأندلس عبد الرحمن «الغافقى» الذى خلف السمع بن مالك الخولانى في قيادة الجيش المحاصر «لطلوزة» عند مصرع السمع في المعركة، وكان عبد الرحمن هذا رجلاً صارماً عادلاً محبباً في جنده ، لنزاهته ولعدم رغبته في حطام الدنيا لنفسه، وكان أيضاً محل احترام صلحاء المسلمين لعرفته بالحديث النبوى ومصاحبته لأحد أولاد الخليفة عمر^(١)

(١) جاءت ترجمة عبد الرحمن الغافقى في كتاب بغية المتوس في رجال أهل الأندلس، لأحمد بن يحيى بن عميرة، كما يلى :

عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى وهو العكي: أمير الأندلس، وليها في حدود العشر ومائة من قبل عبيدة بن عبد الرحمن القيسى صاحب إفريقية . وعبد الرحمن هذا من التابعين يروى عن عبد الله بن عمر وروى عنه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وعبيد الله بن عياض، استشهد في قتال الروم بالأندلس سنة ١١٥ حكى ذلك غير واحد . وكان رجلاً صالحاً جميل السيرة في ولايته كثير الفوز للروم عدل القسمة في الغنائم وله في ذلك خير مشهور، أخبرنى أبو طاهر اسماعيل بن قاسم الزيات لقيته بفسطاط مصر، قال : أخبرنا الصادق بن مرشد بن يحيى بن القاسم المدينى سمعاً عليه ، أخبرنا على بن منير الحلال قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرج، أخبرنا أبو القاسم على بن الحسن ابن خلف قال : أخبرنا عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم قال : غزا عبد الرحمن يعنى ابن عبد الله العكى إفريقية وهم أقاصى عدو الأندلس فغنم غنائم كثيرة وظفر بهم . وكانت فيما أصاب رجل من ذهب مفصصة بالدر والياقوت والزبرجد فأمر بها فكسرت ثم أخرج الخس وقسم سائر ذلك في المسلمين الذين كانوا معه . فبلغ ذلك عبيدة يعنى ابن عبد الرحمن القيسى الذى هو من قبله فغضب غضباً شديداً وكتب اليه كتاباً يتوعدده فيه فكتب اليه عبد الرحمن : ان السوات والأرض لو كانتا رتقا لجلسل الرحمن للمتنقين منها مخرجاً . انتهى . وسندكر في متن الكتاب تسكدة أخبار عبد الرحمن الغافقى رحمه الله

وقبل أن نكمل ترجمة عبد الرحمن الغافقي التي ستنتهي بوافقة بلاط الشهداء ينبغي لنا أن نكمل الخبر عن الفترة التي وقعت بين إمارة عنبسة بن سحيم السكبي وإمارة الغافقي ، فنقول : قال المؤرخ الأسبانيولي « كوندى » : إن أول عمل قام به عنبسة هو تنظيم الخراج وتقسيم الأراضي بين المسلمين بدون تجاوز على الأراضي التي لها ملاكون أصليون من الأهالي ، فكان يستوفى العشر من الذين خضعوا للدولة العرب من أنفسهم ، ويستوفى الخمس ممن لم يخضعوا إلا بالسيف . وهو الذي بنى جسر قرطبة (١)

وطاف عنبسة في المقاطعات ينظر في مظالم الناس ويوزع بينهم العدل بدون تمييز بين الأديان . ثم إن أهالي « طرسونه » انتفضوا عليه فزحف إليهم ودوخهم ودك حصونهم ، واقتصر من زعماء الثورة وفرض عليهم غرامة مضاعفة .

ثم أغزى جيوشه بلاد أفرنجية ، فدمر وأحرق ونسف زروعا وأسر خلقا كثيرا ، وقيل إنه كان يكره هذا الميث في بلاد العدو ، إلا أنه كان يدارى جنده ويحذر أن يتمم بفتور الحمية الإسلامية (٢) . قال « كوندى » : ثم أنه في ذلك الوقت خرج في سورية نبي كذاب اسمه « زوناريا » (٣) كان يزعم أنه المسيح المنتظر عند اليهود . فلما سمع بخبره عرب الأندلس ، وكان كثير منهم من أهل الشام ، صدقوا مقالته هذه وتركوا الغنائم التي كانوا غنموها والمساكن التي كانوا ارتضوها ، وعادوا إلى سورية مجفئين ، فضبط عنبسة الأملاك التي تركوها ، وحولها لبيت المال . ثم في السنة التالية غزا عنبسة بلاد فراسة ورائقه النصر في أول الأمر ، وما زال يقطع الأودية ويستقرى

(١) أكثر المؤرخين يقولون إن باني جسر قرطبة هو سلفه السمع بن مالك الخولاني ، ولعل عنبسة أكمل بناءه بعد قتل السمع

(٢) لا شك أن الغافقي بمسكانته من معرفة الشرع كان يعلم أن نسف الزروع وهدم البيوت وقطع الأشجار واستعمال النار كل ذلك مخالف لقواعد الحرب في الإسلام ولو في بلاد العدو وقد نص على ذلك الأئمة بالصرح ، وغاية ما شدد الشددون منهم هو أنه يصبح إذا بدأ به العدو ولم تبق للمسلمين حيلة إلا بمقابته بالمثل

(٣) Zonaria وهذا الخبر الذي رواه كوندى ، ونقله عنه ، رينو لم نسمع به حتى الآن وهو من أغرب ما سمع من الأخبار . ولظن أنه إن كان له أصل فيكون في المجتمع اليهودي لا المجتمع الإسلامي

البسائط حتى عبر نهر « الرن » الى الشرق ، ولكنه وقع في إحدى الوقائع مثخنًا بجراحات كثيرة، مات على أثرها ، وذلك سنة ١٠٦ للهجرة . وقبل أن مات استخلف حذيرة الفهرى، فلم يشغل هذا المنصب الا مدة يسيرة ، لأن أمير افريقية أرسل أميراً على الأندلس يحيى بن سلمة ^(١) . وكان هذا قائداً مجرباً محباً للعدل صارماً جداً في إعطاء الحقوق لأصحابها ، فهابه المسلمون والمسيحيون معاً . وبينما كان يطوف في الولايات الشمالية انتهز أعداؤه الفرصة فطلبوا من أمير افريقية عزله فأجابهم إلى ماسألوا وأرسل أميراً على الأندلس عثمان بن أبي نسعة ^(٢) وكان عثمان هذا مشهوراً بالبسالة والنجدة والبصيرة بالحروب، فتولى الامارة واضطلع بها، ولكن وجد أصحابه فيه عوداً صليباً وقناة لا تلين لغامر ولم يحققوا فيه آمالهم، ولا هو عرف لهم جميل سعيهم في تأميره، بل رأوا منه ما أمضى وأرمض، فما زالوا يسمعون به كما سمعوا بسلفه حتى حملوا الخليفة هشاماً على صرفه بحذيفة بن الأحوص ^(٣) فلم يبق هذا الا قليلاً ، وعاد أمير افريقية فولى على الأندلس عثمان بن أبي نسعة نفسه ، ولكن ولاه وكيلاً لا أصيلاً، إلى أن قدم من دمشق بأمر الخليفة الهيثم بن عبيد الكنانى ^(٤) وكان الهيثم شامياً ولكنه كان فظاً بخيلاً جاسياً، فأسف شيوخ العرب والبربر وساءت ملكته فيهم، فاتحدوا عليه فالتقى بهم في السجون وأهلك بعضهم .

(١) في نفع الطيب أن يحيى بن سلمة الكلبي أفذه بسر بن صفوان الكلبي، والى افريقية، لما استدعى منه أهل الأندلس والياً بعد مقتل عنبة فقدمها آخر سنة ١٠٧ وأقام في ولايتها سنتين ونصفاً .

(٢) الافرنج يسمونه « مونوزه » Munuza وهكذا جعلوا ابن أبي نسعة محرفاً الى « مونوزه » ويقول « رينو » : ان كلا من الافرنج والعرب يعرفون أسماء بعضهم حتى تشكر على الانسان أصلها (٣) في نفع الطيب أن عثمان بن ابى نسعة اللخمي قدم والياً من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمى صاحب افريقية وعزله لخسة أشهر بحذيفة بن الأحوس القيسى

(٤) في نفع الطيب يقول إنه قدم من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمى أمير افريقية وأنه وصل في الحرم سنة ١١١ وغزا أرض مقوشة فافتتحها وتوفي سنة ١١٣ لسلتين من ولايته . وقدم بعده محمد بن عبد الله الأشجعي فولى شهرين . ثم قدم عبد الرحمن بن عبد الله النافقي من قبل عبيد الله ابن الحبابة صاحب افريقية فدخلها سنة ١١٣ وغزا الإفرنجية الخ .

وكان من جملة النكويين زياد بن زيد فرفع الشكاوى الى الخليفة ، هو ومن معه ، واتهموا الهيثم بأنه يسير فى الأندلس سيرة لا مناص من أن تنتهى بيوار الأمة والخطوب المدممة، فأرسل الخليفة هشام محمد بن عبد الله، وفوض إليه أمر التحقيق عن الشكاوى الواقعة بحق الهيثم، وأذن له بأنه اذا ثبت لديه كون الهيثم مجرمًا يعزله ويقتص منه ويتبدل به الأمير الذى يراه الأصلاح ، فجاء محمد هذا ومضى بالتحقيق اللازم على أحسن وجه . وعند ما ثبت لديه إجرام الهيثم ألقاه فى السجن واطلق الذين كان نكبتهم ورد عليهم أموالهم . ويقال إنه قبل أن نفي الهيثم من الأندلس الى افريقية أمر بتطويفه فى شوارع قرطبة راكبًا على حمار ، تشهيرًا له ونكالا وفاقًا وبعد ذلك فوض محمد بن عبد الله بالامارة الأمير عبد الرحمن النافقى فاستحسن الجميع تولية عبد الرحمن النافقى لما كانوا سبروا من نجابته ومن مزاياه العالية . ولم يشذ عن الجمهور الا عثمان بن أبي نسة الذى كان يرى نفسه أولى بالامارة، فتولى عبد الرحمن سنة ٧٢٨ وفق ١١٠ (هنا فرق ثلاث سنوات عن رواية نفح الطيب) . وكان متوفر العناية باقامة العدل ورفع المظالم وابتاء الحقوق أصحابها . ولأجل أن يتمكن من تسكين الدماء وارضاء الجمهور بقى سنتين يطوف على بلد بلدياشر اماطة المظالم وازاحة العلل بنفسه غير مميز بين المسلم والمسيحي، وعزل كثيرًا من القواد والولاة الذين ثبتت مظالمهم للرعية وكذلك أعاد الى المسيحيين الكنائس التى كانوا انتزعوها من أيديهم والتى كان لهم الحق بها وفقا للمهود ، كما أنه هدم الكنائس التى كانوا أخذوا الاذن فيها بالرشوة خلافاً للمهود .

ولم يمكن يهدأ له بال الا بنزو فرنسة حتى يدوخها ويضمها الى إمارته أو يضم منها البلدان التى كانت من قديم الزمان تحت حكم القوط . فحشد جيشًا جرارًا من نخبة المقاتلة والصابرين فى الحروب، واستنجد أمير افريقية فأرسل اليه بجنود مختارة للجهاد، تتلظى شوقًا الى الجلال . ولما وصلت نجدة أمير افريقية سرحها عبد الرحمن الى الدروب، وبعث الى عثمان بن أبي نسة أمير الثغر بأن يشاغل العدو بالغارات الى أن يكون هو قد أطل بمعظم الجيش . فوقع من عثمان على باقة شديدة البأس كان بدون هذا ينافس عبد الرحمن على الامارة ولم يكن مرتاحًا الى عمل يبدأ به عبد الرحمن وينال

به حسن الذكر . وقد انضاف الى هذا السبب في كراهيته لتلك الحرب أنه في إحدى غاراته على فرنسة وقعت في يده ابنة « أود » دوق اكيثانية، ويقال إنها كانت تسمى « نوميرانسه^(١) » ويقال ان اسمها « مينين^(٢) » ولكنها كانت مشهورة باسم « لامبيجييه^(٣) » وكانت بارعة في الجمال مع مكانها من بيت الملك ، فهام عثمان بها حباً وتزوج بها كما تزوج عبد العزيز بن موسى بن نصير بالأميرة « ايجيلونة^(٤) » أرملة الملك « لذريرق » فمن بعد أن أصبح عثمان بن أبي نسهه صهرراً لدوق « اكيثانية » عقد مع أييها معاهدة سلم ومهادنة أمن بها « دوق اكيثانية » غارات العرب ولو الى مدة من الزمن . فلما ورد أمر الأمير عبد الرحمن النافق الى الأمير عثمان بن أبي نسهه بالزحف على بلاد حميه « دوق اكيثانية » وقع في حيص بيص ، وراجع الأمير قائلاً له إنه لا يقدر أن يخفر جواره ولا أن يخرق العهد قبل انقضاء أجله . وكان عبد الرحمن قد غرق بزواج عثمان مع ابنة « أود » وانه قد شغفه حبها فغضب من تلكؤ عثمان عن الزحف ، وأفهمه أن ذلك العهد الذي كان عقده مع الافرنج بدون علمه لا يعده هو موثقاً له ، وأن عليه أن يتحرك للجهاد بدون مراجعة . فلما قطع عثمان أمله من منع عبد الرحمن عن أعمال الغارة في بلاد « أود » أرسل الى حميه يخبره بما وقع^(٥) حتى يأخذ حذرهم ويتخذ لنفسه وسائل الدفاع ، فبلغ عبد الرحمن ما فعله عثمان . فأرسل جيشاً الى الباب تحت قيادة ابن زيان ، انتخبه من أصدق رجاله ، وأمره بأنه إن تمكن يقبض على

Numérance (١)

Minine (٢)

Lampégie (٣)

Egilone (٤)

(٥) كان العرب يطلقون لفظة الباب على بلدة واقعة في أحد منافذ جبال « البرانس » أو « البرانس » والمؤرخ « كوندى » يظن انها مدينة « بوى سردا Puy Gerda » وهذا الرأي موافق لرأى المسيو « شينييه » Chenier الذى يقول ان عثمان بن أبي نسهه كان أميراً في « سرده » ويقول آخرون إنه كان في الطرف الغربى من مقاطعة « روسيون Rousillon » في المحل الذى يقال له « سردانة » وهو قرية صغيرة لا تبعد عن « بوى سرده » وكانت تابعة لاسبانية برغم كونها محاطة

عُمان بن أبي نسعة ويرسله اليه، وإن أبي الطاعة يهدر دمه . فوصل ابن زيان بعسكره بغتة إلى مقر عُمان، وهو ينزى القبض عليه، ففر هذا في الجبال ومعه بعض أعوانه واستصحب أيضاً زوجته الأميرة «لمبيجية» التي كان لا يفارقها ولا يرى الدنيا إلا بها، فسار الجيش في اثره حتى أدركوه وأحاطوا به، فتفرق عنه أصحابه في تلك الأوعار ولم يبق معه سوى زوجته الحسناء، فدافع عن نفسه وعنهما دفاع الأسود حتى أردوه قتيلاً، وفي جسمه ما لا يحصى من طعن وضرب، فاحتزوا رأسه وأتوا به وبالأميرة الحسناء إلى الأمير عبد الرحمن . فلما رأى عبد الرحمن هذه الغادة هتف قائلاً : والله ما كنت أظن أنه يوجد مثل هذا الصيد في جبال البرانس . وقد وقعت هذه الواقعة سنة ٧٣٠ وفق ١١٣ . ثم إن الأمير عبد الرحمن أرسل الأميرة إلى دمشق هدية للخليفة ، وهكذا انتهت حياة الأميرة «لمبيجية» ابنة دوق « ا كيتانيا » في حرم الخليفة الأموي في الشام (١) . ولما وصل خبر مصرع عُمان إلى دوق « ا كيتانية » علم أن الحرب واقعة لا محالة وتأهب للدفاع الشديد، ولكن الجيش العربي اندلق من جبال « البرانه » اندلاق السيول من الجبال، لا يقف في وجهه شيء، فاكتمسح الأرضين من « نافارا (٢) » إلى « بوردو (٣) » وامتلاّت أيدي المساكين بالغنائم . ولما وصلوا إلى « بوردو » حاول أهاها أن يدافعوا عنها فسكرهم وأخذوا البلدة عنوة ووضعوا السيف فيها ونهبوها .

بأرض فرنسا . وكان إلى شمال هذه القرية على جبل منفرد في حذاء « البرانه » حصن قديم فظن بعضهم أن هذا الحصن هو الذي كان يقيم فيه أمير الباب من قبل العرب (١) . قال المسيو « دوماريس » صاحب الحواشي على تاريخ « كوندى » الاسبانولي: إن هذه الواقعة هي السبب في قول المسيو « شبنيه » (Ibanyer) بأن المسلمين يعتقدون أن أحد خلفائهم تزوج بأميرة إفريقية . قلت: وليس هذا القول خطأ لأن « أود » دوق « ا كيتانية » أي ملك بلاد المال في عصره كان ينسب إلى « كاوفيس » أول ملوك فرنسا (٢) Navarr . هي مملكة في شمال اسبانيا كان العرب يقولون لها « نافارا » وأحياناً « بيرا »

(٣) Bordeaux مدينة عظيمة في غرب فرنسا على مسافة ٣٧٨ كيلو متراً إلى الجنوب الغربي من باريس، وهي قاعدة مقاطعة « الجيروندي » التي كان العرب يقولون لها « جيرندة » وكانوا يقولون لمدينة « بوردو » بورديل

وكان الأهالي الذين وقعوا في اليد يفدون أنفسهم بالمال . وأما أمير « بوردو » فقد قتل في المعركة .

وبعد أن انتهى عبد الرحمن من فتح بوردو تقدم الى الشمال فوجد دوق « اكيثانية » في طريقه يحاول صدّه في مضيق « دوردون »^(١) غير أن حملات العرب لم يكن ليصدها شيء ، فانهزم « أود » وفر بجيشه ، وقطع أمه من ملكه ، فتناسى جميع ما كان بينه وبين « شارل مارتيل » من الأحقاد والضغائن ، وأرسل يستصرخه ، فلم يمكن « شارل مارتيل » أو « قارله » إلا إجابة « أود » لا لأجل الإنسانية فقط بل لأجل السياسة ، إذ كان جميع مصير فرنسة والممالك المجاورة لها متوقفاً على نتيجة هذه الحرب فلو كان العرب تغلبوا ذلك اليوم على الأفرنج لما كانوا وقفوا إلا على ساحل البلطيق

فامتد الصريح في كل بلاد فرنسة وزحفت المقاتلة من كل صوب ، وانضم الجميع تحت لواء « شارل مارتيل » وبقي العرب يتقدمون الى أن وصلوا الى قريب من مدينة « تور »^(٢) وهناك علم عبد الرحمن العاقي أن جيشاً عظيماً زاحف لمصادمته ، وكان عبد الرحمن مع شدة بأسه وغرامه بالحرب عاقلاً حازماً بصيراً بالعواقب ، ففكر ساعة فيما بين أيدي رجاله من الغنائم الثقيلة وعلم ما يعوقهم عن القتال من اهتمامهم بحفظها ، فهم باعطاء الأمر الى الجيش بترك جميع ما في أيديهم من الغنائم والأسلاب ، ولكنه خاف من إغضاب عسكره فيما لو حملهم على تجرع هذه الكأس المرة ، إذ قد تفر همتهم وتلقس نفوسهم ، فرجع عن عزمه هذا معتمداً على ما كان في نفوسهم من شجاعة وصبر ، ثم تقدم وحصر « تور » وأخذها عنوة بمشهد من جيش « شارل مارتيل » وخيم بساحتها . ولما دخل العرب المدينة أسرفوا في القتل والنكابة . ثم تلاقي الجمعان بين « تور » و « پواتييه »^(٣) وكان عبد الرحمن هو البادى بالمناجزة فاستمرت

(١) Dordogne والمؤرخ « كوندى » الاسبانيولى يقول إن هذه الواقعة حصلت على وادى « الغارون » ولكن « دومارليس » الذى حصى كتاب « كوندى » يقول إن أكثر المؤرخين الافرنسيين يجعلونها في مضيق « دوردون »

(٢) Tours من مدين فرنسة المشهورة واقعة على نهر « الاوار »

(٣) Poitiers مدينة على مسافة ٣٣٢ كيلو متراً إلى الجنوب الغربى من باريس

المعركة مدة طويلة، قبل أن يترجح النصر للأفرينج. ولما رأى عبدالرحمن الخلل قد ابتدأ يظهر في صفوفه ألقى بنفسه في وسط الممعة يصطليها بيده، ودخل حتى بين صفوف الأعداء أنفسهم، يغامر مغامرة الجندي الذي هو من عرض الجند، إلى أن خر هناك صريعاً، فلما رأى العرب مصرع قائدهم الأكبر نزل بهم الرعب ونكصوا على أعقابهم وبنكوصهم خمدت جرتهم وسقط في أيديهم، فأذرع الأفرينج فيهم القتل وطرحوا منهم بالمراء أوفاً وما زالوا يعملون في أفضيتهم السلاح إلى «أربونة»^(١)»

فلما وصل خبر هذه الفاجعة إلى الأندلس وإلى أفريقية زلزل المسلمون زلزالاً شديداً، وعم الحزن واشتد البث ولبس المسلمون أثواب الحداد، فأسرع أمير أفريقية بإرسال عبد الملك بن قطن الفهري، خلفاً لعبد الرحمن النافقي، وأنفذ معه جيشاً من خيل ورجل

(١) يقول المسيو «دومارليس» في حاشية كتاب «كوندى»: ان المؤرخين من الأفرينج لم ينفقوا على تعيين يوم هذه الواقعة ولا على محل لشوئها. فبعضهم يقول إنها وقعت في ٧ أكتوبر سنة ٧٣٢ وبعضهم مثل «كوندى» يقول انها وقعت سنة ٧٣٣ وأما العرب فانهم أوثق رواية عن يوم وقوعها، لأن هذه الحادثة المشؤومة على الأمة العربية، التي كانت سبب توقف سير قوتها والتي سقط فيها رجل من أعظم فواد العرب في التاريخ، كانت عندهم من أشد الوقائع نكايه بهم لحفظوا جيداً تاريخ وقوعها، فالعرب يقولون إنها وقعت سنة ١١٥ للهجرة. قلت: يريد «دومارليس» أن يقول إنها وقعت سنة ٧٣٣ ولسكن الذي في نفع الطيب يخالف هذا إذ يقول إنها وقعت في رمضان سنة ١١٤ أي وفق سنة ٧٣٢

قال: بقي مكان الواقعة، فبعض المؤرخين من الأفرينج مثل «فيللي» Velli يجعل وقوعها على خمس مراحل من «تور» والآخر يقولون بل جرت بقرب «بواتيه» ومؤرخو العرب يذكرون انها نشبت على ضفاف نهر «أوفار» Ovvar وربما قصدوا بذلك نهر «فيين» Vienne الذي ينصب في الأوار. ويقول العرب إن سبب الهزيمة هو أنهم كانوا وضعوا الفئام في الخيم وراءهم فانصرف فريق من الأفرينج وهاجموا الخيم فنال العرب على الفئام التي فيه. وبينما المعركة في أشد معاماتها ترك جانب كبير من فرسانهم ساحة الحرب ورجعوا لحماية الفئام ورجوعهم هذا خفت كفتهم في يدان الدال حيث كان منتصباً الميزان وكان أقل شيء يمكنه أن يرجع السكفة الواحدة على السكفة الأخرى. فعبد الرحمن كان حسب لعمية الفئام هذه حساباً كبيراً وخاف أن تكون سبب بوار العرب ذلك اليوم فوقع فيها خاف منه

وبعث الى الخليفة بدمشق يعلمه بفاجعة بلاط الشهداء وقتل الأمير عبد الرحمن. الفافقى وبأنه أنفذ عبد الملك الفهرى مكانه وجرده معه جيشاً، فوافق الخليفة على عمل عامله وشمر للأخذ بالثار وأمر بغزو بلاد فرنسة وأخذها بالسيوف من كل ناحية، فسار عبد الملك الفهرى وفي نيته أن يأخذ بدحل المساهين ويجبر الكسر الذى وقع، ولكن هيهات فقد كان بلغ بالمساهين اليأس مبلغه وذهب كل كلام القائد فى استنهابهم همهم سدى وسار منهم مع عبد الملك جيش الى فرنسة لكنهم ساروا بصدور غير منسححة. وآمال غير منفسحة . وكيف يقاتل جيش تعوزه القوة المعنوية. فانهمزم جيش عبد الملك. فى جبال « البيرانه »

وأخيراً أرسل الخليفة مكانه عقبة بن الحجاج (السلولى) وكان اشتهر ببسالته وحسن تديره فى حرب البربر بافريقية فوصل إلى الأندلس ، وانتعشت به الآمال بما كان عليه من زكاء السيرة والعدل وسداد التصرف، فبدأ بعزل العمال الذين عسفوا الرعية وحبس الذين غلوا من أموال الدولة أو قاموا بجبايات غير شرعية ، وانتصر للضعفاء واقتص لهم من الأقوياء، وأمر الولاة بتجنيد فرق من الجند أرصدها لاستئصال قطاع الطرق، وأسس كثيراً من المدارس والمساجد، على نفقة الدولة، وخصص لها الخدمة الكثيرين. وكان لا يميز فى المعاملة بين أصناف رعيته . وبالأجمال فقد كان عقبة هذا كامل العدالة تام الرجولية لا يجد قاتل فيه مطمئناً . ثم نظر فى سيرة سلفه عبد الملك الفهرى فلم يجد عليه ما يؤاخذ به، فجعله أميراً على الخيالة، وأرسله الى الثغر. وكان فى نية عقبة أن يزحف الى فرنسة بجيش جرار^(١) امثالاً لأمر الخليفة ، ولكن لما وصل الى « سرقسطة ».

(١) وأما فى نفع الطيب فيقول ان عقبة بن الحجاج السلولى تولى من قبل عبيد الله بن الحجاج. فأقام خمس سنين محمودة السيرة مجاهداً مظفراً حتى بلغ سكنى المساهين « أربونة » وصاروا باطهم على نهر « ردونة » ثم وثب عليه عبد الملك بن قطن الفهرى سنة احدى وعشرين فخلعه وقتله . ولكن المؤرخ كوندى الاسبانولى لا يروى الحوادث على هذه الصورة بل يقول انه فى غياب الأمير عقبة فى افريقية وقع الخلل فى إدارة الاندلس وصار كل أمير يعمل بما يعين له ووقت الفوضى ولم يكن غير عبد الملك الفهرى من يعرف أن يحفظ النظام فى جيشه وأن يسد الثغور . وفى ذلك الوقت انتشر الاشتوريون فرصة هذه الفوضى بين العرب وخرجوا من جبالهم وطرادوا العرب الذين يلونهم.

جاءه الخبر بأن البربر في افريقية ناروا عوداً على بدء، وأمره أمير افريقية بأن يتولى قيادة الجيش الثائر للتكامل بهم، وأن يعبر البحر الى طنجة، وهكذا اضطر عقبة أن يعدل عن غزو فرنسا وأجاز الى طنجة واشتدت به عزائم العرب في افريقية وكانت هذه الواقعة سنة ٧٣٧ مسيحية وفق سنة ١٢٠ هجرية. وفي آخر هذه السنة توفي « بيلاي » بطل « استورية » الذي كان هو وحده بنفسه نواة المقاومة بما بقي من قوة الاسبانيول في وجه العرب بعد أن استصنى هؤلاء جميع اسبانية واخذوا على ملاك المسيحيين بها، فانه بطائفة قليلة من رجاله لم يزل يفر في جبال « استورية » من صخرة إلى صخرة إلى أن اعتصم بمنارة جعلها مركز قوته المنيع، ولم يبرح معتصماً بذلك الغار يشن منه الغارات على الأطراف القريبة منه وهو بمنجاة من العرب، حتى وسع رقعة إمارته وما زالت تتسع شيئاً فشيئاً إلى أن صارت إمارة مذكورة ثم مملكة ثم تقاتبت هذه المملكة بمسد عدة قرون على جميع إسبانية وأخرجت العرب من كل أوربة. وسندكر في الجزء التالي جميع ما يتصل بنا علمه من خبر « بيلاي » هذا، وكيفية نشوء إمارته ونمو أعقابه إلى أن استرجعوا جميع وطنهم بعد ثمانية قرون ولنعمد الآن الى تاريخ « دينو » عن غزوات العرب في فرنسا، ولنمهد لكلامه بما يلي :

واقعة بلاط الشهداء

قبل الدخول في شرح هذه الواقعة وأسبابها وما قيل فيها أرى أن اترجم للقاري

ونقدموا صوب بلاد المسامين فزحف عبد الملك اليهم بمحيشه وهزمهم واضطروهم الى الرجوع من حيث أموا، ثم بعد ثلاث سنوات كانت استمرت بها ثورة البربر الى أن دخلوا في الطاعة عاد عقبة ابن الحجاج الى الاندلس فوجد الولاة في أسوأ حال وليس هنالك أمير كفؤ للإمارة فأنتم بالواجب عليه عبد الملك العمري فكتب اليه عقبة أنه لا كان طراً عليه مرض أصبح لا يقدر معه على الإمارة فعدّ كتب الى الخليفة بأن يولييه مكانه. وهكذا كان، ومات عقبة في قرطبة وبكاه الجميع بدون استثناء نهاراً لحسن سيرته

بطلي هذه المعركة عبد الرحمن الغافقي العربي و « شارل مرتيل » الافرنجي الذي يسميه العرب «قارلة» وأذكر خلاصة خبرهما، فيكون ذلك أعون على فهم الواقعة والحوادث التي أدت إليها ونشأت عنها .

« فشارل مرتيل » هو ابن « بين ديريستال »^(١) مولده سنة ٦٨٩ كان اتممه أبوه بقتل أخيه الذي كان من غير أمه فاعتقله في كولونية^(٢) وما زال إلى أن مات أبوه بين سنة ٧١٤ في الاعتقال فنار الأسترازيون أي أهالي القسم الشرقي من المملكة الميروفنجية الافرنجية بتلك الدولة وجعلوا شارل (أو كارل أو قارله) دوقاً عليهم وتغلبوا به على أهالي القسم الغربي من المملكة بعد وقائع متعددة سنة ٧١٦ وسنة ٧١٧ إلى سنة ٧١٩ وعند ذلك اضطر الملك « شيلريك » الثاني أن يتخذ شارل حاجباً فتسلم زمام الأمور واستبد بها وصار مع الملك «شيلريك» الثاني والملك «تيتري» الرابع كما كان المنصور بن أبي عامر في الأندلس مع الخليفة الأموي هشام أو كما كان عز الدولة ابن بويه أو ابن عمه عضد الدولة بن بويه مع الخليفة الطائع العباسي أو كما هو المقيم العام الذي يجعله إحدى الدول الاستعمارية من قبلها في هذا العصر بجانب أحد سلاطين الاسلام ممن ليس له من السلطنة الا الاسم . هذا ومن ذلك الوقت أخذ شارل يمهّد البلدان التي تليه ويدوخ الشعوب التي في جواره فقهر السكسون والبافارين وغيرهم من الألمان وكذلك كان « أود » دوق اكيثانية قد هاجمه فدحره .

ولكن لم يبلغ تلك الشهرة التي بلغها ولم يلقب بشارل مارتيل أي المطرقة الا بعد أن ظهر على العرب في واقعة « پواتيه » أو بلاط الشهداء . جاء في « الملمة التاريخية الافرنسية لغريغوار وموريس فال »^(٣) « ما يلي : وكان العرب استولوا على اسبانية وسبتيمانية وتهددوا بلاد الغال والنصرانية كلها وهزموا « أود » دوق اكيثانية فاستصرخ هذا شارل فزحف شارل إلى العرب على رأس جيش الأسترازيين

Pepin D'heristal (١)

Cologne والالمان يقولون كولن (٢)

Dictionnaire Encyclopédique Par L. Gregoire et Maurice Vahl (٣)

والمقاتلة التي جاءت من وراء الرين ، فانتصر على الأمير عبد الرحمن انتصاراً عظيماً بين «تور» «وبواتيه» سنة ٧٣٢ ويقال إنه بعد هذه الواقعة تلقب بمارتيل ، وهي لفظة معناها المطرقة . ثم إنه بسط الملك الافرنجي على البلاد التي يسقيها نهر الصاوون ونهر الرون ، ودخل سبتانيا ، وطرد العرب من نيم ومدن أخرى ، لكنه لم يقدر على أربونه التي تم فتحها فيما بعد على يد ابنه بين القصير . انتهى .

ومات شارل مارتيل سنة ٧٤١ ولم يسمح لأحد من الملوك الميروفانجيين بشيء من الملك ولا بلقب الملك ، وترك سبعة أولاد ذكور ، أشهرهم بين وكارلومان ، فتقاسم هذان الملكة بينهما

أما عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي فهو أمير الأندلس . كان مع السمح بن مالك الخولاني في غزاة طلويزة بحسب رواية «رينو» ولما استشهد السمح رحمه الله في تلك الغزاة تولى عبد الرحمن قيادة جيش العرب الغازي للافرنجة ، وقفل به إلى الأندلس وآلت إليه الإمارة فيما بعد . وقد ذكرنا في حاشية مقدمة ترجمة الأمير عبد الرحمن المذكور نقلاً عن بغية الملتبس لابن عميرة . ولندكر الآن شيئاً عن نسب هذا الرجل العظيم فنقول :

يقال له الغافقي نسبة إلى غافق وهي قبيلة من الأزد وهو ابن الشاهد بن عك . ابن عدنان بن عبد الله بن الأزد . وقيل بل هو غافق بن الحارث بن عك بن الحارث ابن عدنان واليه ينسب الحصن المعروف بغافق في الأندلس على مسافة مرحلتين من قرطبة . وجاء في تاج العروس أن لهم خطة أيضاً بمصر . وذكر ياقوت في معجم البلدان غافق ، فقال : إنها حصن بالأندلس من أعمال فخص البلوط منها أبو الحسن علي بن محمد بن الحبيب بن الشماخ الغافقي كان من أهل النبل وتولى الأحكام ببلدة غافق مدة طويلة قدر ٦٥ سنة ومات سنة ٥٠٣ . وقال المقرئ في نفح الطيب : إن غافقا هو ابن عك بن عدنان بن أزان بن الأزد ، قال ابن غالب : من غافق أبو عبد الله بن أبي الخصال الكاتب . وأكثر جهات شقورة ينتسبون إلى غافق . انتهى

قلت : ومن العلماء المعروفين المنسوبين إلى غافق عبد العزيز بن علي بن عيسى بن سعيد .

ابن مختار الغافقي أبو الأصبغ المعروف بالشقورى المتوفى سنة ٥٣١ هـ ترجمه ابن بشكوال
فى الصلة وابن الأبار فى التكملة

ومنهم عبد الرحمن بن بشر بن الصارم الغافقي أبو سفيان وفد على سليمان بن
عبد الملك ورجع الى الأندلس فاستشهد بها فى قتال الروم، روى عنه بكير بن الاشج
وعبد الرحمن بن شريح
ومنهم أبو بكر محمد بن أبى عامر بن حجاج الغافقي الاشبيلي وهو الذى جاور
بالمدينة المنورة وقال :

لم يبق لى سؤال ولا مطلب مذ صرت جارا لا حبيب الحبيب
لا أبتنى شيئا سوى قربه وها أنا منه قريب قريب

جاء ذكره فى نفح الطيب

ومنهم أبو عبد الله محمد بن فطيس الغافقي الألبيرى الزاهد : كان من أهل الحديث
والضبط رحل إلى الشرق وسمع من شيوخ كثيرين وعاد إلى البيرة وطنه وتوفى بها
فى شوال سنة ٣١٩ عن تسعين سنة، ورد ذكره فى النفح أيضا .

ومنهم محمد بن عيسى بن دينار الغافقي من أهل قرطبة كان فقيها زاهدا حج
وحضر افتتاح أقرطش « أى جزيرة كريت » واستوطنها . قاله الرازى .

ومنهم اليسع بن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع بن عبد الله الغافقي : من
أهل بلنسية أصله من جيان وسكن الرية ثم مالقة يكنى أبا يحيى ترجمه صاحب نفح
الطيب، وقال : إنه كتب لبعض الامراء بشرق الأندلس وله كتاب سماه « المغرب فى
أخبار محاسن أهل المغرب » جمعه للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالديار
المصرية بعد أن رحل إليها من الأندلس سنة ستين وخمسةائة وتوفى بمصر سنة ٥٧٥ .
ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد السلام الغافقي الاشبيلي الشهير بالمسيلي : رحل
حاجا وقفل إلى بلده . ذكره صاحب النفح .

ومنهم أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله بن خصيب بن احمد بن حزم الغافقي :
أندلسي سكن دمشق وتولى بها الحسبة وسمع بمصر وبغداد وطرابلس ودمشق وغيرها

كان مالكي المذهب لكنه كان يميل إلى مذهب المعتزلة ، قال المقرئ : ما سمعت بمالكي معتزلي غير هذا . توفي سنة ٤٠٤ ذكره ابن عساكر .

ومنهم أبو أمية ابراهيم بن منبه بن عمر بن احمد الفافقي من أهل الربة نزل مرسية وتولى القضاء والخطبة فيها وحدث بصحيح البخاري آخر الحجة سنة ٥٥٥ ذكره صاحب النفح . ومنهم غير هؤلاء من الأعلام

وأما عبد الرحمن الفافقي ، أمير الأندلس ، فقد ذكر المقرئ في النفح نقلاً عن ابن سعيد أنه كان من التابعين تولى إمارة الأندلس في حدود العشر ومائة وهو من أبطال الاسلام العدودين . كل ما ذكره المؤرخون من أخباره يدل على أنه كان من أفذاذ الرجال ، جمع إلى الشجاعة والإقدام العدل في الأحكام والسهر على مصالح الأنام وبعد النظر في السياسة

قال المؤرخ « رينو » إنه كان مهتماً بأخذ ثأر المسلمين عن الغزوات التي أصيبوا فيها في السنين الأخيرة قبل إمارته . وكان يفكر في حملة شديدة على فرنسا يدوخ بها هذه المملكة ثم يجتاز منها إلى ايطالية فألمانية فالقسطنطينية ويدخلها في حكم الاسلام . ولما كانت الحماسة الدينية في ذلك الوقت في إبان غليانها ، وكانت الأندلس وفرنسة الجنوبية ينحصب أراضيها واعتدال هوائهما أصبحتا مقصداً للعرب من جميع الجهات ، وكان يأتيها كل يوم رجالات أشداء من جزيرة العرب ومن جبال الأطلس ، فقد كان الأمير عبد الرحمن الفافقي يمرن هؤلاء المجاهدين على استعمال السلاح ويثير فيهم نفوة القتال وكان مقامه بقرطبة ولكنه بقي مدة يطوف في الأندلس وينظر في مظالم العباد ويقتض من القوي للضعيف ويعزل الولاة الذين حادوا عن جادة الاستقامة ويتبدل بهم ولاة معروفين بالعدل والنزاهة . وكان يعامل المسلمين والمسيحيين على السواء تقريباً وعلى كل حال لم يكن يخرج في معاملة المسيحيين عن العهد المعقود معهم

وفي تلك الأيام كان المسلمون يوالون الغارات من أربونة وقرقشونة على البلدان المجاورة لها ، ولكن حصل حادث نفس من خناق المسيحيين بعض الشيء ، وذلك أن

القائد الذى كان فى سردانة من جبال البيرانية كان بحسب رواية إيزيدور الباجى ولذريق شمينيس أحد أحلاس الحرب الإفريقيين الذين بالاتحاد مع العرب فتحوا الأندلس. وكان يسمى « مونوزه » وكان من ذوى البطش والشبا المرهوب وكان فى مبدأ أمره صارماً جداً فى معاملة المسيحيين وأحرق حياً أسقفاً اسمه « أنا مبادوس » فلما وقعت الحرب بين البربر والعرب مال بطبيعة الحال الى قومه البربر واتحد مع « أود » صاحب جنوبى فرنسا الذى لأجل أن يتمكن منه أزوجه ابنته المسماة « لمبيجيا » وكانت فتاة بارعة فى الجمال ^(١) بلغت شهرة عظيمة

وقد روى « كوندى » الاسبانيولى هذه الحادثة بشكل آخر نقلا عن مؤرخى العرب ، فجعل « مونوزه » هذا محرفاً عن عثمان بن أبى نسعة ^(٢) الذى تولى إمارة الأندلس مرتين ، وكان ينافس عبد الرحمن النافقى على الإمارة ويرى نفسه أولى بها . وروى « كوندى » أن ابن أبى نسعة هذا أصاب هذه الأميرة فى إحدى غزواته فسيبها فى من سبا وهام بحبها نظراً لجمالها واتحد من أجلها مع « أود » أبيها ، ثم لما حملة عبد الرحمن على شن الغارات فى بلاد إفرنجة اعتذر « مونوزه » أو ابن أبى نسعة بوجود مراعاة الميثاق الذى بينه وبين « أود » فلم يقبل عبد الرحمن منه هذا العذر وأصر عليه بالتعبية والزحف ، فأسرع ابن أبى نسعة بتحذير حميه « أود » ليكون على أهبة ضخمة فى وجه عبد الرحمن ، فأرسل عبد الرحمن نخبة من جنوده الى « البيرانية » وأمرهم بالقبض على ابن أبى نسعة حياً أو ميتاً . فلما رأى هذا نفسه لا يقدر على الوقوف أمامهم فر ومعه زوجته الحسناء الى الجبال ، فتأثروه الى حيث ثقفوه ، وتغلبوا عليه واحتزوا رأسه وأرسلوا بالرأس الى دمشق . وكذلك أرسلوا الى دمشق الأميرة « لمبيجيا » التى دخلت

(١) ذكر رينو أن بعض مؤرخى ذلك العصر اتهموا أود بأنه هو الذى دعا العرب الى فرنسا . وهو وغيره يظنون أن هذه التهمة باطلة وان الذين كتبوا ذلك كانوا من أنصار شيلد براند أخى شارل مارتل وأنصار شارل وكلهم كانوا يريدون الوقعة بأود

(٢) عثمان بن أبى نسعة هو عربى الحى كما يظهر من كتب العرب . وهو الذى تزوج بابنة « أود » أمير بلاد الغال بحسب رواية « كوندى » الاسبانيولى ومؤرخى العرب . فأما ما يقوله « رينو » من أن صهر الأمير « أود » لم يكن عربياً وإنما كان بربرياً اسمه « مونوزه » فلم يقل على أى شئ استند فى هذه الرواية ولا ذكر شيئاً من تاريخ « مونوزه » هذا الذى سماه .

في حرم الخليفة . روى هذه الحادثة أيضا ايزيدور الباجي ولوذريق شيمينيس ، ثم روى أن المسلمين الذين كانوا في جنوبي فرنسة كانوا قبل واقعة « بواتيه » غزوا مدينة « أرل »

قال « رينو » : وقد أشار مؤرخو العرب الى هذا الحصار بدون تسمية هذه المدينة ولكن بوصفهم اياها بأنها مبنية على ضفاف نهر كبير هو أكبر نهر في تلك البلاد كانت تصعد به السفن من البحر . ويظن بعض مؤرخي الافرنج ان حملة العرب على مدينة أرل لم تكن الا خدعة يقصدون بها صرف نظر الافرنج عن وجهة الحرب الحقيقية وهي الجهة الشمالية . فان عبد الرحمن بعد أن لبث نحواً من سنتين ، يتأهب للزحف ويكتب الكتاب ويهيئ الجنود، توجه الى جبال البيرانية . وكان جيشه جراراً يرج الأرض ويهتز شوقاً الى القتال . والأرجح أن مروره من هناك وقع في ربيع سنة ٧٣٢ وقد جعل طريقه على أرغون ونابارة ودخل أرض فرنسة من أودية « بيفور »^(١) و « بيرن »^(٢) يستدل على ذلك من آثار التدمير التي وقعت في تلك الديار فقد هدم العرب الكنائس والأديار مثل دير « سان سافين »^(٣) بقرب « طارب »^(٤) ودير « سان سيفر دورستان »^(٥) في « بيفور » وخرّب العرب « آير »^(٦) و « بازاس »^(٧) و « اوليرون »^(٨) و « بيرن » وكذلك دير « سانت كروا »^(٩) بقرب بوردو . ثم افتحوا بوردو^(١٠) عنوة . وأقبل اود دوق اكيثانيا بمجموعه محاولاً صدهم في ممر

Bigorre (١)

Béarn (٢)

Saint - Savin (٣)

Tarbe (٤)

Saint - Sever - De - Rustan (٥)

Aire (٦)

Basas (٧)

Oleron (٨)

Sainte-Croix أي الصليب المقدس (٩)

Bordeaux (١٠)

دور دفاون^(١) نهزم. وكان عدد قتلى المسيحيين من الكثرة بحيث أن المؤرخ ايزيدور الباجي^(٢) قال : ان الله تعالى وحده يقدر أن يحصيه . فلما رأى أود أن لاطاقة له بالثبات أمام العرب استنصر شارل مارتل الذي كان في ذلك الوقت يدافع عن مملكته فاستجاش عصابه القديمة من جهات الدانوب والالبا^(٣) والاوقيانوس. ثم ان العرب بعد أن ظفروا بأود أوغلووا حتى وصلوا الى بواتيه وأحرقوا دير « سانت إيميلين^(٤) » وكنيسة « سانت إيلير^(٥) » في بواتيه

قال رينو : انه بلغت حماسة العرب في تلك الغزوة أن بعض مؤرخيهم شبههم بريح صرصر ، تقتلع كل ماجاء أمامها ، أو بسيف ماض يقطع كل ما يصادمه . وكان العرب قد وضعوا نصب أعينهم مدينة « تور » التي كان فيها دير « سان مارتين^(٦) » المشهور بنفائسه . وهناك تلقى العرب خبر قدوم شارل مارتيل بجيوش الفرنجة . فقاما ذكر التاريخ معركة لها مابعد ما مثل هذه المعركة . فكان المسيحيون من جهة يذبون عن ديارتهم وأوضاعهم وأملأهم وأنفسهم ، وكان المسلمون من جهة أخرى معتقدين أيضا أنهم انما يقاتلون في سبيل الله ، خلا ما كان يهمهم من حفظ الغنائم التي في أيديهم ، قال رينو : ان مؤرخا عربياً روى ان عبد الرحمن كان في آخر الأمر في خوف شديد من لحو جيشه بالغنائم الكثيرة التي كانوا يجرونها في أثناء زحفهم ، وانه قد فكر في حملهم على تركها في أرضها لئلا تشغلهم عن القتال فتكون عليهم وبالا ، لكنه لم يشأ - وهو في مأزق كذلك المأزق - أن يفيظهم ويخسر توجه قلوبهم . وبقي واثقا بشجاعتهم ويمن نقيته في القتال . فكان لتردده هذا ثلاث النتيجة المشؤومة . وقد روى هذا المؤرخ العربي أن العرب هاجوا مدينة تور ،

Dordogne (١)

(٢) تقدم ذكر هذا المؤرخ

(٣) الدانوب معلوم . ونهر الالبا هو نهر شهير في المانية

Saint - Émillien (٤)

Saint - Hilaire (٥)

Saint - Martin (٦)

بمراى من شارل مارتل ، وأنهم انقضوا مثل النمر الكاسرة على أهلها فذبحوهم ذبح الشياه مما لاشك أنه قد أغضب الله تعالى فعاقبهم بنكال قريب . أما مؤرخو المسيحيين فكانت روايتهم عن هذه المعركة قاصرة ولم يذكروا شيئاً عن أخذ العرب لمدينة تور . وقد بقى الجيشان يرايط كل منهما الآخر مدة ثمانية أيام ، وبعد مناوشات ليست بذات بال أجمع الجيشان على الوقعة الفاصلة . وبحسب هذه الرواية العربية تكون الوقعة قد حصلت بقرب تور . وهذا هو رأى لدرىق شيمينيس الذى كان يروى عن مؤرخى العرب . وأما مؤرخو الافرنجة فأكثرهم يذهبون الى أنها وقعت فى احدى ضواحي « بواتيه » ويستدلون على ذلك من الآثار المحفوظة فى دير مواساك . ومن الممكن الجمع بين الروايتين . وذلك بأن يقال ان بداية المعركة حصلت بقرب تور وأنها انتهت بقرب بواتيه . وقد كان ذلك فى شهر اكتوبر سنة ٧٣٢ بحسب رواية بعضهم . وكان المسلمون هم الذين بدأوا القتال ، وكان الفرنج قادمين من حروب اتسقى لهم فيها النصر ، فكانت حماسهم تغلى مراجلها ويزيدها فيهم وجود شارل مارتل الذى كان كلما ظهرت ثلثة خف وسدّها بنفسه . وقد هاجم المسلمون بخفة حركتهم على سروات الخيل مهاجمات شديدة ، يحاولون بها خرق صفوف الافرنج فكانوا يجدون أمامهم صفوفاً أشبه بالجدران فى ثباتها ، فكانت تتكسر عليها حملات العرب ، فاستمر القتال أول يوم طول النهار ولم يحجز بينهم سوى الظلام . وفى اليوم التالى تجدد القتال ورخصت النفوس فى سوق المنايا وحمل المسلمون حملات اليائسين ، اذ لم يكونوا ينتظرون من الافرنج مثل هذا الثبات ولكنهم لم ينالوا منهم وطراً . وبينما كانوا يضاعفون حملاتهم اذ أغارت فرقة من الافرنج على معسكر المسلمين يظن ان قائدها كان اود دوق اكيثانية ، فلما رأى المسلمون غارة جانب من الافرنج على مخيمهم اشفقوا على الغنائم التى كانوا حازوها فتركوا المصاف وانكفأوا الى الخيم ليستخلصوه من أيدي الافرنج . وعند ذلك هرع عبد الرحمن يرد المنكفتين ويسوى الصفوف ، فذهب اجتياحه عبثاً ، وأصابه سهم من جهة العدو فخر صريعاً . وعند ذلك وقع الفشل فى صفوف المسلمين ، لكنهم تمكنوا من تخليص مخيمهم من أيدي الأعداء وان كانوا فقدوا كثيراً من رجالهم . وأقبل الظلام فخال بين الفريقين . وكان مراد شارل

مارتل الكر على العرب عند الصباح ، الا أنه عندما أصبح الصباح لم يجد منهم أحداً .
وذلك أنهم لما رأوا ماحل بهم سروا في أحشاء الليل وانجازوا إلى الورا قاصدين جبال
البرانه . وكان مسراهم من السرعة بحيث أنهم تركوا خيامهم منصوبة وغنائمهم مطروحة
في الأرض

ولما رأى شارل مارتل أن العدو أقبل بقضه وقضيضه وزع على عساكره
ماوجده في خيم العرب من الغنائم المركومة ، ولكنه لم يتأثر العرب في طريقهم وهم
قافلون . وعللوا ذلك بأنه خشي أن يكون انكفاؤهم إلى الورا استدراجا ومكيدة ، أو
أنه قد أمن بعد هذه الوقعة على مملكته وأصبح لا يخشى عليها شراً . فلذلك قطع نهر
الوارا، راجعا إلى الشمال، مفتخراً بما أحرزه من النصر الباهر . ومنذ ذلك اليوم لقبوه
بمارتيل (أى المطرقة) سموه بها لثباته ولما سد به بنفسه من الثلم التي كانت تقع في جيشه
ولا يمكن قبول روايات بعض مؤرخي المسيحيين الذين أوصلا عدد المسلمين
الصرعى في تلك المعركة إلى ثلاثمائة وستين ألفا، فإن المسلمين ذلك اليوم لم يسقطوا كلهم
صرعى، وما كان من الممكن جمع جيش مؤلف من خمسمائة ألف مقاتل في تلك الأيام وقد
كانت الحروب الداخلية المستأصلة للرجال لا تنقطع . ثم على فرض الحال وأنه كان ممكنا
جشد فيالق جرارة كهذه فكيف كان يمكن إيجاد الميرة اللازمة لهذه الفياق الجرارة
في البلاد التي تمر فيها وقد كانت خربت تقريبا من توالى الغارات والرايا . نعم لا ينكر
أن هذا الجيش الذى قاده عبد الرحمن الغافقى ، تلك النبوة ، كان أعظم جيش وأحمس
جيش قاده العرب الى وطننا الجميل ، وأنه كان قد هب للحرب كالريح المرسلة ، وأدل
دليل على ذلك هو كون فرنسة بأجمعها جمعت ذلك اليوم جموعها وجاءت بالشوك والشجر
لمقابلة ذلك الجيش العربى المغير ، وأن هذه المعركة لا تزال حتى اليوم شاغلة أعظم موقع
في أذهان جميع الاوربيين

وأما مؤرخو العرب فلم يكونوا يعلمون من تفاصيل تلك المعركة الفاصلة أكثر
مما عرفه مؤرخو الافرنج . وغاية ما ذكر العرب أن عدداً كبيراً من رجالهم استشهدوا
في بلاط الشهداء وهو الاسم الذى أطلقوه على تلك الواقعة . ويقولون انه لا يزال يسمع
هناك دوى خفى هو ضجيج الملائكة الذين يزلون من السماء للصلاة في ذلك المكان

القدس على الشهداء الذين لقوا فيه ربهم

قال المستشرق رينو : وبعد هذه الهزيمة انكفأ فل الجيش العربي الى البيرانه مدمراً كل ما مر به ومن جملة ذلك دير سولينياك^(١) . وقيل ان الافرنج عند ما انكفأ العرب أعمالوا في أقفيتهم السلاح الى أن بلغوا أربونة . ولا يظهر أن هذه الرواية متينة^(٢) وقد كان تأثير هذه الهزيمة مختلفاً جداً بين المسلمين والمسيحيين ، فالمسيحيون استجدوا عزائمهم واستأنفوا صراهم ، وهبوا في جبال البيرانه للأخذ بالثأر ، واعتقدوا أن الله عاد معهم يؤيدهم على أعدائهم . والمسلمون استولى عليهم الوهل ونزل الوهن بعزائمهم وأخذ الأتقياء منهم يقولون ان ما حل بهم من الاديبار بعد الاقبال انما كان جزاء وفاقا من الله تعالى على استرسالهم في معاصيهم وامعائهم في ركوب أهوائهم

وكان النائب في الامارة الذي تركه عبد الرحمن الغافقي في قرطبة قد طير الخبر بهزيمة المسلمين في بلاط الشهداء الى القيروان والى دمشق . فارتضى الخليفة لهذا الخطب وأرسل أميراً على الأندلس اسمه عبد الملك^(٣) وجيز معه جيشاً وأمره بالأخذ بثأر المسلمين وشفاء صدور المؤمنين واستنفاد الوسع في هذا الأمر . فأقبل هذا الأمير على الأندلس ، يحاول رتق الفتق ورفو الخرق ، واغذ بجيشه الى البيرانه ، وأخذ يخطب في الغزاة والرابطة ويشدد من عزائمهم ويجدل سواعد المسلمين ويحبك من مرأثم وبين فضائل الجهاد وعلو رتبة الاستشهاد ، إلا أن كل هذه الخطب في المجاهدين لم تفعل فيهم الفعل الكفيل برأب ذلك الصدع . وكان نصارى شمالى اسبانية وجنوبى فرنسة قد رفعوا رؤسهم بعد هذه الواقعة ونبذوا الى المسلمين على سواء . وروى مؤرخ من مؤرخى العرب أن جيشاً من الفرنسيين قطع وقتل البيرانه واستولى على بابلونه وجيرونه أما الأمير عبد الملك فاعمل الحركة أولاً الى كتالونيا واراغون ونافار^(٤) ثم تقدم

(١) Solignac

(٢) بل الأظهر أنهم رجعوا من بلاط الشهداء والعدو خائف أن يظاً أذيالهم لشدة ما كان لهم من الرعب في قلوب الافرنج

(٣) هو عبد الملك بن قطن الفهرى

(٤) كتالونيا هي بلاد الكتالان التي قاعدتها برشلونة . واراغون هي مملكة شمالى اسبانية الى الشرق . ونافار هي من البلاد المجاورة لاراغون والعرب يسمونها نابرا وأحياناً نبرونه

الى بلاد اللندوق^(١) وحصن المدن التي كانت منها في أيدي المسلمين ، ثم أبعد المغار في بلاد المدو . وكانت بلاد « السبتيانيا » و « بروفانس » في حالة الفوضى تقريباً . وكان كل ذى طمع فيها قد انفرد بامارة واستأثر بزعامة . وكان بعض من هؤلاء الزعماء ينضون تحت جناح دوق أكيثانية والآخرين يتفياون في ظل شارل مارتل ، وذلك مصانعة لكل منهما ، ولكنهم كانوا في الحقيقة انما يريدون الاستقلال باماراتهم . وكثيراً ما كانوا يتحدثون يدأ واحدة مع المسلمين الذين كانوا في أربونة ، وذلك ليتقوا بأس أولئك الملوك الكبار . ومن هؤلاء الأمراء « موروند » الذي كان يلقب بدوق مرسيلية والذي كان بينه أكثر مقاطعة بروفانس

وفي تلك المدة كان شارل مارتل مشغولاً بيسط سلطته على برغونية وعلى مقاطعة ليون ، حيث كان المسلمون قد شنوا الغارات واهرجوا البلاد وأمرجوها ، ثم انه زحف لقتال « الفرizon^(٢) » فشغلوه أيضاً عن قتال المسلمين

وفي سنة ٧٣٤ اتفق يوسف أمير أربونة العربي مع موروند دوق مرسيلية وزحف المسلمون بجيش جرار ، وعبروا نهر الرون واستولوا على مدينة « آرل » ونهبوا أديار الرسل والعنراء^(٣) وهدموا قبر سان « سيزير^(٤) » ثم تقدموا إلى أواسط بلاد البروفانس ، وحاصروا مدينة « فريتتا » المعروفة اليوم « بسان ريمي^(٥) » واستولوا عليها ، وساروا منها نحو « آفينيون » وعبثاً حاول مقاتلة « آفينيون » صد المسلمين في ممر « دورانس^(٦) » فان المسلمين ذللوا كل العقبات . وكانت « آفينيون » في ذلك الوقت عبارة عن الصخرة التي بنى عليها فيما بعد قصر الباباوات ، وهو المكان الذي كان مؤلفو العرب يسمونه بصخرة أبنيون . وقد بقي المسلمون في ذلك الوقت أربع سنوات

(١) Languedoc

(٢) Frisons شعب جرمانى كان ينزل بين بحر الشمال ونهر الرين الأدنى

(٣) Couvents des Saints- Apôtres et de la Vierge

(٤) St- Gésaires وقد روى رينو هذا الخبر عن تاريخ « غاليا كريستيانيا »

(٥) Fretta, aujourd'hui St Remi

(٦) Durance

محتلين بلاد « بروفانس »^(١) وكان « أود » دوق أكيثانيا قد توفي سنة ٧٣٥ فجاء شارل مارتل واستولى على بلاده وخضع له أولاد الدوق المذكور وأما الأمير عبد الملك^(٢) فبعد أن أهب الله له ريح النصر في هذه الغزوات بأرض فرنسة، عاد إلى جبال البيرانية ، لتدويخ الأهالي الباقين على العصيان ، فصادفته أنواء وأمطار وهو في جبال وأوعار فوقعت عليه هزيمة . وعندما بلغ الخليفة ما أصابه قلده إمارة الأندلس أميراً غيره اسمه عقبة^(٣) ولم يبق في يد عبد الملك سوى إمارة المقاطعات التي في جوار البيرانية

وكان عقبة هذا رجلاً يتقدح حمية على الاسلام ويرى في الجهاد قرة عينه . ويقول مؤرخو العرب إنه اختار إمارة الأندلس حباً بالجهاد والرباط . وكان اذا وقع في يده أسير من المسيحيين لا يهمل أن يعرض عليه الاسلام . وفي أيامه حصن المسلمون جميع المواقع التي أمكنهم تحصينها في بلاد اللندوق ، حتى ضفاف نهر الرون ، وشحنوها بالمقاتلة . وفي ذلك الوقت أعادوا المغار كما بدا على بلاد «دوفينية»^(٤) فغربوا بلدة «سان بول» المعروفة بالثلاثة القصور و «دونزير»^(٥) واحتلوا «فالانس»^(٦) وأصبحت جميع الكنائس المجاورة لمدينة « فيين »^(٧) على ضفتي الرون قلعا صنفصفا

-
- (١) قد ذكر المستشرق رينو في حاشية كتابه نصوص التواريخ التي تخبر عن هذه الواقعة وهو باللاتينية كما لا يخفى لأنها كانت لغة الكتابة في ذلك العصر . فن هذه النصوص ما نقله عن تاريخ دير «مواساك» «Moissac» ومجموعة مؤرخي فرنسا «Recueil des Historiens de France» وتاريخ بروفانس للمؤلف بابون «Papon» وذكر أيضا لتأييد خبر الوقائع التي جرت بين العرب والفرنجة على ممر «دورانس» كتابة لاتينية كانت في كنيسة بقرب «بونبا» «Bonpas»

(٢) أي عبد الملك بن قطن الفهري الذي سبق ذكره

(٣) هو عقبة بن الحجاج السلولى الذي تقدم ذكره أيضاً

(٤) «Dauphiné» مقاطعة في شمالي « بروفانس » وغربي « سافوا » وشرقي « ليون »

تقدم ذكرها

(٥) « Saint - Paul - Trois Chateaux et Donzere »

(٦) مدينة على نهر الرون «Valence»

(٧) «Vienne» مدينة على الرون أيضاً

وكان المسلمون للاخذ بثأر جيشهم الذي قهره شارل مارتل في بلاط الشهداء قد احتلوا مدينة ليون من جديد ، وبثوا الغارات منها على بلاد «بورغونية» فأخذ شارل مارتل يتأهب لقتالهم ، وقد كان واقفه الحظ من جهة الشمال والشرق حيث سكنت الثورات التي كانت تائرة عليه ، فسرح أخاه « شيلد براند^(١) » بجيش إلى ليون ، وأرسل يستصرخ «لويبراند^(٢)» ملك «اللومباردين» في ايطالية ليوافيه بجيش لقتال المسلمين الذين كانوا البواحداً مع موروند ذوق مرسيلية وقد تمكنوا من جبال «دوفينه» و «بييمونت^(٣)» . فجاء شيلد براند (أخو شارل مارتل) وحاصر المسلمين في آفينيون واستعمل في حصارها الآلات المعروفة لذلك العهد ، وتبعه شارل مارتل نفسه بجيش جديد ، وجاء لويبراند ملك اللومباردين بجيش آخر من ايطالية ، فاستولوا على آفينيون عنوة واستأصلوا من بها من المسلمين . وتقدم بعد ذلك شارل مارتل صوب أربونة وكان فيها أمير يقال له بحسب تلفظ المؤرخين القدماء أنبا^(٤) وكانت مواصلات مسلمي الأندلس مع مسلمي سبتيانيا أكثرها من طريق البحر نظراً لكون أهالي جبال البرانية المسيحيين حائلين بين الفريقين . فلما وصل الخبر إلى عقبه بأن شارل مارتل قد ضيق الحصار على أربونة أرسل جيشاً في البحر لنجدة هذه البلدة ، تحت قيادة رجل يقال له عامر^(٥) فلما عرف شارل مارتل بمجيء هذا الجيش الجديد جاءه بقتة قبل أن يتأهب للقتال فأخذ المسلمون على غرة وكانت هزيمتهم تامة . وقتل أميرهم ولم ينج منهم الاقل قليل خلصوا إلى مراكبهم وآخرون وصلوا إلى « أربونة » . ولكن برغم هذا كله لم يتمكن شارل مارتل من أخذ « أربونة » وصعرت له خذها . وفي تلك الأيام جاءه الخبر بأن الفريزون والسكسون أشعلوا الثورة من جديد ، فاضطر شارل أن يرحل عن « أربونة » ولكنه قبل رحيله خرب القلاع

(١) Childebrand

(٢) Luitprana

(٣) Piemont هي اليوم اسم البلاد الواقعة في شمال ايطالية

(٤) لعله الهيثم

(٥) روى ذلك ايزيدور الباجي

التي كانت في « بيزيه ^(١) » و « أقد ^(٢) » ودمر أبواب مدينة « نيم ^(٣) » الشهيرة وقبسا من الملحق الروماني الذي كان فيها خوفاً من أن يتحصن به العرب . وكذلك دمر مدينة « ماجلون ^(٤) » وأخذ المسلمين الذين فيها أسارى ومعهم أيضاً أناس من المسيحيين أبقاهم رهائن عنده

ولا يمكن أن يقال إن جميع أهالي جنوبي فرنسا كانوا يحبون شارل مارتل، ولو كان قد دفع عن النصرانية غارات المسلمين، لأن هؤلاء الأهالي كانوا ينظرون الى هذا الرجل وقومه كبرابرة من أهل الشمال بينما هم يرون أنفسهم أمة ذات مدنية قديمة من زمان الرومانيين . ولا نزاع في أن المسلمين كانوا قد خربوا الكنائس والأديار وما يخصها من الأراضي، ولكن شارل مارتل عندما جاء ودفع عادية المسلمين عن تلك البلاد لم يرد تلك العقارات على الرهبان والأساقفة، بل وزعها على رجال الحرب من أنصاره، فبقيت الكراسي الأسقفية خالية . ويقال إن « فيليكارپوس ^(٥) » مطران « فين » بعد أن خرج المسلمون من البلاد لم يرجع الى أسقفيته، بل خلوا الكرسي مما يقوم بأوده، فذهب الى « فاله ^(٦) » حيث جعلوه رئيساً لدير « سين موديس ^(٧) » وكان الأجبار ورجال الدين يؤولون هذه المصائب بأنها عقاب صبه الله تعالى على هام

(١) Béziers مدينة على القناة المسماة بقناة الجنوب، ذات آثار قديمة، سكانها خمسون ألفاً

(٢) Agde مدينة على الضفة الشمالية من نهر هيرولده، كانت إحدى المدن السبع التي نسبت اليها

مقاطعة سبتيمانية التي معنى اسمها السبعية

(٣) Nîmes مدينة مشهورة في جنوبي فرنسا ذات آثار رومانية عظيمة

(٤) Maguelon مدينة على البحر كانت ترفأ إليها سفن المسلمين الواردة من الأندلس

وافريقية

(٥) Willicarius

(٦) Valais

(٧) Saint-Maurice في سويسرة . وسيأتي ذكر هذا الدير الذي أحرقه العرب

العباد تنبيهاً لهم للرجوع الى طريق الفضيلة^(١) . ولم يغفل الأحبار ورجال الدين من أناس تعلقوا بشارل مارتيل الذي تولى كبر دفع المسلمين عن أوربة ، وأشهر هؤلاء «هيناروس» مطران «أوأكسير»^(٢) الذي كان يحارب في جيش شارل مارتيل بنفسه. ويقاثل المسلمين في البيرانه وهو في ثوب الأسقفية

وكان موروند دوق مرسيلية قد فر هارباً من وجه شارل مارتيل، وبقي متوارياً الى أن غادر شارل مارتيل جنوبي فرنسا عائداً الى الشمال . فلما ذهب شارل مارتيل شمالاً ظهر موروند من مخبأه، وجدد علاقاته مع المسلمين، وقاموا بعمل واحد، فبلغ الخبر شارل مارتيل . وفي سنة ٧٣٩ زحف الى الجنوب ومعه أخوه شيلدربرند واستولى على مرسيلية. ومن ذلك الوقت أصبح المسلمون في أربونة لايجرؤون على عبور نهر الرون

وليست عندنا معلومات يوثق بها عن كيفية معاملة المسلمين لأهالي مقاطعة بروفانس، ويجوز أن يكون اتفاقهم مع موروند قد جعلهم أقل ضغطاً على بلاده مما كانوا في غيرها . ولكن نزلت على بلاد بروفانس و «لانغدوق» مصيبة ثانية وهي غارات المسلمين البحرية التي كانت سواحل جنوبي فرنسا دائماً عرضة لها وكان المسلمون في أول الأمر لا يحبون ركوب البحر، ولكن بعد أن فتحوا سورية ومصر وأفريقية اضطروا الى استعمال الأساطيل البحرية . وبعد وفاة الرسول بن خمس عشرة سنة غزا معاوية أمير الشام جزيرة قبرص . وفي سنة ٦٦٩ غزا العرب جزيرة صقلية . ومن ذلك الوقت لم تبرح سواحل سلطنة القسطنطينية عرضة للغارات البحرية الاسلامية . وكانت طوائف الأساطيل الاسلامية ، في بادئ الأمر ، جمعاً مؤتسباً من الأفاقين ومن النصارى الذين أسلموا ومن الشذاذ من كل قوم ولكن المسلمين فيما بعد تمودوا ركوب البحر والغزو فيه طمعاً في الغنائم . ومنهم من كان يغزو

(١) ذكر رينو شواهد بهذا المعنى من جملتها مكتوب من القديس «بونيفاس» رئيس أساقفة «مايانس» الى ملك «مرسية» في إنكلترا سنة ٧٤٥ وهي مملكة كانت في أواسط إنكلترا. قاعدتها لنكوكن

(٢) Auxerre مدينة على ١٧٠ كيلومتراً الى الجنوب الشرقي من باريس

في البحر جهاداً في سبيل الله وابتغاء الأجر والثواب ، وصاروا يروون أحاديث عن الرسول معناها الحث على الجهاد في البحر، حتى بلغت بهم الحماسة الى أن النساء صرن يغزون في البحر، ومنهن أم حرام امرأة أحد الصحابة التي ماتت في غزاة بحرية في قبرص . وقيل انه لما ذهب الأسطول الاسلامي يغزو القسطنطينية ، كان أحد أولاد الخليفة عمر حاضراً، فسأل أمير البحر عن ذنوب الغزاة المجاهدين، فأجابه الأمير بأن آثامهم معلقة في أعناقهم . فأجابه ابن عمر : والذي نفسي بيده لقد تركوا آثامهم على الشاطئ . وعزوا الى الرسول أنه قال : إن الجهاد في البحر فيه عشرة أمثال أجر الجهاد في البر

وكانت الغزوات الاسلامية البحرية ، صدر الاسلام ، موجهة أكثرها الى مملكة الروم . ولما استولى العرب على مدينة قرطاجنة لم يفكروا في أول الأمر أن يجاهدوا فيما وراء البحر ، ولذلك بنو مدينة القيروان على مسافة بعيدة عن الشاطئ . ولما غزا موسى بن نصير الأندلس لم يكن عنده إلا أربع سفن لا غير ، كانت تذهب وتجيء لنقل الجنود من افريقية الى جبل طارق (١) . وعند ذلك فهم موسى ضرورة بناء الأساطيل وأنشأ دور الصناعة في كثير من مرفئ الأندلس . وكذلك كانت للعرب مرفئ كثيرة ممتدة من جبل طارق الى طرابلس الغرب . وسنة ٧٣٦ أنشأ العرب دار صنعة عظيمة في تونس . وكان لهم في الأندلس قائد للبحر اسمه أمير الماء ، (٢) ويظن أن لفظة أميرال محرفة عنها . وذكر مؤلفو العرب أن موسى غزا جزيرة سرديانية سنة ٧١٢ وذكر مؤرخو المسيحيين غزاة للعرب في جزيرة كورسكا (٣) وكانت جزائر سرديانيا وكورسكا وصقلية تابعة للملك القسطنطينية . ففي البدايه فان العرب يكتفون بانتقاصها من أطرافها ولكن أخذوا فيما بعد يتوغلون في الداخل .

(١) روى ذلك ابن الفوطية

(٢) نقل رينو هذا عن النويري بحسب تأليف مخطوط في خزانة الكتب الملكية بفرنسة

(٣) ان أحد مؤرخي القرن الخامس عشر زعم أن المسلمين دخلوا جزيرة كورسكا في زمان

الرسول نفسه ولبنوا فيها الى زمان شارلمان ولكن هذه الرواية منقوضة

وكان أول نزول العرب، في سواحل فرنسة، هو في جزيرة « ليرين »^(١) بقرب عين الطيب^(٢). وقد اختلف المؤرخون في التاريخ الذي يقال إن العرب غزوا فيه هذه الجزيرة، فقالوا إن ذلك وقع سنة ٧٢٨ وقالوا بل سنة ٧٣٩ وكان في هذه الجزيرة دير شهير تخرج منه آباء للكنيسة وأساقفة مشهورون. ويوم كبسه العرب كان فيه خمسمائة راهب آتين من فرنسة وإيطالية وسائر بلاد أوروبا. وكان رئيس هذا الدير القديس « پورسير »^(٣) فلما قرب المسلمون من الدير جمع القديس الرهبان بأجمعهم وقال لهم إنه يجب عليهم أن ينتظروا الموت. وإنما أرسل إلى البر الأحداث الذين كانوا يتعلمون في الدير. فلما نزل المسلمون في الجزيرة فتشوا عن غنائم يأخذونها فلم يجدوا شيئاً ذا بال، فعرضوا على الرهبان الاسلام، فلم يقبل أحد أن يترك دينه فذبحوهم جميعاً.

ومات شارل مارتل سنة ٧٤١ وخلفه ابنه بين القصير، واشتغل في توطيد ملكه في شمالي فرنسة وجنوبيها، بحيث كان يمكن العرب أن يغتنموا هذه الفرصة ويمجدوا غاراتهم على جنوبي فرنسة ويبلغوا منها مرادهم. ولكن وقع الشقاق بين العرب أنفسهم فعاقبهم عن كل عمل من هذا القبيل. فان العرب لم يكونوا في هذه الغزوات وحدهم بل كان معهم البربر، وكان القبيلان في نزاع دائم، كما أنه كان العرب أنفسهم منقسمين إلى يمانيين وهم أبناء قحطان، وإلى عدنانيين وهم أبناء اسماعيل بن إبراهيم. وكانت الحروب دائمة بين هذين الشعبين، لشدة ما عند العرب من العصبية، فبعد أن وقعت في بلاد العرب امتدت إلى مصر والشام ثم الأندلس وفرنسة.

وفي ذلك الوقت أعفى العرب الأقوام الذين خضعوا لهم وساروا معهم من الجزيرة التي كانوا ضربوها عليهم، ومنهم البربر، فاعتاد هؤلاء أن لا يؤدوا شيئاً. إلا أنه في سنة ٧٣٧ عاد أمير افريقية فتقاضى البربر الجزيرة فعصوا عليه. وكانوا أقواماً أشداء

(١) Lerins

(٢) Antibes بلدة على شاطئ البحر بقرب نيقية أونيس

(٣) Saint Porcaire

نشأوا على سهوات الخيول، فلم يقدر الأمير على تدوينهم، واضطر عقبة أمير الأندلس أن يجيز إلى بر العدو - أى إلى إفريقية - لادخال البربر في الطاعة. وهكذا تمكن شارل مارتيل، في غياب عقبة في إفريقية لادخال البربر في الطاعة، أن يخضع شوكة العرب في جنوبي فرنسا^(١). ثم اشتدت ثورة البربر في إفريقية وظهروا على العرب ولجأ فريق من العرب إلى الأندلس. وكان العرب والبربر الذين في الأندلس قد تقاسموا الأراضي فيما بينهم، سواء في الأندلس أو في جنوبي فرنسا، فخافوا من أن هذا الفريق الذي دخل الأندلس من العرب ينازعهم على الأراضي، وقصدوا أن يجلوهم عن البلاد. وكان الأمير عبد الملك أمير الأندلس عدواً لهؤلاء العرب الذين دخلوا الأندلس، فقتلوه ونصبوا رأسه على جنس قرطبة. وكان في أربونة أمير اسمه عبد الرحمن، من أنصار عبد الملك فرحف من أربونة بجيش يقال إنه بلغ مائة ألف مقاتل وكان يريد الأخذ بشار عبد الملك، فوصل إلى قرطبة واقتتل الفريقان ورمى عبد الرحمن قائد جيش العدو بسهم فقتله وقفل إلى أربونة بعد أن أخذ بشار صديقه^(٢).

ولم يكن في وسع الخلفاء في دمشق أن يعيدوا السكون إلى نصابه في بلاد بعيدة كبلاد الأندلس؛ لاسيما أن الثورات كانت تتوالى في الولايات الشرقية فتشغلهم عن المغرب. وهكذا تغيرت الحالة في جنوبي فرنسا، وخلعوا المسيحيين، رغم قصر باع بين القصير وفتور همته. وكان المسلمون الذين في أربونة قد استولوا على مدينة نيم والمدن المجاورة لها، ولكن الحاميات الإسلامية في تلك المدن أخذت تخف شيئاً فشيئاً، فصار في نيم وفي يزييه وفي ماغلون إدارة أهلية مستقلة بعض الشيء، وأصبح لكل من هذه البلدان أمير يدير أمورها لكنه معترف بسلطان المسلمين^(٣). ومثل

(١) ظهر من هنا أنه لولا ثورة البربر على العرب ما كان أمكن شارل مارتيل أن يضم جنوبي فرنسا إلى مملكته ويخلص بروفانس ولانغدوق وسبتيانيا من أيدي المسلمين

(٢) نقل رينو هذا الخبر عن ابن القوطية. وقد جاء في أخبار مجموعة

(٣) نقل رينو هذا الخبر عن تاريخ اللانغدوق تأليف « فيسيت » Vaissette وعن تاريخ

نيم تأليف مينار Menard

هذا حصل في شمالى إسبانية ، أى فى أشتورية ونابار وغيرها .

وفى سنة ٧٤٧ تولى قيادة الأندلس أمير اسمه يوسف ^(١) فأنفذ ابنه عبد الرحمن بجيش ، الى البيرانه ، لأجل تدويج تلك البلاد ؛ ولكن المسيحيين قاوموه بالسلاح مقاومة شديدة . وكانت طرق الاتصال بين مسلمى أربونة وبين قرطبة ، تكاد تكون منقطعة ، بسبب جبال البيرانه ، ولذلك لم يطل الأمر حتى ابتداء المسيحيين فى السبتيانية ينتقضون على المسلمين . وكان يتنازع هذه البلاد ، أى المدن السبع ، فيفر ^(٢) بن أود دوق أكتانيا وبين بن شارل مارتل . وكان بين قد نال من البابا لقب ملك وهو اللقب الذى لم ينله أبوه برغم جميع ما بلغه من الشهرة والمكانة

وفى سنة ٧٥٢ سار بين بجيش الى اللاندوق ، واستولى على نيم وأقت وماغلون وبيزيه ^(٣) . وبعد ذلك زحف لحصار أربونة وضيق عليها بجميع قوته . ولما وجد أن أمر حصارها يطول أبقي جانباً من عساكره حولها تحت قيادة أمير من أمراء القوط اسمه أنسماندوس ^(٤) إلا أن العرب قتلوا أنسماندوس هذا ، فى كمين عملوه له ، وصادف ذلك حصول مجاعة فى جنوبى فرنسة عطلت حركات الجيوش

وكان بنو العباس فى الشرق قد تغلبوا على بنى أمية ، ونقلوا مركز الخلافة من دمشق الى بغداد واستأصلوا الأمويين ، وتعقبوهم فى كل مكان ، ففر منهم واحد الى إفريقية ومنها أجاز الى مالقة فلتقاء عرب الأندلس كمنقذ لهم ، وكان اسم هذا الأمير عبد الرحمن ^(٥) وكانت هذه الواقعة سنة ٧٥٥ وقد قدّر أن يكون على يد هذا الرجل

(١) يوسف بن عبد الرحمن القهري

(٢) Vaifre

(٣) أورد رينو على ذلك نصاً من مجموعة مؤرخى فرنسة منسوباً الى مواساك الذى تقدم ذكره فى إحدى الحواشى

(٤) Ansemundus

(٥) هو عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل . والافرنج يكتبون اسمه Ebn-Moavia وكان الافرنج الأقدمون من كثرة تحريفهم لأسماء العرب يسمونه Benemauguis وأظنهم قد خلطوا بينه وبين ابن مغيث الذى كان من أمراء دولته

وأعقابه أعظم مجد ممكن لمسلمي اسبانية . وفي أيامهم تأثلت المدينة العربية في الأندلس تأثلاً لا تزال له آثار باهرة هناك الى اليوم . والى يوم مجيء عبد الرحمن لم يكن للأمراء المسلمين في الأندلس شغل الا بقتال بعضهم بعضاً فلم يؤثروا آثاراً خالدة

وقد لقي عبد الرحمن نفسه خطوباً وأهوالاً ، وبقي يسكن الثورات ويرتق الفتوق مدة طويلة . ولكنه تمكن أخيراً من توطيد سلطته وتمكين استقلاله ، واستوسق له أمر الأندلس بتمامها ، الا أنه لم يقدر أن يتجاوز الى غيرها ، فلذلك تحاشى أن يتلقب بلقب الخليفة واقتصر على لقب أمير . وبقي أعقابه الى القرن العاشر مكتفين بهذا اللقب ، وانما كانت عاصمتهم قرطبة مركزاً للعلوم والصنائع ومبعثاً لأشعة المعارف . وبعد أن رسخت قدم عبد الرحمن الأموي في الأندلس ، فكر في مدينة أربونة وما يليها من جنوبي فرنسا ، وسرح جيشاً تحت قيادة أمير اسمه سليمان ، زحف الى البيرانه أملاً برفع الحصار عن أربونة ، ولكن المسيحيين كبسوهم في تلك الأوعار ، فانهمزموها هزيمة تامة

ولما كان جمهور أهالي أربونة من المسيحيين ، وقد ضررهم حصار أربونة بنبابه ولم يعد لهم طاقة بتحمل تلك الحالة ، داخلوا الملك بين سرراً على أن ينتقضوا على المسلمين وينضموا الى جيشه ، بشرط أنهم يكونون في المستقبل أحراراً في بلدتهم ، وتكون ادارة أمورهم بحسب عرف القوط . وهكذا تم الاتفاق بينهم وبين بين . فبينما كانت الحامية الاسلامية غافلة عما يصنعون كبسوها على غفلة منها ، وذبحوها بأجمعها ، وفتحوا أبواب البلدة للفرنسيين . وكان ذلك سنة ٧٥٩ فانقرضت حكومة الاسلام من أربونة ، وأبقى الملك بين جيشاً وافرأ لأجل حراسة البلاد (١) .

اه ملخصاً من كلام رينو

(١) نقل رينو عن هذه الحادثة رواية الدون بوكيه Bouquet ذكر رينو في الحاشية نقلاً عن الدون بوكيه أن بعض مؤرخي الافرنجة يذهبون الى أن المسلمين لم ينقضوا من جنوبي فرنسا تلك اثرة بل بقيت منهم طوائف في مقاطعة دوفينييه وفي مقاطعة نيس أو نيقية وفي جبال الألب وأن

(م - ٨)

غارات العرب على فرنسا

من بعد جلائهم عن أربونة

الى عهد اسنيلائهم على بروفانس سنة ٨٨٩ مسيحية

قال « رينو » : ان العهد الذي سنتكلم عنه الآن في هذا القسم من تاريخنا مختلف عن العهد الذي تقدمه والذي سردنا وقائعهم . فقد ظهر لنا مما تقدم من الوقائع أن العرب في تغلبهم في فرنسا لم يكونوا مقتصرين على نية الاستيلاء على هذه المملكة فقط ، وإدخالها في الاسلام ، بل كان هدف رميهم الاستيلاء على سائر أوروبا وإضافة هذه القارة التي كادت في زمان الرومانيين تستولى على العالم ، الى سلطنة الاسلام كاحدى مقاطعاتها . ومما لا ينبغي أن ننساه أن قواد الجيش العربى الفاتح كان أكثرهم من الجزيرة العربية ، الشام والعراق ، فكان مركز ديانتهم ومبعث قوتهم في الشرق ، ومن الشرق ، فكانت جميع أعراقهم تنزع بهم الى هناك . ولم يكن في نظرهم عقبة كؤود بعد أن قاموا بتلك الفتوحات التي لانظير لها ، وكانوا كلما كانت مملكة أوسع رقعة وأكثر رجالا وجدوها أصلح للغارة وأجدر بالفتح وببيل المجد في الدنيا والثواب في الآخرة

أما العهد الذي سندخل فيه الآن فلا يماثل العهد السابق ؛ فان الأمير الذي بدأ يتولى الأندلس كان بقية عائلة مالكة قد ثلّ عرشها في الشام وأيد رجلها بالسيف ، ففر شريداً وانسل وحيداً الى اسبانية ، وأصبح لا يرى في افريقية وفي سائر أقسام السلطنة الاسلامية الا أعداء له ولأهله . ولم تكن الجزيرة الأندلسية بالقطر الذي يمكنه

هذه الطوائف بقيت متمكنة في تلك الجهات طول مدة بين وولده شارلمان . وقد ورد في بعض التواريخ المتعلقة بمقاطعة دوفيني أن المسلمين احتلوا مدينة غرينوبل Grenoble وذهب مؤرخ دير ليرين المسمى فنسان بارال إلى أن المسلمين كانوا في نيس وان شارلمان هو الذى طردهم منها . ومن هنا استدل بعض المؤرخين على أن المسلمين كانوا لا يزالون في دوفيني من زمان شارل مرتبل الى أوائل القرن العاشر حيث جددوا غاراتهم على بروفانس وتقدموا الى بلاد البيمونت وسويسرة .

وحده أن يستقل بحملات عظيمة كفيلة بالاستيلاء على الأرض الكبيرة ، بل كان المسلمون في ذلك القطر قد دبّ في جوانبهم الوهن بسبب الفتن الداخلية المستمرة التي كانت بينهم ، والتي كانت قد أبادت خضراءهم ، وبما تأصل في طباع أهل الأندلس من غريزة حب الانتفاض على كل سلطة مما اهتبل به المسيحيون ، سكان المقاطعات الشمالية ، الغرة لأجل الكرة على العرب

وكانت فرنسة التي هي مرمى العرب في هذه الغارات تتأيد يوماً فيوماً ويفلظ أمرها ، فانها في عهد « بين » و « شرلمان » خضعت بأجمعها لسلطة واحدة ، وكان يمكنها لدى الحاجة أن تستعين بجيوش جرارة تأتيها من ألمانية وبلجيكا وإيطالية ، فارتفع إذاً كل خوف من وجودها بعد ذلك عرضة لاعتداء المعتدين ، ولم يعد مسلمو إسبانية هم المهاجمين لمسيحي فرنسة ، بل أصبح مسيحيو فرنسة هم المهاجمين لمسلمي إسبانية^(١) . وكان « بين » و « شرلمان » قد أخذوا يرسلان أهالي « كاتالونيا » و « اراغون » و « نابار » ليوحدوا حركتهم مع الافرنج ، كما أنهما كانا دائماً يمدان أيدي التحريك الى أمراء العرب الثائرين على السلطان في قرطبة ، وكثيراً ما هم . ثم لم يلبث شرلمان وأولاده أن وطئوا بالفعل أرض إسبانية وأدخلوا بعضها في مملكتهم ، لأن الولايات التي تشرب من نهر الاير^(٢) بقيت مدة من الزمن تابعة لفرنسة ، ثم عندما أخذ المسيحيون سكان الشمال يكرون على العرب ويسترجعون بلاد آبائهم كان أهالي جنوبي فرنسة الذين أكثرهم والاسبان من أصل واحد يخفون لنجدتهم ويحييون لصريحهم

ومما يدل على بعد المدى الذي تصل اليه أهواء النفوس اذا استحكت العداوة أن أمراء قرطبة كانوا في نزاع دائم مع خلفاء بغداد ، وكان وكداكل من الفريقين النكاية

(١) قد ظهر من هنا أن سقوط الدولة الأموية في المشرق وصنع الوحدة العربية بانسلاخ الأندلس عن دولة الخلافة هما العاملان في تأخر العرب في قارة أوربة . ومما لا نزاع فيه أن القوة المتحدة التي كان وراءها الأندلس وإفريقية ومصر والشام والعراق وجزيرة العرب وفارس وخراسان كانت أقوى على تجريد الجيوش وتسريب الأموال من القوة التي لم تكن تتجاوز جزيرة الأندلس وحدها

(٢) Ebre هو النهر الذي يمر بسرقةطة . والاسبانيول والعرب يقولون له ايبرة

بالآخر ، أكثر منه في الفتوحات في بلاد المسيحيين أنفسهم . وبينما كان ملوك قرطبة يرسلون قياصرة القسطنطينية الذين كانوا في حرب مع مسلمي الشام وفارس ومصر كان خلفاء الشرق يعقدون معاهدات مع ملوك الفرنسيين الذين كانوا في حرب مستمرة مع مسلمي الأندلس ، وكانت لذلك العهد العلاقات التجارية قد بدأت بين الشرق والغرب وسارت السفن تختلف بين « مرسيلية » و « فريجيوس » ومرافق سورية ومصر ، لأجل التجارة بالبهارات والطيوب والمنسوجات الحريرية ، وانضمت الى هذه العلاقات التجارية أسباب دينية كان يستهان لأجلها بجميع الأخطار ، وذلك أن المسيحيين في الغرب كانوا في أثناء الحروب بينهم وبين المسلمين لا يتأخرون ساعة عن أن يزوروا البقاع المقدسة في فلسطين

وفي سنة ٧٣٣ ذهب حجاج من الغرب الى بيت المقدس والناصرية وكانوا يحملون آمنين في فلسطين والشام وزاروا قصر الخليفة نفسه في دمشق ولم يعترضهم أحد^(١) ولا خافوا ولا حزنوا

وكان الخلفاء العباسيون يعاملون الدولة الافرنسية أحسن معاملة ، ويتبادلون وإياها التحف والألطف وإن كان قد وجد من عمالهم في افريقية من يشن الغارات على سواحلنا في الأحيان ، فما ذاك الا لتباعد المسافات بين أولئك العمال وبين مركز الخلافة العباسية

هذا ومنذ استرجع « بين » القصير « أربونة » وأجلى العرب عنها سكنت الأمور بين مسلمي الأندلس والفرنسيين . وكان « بين » يعد « اليرانه » هي التخم الطبيعي بين فرنسا وإسبانية . وكان عبد الرحمن مشغولا حينئذ بمحاربة الأمراء الخارجين عليه . ولم يكن « بين » يهمل شيئا من الوسائل لاثارة نيران الفتن بين المسلمين . وسنة ٧٥٩ أي بعد استرداد الفرنسيين لأربونة دخل أمير برشلونة المسمى

(١) نقل « رينو » هذا الخبر عن ترجمة حياة القديس « جيبو » Jubeau في مجموعة البولنديين

سليمان^(١) في علاقات مع « بين » وتعاهد معه^(٢) . ومؤرخو الفرنسيين يزعمون أنه انضوى تحت لواء « بين » ولكن الأصح أن يقال إنه ما قصد إلا أن يستعين به على الاستقلال عن سلطانه . ومن بعد ذلك أصبحت هذه خطة أمراء المسلمين في شمالي الأندلس ، فيوم يضغط عليهم السلطان في قرطبة يلجأون إلى فرنسة ، ينشدون عندها التنفيس من حناقمهم ، وإذا ظهرت لهم مطامع الفرنسيين بحق بلادهم عادوا إلى رئيسهم في قرطبة واعتصموا به ، وكانت تساعدهم على الاستقلال طبيعة البلاد التي كانوا فيها فإنها بلاد جبلية كثيرة الأوعار صعبة المرتق يسهل على المقاتلة بها ، ولو كان عددها قليلا ، أن تشاغل الجيوش الجرداء . وكان العرب يسمون « قشتالة » القديمة و « البية » بلاد « البيا » و « القلاع »^(٣) وكانوا يسمون النابار بلاد البشكنس . وربما أطلقوا هذا الاسم على البلاد التي وراء البيرانه إلى جهة فرنسة ، لأن أصل الأهالي واحد سواء في السفح الجنوبي أو السفح الشمالي من البيرانه

وكان العرب يسمون البيرانه جبل البورتات وهذه اللفظة مشتقة من الكلمة

(١) هو سليمان الاعرابي السكبي أمير برشلونة . وكانت بينه وبين شارلمان علاقات مذ كان أميراً بسرقسطة . انظر إلى ما يقوله صاحب أخبار مجموعة : ثم ثار سليمان الاعرابي بسرقسطة وثار معه حسين بن يحيى الأنصاري ، من ولد سعد بن عباد ، فبعث إليه الأمير (يعني عبد الرحمن الداخل) ثعلبة بن عبد في جيش ، فنازل أهل المدينة وقتلهم أياماً ، ثم إن الاعرابي طلب الفرصة من العسكر فلما وضع الناس عن أنفسهم الحرب وقالوا قد أمسك عن الحرب وأغلق أبواب المدينة ، أعد خيلاً ، ثم لم يشعر الناس حتى هجم على ثعلبة فأخذه في المظلة فصار عنده أسيراً وانهزم بجيشه . فبعث به الاعرابي إلى قارلة فلما صار عنده طمع قارلة في مدينة سرقسطة من أجل ذلك فخرج حتى حل بها ، فقاتله أهلها ودفعوهم أشد الدفع فرجع إلى بلده . انتهى

قلت : إن العرب يسمون شارلمان قارلة كما كانوا يسمون جده شارل مارتل وسيأتي ذكر قصة الأمير سليمان هذا — الذي ملاً شارلمان على قومه — وكيف انتهى أمره

(٢) نقل «رينو» هذا الخبر عن مجموعة « الدون بوكيه »

(٣) يكثر في تواريخ العرب ذكر غزوات الجيوش الإسلامية لبلاد ألبا والقلاع Le Pays D'alaba et des Chateaux ويقال أحياناً « ألبا » ولكن تلفظ الاسبانول للقاء هو كلفظ العرب للباء

اللاتينية Portus وبالإسبانية Puertو ومعناها المر ، وذلك لأنه من هناك كان المر من الأندلس الى الأرض الكبيرة . وكان يوجد في البيرانه أربعة أبواب معروفة عند العرب : الأول طريق برشلونة الى أربونة على مدينة « پرينيان ^(١) » الحاضرة . والثاني طريق « بويسردا » على « سردانة ^(٢) » . والثالث الطريق الذي يؤدي من « بنبلونة » الى « سان جان بينه دوپور ^(٣) » والرابع طريق طولوزة الى بايئون ^(٤) . وكانت طرق البيرانه في القرون الوسطى أوعر مما هي الآن بلا نكير

وكما كان بين ملك فرنسة كثير التضريب بين أمراء المسلمين ، لايفتا يغرى بعضهم بالإيقاع ببعض ، كان الخليفة العباسي المنصور بعد أن بنى بغداد مجتهداً أيضاً في توحيد المملكة الإسلامية كما كانت لعهد بني أمية ، ولذلك أرسل من سواحل أفريقية أسطولاً فيه عساكر لقاتلة عبد الرحمن الأموي الملقب بالداخل ^(٥) ووجد

(١) Perpignan قاعدة ولاية روسيون أوالبيرانه الفرقة

(٢) Cerdagna

(٣) Saint - Jean - Pied - de - Port

(٤) Tolosa a Bayonne وطولوزة هذه هي غير طولوزة الإفريقية. والفرق بينهما أن

طولوزة الإسبانية تكتب بحرف O فقط وان طولوزة الإفريقية تكتب بحرفين OU

(٥) قال ابن خلدون : وفي سنة ست وأربعين ومائة سار العلاء بن مغيث اليحصي من افريقية إلى الأندلس ، ونزل بياجة الأندلس ، داعياً لأبي جعفر المنصور ، واجتمع اليه خلق ، فسار عبد الرحمن اليه ولقه بنواحي اشبيلية ، فقاتله أياماً ثم انهزم العلاء وقتل بسبعة آلاف من أصحابه . وبعث عبد الرحمن برؤس كثير منهم الى القيروان ومكة ، فألقيت في أسواقهما سراً ومعها اللواء الأسود . وكتاب المنصور للعلاء ، فارتاع المنصور لذلك ، وقال : ما هذا إلا شيطان والمحمد الذي جعل بيننا وبينه البحر . أو كلاماً هذا معناه . انتهى

وجاء في كتاب « أخبار مجموعة » الذي تقدم ذكره في أخبار عبد الرحمن الداخل : ثار عليه العلاء بن مغيث اليحصي ، ويقال حضرمي وسود (يعني دعا لبني العباس الذين كان شعارهم السواد) ودعا إلى طاعة أبي جعفر وكان قد بعث اليه بلواء أسود في سن قناة ، قد أدخله في اهليجة وطبع عليه ، فأخرجه العلاء فجعله في رمحه وقام به في جند مضر وساعده على غيه واسط بن مغيث الطائي وأميه بن قطن الفهري فأقبلت اليمانية حتى صاروا باشبيلية فاتهموا أميه بن قطن فأخذوه وكيلوه ، وخرج الأمير اليهم ، واجتمعت اليه الحشود ، وأقبل حتى نزل بقربة القوم بقلعة رعواق وأقبل

من أمراء المسلمين بالأندلس من ماله على عبد الرحمن . ولما كان بين لا يخشى عادة المنصور ، بمكانه من البعد عن فرنسة ، وكان يرجو نصرته لكون عدوها واحداً أسرع الى الدخول في العلاقات مع المنصور ، وأمّل منه الجذب بضبعه وفي سنة ٧٦٥ أرسل رسلا الى بغداد لبثوا ثلاث سنوات حتى رجعوا الى فرنسة ومعهم رسل الخليفة، فنزلوا في مرسيلية وصعدوا الى مقر بين فبالغ في الاحتفاء بهم وقضوا ذلك الشتاء في مدينة «متر» باللورين، ثم أمر بأقامتهم في قصر سلس Sels على ضفاف اللوار ثم أعيدوا الى الشرق، عن طريق مرسيلية ، ومعهم الهدايا الى الخليفة هذا وقد اتبع شارلمان خطة أبيه « بين » في هذا المعنى فما استوسق له الأمر حتى أخذ يداخل أمراء الأندلس ، من مسلمين ومسيحيين ، فكان يقول لهذا الفريق إنه انما يريد ليحررهم من طاعة أمير قرطبة ويساعدهم على استقلالهم ويخفض جناح الرحمة لهم، ولذلك الفريق أنه هو حامي النصرانية الطبيعي الناصر للنصرانية الحافظ للسكنيسة الأصلية القامع للبدع الخ

وكان العرب عند ما فتحوا الأندلس أبقوا للمسيحيين حريتهم الدينية ، فكان

غياث بن علقمة اللخمي من شذونة ممدأ لهم، فلما سمع بخبره الأمير بعث اليه بدرأ مولاه في قطع من عسكره فقطع به فنزل في الوجسة التي بين وادي إيريه والنهر الأعظم. ونزله بدر فتراسلا حتى انعقد بينهما صلح، ورجع غياث بن علقمة اللخمي إلى بلده ، ورجع بدر إلى الأمير ، فلما بلغ القوم الخبر قالوا ليس لنا الا مدينة قرمونة فعبروا على الخروج اليها ليلا. وجاء الخبر الى الأمير فبعث بدرأ ، وقال له : ائتد الى المدينة وارفع رأس قبتك على باب قرمونة واجمع اليك أهل الطاعة الى أن نوافيك غدوة . وركب الأمير من سحر طويل فأصبح على ظهر وتباطأ القوم فأصبح القوم في الشعراء تحت قرمونة . فلما نظر الى القبة مضروبة على باب المدينة علم أنهم قد بدروا اليها ، فاجروا وتطلعت عليهم خيل العسكر، فانهزموا وقتلوا قتلا ذريعا. وأصيب أمية بن قطن مكبلا فن عليه الأمير وأطلقه وقطف من رؤوسهم سبعة آلاف رأس فيز رؤوس المعروفين ورأس العلاء ومثله، ثم كتب باسم كل واحد بطاقة ثم علقت من أذنه ، ثم أجزل العطية لمن انتدب لحمل تلك الرؤوس الى افريقية فجمعها في أخرجة وركب فيها البحر حتى انتهى الى القيروان ، فطرحها ليلا في السوق ، فلما أصبح الناس وجدوها ووجدوا كتاباً مكتوباً بالخبر في الخرج ، فانتشر ذلك حتى بلغ أباجعفر . انتهى

يوجد أساقفة في قرطبة وطليلة والمدن التي من الدرجة الأولى^(١) وكان لهم قسيسون في كل مكان وجدوا فيه ، إلا أنه لا يظهر أنه كان يوجد في المدن الثغرية التي كانت مترددة بين حكم المسلمين وحكم النصارى أساقفة ينظرون في شؤون المسيحيين الروحية وكان المسلمون في إحدى الحروب هدموا مدينة طر^(٢) فلم يبق فيها مركز أسقفى فصارت أمور بلاد كتالونيا الروحية مربوطة برئيس أساقفة أربونة في فرنسا . وقد كان أيضا رئيس أساقفة أوش من مقاطعة جيرس Gers في فرنسا ينظر في شؤون مملكة أراغون الروحية . وكان شارلمان يفصل خصومات المسيحيين الاسبانيين فيما بينهم وكان يتوسط لهم عند البابا فيما اذا كانت لهم رغائب اليه أو قضايا عنده

وسنة ٧٧٧ ثار أميران من أمراء المسلمين في مقاطعات نهر إبره ، وخرجا من طاعة السلطان في قرطبة ، فاجتازا البيرانه قاصدين شارلمان في وستفاليا Westphalie^(٣) حيث كان منعقدًا مجلس حافل ، وكان أحد هذين الأميرين وهو المسمى سليمان ، أثناء وجوده أميراً على سرقسطة ، قد قاتل عساكر أمير قرطبة وأخذ قائدها أسيراً وجاء به وقدمه كهدية الى شارلمان ويزعم مؤرخونا أن هذا الأمير دخل في طاعة الامبراطور الإفرنسى^(٤) .

(١) جاء في فتح الطيب عند ترجمة الحكم المستنصر بن عبدالرحمن الثالث ذكر وليد بن حيزون قاضي النصارى بقرطبة وعبيدالله بن قاسم مطران طليطلة . وجاء فيه عند ترجمة الناصر ذكر ربيع الأسقف الذي أرسله الخليفة الى ملك الصقالبة رسولاً ليرد بذلك زيارة رسول هذا الملك لبابه . ومن هذه الأسماء يعرف القارىء أن أهل الذمة في الأندلس كانوا قد استعربوا وتسموا بأسماء العرب وان كانوا بقوا على النصرانية . وكانوا في هذا أشبه بالمسيحيين من عرب الشرق

(٢) Tarragone مدينة في كتالونية على البحر المتوسط . قال ياقوت في معجم البلدان : بلدة بالأندلس متصلة بأعمال طرطوشة وهي مدينة قديمة على شاطئ البحر منها نهر علان يصب مشرقاً الى نهر ابرة وهو نهر طرطوشة . وهي بين طرطوشة وبرشونة بينها وبين كل واحدة منهما سبعة عشر فرسخاً . قال : وطرقونة موضع آخر بالأندلس من أعمال لبلة

(٣) وستفاليا هي اليوم من مقاطعات بروسية

(٤) استشهد « رينو » على ذلك بمجموعة الدون بوكيه وكذلك بتاريخ ابن الفوطية . وأما مؤرخو العرب فلم يتفقوا على اسم هذا الأمير لأن بعضهم يسميه سليمان بن قحطان العربي والآخرين

وكان شارلمان مترصداً فرصة كهذه حتى ينقضّ على إسبانية ويملك ولو جانباً منها ، فأمر بالنفير العام وتوافت إليه المقاتلة من المانية وفرنسة ولبارديه ، وزحف بهم قاصداً البيرانه . وكان ذلك سنة ٧٧٨ ولم يكن يشك في كون الأهلين سيهرعون من كل ناحية اليه ، يجتمعون تحت لوائه ، ولكن أخطأ حسده هذا ، لأن المسلمين عند ما جاء بنفسه قاوموه بالسيف وظهروا أنه لم يكن مقصد بعض أمرائهم من خطبة وده إلا الاستعانة به على استقلالهم . وأما المسيحيون في الجبال فقد ألواهم أنفسهم أيضاً أن لا يخضعوا لحكم الأجنبي أياً كان ، فما وصل شارلمان إلى البيرانه حتى وجد نفسه محاطاً بالأعداء فضيق الحصار على بنبلونه ^(١) ولم يفتحها إلا بعد قتال شديد . وكذلك قاومته مدينة سرقسطة . ويقول المؤرخون المسيحيون إنه استولى عليها ذلك اليوم وانه أخذ أميرها أسيراً وأرسله مكبلاً إلى فرنسا . وأما مؤرخو العرب فينكرون ذلك ويقولون انه فشل في هجومه على سرقسطة فشلاً تاماً . ولكن بعد ذلك جرى ان قتل أمير سرقسطة غيلة فالتجأ ابنه إلى فرنسة ^(٢) . أما أمراء برشلونة وجيرونة ووشقة فقد أرسلوا رهائن من قبلهم إلى شارلمان

وبينا شارلمان يحارب في شمالي اسبانية إذ جاءه الصريح بأن أمة الصكسون أبتد بأن تترك ديانتها الوثنية وبأنها زحفت للقتال ، فاضطر شارلمان إلى مغادرة إسبانية

يسمونه مطرف بن العربي . وقد تقدم أن هذا الأمير هو سليمان الاعرابي الحبي . وأما أسيره الذي أرسله إلى شارلمان فهو ثعلبة بن عبد الذي أسره بحيلة كما تقدم

(١) من مملكة نابار وهي قلعة حصينة

(٢) جاء في أخبار مجموعته : ان حبيب بن يحيى الأنصارى رفيق سليمان الكلبي ، الذي ناز بسرقسطة على الأمير عبد الرحمن الداخل ، كان قد عدا على سليمان يوم الجمعة فقتله في المسجد الجامع وصار الأمر لحسين وحده فنزل به الأمير عبد الرحمن . وكان عيسون بن سليمان الاعرابي قد هرب إلى أربونة فلما بلغه نزول الأمير بسرقسطة أقبل فنزل خلف النهر ، فنظر يوماً إلى قاتل أبيه . قد خرج عن المدينة وصار على جرف الوادي فاقحم عيسون فرساً له كان يسميه الناهد فقتله ، ثم رجع إلى أصحابه . فسمى ذلك الموضع إلى اليوم « مخاضة عيسون » ثم استدعاه الأمير حتى صار في عسكره وحارب سرقسطة معه

عائداً الى فرنسا ، وبينما هو في طريق رجوعه وعند وصوله الى وادى « رونسفو » Roncevaux انقض عليه المسيحيون الجيليون ، وساعدهم في ذلك المسلمون ، فأوقعوا بساقة جيشه واستأصلوها . وهلك ذلك اليوم كثير من أبطال الفرنسيين بينهم فيما يقال « رولان » Roland الفارس الشهير

وبالاختصار كانت الجهات الشمالية من إسبانية أشبه بالثغور لفرنسة كما كانت بلاداً نغرية للعرب . وكان العرب يسمونها إفرنجة لكونها طالما ألحقت بمملكة أكتانيا . وكان شارلمان قد جعل أكتانيا لابنه لويس الذى جعل كرسى ملكه طلويزة أو طولوز

فبعد أن قفل شارلمان من إسبانية عادت فعصت عليه المدن التى كانت أطاعته قبلاً ، وحقن المسلمون على المسيحيين وجعلوا ينتقمون منهم ، بحجة أنهم كانوا السبب فى محبة الفرنسيين . فلجأ عدد من المسيحيين الى الجبال وكانوا يتحملون شظف العيش ويلبسون جلود السباع ولا يبالون بسكنى البرارى . ولكن الترفين من المسيحيين الذين لم يكونوا يستطيعون السكنى فى الأوعار ، التجأوا الى شارلمان ، ووزع هذا عليهم أراضى فى بسائط أربونة ، ولم يفرض عليهم من الضرائب شيئاً إلا الخدمة العسكرية . وقيل انه كان بين هؤلاء المهاجرين أناس مسلمون ارتدوا الى النصرانية كما يظهر من أسمائهم^(١) وقد اشتهر أناس من هؤلاء المهاجرين ولا

(١) نقل «رينو» هذا الخبر عن «الدون بوكيه» ولم نعلم شيئاً من هذا القبيل أى من تنصر جماعة من المسلمين فى أوائل الفتح الاسلامى للاندلس سوى ما ذكره المؤرخون من العرب وهو أنه عند ما اشتدت الفتنة بين الفيسية والبيمانية اغتم الفرصة أهالى شمالى إسبانية وأخرجوا المسلمين من بلادهم وبقي من هؤلاء بينهم بقايا تنصروا .

قال صاحب أخبار مجموعة : فثار أهل جليقية على المسلمين وغلظ أمر عليج يقال له بلای قد ذكرناه فى أول كتابنا فخرج من الصخرة وغلب على كورة وستورس ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه أهل استورقة زماناً طويلاً حتى كانت فتنة أبى الخطار وثوابه فلما كان فى سنة ١٣٣ هزمهم وأخرجهم عن جليقية كلها وتنصر كل مذبذب فى دينه وضعف عن الخروج وقتل من قتل الخ. ولا مانع من أن يكون فى الذين هاجروا من شمالى إسبانية إلى فرنسة أناس أصلهم من المسلمين

يزال من بقاياهم عائلات نبيلة ينتسبون إليهم مثل عائلة فلنوف Villeneuve

ثم إن عبد الرحمن الأول أمير قرطبة توفي سنة ٧٨٨ وقد وصفه المؤرخون الفرنسيون بالقسوة ، وقالوا انه كان سفاكاً للدماء جباراً عاتياً وأنه أوقع بكثير من رعيته العرب والبربر . وزعم الدون بوكيه أن النصارى واليهود قاسوا العذاب ألواناً في أيامه ، وأنهم اضطروا الى بيع أولادهم ليتمكنوا من المعيشة . وأما نحن فنعتقد أن هذا الأمير الذي فتح بلاده فتحاً بقوة ساعده وبمجرد حسن تديره وكان في جدال وجلاد دائمين لأجل توطيد سلطانه ، لم يكن ليستغنى أحياناً عن الإتيان بمثلات من الشدة يرهب بها أعداءه . والحقيقة انه كان في نفسه حليماً عاقلاً محباً للعلوم والصنائع ، وأنه هو أول مؤسس للمدينة العربية الزاهرة في الأندلس . ولا يظهر أنه كانت له علاقات رأساً مع شارلمان ، وإن كان المقرئ يذكر ذلك ويقول انه أراد أن يخطب إحدى بناته (١) والأرجح أنه لم يكن عبد الرحمن الأول هو الذي دخل في علاقات

(١) جاء في فتح الطبيب (الجزء الأول صفحة ١٥٥) مايلي : وخطب عبدالرحمن قارله ملك الإفرنج وكان من طغاة الإفرنج بعد أن تمس به مدة فأصابه صلب المسكر ثم الرجولية فال معه إلى المدارة ودعاه إلى المصاهرة والسلم فأجابته للسلم ولم تتم المصاهرة . اهـ

قلت : وأما كون عبد الرحمن فتح البلاد بنفسه ودوخها بصرامته ولم يستغن في ذلك كما قال « رينو » عن إرهاف الحسد ، فلننقل في هذا الموضوع ما جاء في الفتح عن ابن حيان : ولما ألقى الداخل الأندلس تفرأ قاصياً غفلاً من حلية الملك عاطلاً أرهف أهلها بالطاعة السلطانية وحنكهم بالسيرة الملوكية وأخذهم بالآداب فأكسبهم عما قليل المروءة وأقامهم على الطريقة ، وبدأ فدون الدواوين ورفع الأواوين وفرض الأعطية وعقد الألوية وجند الأجناد ورفع العماذ وأوثق الأوتاد ، فأقام للملك آتاه وأخذ للسلطان عدته ، فاعترف له بذلك أكابر الملوك وحذروا جانبه وتحاموا حوزته ، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس واستقل له الأمر فيها ، فلذلك ظل عدوه أبو جعفر المنصور بصدق حسه وبعد غوره وسعة إحاطته يسترجع عبد الرحمن كثيراً ويعدد له بنفسه ويكثر ذكره . ويقول : لاتعجبوا لامتداد أمره مع طول مراسه وقوة أسبابه ، فالتأان في أمر فتي قریش الأخوذى . الفذ في جميع شؤونه وعدمه لأهله ونشبه وتسلية عن جميع ذلك يبعد مرقى همته ومضاء عزيمته حتى قذف نفسه في لجج الممالك لابتناء مجده فاقتحم جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع عصبية الجند ضرب بين جندها بخصوصيته وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته واستمال قلوب رعيته بقضية سياسته حتى

كهذه مع قارله ، بل عبد الرحمن الثاني الذى كانت له علاقات مع شارل الأصغر
والذى كان عائشاً فى عصر لم تكن فيه هذه المصاهرات وأمثالها مستنكرة اه
وقبل إكمال حديث « رينو » عن عبد الرحمن الأول وعبد الرحمن الثاني رأينا
مناسباً أن نذكر خلاصة تاريخ عبد الرحمن الثاني نقلاً عن نفح الطيب .

قال المقرئ : غزا عبد الرحمن بن الحكم لأول ولايته إلى جليقية وأبعد وأطال
المغيب وأثنى فى أمم النصرانية هنالك ، ورجع . وفى سنة ٢٠٨ أغزى حاجبه
عبد الكريم بن عبد الواحد إلى البة والقلاع ، فغرب كثيراً من البلاد وانتسفها ،
وفتح كثيراً من حصونهم وصالح بعضها على الجزية وإطلاق أسرى المسلمين ، وانصرف
ظافراً . وفى سنة ٢٤ بعث قريه عبید الله بن البلنسى فى العساكر ، لغزو ألبه والقلاع ،
فسار ولقى العدو فهزمهم وأكثرت القتل والسبي . ثم خرج لدريق ملك الجلائقة وأغار
على مدينة سالم بالثغر ، فسار إليه فرتون بن موسى وقاتله فهزمه وأكثرت القتل والسبي
فى العدو . ثم سار إلى الحصن الذى بناه أهل ألبه بالثغر نكاية للمسلمين فافتتحه وهدمه .
ثم سار عبد الرحمن فى الجيوش إلى بلاد جليقية فدوخها وافتتح عدة حصون منها وجال
فى أرضهم ورجع بعد طول المقام بالسبي والغنائم . وفى سنة ٢٦ بعث عبد الرحمن
العساكر إلى أرض الفرنجة وانتهوا إلى أرض برطانية^(١) وكان على مقدمة المسلمين
موسى بن موسى عامل ططيلة^(٢) ولقيهم العدو فصبر حتى هزم الله عدوه . وكان لموسى

اتقاد له عصبيهم وذلله أيهم فاستولى فيها على أربكته ملكاً على قطيعته فاهراً لأعدائه جامياً لدماره
مانعاً لحوزته خالطاً الرغبة إليه بالرغبة منه إن ذلك هو الفقى كل الفقى لا يكذب مادحه . انتهى
قلت : وكان المنصور يلقب عبد الرحمن الداخل بصقر قریش وسند ذكر فى الجزء التالى كلاماً آخر
للمنصور عنه فى هذا المعنى

(١) برطانية هنا لا يظهر أنها التى يقال لها بریطانية Bretagne من شمالى فرنسا إلى الغرب بل
هى مقاطعة من كتالونية يقال لها اليوم امبردانية Ampurdania وكان أهل البلاد يقولون لها
« امبروطانية » وهى لفظة مشتقة من « امبورياس » اسم مدينة فينيقية قديمة ثم يونانية عمرها أهل
صور وصيدا فى أرض كتالونية

(٢) Tudela من مدن شمالى الأندلس

في هذه الغزاة مقام محمود. وفي سنة ٢٩ بعث ابنه محمداً بالعساكر، فتقدم إلى بنبلونة، فأوقع بالمشركين عندها وقتل غرسية صاحبها وهو من أكبر ملوك النصارى إلى أن يقول: وفي سنة إحدى وثلاثين بعث العساكر إلى جليقية فدوخواها وحاصروا مدينة ليون^(١) ورموها بالمجانيق وهرب أهلها عنها وتركوها، فغنم المسلمون ما فيها وأحرقوها، وأرادوا هدم سورها فلم يقدرُوا عليه لأن عرضه كان سبعة عشر ذراعاً، فثلموا فيه ثلثة ورجعوا. ثم أغزى عبدالرحمن حاجبه عبدالكريم في العساكر إلى بلاد برشاونة فمات في نواحيها وأجاز الدروب التي تسمى «البرت» إلى بلاد الفرنجة، فدوخوا قتلاً وأسراً وسبياً، وحاصر مدينتها العظمى «جبرونده»^(٢) وعاث في نواحيها وقفل. وقد كان ملك القسطنطينية من ورانهم «توفيلس»^(٣) بعث إلى الأمير عبدالرحمن سنة ٢٥ بهدية يطلب مواصلته ويرغبه في ملك سلافه بالمشرق من أجل ما ضيق به عليه المأمون والمعتمد، حتى أنه ذكرهما له في كتابه إليه، وعبر عنهما بابن مراحل وماردة^(٤) فكافأه الأمير عبدالرحمن عن الهدية وبعث إليه يحيى الغزال ابن كبار أهل الدولة وكان مشهوراً في الشعر والحكمة، فأحكم بينهما الوصلة وارتفع عبدالرحمن ذكر عند مناغية من بني العباس. ويعرف الأمير عبدالرحمن بالأوسط،

(١) Leon يريد بهامدينة ليون الإسبانية في شمال إسبانية لامدينة ليون الإفريقية التي يكتب اسمها هكذا: Lyon.
(٢) Jironde يريد بمدينة جبرونده بورديو وكان العرب يقولون لها أيضاً بورديل وهي مدينة بلاد جبرونده الإفريقية.
(٣) هذا هو إمبراطور بيزانطية الذي قاتله المعتصم العباسي وفتح من بلاده عمورية. وورد ذكره في قصيدة أبي تمام الطائي التي يذكر بها وقعة عمورية والتي مطلعها
السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
فانه يقول فيها:

لما رأى الحرب رأى العين توفلس والحرب مشقة معنى من الحرب الخ
(٤) كانت أم الخليفة المأمون أم ولد اسمها مراحل ماتت في نقاسها به، وكانت أم المعتصم اسمها ماردة وكانت أحظى النساء عند هارون الرشيد. ويظهر أن توفيلس إمبراطور الروم قصد أن يغري به أمية أمراء الاندلس بغزو الشرق ليشغل بني العباس عن قتاله ويوهن قوتهم

لأن الأول عبد الرحمن الداخل والثالث عبد الرحمن الناصر . ثم توفي عبد الرحمن الأوسط سنة ثمان وثلاثين ومائتين بربيع الآخر لاحدى وثلاثين سنة من إمارته . ومولده بطليلة في شعبان سنة ست وسبعين ومائة

وكان غالباً بعلوم الشريعة والفلسفة وكانت أيامه أيام هدوء وسكون . وكثرت الأموال عنده وأخذ القصور والمتنزهات وجلب إليها المياه من الجبال وجعل لفضلها مصنعاً اتخذ الناس شريعة وأقام الجسور . وبنيت في أيامه الجوامع بكور الأندلس . وزاد في جامع قرطبة وواقين . ومات قبل أن يستتمه ، فأتمه ابنه محمد بعده ، وبنى بالأندلس جوامع كثيرة ورتب رسوم الملكة واحتجب عن العامة . قال : وكان كثير الميل للنساء ، وولع بجاريته « طروب » وكلف بها كلفاً شديداً وهى التى بنى عليها الباب بيدر المال حين تجنت عليه وأعطاهها حلياً قيمته مائة ألف دينار اهـ

وجاء في النسخ كلام طويل عن محبة هذا الأمير لطروب ولغيرها من الجوارى ولم يقل إنه خطب ابنة شارل الأصيل ملك فرنسا . ولم أذكر أن « دوزى » الذى استقصى فى الكلام عن عبد الرحمن الثانى وسيرته الشخصية ذكر شيئاً من هذا ونعود الى سياق حديث « رينو » عن أمراء بنى أمية ومغازيهم فى إفريقية ، فهو يقول : ان عبد الرحمن الداخل كان استخلف ابنه هشاماً من بعده وان هشاماً لأول حكمه وجد الفتن مشتعلة فى أكثر البلاد فأراد أن يشغل الأمة عن الفتن الداخلية ، بجهاد العدو الخارجى ، لأنه أجمع شئ للكلمة . وكان يريد أن يتلافى مانقص من الملكة بغارات بين وشارلمان الأخيرة ويخضع شوكة مسيحي بلاد استوريش وشمالى الأندلس فأجمع على قتال المسيحيين فى كل مكان . وفى أيامه كثرت القالة بأن المسلمين لا يقدرّون الا على قتال بعضهم بعضاً ، وأفتى بعض الفقهاء بأنه لا يجب دفع الخراج للأمراء لا يعرفون أن يقاتلوا الا أمة محمد وحدها ، وكانوا يضربون الأمثال فى خدمة الإسلام بخلفاء بغداد الذين كانوا يواصلون غزو مملكة القسطنطينية

فبناء على هذا كله تحمّس هشام وأعلن الجهاد ، وأمر الناس كافة بأن ينفروا قاصدين جبال البيرانه ، فمن لم يقدر على الجهاد بنفسه وجب أن يجاهد بماله . وقرىء

منشور الأمير في الجوامع ، وفيه الآي القرآنية التي تحض على الجهاد ^(١) فلما تلى هذا المنشور نفر الناس للجهاد من كل فج ، وانثالوا على الأمير من كل حذب ، ولكن رغم هذا كله لم يكن المجاهدون بالأعداد التي كانت تجتمع في الغزوات الأولى لأول الفتح عندما كان المجاهدون كحصي الدهناء ، ينفرون للجهاد في سبيل الله من افريقية والشام وجزيرة العرب وغيرها . فان هذه البلدان كلها كانت في أيام هشام موصدة الأبواب على من أراد الجهاد في الاندلس ، فأصبح الغزو في الاندلس منحصرا في أهلها . ولذلك لم يجتمع في هذا النفير سنة ٧٩٢ غير مائة ألف مقاتل ، انقسمت الى شطرين : زحف منها شطر الى قتال مسيحيي أستوريش ، فلم يظفروا بطائل يذكر ، وزحف الشطر الآخر تحت قيادة الوزير عبد الملك ^(٢) الى كتالونيا ، ومنها تأهب لاجتياح فرنسة .

وكان دخولهم الى فرنسة سنة ٧٩٣ وشارلمان يومئذ مشغول على ضفاف الدانوب ، بحرب الآفارين ، ونخبة جنود مملكة ا كيتانيا غائبة في ايطالية بصحبة لويس بن شارلمان . فهدد المسلمون من فورهم الى أربونة ، ولما وجدوها محصنة بادروا بالحراق أرباضها ، وزحفوا الى قرقشونة ^(٣) وكان لويس ملك ا كيتانيا قد عهد بالوكالة في غيابه الى غليوم كونت طلويزة ، فاستنفر غليوم أمراء المملكة ورجالاتها ، وأقبل المسيحيون تحت السلاح من كل جانب ، وتلاقوا مع المسلمين على ضفاف نهر « اوريو » ^(٤) في المكان المسمى « فيلدانيا » ^(٥) بين قرقشونة وأربونة . وكانت المعركة من أحمر المارك وطيسا ، وقاتل الكونت غليوم قتال الضواري ، ولكن

(١) قل « رينو » صورة هذا المنشور وقال إنه وجد في مجموعة مطبوعة في القاهرة قال :
وليس بأكيد أن يكون هو نفس المنشور الذي تلى باسم الأمير هشام ولكنه على كل حال لا يختلف عنه في المعنى

(٢) عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث

(٣) قل « رينو » هذا عن تاريخ « موساك » في مجموعة « الدون بوكيه »

(٤) Orbieux

(٥) Villedaigne

المسلمين ثبتوا كالأوتاد والفرنسيين انهزموا ذلك النهار وولوا الأكتاد وأصيبوا
بخصائر فادحة . وغنم المسلمون غنائم فوق الاحصاء ، غير أنه لم يكمل سرورهم وقتل
أحد كبار قوادهم ، فلم يتعقبوا المسيحيين في هزيمتهم ، واكتفوا بما أصابوه من السبي
والغنم ، وقفلوا الى الأندلس ظافرين . وكان لهذه الطائلة ، للمسلمين على المسيحيين ،
فرح عظيم عند المسلمين لأنه كان قد طال عهدهم بالظفر^(١) وأصاب الأمير خمس الغنائم
فبلغ حمسة وأربعين ألف مثقال من الذهب . فإذا حسبنا قيمة الذهب يومئذ بالنسبة إلى
قيمته الحاضرة وجب أن نضرب هذا العدد بتسعة فيجتمع لنا سبعمائة ألف فرنك
من معاملتنا الحاضرة^(٢) فبنى هشام بهذا المال في جامع قرطبة الذي كان أبوه لم يتمه^(٣)
وكان عبد الرحمن الأول بدأ جامع قرطبة ، من غنائم الحرب ، فزاد ذلك في حرمة
الجامع في نظر المسلمين . فلما باشر ابنه هشام بناء القسم الجديد من الجامع وجد
المسلمين ملتزمين الصلاة في القسم القديم ، فسأل عن سبب ذلك ، ف قيل له : إن هذا
من أجل كون هذا القسم بنى من غنائم الجهاد . فأجابهم هشام بأن القسم الجديد أيضاً
بنى من غنائم الجهاد . واستدعى القاضي ونفراً من كبار القوم فأيّدوا كلامه^(٤) .
وقال بعضهم : إن أسس هذا الشطر الجديد من الجامع وضعت على تراب مجلوب من
جليقية ومن جنوبي فرنسا ، أي من مسافة مائتي مرحلة ، حملة أسرى المسيحيين على
ظهورهم . وقد تقدم هذا الخبر في الكلام على مدينة أربونة
ولم يثبت أن المسلمين تمكنوا من أربونة في تلك الغزاة ، ولو كانوا فتحوها لكان

(١) نقل « رينو » ذلك عن مجموعة مؤرخي فرنسا وعن النويري

(٢) يعني بالمعاملة التي كانت سنة ١٨٣٦ أي منذ قرن تقريباً

(٣) ورد في نفح الطيب أن من محاسن الأمير هشام إكمال بناء الجامع بقرطبة وكان أبوه شرع
فيه . وأما الغزاة التي ذكرها « رينو » فهي التي يقول عنها في النفح ان هشام بعث وزيره عبد الملك
ابن عبد الواحد بن مغيث في العساكر سنة ١٧٧ إلى أربونة وجيروندة فأثخن فيها ووطئ أرض
برطانية وتوغل عبد الملك في بلاد الكفار وهزمهم

(٤) استشهد « رينو » هنا بتاريخ للعرب في إسبانية ملحق بجغرافية أبي الفدا التي طبعها
«رينك» في « لايسيك »

مؤرخو المسيحيين أشاروا إلى ذلك الحادث . واشتهر في تلك الحرب غايوم كوتت طلوزة ، من أمراء البلاد ومن أفرس فوارسها وأشدهم تحمسا بالدين المسيحي ، لأنه بعد أن قضى حياته في الحروب ، وكان من جملة غزاة الفرنسيين الذين فتحوا برشلونة ، أنهى حياته في دير جلون (Gellone) الذي بناه هو بنفسه في لوديف (Lodève) ومات بذلك الدير منقطعاً للعبادة ، وصار معدوداً في مصاف القديسين . ترجمه أحد معاصريه فقال: أنهم في القرن العاشر كانوا في الكنائس يرتلون دائماً الأناشيد بذكر أعماله المجيدة ومواقفه في جهاد المسلمين . ولما أخذ شعراء الفرنسيين ينظمون القصائد على شارلمان ومشاهير رجاله وبترومونت بذكر وقائع ، فيها ماهو صحيح وفيها ماهو خيالي ، كانوا يجعلون من ذلك قسطاً كبيراً لغيره ذى الألف القصير ، وكانوا يصورون مدينة نيم ومدينتي اورنج وآرل كأنها قد وقعت في أيدي المسلمين ولم يتم استخلاصها إلا على يد ذلك البطل الذي لا يغالب . . . وكذلك وجدت كتابة لاتينية بقيت محفوظة إلى زمان الثورة الفرنسية في دير « مون ماجور » (Mont - major) تفيد أن شارلمان جاء بنفسه إلى آرل لطرد المسلمين منها

ومن المعلوم أن الشعراء لم يكن همهم التدقيق في المسائل التاريخية إذا أرادوا التغني بأحاديث أبطالهم وهاموا في أودية خيالهم . فأما الكتابة التي في دير « مون ماجور » فهي غير صحيحة ، لأنها تتضمن أن شارلمان بنى ذلك الدير تمجيحاً لواقعة طرد المسلمين من آرل ، والحال أن الدير قد بُنى بعد ذلك بمئة وخمسين سنة .

وكان هشام ملك قرطبة قد توفي سنة ٧٩٦ وخلفه ابنه الحكم ، فتار به عمه (١)

(١) جاء في فتح الطيب : أنه تولى بعد هشام ابنه الحكم بمهد منه إليه ، فاستكثر من الممالك وارتبط الخيل واستفعل ملكه وياشر الأمور بنفسه . وفي خلال فتنة كانت بينه وبين عمه اغتتم العدو الكافر الفرصة في بلاد المسلمين وقصد برشلونه فملكها سنة ثمانين ومائة وتأخرت عساكر المسلمين إلى مادونتها . وقال أبو الفداء : ولما اشتغل الحكم بقتال عمه اغتتمت الفرقة الفرصة فقصدها بلاد الاسلام وأخذوا مدينة برشلونة في سنة ١٨٥

فاضطرب أن يقضى أوائل أيامه في قمع الثورة . وفي السنة التالية بينما كان شارلمان في مدينة اكسلاشابل - Aix - la - Chapelle جاء مستنجداً به أمير برشلونة المسلم وعم الحكم أمير قرطبة ^(١) . وفي تلك السنة نفسها بينما كان لويس بن شارلمان ملك ا كيتانيا عاقداً مجمعاً في طلويزة ، جاءه رسول من الاذفونش ملك جليقية واشتورية ، يلتمس حشد جميع القوات المسيحية وتجريدها لقتال العدو العام . ثم وفد أيضاً على هذا المجمع رسول من قبل أمير مسلم في ناحية وشقة (Huesca) يقال له « باهالوك » يريد أن يسالم المسيحيين ^(٢)

فظهر ان الفرّة كانت لأئمة لأخذ الثأر من المسلمين وللدخول الى اسبانية ، وكان لويس ملك ا كيتانيا وأخوه شارل (او كارل) قد شنّا الغارات في أطراف المقاطعات التي تشرب من نهر ابره . ثم عاد لويس فأجاز البيرانه من جهة آراغون . وحاصر وشقة التي كان أميرها قد أرسل بمفاتيحها إلى شارلمان ، ولكن لما جاء الفرنسيين لتسلم بلدته امتنع عليهم ولبس لهم جلد النمر . وفي ذلك الوقت كان عبد الله عم الحكم أمير قرطبة قد استولى على طليطلة ، وعمه الآخر سليمان استقر في بلنسية ، فسرح جيشاً لقتال عمه عبد الله في طليطلة ، وسار هو بنفسه مع جيش من الفرسان قاصداً البيرانه ، فأدخل في الطاعة برشلونة وغيرها من المدن التي كانت اشترطت نفسها للعصيان . ومن هناك قصد الجبال وأوقع بالمسيحيين وسبي منهم كثيراً نساء ورجالا ، واتخذ الحكم من أسراه حرساً خاصاً وهو أول أمراء قرطبة الذين اتخذوا حرساً خاصاً من الأسرى والأجانب . وقد رجع الحكم من تلك الغزاة مظفراً منصوراً ^(٣) .

(١) نقل رينو هذا الخبر عن الدون بوكيه

(٢) نقل رينو هذا الخبر عن مجموعة « ورنخي بلاد الغال ولم تعلم أصل الأمير المسلم الذي ذكره وهم يعرفون الأسماء العربية تحريفاً يبعد بها عن الأصل بدءاً كبيراً بحيث تتذكر على الباحث تماماً (٣) جاء في نفع الطيب : وفي سنة اثنتين وتسعين وثمان مائة جمع لندريق بن ثارله ملك الفرنج جوعه وسار لحصار تراكونه فبعث الحكم ابنه عبد الرحمن في العساكر فمزقه ففتتح الله على المسلمين وعاد ظافراً . ولما كثرت عيث الفرنج في الثغور بسبب اشتغال الحكم بالخارجين عليه سار بنفسه إلى الفرنج سنة ست وتسعين فافتتح الثغور والحصون وخرب النواحي وأخذ في القتل والسبي والنهب وعاد إلى قرطبة ظافراً . انتهى

قلت : لعل المقرئ يعنى بلندريق بن ثارله لويس بن شارلمان

كما ان عمه سليمان قتل في إحدى المعارك التي دارت بينهما، وعمه عبد الله فر الى افريقية وعادت طليطلة الى الطاعة . ثم ان الاذفونش صاحب جليقية انغار في تلك الأيام على المسلمين في إشبونة ، ووقع في يديه بعض أسرى منهم ، فأرسلهم راكبين على البغال إلى شارلمان اعتزازاً بالنصر . ثم ان لويس ملك ا كيتانيا الذي هو ابن شارلمان اكتسح نواحي وشقة ^(١) ولم يكن شيء من هذه الغارات ، سواء من هذه الجهة أو من تلك الجهة ، ليؤدي الى نتيجة حاسمة يستفص منها أحد الفريقين ملكاً ، بل كانت النتيجة الوحيدة هي خراب تلك النواحي . وكان أهم مالقيه الفرنسيين في هذه الحرب هو أن أمراء المسلمين الذين كانوا أظهروا الطاعة لشارلمان ، عند ما جاءت جيوشه إلى بلادهم ، ابوا أن يقبلوها وأصلوها ناراً حامية . وكان المسلمون لا يزالون أصحاب المدن الكبرى والمعقل النبعة مثل برشلونة وطرطوشة وسرقسطة ، وكانت برشلونة بنوع خاص بحصانة موقعها وبقربتها من فرنسة ووجودها على سيف البحر ، من أشد البلاد نكابة بالفرنسيين . وكان الأمير الذي فيها والذي يسميه مؤرخونا « زاتون ^(٢) » قد أوهم شارلمان انه يريد الدخول في طاعته ، ولكن عند ما حضر الفرنسيين أمام بلده امتنع من قبولهم وقلب لهم ظهر الجن فاجمع لويس ملك ا كيتانيا بالاتفاق مع غليوم كونت طلوزة ، وبرأى مجمع مؤلف من أمراء تلك البلاد أن يستولى على برشلونة في أول فرصة . وكان شارلمان يومئذ في رومة مشغولاً بقضية تتويجه امبراطوراً على الغرب . وكانت برشلونة كما قال الشاعر « ارملو لدوس نيجلوس » قد أصبحت للمسلمين معقلاً متيناً ، وكانت تصدر عنها فرسان تلك الخيل المشهورة بخفة الحركات ، فتبث

(١) جاء في معجم البلدان لياقوت : وشقة بليدة في الأندلس ينسب اليها طائفة من أهل العلم منهم حديدة بن القدر له رحلة وابراهيم بن عجيس بن اسباط بن أسعد بن عدى الزياىدى الوشقى كان حافظاً للغة واختصر المدونة له رحلة سمع فيها يونس بن عبد الأعلى ومات سنة ٢٧٥ وابنه أحمد سمع من أبيه وتوفي سنة ٣٢٢

(٢) Zaton وهو من جملة تحريف الإفرنج للاعلام العربية ولا يدري ما أصل هذا الاسم

الغارات في بلاد النصارى وتعود أيديها ملائى بالفنائم . وكانت من المنعة بحيث ان الفرنسيين لبثوا سنتين يحصرونها ويضيقون عليها ، ويكتسحون نواحيها ، ولكنهم لم يقدرُوا على دخولها . وقد قسم الفرنج جيشهم الى ثلاثة أقسام : قسم منهم كان يهاجم برشلونة ، وقسم ثان يقوده غليوم كونت طلويزة كان يربط في الممر الذى تفيض منه جيوش المسلمين الآتية من قرطبة لنجدة برشلونة ، وقسم ثالث كان يقوده الملك لويس نفسه ، وكان في أعلى جبال البيرانه ، يحمل على المسلمين حيث وجد الفرصة ملائمة .

وكان الافرنج قد تقاسموا أعمال الحصار ، فمنهم من كان مشغولا بوضع السلالم ، ومنهم من كان يجلب الميرة والعدة ، ومنهم من كان موكولا اليه الحفر والنقب ، ومنهم من كان موكولا اليه غير ذلك . فاشتد الحصار شدة غير معهودة ، وجاءت جيوش المسلمين فلم تقدر على النفوذ الى برشلونة فتحولت الى بلاد اشتورية ، وهزمت أهلها ، فبقى أمير برشلونة منفرداً بقوته ، وخرج فى إحدى المعارك لقتال الافرنج المحاصرين ، فأخذ أسيراً ثم حمل الافرنج على البلدة الحلة الأخيرة وفتحوها (١) .

وكان فتح الافرنج لبرشلونة سنة ٨٠١ مسيحية بعد أن بقيت تسعين سنة فى أيدي المسلمين . فلما دخلوها حولوا جوامعها كنائس ، وأرسل الملك لويس إلى أبيه شارلمان جانباً من الفنائم ، فيها دروع وخوذ ، ومنها خيول منسرجة بأنغر السروج ، وبعد ذلك أصبح لفرنسة منطقتان فى شمالى اسبانية احدهما كتالونيا وقاعدتها برشلونة ، والثانية غشقونية ومن جملتها ناباره وأراغون

وفى تلك السنة جاء وفد من قبل هارون الرشيد الى شارلمان . وكان شارلمان قبل ذلك قد أرسل رسولا يهودياً اسمه اسحق مصحوباً باثنين من الفرنسيين لأجل السلام من قبله على الخليفة العباسى ، وقد أمر شارلمان هذا الوفد بأن يمر بالقدس قبل ذهابه الى بغداد ، وأن يتعهد أحوال زوار المسيحيين لبيت المقدس ، ويتوسط لدى

(١) مؤرخو الاسلام يفسهون سقوط برشلونة إلى تأثير الفتنة التى أثارها سليمان وهب الله صا الحسك وشغلته عن انقاذ تلك المدينة كما تقدم لك من كلام المفرد فى النفع وكلام أبى الفداء

الخليفة في تسهيل هذه الزيارة حتى يزداد عدد الزوار والتجار القاصدين إلى البقاع المقدسة . وكان الفرنسيين من عهد انيبال لم يروا في بلادهم فيلا ، فكان من جملة مهمة هذا الوفد ان يأتوا من الشرق بفيل يتشجع برؤيته أهل فرنسا . فلما وصل الوفد إلى بغداد استقبلهم الخليفة برآ وترحيباً ووعد بتسهيل زيارة المسيحيين لبيت المقدس وترفيه مقامهم عند ما يردون إليه . ولم يكن في دار الوحوش التي عند الخليفة عندئذ سوى فيل واحد فبعث به هارون الرشيد إلى شارلمان ومعه هدايا أخرى من منسوجات حريرية وقطنية لم يكن يوجد منها في فرنسا ، ومن طيوب ومعطرات وأشياء أخرى . وكان من جملة الهدية شمعدان من نحاس أصفر ، عظيم الحجم ، وساعة من نحاس أصفر أيضاً تتحرك بالماء وتدق اثنتي عشرة مرة بعدد ساعات النهار

ونزل الوفد في قدمته من الشرق ، في مدينة بيزة ، ووفدت الهدايا باسبغ عظيم إلى « اكس لاشابل » مركز الامبراطور شارلمان . ولما وصل الوفد قدّموا للامبراطور تحايا الخليفة ، وأبلغوه ما قاله لهم من أنه يضع مودته فوق مودة جميع الملوك^(١) وكان هذا الوفد قد صدر له الأمر من شارلمان بأن يتوجه إلى قرطجونة ، في إفريقية ، وليتمس من ابراهيم الأغلب (عامل الخليفة) الاذن بنقل رفات القديس فيريانس المدفون في قرطجونة وغيره من القديسين المدفونين هناك ، فأذن لهم ابراهيم فيما طلبوه وبعث أيضاً رسولا وراءهم إلى الامبراطور يتودد إليه . وقد كان لذلك في هاتيك الأيام وقع عظيم ، نظراً لانقطاع العلاقات تقريباً بين الاقطار المتباعدة ، وكانت الناس تستدل به على عظمة شارلمان^(٢) وأن الله أعطاه في ذلك العصر صورة ترى كل ملك دونها يتنهذب . وفي تلك الأيام لم تكن الحرب تسكن بين المسلمين والافرنج في بلاد اراغون وكتلونية

(١) نقل رينو هذا الخبر عن مجموعة الدون بوكيه من رواية « اجينارد » Eginard

(٢) ذكر رينو هذه الجملة نقلاً عن الدون بوكيه وقال : إن مؤرخي العرب لم يذكروا شيئاً من أخبار هذه العلاقات بين هارون الرشيد وشارلمان وإنما ذكروا تبادل رسائل بين بين الفخير والمنصور النحاسي وبين الملك لويس الحليم Le Debonnaire وبين المأمون . وأما المنصور بوكفيل « Pouqueville » فقد ذهب إلى كون هذه الأخبار كاذبة غير صحيحة

وناباره ، وكانت سجالا بين الفريقين .

ولم يكن شارلمان ليقدر على النظر في جميع شؤون مملكته الواسعة . ففي سنة ٨٠٩ مسيحية مات الكنت اوريول « Aureole » قائد الجيوش الافرانية في اراغون ، فجاء أمير سرقسطة المسلم ، وكان يقال له عمروس ، واستولى على الأماكن التي كانت في حوزة الكنت زاعماً انه عند ما يأتي شارلمان بنفسه يسلمها اليه ، ولكن لما جاءت العساكر الافرانية أبي إزاهم فيها ، فبقيت في يد المسلمين . هكذا روى مؤرخو الفرنسيين . وقد روى بعض مؤرخي العرب أن عمروس هذا كان أميراً في وشقة ، وكان أبوه مسلماً وأمه مسيحية . وكان مثل هذا الزواج كثير الوقوع في اسبانية لذلك العهد ، لاسيما في الأصقاع الشمالية ، وكان يقال لهؤلاء الذين هم من أب مسلم وأم مسيحية المولدون . وكان هذا الصنف من الناس لا يرجعون الى مبدأ ، ولا يتقيدون بدينهم ، وانما يتبعون مصالحهم الخاصة . وكانوا كثيرين في مدينة طليطلة فثاروا على أمير قرطبة فرماهم برجل يقال له عمروس ، وكان داهية من الدواهي . فجاءهم عمروس وتظاهر لهم بالاخلاص لقضيتهم ، وأوهمهم انه في نفسه ممالئ لهم ينتظر أول فرصة للانتفاض معهم على السلطان ، وأقنعهم بذلك بمكره وحيلته وصدقوا كلامه وانفق معهم على بناء قلعة في أعلى البلدة تكون المعقل الأمين بزعمه لهم ، بحيث لا تنالهم جيوش السلطان بسوء . فلما أكمل بناء هذه القلعة دعاهم فيها الى وليمة ، فكان كلما دخل منهم واحد قطع الجندي رأسه ، فقتل انه قطع رؤوس أربعائة من أعيانهم ، وقيل انه بلغ عدد القتلى خمسة آلاف . وهكذا تمكن عمروس من إدخال طليطلة في الطاعة . انتهى

وقد ذكر دوزي الهولندي في « تاريخ الاسلام في إسبانية » ان عمروس هذا كان من الاسبانيول الذين اتخذوا الاسلام ديناً . والحقيقة انه لم يكن يهيمه لامذهب ولا مشرب ، وانما كانت تهمه مطامعه الدنيوية ، فكاشفه الأمير الحكم بما في نفسه من أمر طليطلة التي كانت لا تنتهي من ثورة الا الى ثورة ، وكانت تأتي الخضوع

لوال عربى ، وقد أعجب الحكم أمرها، فدبر عمروس هذه المكيدة على أهالى طليطلة بالاتفاق مع الحكم، وكتب الحكم قبل ذلك اليهم قائلاً لهم : إن أعظم دليل على اعتنائنا بشأنكم أننا مرسلون اليكم الآن والياً من أبناء جنسكم . وقد كان هذا القول صحيحاً لأن عمروس كان اسبانيولياً ، مهتدياً للإسلام . وذهب عمروس فخدع أهالى طليطلة وتودّد اليهم وزعم انه كاشفهم سرّاً بما فى نفسه من الحميّة على جنسه ، والاستعداد لخلع طاعة السلطان عند ماتلوح أول بارقة أمل ، وقال لهم : لأن أكثر أسباب النزاع بينكم وبين السلطان كانت من قبل الولاة الذين كانوا يتولون طليطلة ، فكانوا يضعون الجند فى بيوتكم فيسلبون راحتكم ، فلو بنينا فى طرف من المدينة حصناً نتخذة مكنة للمساكر لانحسنت أسباب النزاع بينكم وبين السلطان . فوثق الأهالى بكلام عمروس ، وبنوا الحصن واستقرّ به عمروس . وبعد ذلك أكمل عمروس المكيدة بأنه تواطأ مع السلطان على أن يرسل جيشاً الى طليطلة بمحجة أن العدو تحرك فى الثغر فأرسل الحكم جيشاً تحت قيادة ولده عبدالرحمن - وكان فى الرابعة عشرة من عمره - فلما وصل الجيش الى طليطلة أشاعوا أن العدو انقبض الى بلاده ، وأن الجيش سيعود أدراجه الى قرطبة . ولكن عمروس أشار على أعيان طليطلة بأن يأتوا للسلام على الأمير عبد الرحمن ، قياماً بواجب الحرمة للسلطان ، فجاء منهم جمهور وسلموا عليه ، واستقبلهم الأمير بالحفاوة والاكرام ، وهم دعوه أن يطيل الاقامة عندهم ، وتظاهر الأمير بادى ذى بدء بأنه مضطر لسرعة الآوبة ولكن أعيان البلدة ألحوا عليه بالترث عندهم ، وأمّلوا فيه خيراً كثيراً ، وكانوا مسرورين بكون اليهم الجديد اسبانيولياً من جنسهم ، وبعد ذلك تقرر لإعداد وليمة لأعيان طليطلة وجوارها ولكنها لم تكن مريثة المأكلة . وفى اليوم التالى جاء المدعوون أفواجاً أفواجاً ونزلوا عن ركابتهم ودرعلوها خارج الحصن ، وصاروا يدخلون زرافات ، وكان فى ساحة الحصن خندق وقف بجانبه جماعة من الجلادين ، فكانوا كلما أقبل جماعة يقطعون رؤوسهم ويرمون بها فى الخندق . وتمّ كل هذا وأهل البلدة لا يعلمون بشئ مما جرى داخل الحصن وكان هناك طبيب من أهل طليطلة ، عظيم الفراسة ، لحظ عدم خروج أحد

من المدعويين . فسأل الأهالي هل رأيتم أحداً من المدعويين الى الحصن خرج منه ؟ فأجابوه : يجوز أن يكونوا دخلوا من هذا الباب وخرجوا من الباب الآخر . فقال لهم الطبيب : بل أظن أنهم لن يخرجوا أبداً وأنه أتى عليهم القتل . وقال ابن عذارى : ان عدد القتلى يوم الخندق هذا بلغ سبعمائة . وقال النويرى وابن القوطية : انهم أكثر من خمسة آلاف ، ولكن من بعد هذه الواقعة سكنت الثورة في طليطلة مدة طويلة . انتهى كلام دوزى

فهذه كانت عقبي غرام أهل طليطلة بالانتفاض . وعمرس الاسبانيولى هذا الذى دبر هذه المكاييد هو الذى خدع أيضا قواد الفرنسيس وتسلم منهم المواقع التى كانوا فيها . ولا يبعد على رجل كهذا ، غدر ذلك الغدر بأهل وطنه ، أن يغدر بالفرنسيس ولننظر الآن الى رواية المؤرخ كوندى الاسبانيولى ، قال : إن الحكم لم يتمتع طويلا بالراحة التى كان وطداً أطنابها بتعبه وجهاده ، ففي سنة ٨٠١ مسيحية وفق ١٨٥ هجرية تحرك ملك اشثورية وأراد التجاوز على المسلمين . ولما كان يعلم نفسه أضعف من أن يقدر عليهم استنجد بشارلمان ، وهذا أسرع لنجده مؤملا بذلك الاستيلاء على ولايات إسبانية الشمالية وضمها الى مملكته ، فجعلت أمداد شارلمان تثوب الى الاسبانيول تحت قيادة ولده لويس ملك اكيثانية ، فزحف لويس واستولى على مدينة جيرونة ، وجاء حاصر برشلونة ، وانضم اليه بهلول بن غاوق من عمال أمير قرطبة ، وسار بالفرنسيس الى طرطوشة ، فزحف الحكم بنفسه ومعه عمرس ومحمد بن مفرج قائد الخيالة الذى كان عظيم الاعتماد عليه نظراً لدهائه وإقدامه

ولما وصل الى سرقسطة ثارت الثورة في طليطلة بما أخرج الأهالي من عسف يوسف بن عمرس الذى كان قبض عليه الأهالي لسوء ملكته فيهم ، فاستدعى السلطان والده عمرس ، وعهد اليه نظراً لدرسته ودهائه بولاية طليطلة ، وأرسل ولده يوسف قائداً على طليطلة

ثم أغار الحكم على نابارة وبنبلونة ودخل وشقة ، فغشى الاذفونش على بلاده وحشد عساكره ، وزحف اليه يوسف بن عمرس فأوقعه الاذفونش في كمين وأخذه

أسيراً ، فدفع عليه أبوه فدية جسيمة حتى أنقذه . وأما الحكم فكان يتوقد صدره
احنة على مهلول عامله الذي انحاز الى الفرنسيين ومشى بين يديهم ، ولما عرف انه في
جوار طركونة عمده اليه من فوره ، ولم يزل في اثره حتى ثقفه في طرطوشة بعد أن
هزمه ، واحتز رأسه . ورجع الحكم الى قرطبة بدون أن يتعرض لبرشلونة وذلك
نخوفاً من الفشل في حصارها

أما حصار الافرنج برشلونة فقد أجمع المؤرخون انه كان من أندر ما عرف التاريخ
شدة وصبراً وان مسلمي برشلونة صبروا في هذا الحصار الى الحد الذي تتحير فيه العقول .
ولكن الخلاف وقع بين المؤرخين في الأطوار التي دخلت فيها تلك الحرب . فبعضهم
قالوا ، كما في تاريخ متس وتاريخ ريچينيون وغيرهما ، انه في سنة ٧٩٧ قدم أمير
برشلونة العربي على شارلمان ، وبعد ذلك في سنة ٨٠١ أراد خلع طاعته ، فأخذ أسيراً
ونفى . وهؤلاء المؤرخون يسمونه تارة « زاتون » Zaton وطوراً « زادو » وأحياناً
« زاد » Zaddo, Zaad ولعل اسمه سعدون أو سعد . وفي تاريخ الملك لويس الحليم
ورد أن سعدون هذا وقع أسيراً في سربونة ، وأنه بعد أسره تولى امارة برشلونة ابن
عم له ، اسمه عامر ، فدافع عن البلدة دفاعاً يتقاصر عنه كل وصف مدة سنتين ، تحمل
في أثناءها مسلمو برشلونة من ضيق الحصار ما يعجز أي قبيل عن تحمله

وذهب مؤرخون منهم مارمول « Marmol » الى ان الرواية الصحيحة هي أن
سعدون أو سعداً كان تابعاً لملك قرطبة فانتقض على سلطانه فأرسل الى شارلمان يعده
بالدخول في طاعته ، وفي سنة ٧٩٧ و ٧٩٨ دخل فعلاً في طاعة شارلمان ولكن
شارلمان بعد سنتين من هذا العهد شعر بأن أمير برشلونة نقض طاعته ، فصرح اليه
جيشاً تحت قيادة ولده لويس فحاصر برشلونة واستفتحها ثم انصرف عنها ، فجاء
أمير سرقسطة واستردها ، ولكن لويس عاد ثانية سنة ٨٠٦ فاستولى عليها وعلى أعمالها .
فالروايات تختلف في كيفية استيلاء الفرنسيين على برشلونة ، ولكن خلاصتها واحدة .
وهي أن العرب خسروا بلاد كتلونيه منذ ذلك الوقت ، وأنه تولى عليها في البداية
أمرء تابعون لفرنسة ثم لم يرحوا حتى استقلوا عنها وعن العرب معاً

وقد ذكر كوندى الاسبانيولى واقعة عمروس فى طليطلة ، وكيف غدر بأعيان تلك البلدة وكيف دغاهم الى وليمة فى القصر وقطع رؤوسهم غدراً . ولكن رواية كوندى تختلف عن رواية دوزى بكون دوزى يوم ان تلك المكيدة وقعت بتواطؤ عمروس مع سيده الحكم ومع ابنه الأمير عبد الرحمن الذى كان فى الخامسة عشرة من عمره ، وبأن كوندى يقول ان صاحب ذلك الرأى انما كان عمروس ، وان الأمير عبد الرحمن مع صغر سنه أوضح له فظاعة ذلك العمل وما يبق بعده على الأعقاب من قبيح الذكر ولكنه تغلب عليه لخدائته سنه ، وراجعه الأمير كثيراً وأبدى وأعاد فلم يقنع عمروس الا بتنفيذ ما يبتغىه لأهل طليطلة ، قائلا للأمير : ان طليطلة قد ألقت العصيان من زمن طويل حتى صار لها خلقاً ملازماً وانه لابد لسكونها من قطف عدة مئات من رؤوس أعيانها . ثم ذكر كوندى زحف ملك ايكيتانية وحصاره لطرطوشة سنة ٨٠٧ وان الأمير عبد الرحمن كان فى سرقسطة فزحف لانجاد طرطوشة ووافاه اليها والى بلنسية فطردوا الفرنسييس عنها . ثم يقول : ان عبد الرحمن عاد فاستولى سنة ٨١٢ على جيرونية من كتلونيه ، وانه وصل بجيشه الى أربونة وعاد بفنائم وافرة . ثم ان الفرنسييس استولوا على طرطوشة بعد حصار شديد وسار ملكهم لويس منها قاصداً أخذ وشقة (١) فما كاد ينصرف عن طرطوشة حتى رجعت هذه البلدة الى حكم العرب .

وقد علق « دومارليس » على روايات كوندى عن هذه الحرب حاشية معناها ان مؤرخى الفرنسييس يزعمون ان ملك قرطبة بعث الى شارلمان وفداً بطلب الصلح ، وأنهم وصلوا الى « اكسلاشابل » وتقرر الصلح على أن ينزل العرب لشارلمان عن جميع البلاد الواقعة بين نهر ابره والبيرانه ، وان هذه المعاهدة انمقدت سنة ٨١٠ فدومارليس يستبعد وقوع هذه المعاهدة بكون العرب لم يذكروا عنها شيئاً فى تواريخهم ثم بكون لويس بن شارلمان زحف الى كتلونيه عدة مرات من بعد هذا التاريخ فيرى دومارليس انه يجوز أن تكون حصلت مهادنة بين الفريقين الى حد سنة ٨٢٠

(١) Huesca وابن حوقل فى المسالك والممالك يسميها وسكة

أو إلى ما بعد ذلك . وأما العرب الذين شوهوا في أكسلاشابل فربما كانوا من بعض أولئك الولاة المسلمين الذين كانوا ينتقصون على ملك قرطبة ويستعينون عليه بالأجانب من قبيل بهلول بن مخلوق الذي تلقى جزاء خيائته من يد الحكم نفسه

أساطيل الاسلام في الأندلس وإفريقية

قال رينو : وفي تلك الأيام أخذت قوة الاسلام البحرية تزداد وتنبسط في البحر المتوسط بسبب رغبة المسلمين بإنشاء الأساطيل في مراءى الأندلس وإفريقية . وقد كان لذلك تأثير عظيم في اجتياح المسلمين لجنوبي فرنسة . ولما اقتطع عبد الرحمن الداخل بلاد الأندلس عن خلافة بنى العباس وأرسل هؤلاء جيشاً في البحر ، أجاز إلى الأندلس لمطاردته ، علم عبد الرحمن بأنه لا بد له من قوة بحرية في وجه قوتهم البحرية

ففي سنة ٧٩٣ اتخذ عبد الرحمن الأول دور الصناعة^(١) في مراسى طرّة كونة وطرطوشة وقرطجنة واشبيلية والمرية وغيرها . وقبل ذلك كانت جزر الباليار - أي ميورقة ومينورقة ويابسة وجزيرتا سرديانية وكورسيكة - عرضة لغزوات المسلمين ، بحيث أن أهالي هذه الجزائر وضعوا أنفسهم تحت حماية شارلمان . وورد في مجموعة الدون بوكه أن هؤلاء كانوا تغلبوا على المسلمين في بعض الوقائع وأخذوا منهم بضع رايات ، فأرسلوا بها إليه . وعلى أثر ذلك ازداد غزو المسلمين لهذه الجزائر ، فكانوا يغادونها القتال ويروحونها ، ويسبون من أهلها النساء والأطفال ويقتلون المقاتلين

(١) سمي العرب العامل التي كانت تبنى فيها المراكب البحرية بدور الصناعة وربما قالوا الصناعة ومثى كتابهم على هذا الاصطلاح ، فترى مؤرخينا يقولون : كانت الصناعة في صور أو أسس الأمير فلان دار الصناعة في تونس أو كانت صناعة الأندلس بالمرية وما أشبه ذلك . وأخذ الإفرنج جملة « دار صناعة » فلفظوها « دارسنا » بحسب صعوبة إخراجهم لحرف العين كالملايحي ، ثم قلبوها إلى « آرسنا » وأضافوا إليها حرف اللام المستعمل عندهم في النسبة والمقامات الظرفية فصارت « آرسنال » ثم جاء الترك فحرفوا « دار صناعة » أو « دار صناعة » إلى « ترسانة » فقالوا عن دار الصناعة التي في خليج استانبول « ترسانة عامره »

ولم يكونوا يعفون إلا عن الشيوخ العاجزين والمرضى والمقعدين .
وسنة ٨٠٦ اكتسح المسلمون جزيرة كورسيكا^(١) وكان بين بن شارلمان ملكاً على ايطالية ، فأرسل أسطولاً لمطاردتهم ، فلما شعر المسلمون بدنو أسطول التضادى انسحبوا الى الورا ، فطمع فيهم آدمر Admer كونت جنوة وتعقبهم بأسطول فرجموا اليه وقتلوه وهزموا أسطولهم وأسروا ستين راهباً وباعوهم في الأندلس . وبلغ ذلك شارلمان ففكهم من الأسر بفضية أداها عنهم^(٢)

وسنة ٨٠٨ جاء قرصان من الأندلس ، فنزلوا بسردانية فاجتمع أهلها ودحروهم فنزلوا بكورسيكا (أو قرسقة) فصادمهم القائد بورشارد Burchard فحسروا ثلاثة عشر مركباً وانهزموا . ولكن المسلمين في السنة التالية جاؤا من افريقية ونزلوا في سردانية ، كما ان غزاة مسلمين آخرين جاءوا يوم عيد الفصح ونزلوا في كورسيكا وعاثوا فيها . وجاء في تاريخ كورسيكا لجاكوبى ان المسلمين خيموا في الجهة الشرقية من الجزيرة بين أطلال مدينة آليرية «Aleria» ولم يتمكن الفرنسيين من طردهم الا بشق الأفس ، ثم في سنة ٨١٣ رجعوا الى كورسيكا وأسروا وغنموا . وبينما هم راجعون أكن لهم كونت امبورياس Ampurias بقرب مدينة برينيان قوة بحرية غنمت منهم ثمانية مراكب كان فيها أكثر من خمسمائة أسير ، فالتقم المسلمون عن ذلك باجتياح سواحل نيقه Nice وبروفنس وسيفيتة فكشيا Civita - Vecchia

(١) أو قرسقة

(٢) وقرأت في مدينة جنوة في تاريخ جمهورية جنوة لمؤلفه فريدريشى دونافار أنه في سنة ٩٣٤ جاءت قوة بحرية إسلامية من افريقية فحسرت جنوة حصاراً شديداً ، لكن الجنويين تمكنوا من دفعها عنهم ، فرجعت أدراجها وأصابها ضرر من زوينة بحرية . ثم بعد سنتين من تلك الواقعة جاء أسطول إسلامي آخر وهاجم جنوة واشتد القتال فتغلب المسلمون ودخلوا البلدة وأصابوا مغانم كثيرة وأخذوا أسرى كثيرين ونقلوا . وكان أسطول جنوة في كورسيكا فلما جاء ورأى ما حصل بجنوة سار في أثر الأسطول الاسلامي فهزمه وفك الأسرى واسترجع الغنائم وصار الجنويون من ذلك الحين يحصنون بلدتهم

بقرب رومة (١)

ورأى الامبراطور شارلمان ان الخطر قد ازداد على بلاده ، وأن لا بد له من تدابير بالغة في الشدة لرد غارات المسلمين البحرية . وقد كانت امارة الأغالبة في افريقية تابعة للخلافة العباسية في بغداد ، فكان أمير القيروان مدة خلافة هارون الرشيد يتحامي سواحل مملكة شارلمان حرمة للعهد الذي كان بين هارون والامبراطور ، ولكن عندما مات الرشيد سنة ٨٠٩ وقعت الحرب بين ولديه الأمين والمأمون تفصى الأمير الأغلبى من ذلك العهد ، وصارت مراسي تونس وسوسة بؤرة قرصان تنبث منها الغارات البحرية . وقيل ان أمير صقلية كان يشكو إلى رسول قادم من عند الاغالبة عيث القرصان في سواحله ، فأجابه الرسول : نعم منذ مات أمير المؤمنين صار الذين كانوا عبيداً يريدون أن يكونوا أحراراً والذين كانوا أحراراً ولكنهم فقراء يريدون أن يكونوا أحراراً أغنياء .

وكان القرصان أكثر ما يتعرضون للسفن التي تتردد بالبضائع بين فرنسة وإيطاليا من جهة ، ومصر والشام واسيا الصغرى من أخرى . وكان قد انضم إلى قرصان المسلمين قرصان النورماندين وأخذوا جميعاً يعيثون في السواحل الجنوبية ، فأمر شارلمان ببناء الابراج والحصون في السواحل وعند مصاب الأنهار ، وأنشأ الأساطيل لدفع عوادي القرصان . وجميع هذه الروايات جاءت في مجموعة الدون بوكه

ولما طالت هذه المساجلات البحرية وتعب منها الفريقان داخل بعضهم بعضاً في

(١) الذي عرفته في رومة من روايات بعض أدباء الطليان والمطلعين منهم على التواريخ أنه يوجد على مسافة ١٠ كيلومتراً من رومة قرية يقال لها « سراسينشكو » Sarracinesco أصل أهلها من المسلمين كان سلفهم غزاة وقعوا إلى تلك الأرض وأحاط بهم الأهالي فقتلوا جانباً واستسلم لهم الباقي وتنصروا وعمرروا تلك القرية . ويقال إن سجنهم لا تزال تدل على أصلهم العربي وأن ما سلكهم ومشاربهم وصناعة الفناء عندهم تدل على عربيتهم . وحق هذا اليوم ترائى أترقب الفرصة لمشاهدة تلك القرية والتنقيب عن صفة ماسمته . وقيل لي انه يوجد في ولاية « غاليارى » Gagliari من سردانية قرى أصل سكانها من العرب وأنه يوجد آثار عريضة في « لوشيرة » بقرب نابلى . ولا يخفى أن الامبراطور فريديريك الثاني امبراطور ألمانيا وملك صقلية الذي عاش في أوائل القرن الثالث عشر المسيحى كان عنده جيش من العرب هم صعدة قوته وكان متقناً للغة العربية

عقد معاهدة سلم تأمن بها السفن البحرية غوائل متلصصة البحر . ففي سنة ٨١٠ انمقدت أول متاركة ، ثم تجددت بعد سنتين ، وجاء رسول من الأندلس يرجح انه يحيى بن حكم أمير الماء (١) في الأندلس قاصدا أكسلاشابل وعقد مهادنة مع شارلمان لثلاث سنوات . ولكن المسلمين تقضوها هذه المرة لأنهم سنة ٨١٣ نزلوا في جزيرة كورسيكة وتقدم عبد الرحمن ابن أمير قرطبة الى حدود فرنسا بجيشه . وفي تلك الواقعة قتل القديس آفانتين . « Saint Aventin » من أهالي بانيير دولوشون

Bagnères - De - Luchon في مقاطعة غارون العليا

ومات شارلمان سنة ٨١٤ وخلفه ابنه لويس الحليم ، وسار على أثره في السياسة ولكن في أيامه استفحلت غزوات المسلمين البحرية . وجرت لذلك العهد حادثة في قرطبة تفاقم بسببها هذا الأمر ، وذلك ان أهالي ربض قرطبة ثاروا على الحكم أميرهم فسار اليهم الحكم برجاله وحرسه وأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ونفى بقية السيف ، وكانوا زهاء خمسة عشر ألفا فاركبهم طبقا عن طبق وأجازهم البحر الى اسكندرية وهناك خاف عاديتهن والى الاسكندرية فأدى اليهم مبلغا من المال واركبهم الى جزيرة اقريطش التي يقال لها اليوم كريت (٢)

(١) نقل رينو ذلك عن مجموعة مؤرخي فرنسا وعن تاريخ كوندى وحق الآن لم أظفر بهذا الخبر في كتب العرب

(٢) جاء في فتح الطيب في ترجمة الحكم : وكانت له الوقعة الشهيرة مع أهل الربض من قرطبة لأنه في صدر ولايته كان قد انهك في لذاته فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثي صاحب مالك وأحد رواة الموطأ عنه ، وطالوت الفقيه وغيرهما ، ثاروا به وخاموه وبأبوا بعض قرابته وكانوا بالربض الغربي من قرطبة وكان محلهم متصلا بقصره ، فقاتلهم الحكم فغلبهم وافترقوا وهدم دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس من أرض المدونة وبالاسكندرية من أرض المشرق ، ونزل بها جمع منهم ، ثم ثاروا بها فزحف اليهم عبدالله بن طلحة صاحب مصر للمأمون بن الرشيد وغنهم وأجازهم الى جزيرة اقريطش فلم يزالوا بها الى أن ملكها الإفرنج من أيديهم بعد مدة . انتهى وقال كوندى عن هذه الواقعة : ان الحكم سار الى العصابة بنفسه برغم رجاؤه ابنه وكبار قواده أن لا يفاسر بنفسه وأوقع بالثائرين حتى امتلأت الشوارع بجثث القتلى ولكن الذين لبثوا داخل البيوت لم يصعبهم سوء . وقبض الحكم على ثلاثمائة من الثوار وصلبهم على النهر . ثم أمر بذلك

وفي سنة ٨١٦ توجه رسل من قبل الأمير عبد الرحمن بن الحكم الذي كان بدأ يباشر الاشغال في حياة أبيه ، وذلك الى مدينة كومبيين Compiègne حيث كان

حارة الرض كلها بعد أن أمر بنهبها ولكنه أمر بعدم التعرض للنساء . وما زال السيف عاهل في الثوار إلى اليوم الثالث فعفا عن بق منهم في الحياة بشرط أن يخرجوا من قرطبة مع عائلاتهم ، فرحل جانب من هؤلاء المساكين إلى طليطلة ، وأجاز نحو من ثمانية آلاف إلى برالعدوة حيث تقبلهم إدريس بن إدريس في فاس وبنوا حارة فيها هي مبدأ سكنى الأندلسيين بفاس . وسار منهم خمسة عشر ألفاً إلى الاسكندرية ودخلوا البلدة واستولوا عليها ، فأجأ عامل الخليفة المأمون على مصر إلى مصانعتهم وأدى لهم جانباً من المال على أن يذهبوا ويستعمروا إحدى جزر بحر يونان ، فاختاروا اقريطش ، وكان المأمون منها قليلاً فنزلوا بها وكان زعيمهم منذ برحوا قرطبة أبو حفص عمر بن شعيب فجعله أميراً عليهم ثم انضم اليهم كثير من المصريين والشاميين والعراقيين وأخذوا يغزون في البحر ويغنمون ثم كان بناؤهم مدينة « قنديا »

وروى المسيو شينييه Chenier ان الذي بنى قنديا هو أحد قواد الأمير عبدالله بن عبد الرحمن وكان اسمه « كندش » Gandax فانه بعد موت سيده فارق الأندلس خشية انتقام الحكم منه وقد ذكر كوندى رواية هذه الحادثة مثل الحميدى ومحمد بن هشام وغيرهما . وأما دوزى فقال ان عدد الذين نزلوا من الرضيين بالاسكندرية كان ١٥ ألفاً عدا النساء والأولاد . وكانت أمور مصر يومئذ مختلة فلم يقدر العامل على منعهم من النزول . واتفقوا أولاً مع قبيلة من عرب الضواحي إلى أن تمكنوا ، فالتفتوا مع هؤلاء العرب وهزمهم واستولوا على الاسكندرية . فأرسل الخليفة المأمون جيشاً فالتهم فقتلوه وبعثوا إلى سنة ٨٢٦ مسيحية إلا أن عمال الخليفة تغلبوا أخيراً عليهم فخرجوا إلى جزيرة اقريطش التي كان منها جانب تابعاً للقسطنطينية فاستولوا عليها وأسس قائدهم أبو حفص عمر البلوطى — من فحس البلوط — دولة استمرت في اقريطش (أو كريت) إلى سنة ٩٦١ اذ عاد الروم فافتتحوها الجزيرة اهـ

وجاء في الانسيكلوبيديا الاسلامية باللغة الافرنسية ان المسلمين احتلوا جزيرة اقريطش سنة ٦٧٣ مسيحية . ولكن المعلومات قليلة عن هذا الدور الأول من احتلالهم . ثم انه في سنة ٨٢٥ استول على هذه الجزيرة أبو حفص عمر بن شعيب البلوطى وذلك على أثر وثقة الرض في قرطبة واجلاء الحكم الأموى أهل الرض وبجيشهم إلى الاسكندرية ، فبعادوا إلى جزيرة اقريطش فافتتحوها كلها ماعدا أرض سماكيا ، وأرسل ملوك بيزنطية مراراً بالجيوش لطرد المسلمين من هناك فلم يتمكنوا من ذلك وبقيت هذه الامارة الاسلامية في كريت ١٣٥ سنة ثم بنى المسلمون عند رأس « شاراكس » عاصمة لهم سموها قانديا وصار هذا الاسم عاماً لاقريطش وسنة ٩٦١ جاء القائد البيزنطى نيقفور فوكاس وحاصر قانديا واستفتحها بعد حصار عدة

يقيم الامبراطور ، ثم ذهبوا الى اكسلا شابل حيث كان سينعقد مجلس شورى . وكان مراد رسل أمير الأندلس عقد متاركة ، وانعقدت ألا انها لم تطل . وفي سنة ٨٢٠

أشهر واستصفي الجزيرة وأخذ آخر امراء المسلمين على الجزيرة عبد العزيز أسيراً ، ومات في القسطنطينية ، ودخل في خدمة ملك الروم ابنه أنطاس وفارق الاسلام هذه الجزيرة اذ جلا المسلمون عنها ، ومن اختار البقاء تنصر

أما استيلاء الأتراك العثمانيين على كريت فبدأ سنة ١٦٤٥ وانتهى سنة ١٦٦٧ وبقيت للبنادقة بعض مدن فسقطت في أيدي الترك سنة ١٧١٥ هـ

وقال ياقوت في معجم البلدان : اقريطش يفتح الهمة وتكسر والقاف ساكنة والراء مكسورة وياء ساكنة وطاء مكسورة وشين معجمة اسم جزيرة في بحر المغرب يقابلها من بر افريقية لوبيا وهي جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى وينسب اليها جماعة من العلماء . قال أحمد بن يحيى بن جابر (يعني البلاذري) : غزا جنادة ابن أبي أمية الأزدي جزيرة ارواد في سنة ٥٤ في أيام معاوية ثم غزا اقريطش فلما كان في أيام الوليد فتح بعضها ثم اغلق . وغزاها حميد بن معيوف الهمداني في خلافة الرشيد ففتح بعضها . ثم غزاها في خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي المعروف بالاقريطشي فافتتح منها حصناً واحداً ونزله ثم لم يزل يفتح شيئاً بعد شيء حتى لم يبق فيها من الروم أجداً وخرب حصونهم وذلك في سنة ٢١٠ في أيام المأمون (هذه رواية البلاذري في « فتوح البلدان » عند ذكر فتح الجزائر البحرية)

وقال غير البلاذري : فتحت اقريطش في أول أيام المأمون ، وقيل فتحت بعد ٢٥٠ على يد عمر ابن شعيب المعروف بابن الغليظ ، وكان من أهل قرية بوطروح من عمل فحصى البلوط من الأندلس وتوارثها عقبه سنين كثيرة . وقال ابن يونس : كان أول من افتتحها شعيب بن عمر بن عيسى ، وكان سمع يونس بن عبد الأعلى وغيره بمصر ، ثم ندب لفتحها فسار اليها حتى افتتحها . وكانت من أعظم بلاد المسلمين نكاية على الروم الى أن أناخ عليها تغفور بن الفقاس الدمستق في خلافة المطيع ، وتملك أرمانوس بن قسطنطين في آخر جمادى الأولى سنة ٣٤٩ في اثنين وسبعين ألفاً منهم خمسة آلاف فارس ، ولم يزل محاصراً لها حتى فتحها عنوة بالجرب والجوع في نصف المحرم سنة ٣٥٠ فقتل ونهب وسبي ، وأخذ صاحبها عبدالعزيز بن شعيب من ولد أبي حفص عمر بن عيسى الأندلسي وأمواله وبني عمه ، وحمل ذلك كله الى القسطنطينية ، وقيل انه حمل الى القسطنطينية من أموالها وسبي أهلها نحواً من ثلاثمائة مركب وهدموا حجارة المدينة والقوفا في المينا الذي دخلت مراكبهم فيه ، لئلا يدخل فيه بدغم عدو ، وهي الى الآن بيد الإفرنج . ونسب اليها بعض الرواة منهم محمد بن عيسى أبو بكر الاقريطشي حدث بدمشق عن محمد بن قاسم المالكيني روى عنه عبد الله بن محمد النسائي المؤدب قاله ابو القاسم انتهى

سار اسطول إسلامي من تركونة وغزا جزيرة سرديانية بجاء أسطول مسيحي لأجل الدفاع عنها ، فغلب الأسطول الاسلامي وأغرق المسلمون ثمانية مراكب للمسيحيين وأحرقوا أيضاً مراكب كثيرة .

وقال ابن عميرة في بنية المنتس في تاريخ رجال الأندلس : عمر بن شعيب ، أبو حفص ، المعروف بالغليظ الباطلي من أعمال فحم البلوط المجاور لقرطبة ذكره أبو محمد بن حزم وقال : إنه كان من فل الرضيين وأنه الذي غزا اقريطش وافتتحها بعد الثلاثين ومائتين وتداولها بنوه بعده إلى أن كان آخرهم عبد العزيز بن شعيب الذي غنمها في أيامه أرمانوس بن قسطنطين ملك الروم سنة ٣٥٠ وكان أكثر المفتحين لها معه أهل الأندلس . هكذا قال . وذكره سعيد بن يونس فقال : شعيب بن عمر ابن عيسى أبو عمر صاحب جزيرة اقريطش كان تولى فتحها بعد سنة ٢٢٠ وقد كان كتب شعيب هذا بالبراق وكتب عن جده يونس بن عبد الأعلى وغيره بمصر أيضاً . هذا آخر كلام ابن يونس فقد اختلفا في اسمه أولاً فقال أحدهما عمر بن شعيب وقال الآخر شعيب بن عمر ، ووصفاه بالفتح ، ولولا ذلك لقلنا ان أحدهما ابن الآخر ويحتمل أن يكونا حضرا الفتح انتهى وجاء في صبح الأعشى أن عبيد الله بن أبي سرح أمير مصر كان افتتح اقريطش وبقيت بأيدي المسلمين حتى تغلب عليها النصارى في سنة ٣٤٥

وقال ابن حوقل : وكانت اقريطش وقبرس للمسلمين وأبناء المجاهدين ، فداخل أهلها من الحسد والنكد ما داخل أهل الثغور الجزرية والشامية وأهل ذلك البلد من الفسق والفساد والبهج والفساد والفيلة والسفاد فجعلوا عبرة للمعتبرين وموعظة للناظرين ، ولا يصلح الله عمل المسلمين ولا يضيع أجر المحسنين

وقال في محل آخر : وكان للمسلمين في بحر الروم غير جزيرة جلييلة وناحية مشهورة فاستولوا السدود عليها مثل قبرس واقريطش ، وكانتا جزيرتين كثيرتي الخير والمسير والتجارة والوارد منها والصادر عنها ، وكانوا يفتزون بلاد النصرانية ويتكئون فيها النكاية الظاهرة يوجهها لهم قريتهم من مطالبهم ومجاورتهم بمساكنهم فصعدت النصارى صيدها ووكدت وكدها إلى أن ملكتها جميعاً . وكانت قبرس على غير ما كانت عليه اقريطش من موافقة كانت بينهم وبين المسلمين فيها ، وذلك انها قسبان ، فكانت أصلاً للمسلمين وأصبحت للنصرانية ، وكان للمسلمين بها أمير وحاكم . وجزيرة اقريطش حرة مذ كانت . فتحت لم يكن للنصرانية فيها مدخل ولا مخرج الا على طريق الجهاد أو في حين الهدنة والسلمة يدخلونها على شرائط بينهم انتهى

ثم انه قد ذكر السمودي في مروج الذهب ان الخليفة المستعين بالله ألى احمد بن الحبيب الى اقريطش سنة ٢٤٨

وفي تلك السنة مات الحكم ، وتولى ابنه عبد الرحمن ، وكان الحكم موصوفاً بالقسوة جباراً وكان يلقب بأبي العاصي ومن هنا لقبه الافرنج بلفظة ابولاز Abulaz فلما مات الحكم جاء عمه عبد الله يطالب بالامارة كعادته ، وهو الذي كان داخل

ومما يتعلق بجزيرة اقريطش عبارة لابن جبير الأندلسي في كلامه على جزيرة صقلية فقد ذكر أنه صادف رجلاً مسلماً في مدينة اطرابونش كان قد تحول الى النصرانية وذكر أنه قد يعرض للمسلمين هناك من الفتنة في دينهم ومن أسباب النكال ما يدعوههم الى فراق الاسلام قال : فمنها قصة انفتحت في هذه السنين القريية لبعض فقهاء المدينة التي هي حضرة الطاغية ، ويعرف بابن زرعة ، ضغطته العمال بالمطالبة حتى أظهر فراق دين الاسلام والانغماس في دين النصرانية ومهر في حفظ الانجيل ومطالعة سير الروم وحفظ قوانين شريعتهم ، فمادى جملة الفيسيين الذين يستفتون في الأحكام النصرانية وربما طرأ حكم اسلامي فيستفتى أيضاً فيه لما سبق من معرفته بالأحكام الشرعية ، وكان له مسجد بازاء داره اعاده كنيسة نعوذ بالله . ومع ذلك فأعلمنا انه يكتم ايمانه فلعله داخل تحت الاستثناء في قوله تعالى (الا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان)

قال ابن جبير : ووصل هذه الأيام الى هذه البلدة زعيم أهل هذه الجزيرة من المسلمين القائد أبو القاسم بن حمود المعروف بابن الحجر ، وهذا الرجل من أهل بيت توارثوا السيادة كائناً عن كابر ، وهو مع ذلك من أهل العمل الصالح كثير الصنائع الأخروية من افتكاك الاسرى وبث الصدقات في الغرباء والمنقطعين من الحجاج فارتجت هذه المدينة لوصوله ، وكان في هذه المدة تحت هجران من هذا الطاغية ألزمه داره بمطالبة توجهت عليه من أعدائه افتروا عليه أحداث مزورة نسبوه فيها الى مخاطبة الموحدين أيدهم الله فسكادت تقضى عليه لولا حارس المدة وتوالت عليه مصادرات اغرمته نيفاً على الثلاثين ألف دينار مؤتمنة ولم يزل يتخلى عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن سلفه حتى بقى بدون مال ، فاتفق في هذه الأيام رضى الطاغية عنه وأمره اياه بالنفوذ لهم من أشغاله السلطانية . فنفذ لها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وصدرت عند وصوله الى هذه البلدة زغبة منه في الاجتماع بنا فاجتمعنا به فظهر لنا من باطن حاله وبواطن أحوال هذه الجزيرة ما يبكي العيون دماً . فمن ذلك أنه قال كنت أود لو اباع انا وأهل بيتي لعل البيع كان يخلصنا مما نحن فيه ويؤدي بنا الى الحصون في بلاد المسلمين . فتأمل حالاً يؤدي بهذا الرجل مع جلالة قدره الى ان يتنى مثل هذا التبنى مع كونه مثقلاً عيالا بنين وبنات ، فسألنا الله عز وجل له حسن التخليص مما هو فيه ولسائر المسلمين من أهل هذه الجزيرة وفارقناه باكياً مبكياً واستمال نفوسنا لعرف منزعه وخصوصيه شمائله وكنا أبصرنا له ولأخوته بالمدينة دياراً كأنها القصور المشيدة . وشأنهم بالجملة كبير . وكانت له أيام مقامه هنا أعمال جميلة مع فقراء الحجاج أصلحت أحوالهم ويسرت لهم الكراء والزاد والله ينفعهم بها ويحازيه الجزاء الأوفى

شارلمان لأجل أن يساعده على ابن أخيه . فلما جاء هذه المرة واهرج الأندلس وامرجها . اهتبل الفرنسييس الغرة ليزحفوا مجدداً الى كتلونية وآرغون فماتوا ودمروا وأحرقوا . وفي سنة ٨٢٠ اتهم بيره Bera أمير برشلونة من قبل فرنسة بمالأة المسلمين سرّاً ، وكان الواشى به أحد القوط ، وكان بيره نفسه قوطياً أيضاً ، وكان من عادة القوط أنه اذا تخاصم اثنان ولم يقدر احدهما أن يثبت دعواه بالبينة تبارزا بالسلاح فالملوب منهما يعد مذنباً . وفي ذلك اليوم كان الملوب « بيره » فقتر حينئذ أنه كان خائناً للفرنسييس . وفي ذلك الوقت ثار نصارى ناباراه على الفرنسييس من شدة عسفهم وظلمهم ، واتفقوا مع المسلمين ، وسلموهم مدينة بنبلونة ، فأرسل الامبراطور الكنت أزنار Asnar والكنت ابل Eble لأجل تسكين الثورة ، فانقض عليهما نصارى الجبال ونقفوهما . فأما أزنار فعمفوا عنه لأنه كان من اصل غشقونى أى من أقارب الاسبانيول

قال ابن جبير : ومن أعظم مامنى به أهل هذه الجزيرة ان الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجته أو تنضب المرأة على ابنتها فتلمق المفضوب عليه ألفة تؤديه الى التطارح في الكنيسة ، فيتنصر ويتصد ، فلا يجد الأب لابن سبيلا ولا الأم للبت سبيلا فتخيل حال من متى يمثل هذا فى أهله وولده يقطع صره متوقفاً لوقوع هذه الفتنة فيهم وأهل النظر في المواقب منهم يخافون أن يتفق على جعيمهم مااتفق على أهل جزيرة اقريطش في المدة السالفة فانه لم تزل بهم الملكة الطاغية بالاستبراج الصىء بعد الصىء حالا بعد حال حتى اضطروا الى التنصر عن آخرهم ، وفر منهم من قضى الله بنجاته . قال : ومن عظم هذا الرجل المجدى المذكور ، في نفوس النصارى ، أنهم يزعمون انه لو تنصر لما بقى في صقلية مسلم . قال : ومن أعجب ماشهدناه من أحوالهم التي تذيب القلوب رافة وجنانا ان احد أعيان هذه البلدة وجه ابنه الى أحد أصحابنا الحجاج راغباً في أن يقبل منه بنتا بكرا صغيرة السن قد راهقت الادراك فان رضينا تزوجها وان لم يرضها زوجها من يرضاه من أهل بلده . وذلك طبعاً في التخلص من هذه الفتنة ورغبة في الحصول في بلاد المسلمين ، وطال عجبنا من حال تؤدى الى السماح بمثل هذه الوديمة المعلقة واسلامها الى يد من يفرها واحتمال الصبر عنها ومكابدة الشوق اليها ، كما انا استغربنا حال الصبية ورضاها بفراق أهلها رغبة في الاسلام واستسكاناً بعروته الوثقى ، وكان استشارها الاب في ما هم به فقالت : ان أمسكتنى فانت مسؤول عني . انتهى باختصار . وقد اوردنا هذه الأمائيل ليعلم القارى كيفية تلاشى الاسلام من اقريطش وصقلية وغيرها من جزائر البحر المتوسط . وبعد ذلك من الأندلس ، وذلك بعد فقد المسلمين استقلالهم وسلطانهم السياسى ، والدين لا يمكن حفظه بلا دينا كما قلنا ذلك مراراً

فأطست بهم رجم القراية نحوه . وأما الكنت إبل فلكونه افرنسياً صريحاً أرسلوه الى الأمير في قرطبة . روى ذلك الدون بوكه

وفي سنة ٨٢٦ ثارت مدينة ماردة ، على عبد الرحمن ، فكتب اليهم لويس بن شارلمان الكتاب الآتى نصه :

«باسم ربنا الاله وباسم مخلصنا يسوع المسيح ، من لويس الامبراطور السعيد بالنعمة الالهية الى الاساقفة والشعب في ماردة . قد اتصل بنا ماتقاسونه من العذاب من جهة الملك عبد الرحمن الذى لا يزال يرهقكم عسراً متبعاً في ذلك طريقة ابيه أبولاز الذى كان يبتزكم أموالكم والذى كان جعل اصدقاءه أعداء وجعل الطائع عاصياً ، فالיום يريدون أن يحرموكم حريتكم وان يثقلوا كواهلكم بالضرائب وان يعسوا كرامتكم ويهينوكم . وقد علمنا انكم ايتم تحمل الاهانة ودفعتم عنكم ظلم ملوككم ووقفتم في وجه طمعهم وغدرهم . وقد جاءنا هذا الخبر من مصادر عدة ، فأينا ان نكتب هذا الكتاب لتعزيزتكم على ما أنتم فيه ولتحرىضكم على الثبات في خطتكم هذه . ولما كان هذا الملك البربرى عدواً لنا ، كما هو عدولكم ، فانتا حاضرون للاشتراك معكم في قتاله . ومرادنا في هذا الصيف بمون الله تعالى أن ترسل جيشاً يجتاز البيرانه ويكون حاضراً للعمل باشارتكم ، فان كان عبد الرحمن سيزحف اليكم فيكون جيشنا بالمرصاد له ، وترانا نعلمكم من الآن انكم ان كنتم تغلمون طاعة عبد الرحمن وتصيرون من رعايانا فنحن حاضرون ان نعيد اليكم حريتكم الأولى ، بدون مساس بها وبدون ان نطالبكم بأدنى مال تؤدونه لنا ، وانتم تختارون القانون الذى تريدون ان تسيروا عليه ، ونحن نعاملكم كأصدقاء يريدون أن يشتركوا في الدفاع عن سلطتنا ونسأل الله أن يسبغ عليكم أبواب العافية » انتهى

وفي ذلك الوقت عقد الامبراطور لويس ندوة عامة في اكسلاشابل ، حضرها ابنه يبين وسائر أمراء البلاد المجاورة لاسبانية ، وأعلن الامبراطور عزمه على غزو الأندلس للاخذ بالثار . وكان في اكسلاشابل قائد قوطى اسمه عيسون Aizon التجأ بزعمه الى الامبراطور ، فما شمروا به الاّ وقد انسلّ من هناك خفية ، وجاء وأثار

الأهالى فى كتلونىة وآراغون ، واستولى على مدينة أشونة Assuna واجتاح البلاد التى كانت تحت احتلال الفرنسىس ، وأرسل يستنجد أمير قرطبة ، ولما أبطأ عليه الامداد ذهب بنفسه الى قرطبة لأجل الاستعجال فى التبعة والنجدة فسرّح عبد الرحمن جيشاً بقيادة عبید الله أحد أبناء عمه ، وسار هذا الجيش ومعه عيسون ، وأغذوا السير ، بينما الجيش الفرنسى يسير بطيئاً ، فوصلوا الى برشاونة وجيرونة واجتاحوها ، وتقدموا الى سردانة وملأوا البلاد عيئاً وتدميراً كما جاء فى مجموعة بوكه . وكان أهالى ماردة قد أعلنوا الحرب على عبد الرحمن ، وانتظروا نجدة الفرنسىس لهم ، ولكن عبد الرحمن ضيق عليهم الحصار وجبرّهم أمر كؤوسه ثلاث سنوات حتى دخلوا فى طاعته صاغرين ورجعوا داخرين بعد أن كانوا فآخرين . وفى تلك الأيام ازداد عيث قرصان النرمنديين فى سواحل فرنسة والمانيّة وانسكاثرة واسبانية ، بينما قرصان افريقية والأندلس تجمل فى سواحل فرنسة وإيطالية غدوها ورواحها ، فعيل صبر بونيفاس امير كورسيكة وأرسل مراكب الى افريقية فاجتاحت ساحل قرطجنة للأخذ بالثار . وقدذكروا انه كان للمسلمين لذلك العهد بارجة متناهية فى الكبر يظنها الرأى من بعيد سورا عالياً سائراً فى البحر غزت مرة جزيرة اوى Oye فى بريطانيا عند مصب نهر لوار ولكن لم نعلم من آثارها شيئاً غير هذا

ولا يغنى ان هذه الوقائع كانت تتراكم كلها فى أيام الامبراطور لويس الحليم الذى كان هو بنفسه فائل الرأى ضعيف العزيمة سبيء الادارة فاقد الارادة ، قسم مملكته بين أولاده الثلاثة ، وسلم الى كل حصته ، ثم بدال له أن يعيد القسمة وأن يجعل نصيباً لولده الرابع ، فثار أولاده عليه وقتلوه وخلعوه ، ورجع الى العرش ، ولكن لم ترجع مهابته وامتلات أيامه بالفتوق والآفات بحيث أنه أصدر سنة ٨٢٨ منشوراً يقول فيه ان الجماعة والطاعون وسائر اصناف الآفات السماوية انقضت على شعوب سلطنتنا مما يدل على غضب الله تعالى من أعمالنا غير المستقيمة . ثم أمر الامبراطور بصيام عام واجتماع الاساقفة فى أربع حواضر ، منها مدينة طلويزة ، وذلك لأجل المذاكرة فى التدابير اللازمة لمعالجة هذه الحال

لما العلاقات التجارية، بين مملكة شرلان وبين مصر والشام ، فلم تنقطع في وقت من الأوقات. وفي سنة ٨٣١ تجددت المواصلات بين الخلافة العباسية والسلطنة الغربية ، وقد تقدم وفد من قبل الخليفة المأمون إلى فرنسا مؤلف من ثلاثة اثنان منهما مسلمان والثالث مسيحي . وجاءوا الى الامبراطور بهدايا منها منسوجات فاخرة ومنها افايوه عاطرة .

وكانت الحرب لا تزال مشتتة في جبال اليرانه ، بين جيوش أمير الأندلس وجيوش فرنسا ، فاجتاح الأمير عبيد الله ابن عم الأمير عبد الرحمن في سنة ٨٣٨ البلاد التي كانت تحتلها جيوش الفرنسيس ، كما ان هؤلاء اجتاحتوا من بلاد قشتالة ما كان تابعا لملوك قرطبة ، وسار أسطول للمسلمين من تركونة ومعه اسطول آخر من جزيرتي ميورقة ويااسة . وهاجم المسلمون مرسيلية وانزلوا العساكر في نواحيها واستولوا على ضواحيها وساقوا جميع الرجال حتى الرهبان اسرى . والمظنون انه في تلك الغزوة حصلت الحادثة المنسوبة الى القديسة اوزيبيا Gusebia رئيسة دير الراهبات في مرسيلية والأرمن راهبة اللائي كن في ذلك الدير ، وذلك انهن خشين من ان الغزاة يتجاوزون على اعراضهن ويلحقون بهن المرات فشوهن خلقه انفسهن بجمع انوفهن حتى يكن بآمن من تجاوز غزاة العرب

ومات الامبراطور لويس سنة ٨٤٠ فوق الخلف بين أولاده ، واغتتم المسلمون هذه الفرصة فدخلوا من مصب نهر الرون ، كما جاء في مجموعة مؤرخي فرنسا للدون بوكه ، وعاثوا في مدينة آرل ونواحيها . وفي الوقت نفسه أغار موسى أمير تطيلة في بلاد نابار وأوغل حتى بلغ أرض سردانة ، واكتسح تلك البلاد (١) وكانت في تلك الأيام قد ساءت الأحوال في فرنسا الى الدرجة القصوى بسبب

(١) أشار رينو الى هذا الخبر تفاعلا عن المقرئ . وقد راجعنا كلام المقرئ في النسخ ، فأرأينا يقول : انه في سنة سبع وعشرين ومائتين بعث عبد الرحمن العساكر الى أرض الفرنجة وانهتوا الى أرض برطانية وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تطيلة ولقيهم العدو فصرحت حتى هزم الله عدوه وكان لموسى في هذه الغزاة مقام محمود

الحروب الداخلية ، وأصبحت قد انتثر سلكها وتمطلت حلالها وتقاسم جنوبى فرنسا ثلاثة ملوك : الامبراطور لوطير Lothaire والملك شارل الأصلع والملك الشاب بين ابن بين الذى كان ملكاً على ا كيتانية . ثم ثار أمير اسمه فولكراد Folcrade على الامبراطور وسمى نفسه كنت آل وبروفنس . وقد بلغ حب الشقاق وفساد الأخلاق ان الكثيرين من سلالة شارل مارتل وبين القصير وشارلمان كانوا يستنجدون بالأعداء الأجانب بعضهم على بعض

ولم تكن ايطالية بأحسن حالا من فرنسا لأن المسلمين كانوا استولوا على جزيرة صقلية ، وكان اثنان من أمراء المسيحيين يتنازعان الامارة فى بلاد بينيفنتى بقرب نابولى ، فاستنجد كل منهما بالمسلمين الذين كانوا فى صقلية ، فدخل المسلمون الى الأرض الكبيرة واستولوا على قسم كبير منها (١) .

(١) جاء فى فوح البلدان للبلاذرى تحت عنوان « فتح جزائر فى البحر » ما يلى : قالوا : غزا معاوية بن حديج السكندى أيام معاوية بن أبى سفيان سقلية ، وكان أول من غزاها ، ولم تزل تغزى بعد ذلك فقد فتح آل الأغلب بن سالم الافريقى منها نيفاً وعشرين مدينة وهى فى أيدي المسلمين (أى فى القرن الثالث للهجرة) وفتح أحمد بن محمد ابن الأغلب منها فى خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله قسريانة وحصن غليانة . وقال الواقدي : سبى عبد الله بن قيس بن مخلد الدرق سقلية فأصاب أصنام ذهب وفضة مكللة بالجواهر فبعث بها إلى معاوية فوجه بها معاوية الى البصرة لتحمل إلى الهند فتباع هناك ليثمن بها . قالوا : وكان معاوية بن أبى سفيان يغزى برأ وبجرا فبعث جنادة ابن أمية الأزدي الى رودس وجنادة احد من روى عنه الحديث ولقى أبا بكر وعمر ومعاذ بن جبل ومات فى سنة ٨٠ ففتح رودس عنوة وكانت غيضة فى البحر وأمره معاوية فانزلها قوماً من المسلمين وكان ذلك فى سنة ٥٢

قالوا : ورودس من أخصب الجزائر وهى نحو من ستين ميلا فيها الزيتون والسكر والثمار والمياه العذبة . قال البلاذرى : وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي وغيره قالوا اقام المسلمون برودس سبع سنين فى حصن اتخذهم ، فلما مات معاوية كتب يزيد الى جنادة يأمره بهدم الحصن والقتل . وكان معاوية يعاقب بين الناس فيها وكان مجاهد بن جبر مقيماً بها يقرئ الناس القرآن . وفتح جنادة ابن أمية فى سنة ٥٤ أرواد وأسكنها معاوية المسلمين وكان ممن فتحها مجاهد وتبيع ابن امرأة كعب الاحبار وبها اقرأ مجاهد تبعا القرآن . ويقال انه اقرأه القرآن برودس . وارواد جزيرة بالقرب من القسطنطينية (ان جزيرة ارواد هى قبالة طرطوس بالقرب من طرابلس الشام فاما أن يكون وقع خطأ من البلاذري فى تعيين موقع أرواد واما أن يكون المقصود بارواد هذه جزيرة أخرى فى

وفي سنة ٨٤٦ جاء غزاة العرب الى رومة وصعدوا في نهر الطير ونهبوا كنائس

الارخبيل الرومي كان العرب يسمونها ارواد) وغزا جنادة اقريطش فلما كان زمن الوليد فتح بعضها ثم أغلق وغزاها حميد ابن معيوف الهمداني في خلافة الرشيد ففتح بعضها، ثم غزاها في خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي المعروف بالأقريطشي وافتتح منها حصناً واحداً ونزله ثم لم يزل يفتح شيئاً بعد شيء حتى لم يبق فيها من الروم أحد وأخرب حصونهم انتهى. وهذه الرواية قد تقدمت بحرفها

ثم قال البلاذري : وبالمغرب أرض تعرف بالارض الكبيرة وبينها وبين برقة مسيرة خمسة عشرين يوماً أو أقل من ذلك قليلاً أو أكثر قليلاً وبها مدينة على شاطئ البحر تدعى باره وكان أهلها نصارى وليس بروم غزاها نجيلة مولى الأغلب فلم يقدر عليها ثم غزاها خلقون البربري ويقال انه مولى لربيعه ففتحها في أول خلافة المتوكل على الله وقام بعده رجل يقال له المفرج بن سلام ففتح أربعة وعشرين حصناً واستولى عليها وكتب الى صاحب البريد بمصر يعلمه خبره وانه لا يرى لنفسه ومن معه من المسلمين صلاة الا بأن يعقله الامام على ناحيته ويؤليه اياها ليخرج من حد التفتلين وبني مسجداً جامعاً ، ثم ان أصحابه شغبوا عليه فقتلوه ، وقام بعده سوران فوجه رسوله الى أمير المؤمنين المتوكل على الله يسأله عقداً وكتاب ولاية ، فتوفي قبل أن ينصرف رسوله اليه ، وتوفي المنتصر بالله وكانت خلافته ستة أشهر ، وقام المستعين بالله أحمد بن محمد بن المعتصم بالله فأمر عامله على المغرب ، وهو أوتامش مولى أمير المؤمنين ، بأن يعقله على ناحيته فلم يشخص رسوله من سر من رأى حتى قتل أوتامش وولى الناحية وصيف مولى أمير المؤمنين ، ففقد له وأنفذه . انتهى .

قلت : إن الأرض الكبيرة هذه هي أرض ايطالية التي تقابل سقلية . ومدينة باره التي ذكرها البلاذري هي قاعدة مقاطعة اسمها باره وهي على بحر الادرياتيک والطليان يقولون لها بارى Bari . وجاء في تاريخ ابن الأثير في الجزء السابع في حوادث سنة ٢٢٨ ما ملخصه : ان الفضل بن جعفر الهمداني سار في البحر فنزل مرسى مسيني وبث السرايا فغنموا غنائم كثيرة واستأمن اليه أهل نابل وسنة ٢٢٩ خرج أبو الأغلب الجباس بن الفضل في سرية فبلغ مدينة « شره » فقاتله أهلها قتالاً شديداً ، ولكنهم انهزموا وقتل منهم ما يزيد على عشرة آلاف . وفي سنة ٢٣٢ ضيق الفضل ابن جعفر الهمداني على مدينة مسيني وأكمن لهم في بعض الوقائع ، فوقعوا في السكين ولم ينج منهم إلا القليل ، فسألوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وسلموا المدينة إلى المسلمين . وفي تلك السنة أقام المسلمون بمدينة طارنيط من أرض انكيودة وسكنوها سنة ٢٣٤ استولى المسلمون على مدينة راغوس وهدموها وأخذوا منها ما أمكن حمله وسنة ٢٣٥ غزا المسلمون مدينة قصر يانة .

وكان الأمير على سقلية محمد بن عبد الله بن أغلب وكان مقبياً بمدينة بلارم لا يخرج منها إلا للغزو وتوفي سنة ٢٣٦ وكانت إمارته تسع عشرة سنة . ثم ذكر ابن الأثير فتح قصر يانة بعد ذلك ، وقال

القديسين بطرس وبولس وغزوا أيضا جنوة وعطلو اسدود نهرها، فنفر الأهالي وقاتلوهم

انه سنة ٢٤٤ فتح المسلمون قصر يانة على يد العباس بن الفضل بن يعقوب الذي تولى اماره سقلية بعد محمد بن عبد الله بن الأغلب المتوفى سنة ٢٣٦ وان العباس هذا كان غزا نواحي قصر يانة ونهب وأحرق ليخرج إليه البطريق فلم يفعل ، وأنه سنة ٢٣٨ خرج العباس في جمع عظيم وأتى قطانية وسرقوسة ونويطس وراغوس فغنم من جميع هذه البلاد وفي سنة ٢٤٢ سار العباس في جيش كثيف ففتح حصوناً جمة ، وسنة ثلاث وأربعين نزل على القصر الجديد وحصره وما زال يضيق عليه حتى تسلمه وأنه في سنة ٢٤٤ أرسل جيشاً في البحر فلقبهم أربعون شلنديا للروم فاقتتلوا أشد قتال فانهزم الروم وأخذ منهم المسلمون عشرة شلنديات برجلها ثم غزا العباس قصر يانة ووقع في يده رجل من هناك دله على أماكن من سور المدينة دخل منها ووضع السيف في الروم ففتحوا الأبواب وتسلم البلدة وغنم منها ما يفوق الوصف وكان ملك القسطنطينية أرسل ثلاثمائة شلندى ملأى بالعساكر فوصلت إلى سرقوسة (سيراكوزا Syracusa) فخرج إليهم العباس وقاتلهم فهزمهم وغنم منهم مائة شلندى .

قال : وفي سنة ٢٤٦ نكث كثير من قلاع سقلية وهى سطرwabلة وابلطونو وقلعة عبد المؤمن وقلعة البلوط وقلعة أبي ثور فخرج العباس إليهم فاقتتل مع الروم فانهزم الروم ثم سار إلى قلعة عبد المؤمن وقلعة بابلطونو فحصرهما فجاءه الخبر بأن كثيراً من عساكر الروم قد وصلت فزحف إليهم ، فقتلوا بجفلودى ، وجرى بين الفريقين قتال شديد فانهزمت الروم وعادوا إلى سرقوسة . وسنة ٢٤٧ سار العباس إلى سرقوسة ، ثم إلى غيران قرقة ، فاعتل ذلك اليوم ، ومات بعد ثلاثة أيام ثالث جمادى الآخرة فدفن هناك فنبهه الروم وأحرقوا جسده وكانت ولايته إحدى عشرة سنة وأدام الجهاد شتاء وصيفاً وغزا أرض قلورية وانكبدة وأسكنها المسلمين انتهى .

قلت : ان مدينة طارنت التى مر ذكرها هى فى الأرض الكبيرة فى مقاطعة أوترانتة وان أرض قلورية التى يشير إليها ابن الأثير وانكبدة هما الآن كالبرة Calabria وقد جاء ذكرها فى معجم البلدان لياقوت قال : قلوزية بكسر أوله وتشديد اللام وفتحها وسكون ادواو وكسر الراء والياء مفتوحة خفيفة وهى جزيرة فى شرقى سقلية (العرب يسمون شبه الجزيرة جزيرة) وأهلها افرنج ولها مدن كثيرة وبلاد واسعة ينسب إليها فيما أحسب أبو العباس الفلورى روى عن أبي اسحاق الحضرمي وغيره وحدث عنه أبو داود فى سننه . ومن مدن هذه الجزيرة قبرة ثم بيش ثم تامل ثم ملف ثم سلورى . قال ابن حوقل : وهى جزيرة داخلية فى البحر مستطيلة أولها طرف جبل الحلاقة وبلادها التى على الساحل قسانة وستانة وقطروية وسبرسة واسلو حراحة وبطرقوقة وبوه . ثم بعد ذلك على الساحل جون البناديقين وفيه جزائر كثيرة مسكونة وأمم كالشاغرة والسنة مختلفة بين افرنجيين وألمانين وصقالبة وبرجان وغير ذلك . ثم أرض بلبواس واغلة فى البحر شكلها شكل قرعة مستطيلة

(قلت يريد بيلونس Pélouponése وهى شبه جزيرة المورة . وكان العرب يقولون لسكلانزة قلنزة أيضاً)

قال المسعودى فى مروج الذهب عند ذكرامة النويرد ويريد بهم اللومبرديين : ان المسلمين ممن جاؤهم كانوا غلبهم على مدن كثيرة من مدنهم مثل مدينة باره وطارينتو ثم قال : ان مدينة طارينتو ومدينة سيرين وغيرهما من مدنهم الكبار سكنها المسلمون مدة من الزمان ثم ان النويرد انابوا ورجعوا على من كان فى تلك المدن من المسلمين فأخرجوهم عنها بعد حرب طويل ، وما ذكرنا من المدن فى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة فى أيدي النويرد انتهى

ومن هذا كله يعرف أن المسلمين لم يقتصرؤا على فتح جزيرة صقلية ، بل تجاوزوها الى الأرض الكبيرة ولشوا فيها زمناً طويلاً إلى أيام فريديريك الثانى امبراطور المانية وملك صقلية الذى عاش فى أوائل القرن الثالث عشر للمسيح وكان قد اتخذ جيشاً من المسلمين وكان يعرف العربية معرفة جيدة انتهى وقال الاستاذ الشيخ محمد الحانجى البوسنوى من مدرسى العهد العلمى الحسروى فى مدينة سراى بوسنة فى مقدمة كتابه « الجواهر الأسنى فى تراجم علماء بوسنة » فتحت جزيرة صقلية بتمامها سنة ٢١٣ على يد قاضى الفيروان عالم زمانه أسد بن القرات صاحب المدونة الأسدية وكان رجلاً صالحاً فقيهاً أدرك مالك بن أنس ورحل اليه . فبقيت صقلية بأيدي المسلمين مدة واهتدى أهلها فصاروا مسلمين وبنوا بها الجوامع حتى أنه كان فى مدينة واحدة من مدنها وهى « بلم » نيف وثلاثمائة مسجد ، قال ابن حوقل : رأيت فى بعض الشوارع من بلم على مقدار رمية سهم عشرة مساجد . ودام ملك المسلمين لصقلية الى سنة ٤٦٤ وبعد زوال ملكهم منها بقى فيها الاسلام مدة مديدة . وقد ظهر من صقلية من أهل العلم عدد كثير تراجعهم موجودة . وكان الاسلام جاوز البحر من صقلية الى أرض قلورية من بلاد ايتاليا واستولى المسلمون على عدة بلاد منها كريبو وباره وطارنت وكانوا قرعوا أبواب رومية مقر البابا رئيس النصرانية . وبنى بمدينة « ريو » أبو الفنائم الحسن بن على ابن الحسين الكلبي مسجداً كبيراً فى وسطها وذلك سنة ٣٤٠ وكل هذه البلاد التى ذكرناها خلت بمرور الزمان من الاسلام والمسلمين وغفت فيها آثارهم واندرست معالمهم (وتلك الأيام نداؤها بين الناس) انتهى .

وقد مر ابن جبير الأندلسى بجزيرة صقلية وهو قافل من الحج سنة ٥٦٠ وكانت خرجت من ملك الاسلام ، ولكن كان المسلمون لا يزالون يسكنون فيها ، قال ابن جبير : خصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف وكفى بأنها ابنة الأندلس فى سعة العمارة وكثرة الخصب والرفه مشحونة بالأرزاق على اختلافها مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها ، لكنها معمورة بعبدة الصليبان يمشون فى منابها ويرتعون فى أكنافها والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم قد أحسنوا السيرة فى استعاملهم واصنطاعهم ضربوا عليهم اناوة فى فصلين من العام يؤدونها وحالوا بينهم وبين سعة فى الأرض كانوا يحدونها والله عز وجل يصلح أحوالهم ويجعل القبي الجميلة مألهم . قال : وليس فى مسينى إلا نفر يسير من

وحمل الرهبان والقسيسون السلاح^(١)

ولم تسكن الأندلس بأسعد حالا في تلك الأيام لأن الفتن كانت تصطلحها . والآفات تنيخ عليها بكل كلفها فانضم إلى الفتن المجاعة والقحط والجراد وغزو النور مننديين الذين

ذوى المهن وذلك ما يستوحش بها المسلم الغريب . وأحسن مدنها قاعدة ملكها والمسلمون يعرفونها بالمدينة والنصارى يعرفونها ببلرمة وفيها سكن الحضريين من المسلمين ولهم فيها المساجد وسائر المسلمين بضائعها وجميع قرانا وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها لكن المدينة الكبيرة التي هي مسكن ملكها غليام أكبرها وأحفلها .

وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين وكلهم أو أكثرهم متمسك بفريضة الاسلام وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله حتى ان الناظر في مطبخه رجل من المسلمين ، وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم . ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالحرية وعلامته على ما أعلمنا به أحد خدمته (الحمد لله حق حمده) وكانت علامة أبيه (الحمد لله شكراً لأنعمه) .

وأما جواريه وحظاياه في قصره فسلمات كلهن ومن أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور وهو يحيى ابن فتيان الطراز وهو يطرز بالذهب في طراز الملك أن الأفرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة تمعدها الجوارى المذكورات ، وأعلمنا أنه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجقة دعر لها هذا الشرك فكان يتطلع في قصره فلا يسمع إلا ذاكراً لله ولرسوله من نسائه وفتيانه وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته فكان يقول لهم ليذكركم كل أحد منكم مبعوده .

وأما فتياه الذين هم عيون دولته فهم مسلمون ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعاً ويتصدق تقرباً إلى الله ويفتك الأسرى ويرى الأصاغر منهم ويزوجهم وهذا كله صنع من الله عز وجل لمسلمي هذه الجزيرة لقينا منهم بمسينة فتى اسمه عبد المسيح من وجوههم بعد مقدمة رغبة منه إلينا في ذلك فاحتفل في كرامتنا وبرنا وأخرج إلينا عن سره المسكنون بعد مراقبة منه في مجلسه أزال لها كل من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه فسألنا عن مكة قدسها الله وعن مشاهداتها العظيمة وعن مشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام فأخبرنا وهو ينوب شوقاً وتحرقاً واستهدى منا بعض ما استصحبناه من الطرف المباركة من مكة والمدينة وقال لنا أنتم مدلون باظهار الاسلام فائزون بما قصدتم له ونحن كاتعون إيماننا خائفون على أنفسنا متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرّاً فغايثنا التبرك بقاء أمثالكم من الحجاج والاعتباط بما تتلقاه منهم من تحف تلك المشاهد المقدسة لتتخذها عدة للإيمان وذخيرة للأكفان فتعطرت قلوبنا له إشفافاً ودعونا له بحسن الخاتمة .

(١) جاء ذلك في مجموعة البولنديين ، وفي تاريخ مدينة نيس للسيو لويس دورنت ، وفي مخطوط لمؤلف اسمه أغيو فريدو ومحفوظ في مكتبة تورينو .

أخذوا ينزلون في أشبونة واشبيلية ويفسدون في أرضهما .

وفي سنة ٨٤٨ عاد المسلمون فغزوا مرسيلية وجميع الساحل الى جنوة ، كما جاء في مجموعة الدون بوكه ، وكان الملك يبين شاباً وكان في حرب مع عمه شارل الأصلع ، فطلب يبين مساعدة المسلمين له وأرسل إلى قرطبة غليوم كونت طلوزة حفيد البطل غليوم الذي اشتهر في حروب المسلمين وتلقب بالقديس ، كما سبق الكلام عليه ، فنال غليوم ما أراداه وأصبحوه بمساكر تمكن بها يبين من اخراج عمال شارل الأصلع من برشلونة ومن مدن أخرى من كتلونية . وكان قرصان المسلمين قد نزلوا في سواحل آرل ، واضطروا لمعاكسة الريح أن يتأخروا في الساحل ، فحمل الأهالي السلاح من كل جهة وذبحوهم . ولكن في تلك المدة زحف جيش من المسلمين يقوده موسى عامل سرقسطة وتقدم من جهة اورجل Urgel وريباغورسة Ribagorsa ولم يزل يشحن في أرض الفرنسيس ويقتل ويسبي الى ان اضطر الملك شارل الأصلع أن يطلب من المسلمين الصلح ولم ينله الا بتقديم هدايا ثمينة كما جاء في مجموعة الدون بوكه

وفي سنة ٨٥٠ وقعت نكبة على مسيحيي الأندلس ، وحصلت حوادث في قرطبة وصل خبرها الى فرنسا . وتحرير الخبر أن الشرع الاسلامي يطلق لأهل الذمة الحرية الدينية ولا يجبرهم الا على اداء الجزية ، ولكن اذا تزوج مسلم بمسيحية فالأولاد يجب أن ينشأوا على دين الأب ، كذلك اذا أسلم مسيحي أو مسيحية فأولاده معدودون من المسلمين اذا كانوا قاصرين ، فاذا بلغوا سن الرشد وأرادوا الرجوع عن الاسلام فلا يحق لهم ، وكذلك اذا قذف أحد المسيحيين نبي الاسلام فليس أمامه سوى الاسلام أو الموت

وقد كان الزواج المختلط كثير الوقوع في الأندلس ، فطالما تزوج مسلمون بمسيحيات وقد كانت المرأة المسيحية المتزوجة بمسلم كثيراً ما تلقن بناتها قواعد النصرانية فيحصل بسبب ذلك نزاع شديد في العائلات . وفي ذلك الوقت كان في قرطبة قسيس متضلع في اللغة العربية اسمه بهارفكتس ، وكان قد شاع ان بهارفكتس في إحدى المرات تلفظ بالشهادتين وأسلم ، فصادفه بعد ذلك أناس من المسلمين وسألوه عن رأيه في نبي الاسلام

(صلى الله عليه وسلم) فامتنع أولاً عن الجواب فألحوا عليه في تبين رأيه ، فأجاب بجواب نال فيه من الرسول . وقيل ان المسلمين ذلك اليوم لم يتعرضوا له بسوء ، ولكنه بينما كان ماراً فيما بعد في أحد الشوارع جاء أحد المسلمين واغرى العامة بالهجوم على القسيس قائلين لهم : إن هذا هو الذى قذف بالنبي . فهجمت العامة عليه ، وذهبوا به إلى القاضى ، فسأله عما عزى اليه من القذف ، فلم ينكر كلامه ، بل أيده امام القاضى فاضطر القاضى أن يحكم عليه بالقتل ، وكان ذلك في شهر رمضان فلم ينفذ فيه الحكم إلى أن انسلخ الشهر وجاء العيد فقطعوا رأسه بمحضر من جم لا يحصى من الأهالى (١).

فكان لهذه الحادثة صدى بعيد وثارت من أجلها الخواطر ، وكان المسيحيون كثيرى العدد في الأندلس وفي نفس قرطبة مركز السلطنة وكان المسلمون تركوا لهم كثير من كنائسهم وأديارهم ، وكانت لهم أديار للرهبان وأخرى للراهبات ، وكان من المسيحيين كثير من المستخدمين في القصر الملكي لاسيما ان القصر كان يحتوى عدداً عظيماً من الصقالبة . فكثرت من أجل ذلك المنازعات الدينية وصارت تتقدم الشكايات على بعض المسيحيين بأنهم قذفوا بالرسول فيؤتى بهم إلى القاضى فيسألهم فلا ينكرون فيحكم القاضى عليهم بالقتل ، ولأجل أن لا يأخذ المسيحيون أجسادهم ويحنطوها ذخائر كان الحكم يحرقون أجساد المحكوم عليهم بالقتل ويرمون رمادها في النهر وقيل انهم كانوا يطرحون بعضها للكلاب

وقد كان تأثير هذه الشدة بمكس ما أمل رجال الحكم فانه وجد من المسيحيين من كان يتهافت على القذف بالرسول (صلى الله عليه وسلم) ليقتلوه ويصير شهيداً . وقتل بهذا الشكل أناس كثيرون ومن جملتهم رجل اسمه « سانشو » من فرنسة كان مستخدماً في القصر ، وإثنان من الخصيان في القصر أيضا ، وأكثر من تهافت على القذف بالرسول لنيل الشهادة المتحمسات من النساء المسيحيات (٢).

(١) ان الكنيسة جمعت بهارفكتس هذا قديساً وله عيد كل سنة في ١٨ ابريل .
(٢) سنذكر هذه الحوادث ونستوفى هذا الموضوع في الأجزاء التالية إذ ليس له تعلق بما نحن بصدده الآن ، وإنما ذكرنا ما قاله رينو بطريق الاستطراد لأن فيه شيئاً ما يتعلق بملك فرنسة في علاقاته مع ملك الأندلس .

وأخيراً عقد اساقفة المسيحيين مجماً قرزوا فيه ان التحرش بهذا الموضوع أى القذف بنبي الاسلام عمداً ، جبا بالقتل ونيل الشهادة ، هو مخالف لروح الانجيل . ثم ان الملك شارل الأصلع تدخل فى هذه المسألة ، بناء على التماس المسيحيين منه ، لأنه قد أصابهم فى البلدان الشمالية من إسبانية ما أصابهم فى قرطبة

ولما تفاقم هذا الأمر اشتد غضب عبد الرحمن الثانى على المسيحيين ، وطرد من قصره جميع الذين كانوا مستخدمين فيه منهم . ثم مات عبد الرحمن سنة ٨٥٨ وخلفه ابنه محمد ، وفى أول أمره شدد أيضاً فى معاملة المسيحيين حتى فكر فى اخراجهم جميعاً من مملكته ، ولكنه عاد فعدل عن فكره بسبب توالى الثورات وعدم مؤاناة الوقت له . وكانت الحرب لا تزال مشتعلة فى كتلونية ، وكان موسى أمير سرقسطة قد ظفر بالمسيحيين فى بعض الوقائع إلا أنه انكسر فى آخر الأمر وتغلب عليه ملك اشتورية فمزله الأمير محمد من إمارة سرقسطة ، فاستشاط غضباً وأحجاز الى المسيحيين ، وزوج ابنته بغرسية ملك ناباره ، وثار فى أثناء ذلك مدينة طليطلة

ثم ان المسلمين غزوا أيضاً جزيرتى سردينية وكورسيكة ، واشتدت الفوضى وانتشر الجبل فى بلاد فرنسة ، فكنت ترى الكنائس مهدمة والمدن خراباً واللصوص اسراباً والناس يتركون ديارهم ويضربون فى الأرض طلباً للامان ، ومنهم من فضل الموت على ترك أرضه ، ومن الأهالى من كان ينضم الى الغزاة طمعاً فى السلب .

وبينا الحال هكذا فى فرنسة لم تكن الاندلس بأسعد منها ، إذ ثار فيها رجل يقال له عمر بن حفصون - كان مسيحياً فأظهر الاسلام - واعترض حوله جيش من اللصوص وقطاع الطرق ، فجاز على الأمير محمد وجاذبه الجبل وضارت الاندلس فى أمر مريع ، واضطر الأمير الى مسألة ملك فرنسة شارل الأصلع ليتفرغ لأمير ابن حفصون ، وجاءت رسل شارل الى قرطبة وكان ذلك سنة ٨٦٦ وتقرر ان تبقى كتلونية بيد الفرنسيين ، وعاد رسل شارل بهدايا ثمينة من قرطبة ومعهم ابل بجدايج مزينة . وهكذا تقضى حوادث الزمن على الملوك بمصافاة ذوى الشجاعة ومهاداة الأعداء وفى سنة ٨٦٩ جاء غزاة العرب فنزلوا فى بروفانس فى مجل يقال له كامبرغ

Camargua وهو جزيرة مشكلة من نهر الرون ، وفيها أملاك للمطران رولان رئيس اساقفة آرل . فلما نزل المسلمون في هذه الجزيرة صادفوا المطران هناك يتعهد مزارعه فقبضوا عليه وقتلوا ثلاثمائة من رجاله وساقوه الى أحد مراكبهم ، فجاء المسيحيون لأجل ان يفكوه بفدية ، فطلب المسلمون به مئة وخمسين ذهباً و ١٥٠ ثوباً و ١٥٠ سيفاً و ١٥٠ عبداً ، فرضى المسيحيون بتقديم هذه الفدية ، فجمعوها وقدموها لأجل انقاذ المطران ، وكان هذا في أثناء جمعها قد فارق الحياة بما أصابه من الرعب فكتم المسلمون موته حتى يقبضوا المال . ولما تسلموا جميع الأشياء التي اشتروها أخرجوا جثة المطران إلى البر ، وألبسوها الثياب التي كانت عليه عند ما كان حياً ، وانصرفوا وكان المسيحيون قد جاءوا جمعاً عظيماً لتهنئة المطران بالخلص ، فلم يجدوا سوى جثة هامدة ، وتحول فرحهم مأتماً .

ومات شارل الأصغر سنة ٨٧٦ وكان ناوياً أن يذهب بجيش الى ايطالية التي كان المسلمون قد استولوا على نواحيها الجنوبية وأصبح بسبب ذلك البيا في رومة تحت الخطر . وبرغم توالي غزوات المسلمين والرمنديين كان الشقاق بين أمراء فرنسة لا يزال قائماً قاعداً ، حتى نهكت قوى البلاد بأجمعها ، ولم يبق إلا أمل ضعيف يسكن بحاشتها . وبلغ اختلاف الكلمة وتشظى العصا أقصى ما يتصور العقل

القسم الثالث

نزول العرب في بروفانس وغاراتهم من هناك

على سافراى وببيموننت وسويسرة

الى دور اجلاتهم عن فرنسا

قال رينو : ان الدور الأخير الذى سنتكلم عنه يشابه الدور الذى تقدمه فى شدة المهاجمات وفى آثار السلب والغيث ، جد المشابهة . وانما الفرق هو فى كبر الحوادث السابقة لم تصب الا سواحل فرنسا خاصة ، على حين أن الحوادث التى نحن بسبيلها الآن ستمتد إلى بلاد دوفيني ، إلى حدود ألمانيا ، وان الحوادث السابقة كانت عبور سبيل ، على حين أن هذه كانت راجعة إلى مركز ثابت مستقر ، وكانت تُنذر بأن تستمر

وقد بدأ هذا الدور فى سنة ٨٨٩ إذ كان متولياً على بروفنس ودوفيني رجل يقال له بوزون Boson وقد سنى نفسه ملك أرل . ولما كان بوزون المذكور غير منتسب إلى بيت شارلمان الامبراطورى نقلت امارته على الناس ، وشملهم القنوط ، فكان السكان والزمان مساعدين على نزول غزاة العرب فى تلك الديار

واليك تحرير خبر نزولهم واستقرارهم فى بروفنس بحسب تاريخ ليوتبراند Liutprand فى مجموعة موراتورى وبحسب تاريخ دير نوفاليز Novalesه وبحسب مجموعة الدون بوكه وتاريخ بروفنس تأليف بوش Bouche قالوا :

ان عشرين ملاحاً عربياً ركبوا مركباً خفيف القلع من سواحل اسبانية ، قاصدين سواحل بروفنس ، فأخذتهم الريح العاصفة وألقت بهم فى خليج غريماد Grimad الذى يقال له أيضاً خليج سانتروينز Sant-Tropes فصعدوا الى البر ، لم يصرم أحد ، وكان حول هذا الخليج أجة أشبه ببلغ من اشتباك سرحها أن الانسان لم يكن يجرؤ أن يدخل فيها . وإلى الشمال من الخليج كانت سلسلة جبال ، بعضها أعلى من

بعض ، فاذا وصل الانسان إلى قمتها أشرف على بقسم كبير من بروفنس السفلى .
فأغار العرب على أقرب قرية من البحر وذبحوا أهلها ، وأخذوا يرودون في الجوار .
ولما وصلوا إلى القمم التي كانت تشرف من جهة على البحر وتناوح من جهة أخرى
جبال الألب ، فهموا حالا ملائمة هذا المكان لاستقرارهم فيه ، بصورة دائمة ، فبالبحر
كان لهم باباً لتلقى الامدادات التي قد يحتاجون إليها في بعض الأحيان ، والبر كان لهم
منفذاً إلى النواحي التي يرومون الغارة عليها ، والغابة المشتبكة التي ذكرناها تصلح
لهم معقلاً يلجأون إليه عند الاضطراب .

فلم يظأ هؤلاء القرصان تلك الأرض حتى أرسلوا إلى اسبانية وافريقية ، يستمدون
من إخوانهم الانضمام إليهم ، وبدأوا هم بالعمل في مكانهم . فما مضت عدة سنوات حتى
امتلات تلك الأرض بالحصون والمعازل . وكان أهم تلك الحصون المسمى فركسيناتوم^(١)

(١) اختلف المؤرخون في موقع فركسيناتوم التي شغلها المسلمون مدة طويلة ، فمؤرخو الفرنسيين
يضعون فركسيناتوم في خليج سانترويز Saint-Tropez وهو مكان فيه معبر بين فرنسا وإيطاليا
ويقربه جبل يقال له جبل المورو . ومؤرخو الطليان يخالفونهم في تعيين هذا الموقع ، فالمؤرخ بونينو
Bonino يضع فركسيناتوم في بروفنس بقرب آرل وهناك مؤرخ آخر اسمه مونبريزيو Monbrizio
يضع فركسيناتوم وراء جبال الألب البحرية . ومنهم من جعل هذا المكان بقرب آرل وقالوا ان
العرب نزلوا هناك وفي فريجيوس وأنطيب (التي جعلها العرب عين الطيب) وامتدوا إلى قصر نيسة
(التي يقول لها العرب نيقة والفرنسيين يسمونها نيس) إلى مدينة سانريمو التي قرأت في دليلها منذ بضع
سنوات ان العرب احتلوها . ومن هناك امتدوا الى مدينة البينغة Albenga .

هذه كانت رحلتهم الأولى . وأما الثانية فهي أنهم ذهبوا من انبرون إلى جيوفني ديمورتانة
Jiovanni Di Mortana ومنها تقدموا الى الداخل ونهبوا وأحرقوا دير نوفاليز Novalesa
ودير سامعوريس في فاليزية .

والمؤرخون الطليان الذين تكلموا عن نزول العرب في تلك السواحل هم : بينغوني Pingone
و دي بيني Debene ودلا شيزا Dellachiesa ودورندي Durandi وسيغبرتو Sigeberto
يقولون في أصل مجيء المسلمين إلى هناك انه سنة ٨٩١ جاء قرصان من اسبانية فسأنتهم زويدة إلى
سواحل بروفنس فنزلوا الى البر ووجدوا غابة اسمها فراسينيتو وهو اسم مشتق من أسماء النباتات

Fraxinetum الذي يشتق من اسم شجر الدردار الكثير في تلك الجهات . والمنظون أن فركسيناتوم كانت في القرية الحاضرة التي يقال لها غارد فرينه Garde-Frainet الواقعة

الغالب على تلك الأرض ، ثم قاموا هناك وتحصنوا في جبل تسمى باسمهم فيقال له اليوم جبل «مورو» ثم التحق بهم آخرون وتكاثروا وصاروا قوة مذكورة وصار أمراء البلاد يستعينون بهم في قتال بعضهم بعضاً ، وانتشر المسلمون في السفواى ودالقينيو وواليزيا وليغورية الى جنوة . ومن حكم الطليان الذين دعوا المسلمين لمساعدتهم ووعدهم بالمغانم لمبرتوديسنو ليتو وادالبرتو مركز طوسكانة . اضلعت على ذلك في خزانة كتب عمومية بمدينة جنوة .

ومن أغرب الأمور أن جميع المؤرخين تكلموا عن نزول العرب في فركسينيت عدا مؤرخي العرب أنفسهم ، فتوجد عن هذه الحادثة تواريف بالأفرنسية والألمانية والإيطالية ولكنه لا يوجد تقريباً شيء بالعربية وإنما جاء في المسالك والممالك لأبي القاسم بن حوقل الذي كتب رحلته على أثر سفره من بغداد سنة ٣٣١ للهجرة وذلك قوله : وجبل القلال جبل قديم على مر الزمان فيه مياه وأراض وعمارة وحرث يقوت من نجا إليه فوقع إليه قوم من المسلمين فعبروه ، وصاروا في وجوه الأفرنجية لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم ومقداره في الطول نحو ميلين .

ذكر ابن حوقل هذا في كلامه على بحر الروم . وذكر في محل آخر جزيرة ميورقة وقال . وميورقة جزيرة لصاحب الأندلس وكذلك جبل القلال يضاف إلى ذلك العمل .

وورد ذكر جبل القلال في معجم البلدان لياقوت أثناء كلامه على انكبدرة قال : بلاد واسعة من بلاد الافرنج بين القسطنطينية والاندلس تأخذ على طرف بحر الخليج من محاذة جبل القلال ، وتمر على محاذة ساحل المغرب مشرقاً إلى أن تتصل ببلاد قلورية .

قلت : معنى بها بلاد إيطاليا اليوم التي تبتدىء من محاذة جبال الألب وتنتهى بشبه جزيرة كلابرة وفي صبح الأعشى يقول : قلورية قلا عن تقويم البلدان قال : ويقال لها قلورية بإبدال الفاء واوا قلت : وكنت أفكر أن جبل القلال هذا بالأوصاف التي وصفه بها ابن حوقل وياقوت لا تنطبق إلا على الجبل المشرف في سواحل فرنسا على حدود إيطاليا ولكني لم أكن أرى أرضى بمجرد التخمين وكنت أود لو وقفت على كلام مستشرق الافرنج في هذا الموضوع وكنت تحدث في هذه المسألة مع الشاب الأجل الفاضل المدقق السيد محمد القاسي من آل الجداقهرين بفاس ومن جالية الأندلس ، وتقدمت إليه في أن يبحث لي في المكتبة الوطنية في باريس لعله يهتدى إلى نص أو نصوص تكشف لنا الغامض وتقدر أن نعين بها ما يريده كتاب العرب بقولهم جبل القلال فأجابني حفظه الله بالكتاب الآتي نصه بتاريخ ٩ ذي الحجة سنة ١٣٥٠ قال : أخذت كتاب الخزنة العربية الصقلية تأليف آمري Amai وهي كما لا يخفى مجموعة نصوص تتعلق بصقلية متقولة عما يقرب من مئة كتاب عربي فوجدته ينقل كلام بن حوقل الوارد في جبل القلال فأخذت ترجمة الخزنة الصقلية إلى الإيطالية وهي

في ذيل الجبل إلى جهة الألب . ومما لاجدال فيه أن مركز هذه القرية كان بغاية الأهمية ، لأنها الطريق الوحيد من الخليج إلى الشمال ، وإلى الآن يجد الناس في أعلى

مقيدة جدا بالتعاليق التي جعلها عليها آماري ويوجد فيها طبعتان كلتاهما في سنة ١٨٨٠ واحدة في جزئين من الحجم الصغير والأخرى في جزء واحد من الحجم الكبير وجبل القلال ورد في الصفحة السابعة من الطبعة الكبيرة أما في الترجمة فان آماري اكتفى بكتابة جبل القلال بالحروف اللاتينية وجعل بين هالين ترجمة للفظه قلال بمعنى رؤوس الجبال جمع قلة وذكرها بالأفرنسية هكذا Gimes وجعل على هذا تعليقا مضبونه تلخيص كلام المستشرق رينو الذي سأقله لك بالحرف ، وأحل عليه : نشر المستشرق جوين بول كتاب مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع في ثلاثة أجزاء مع أجزاء ثلاثة أخرى للتعاليق باللاتينية وقد ورد فيه جبل القلال في صفحة ٢٣٩ من الجزء الأول رعلق جوين بول في صفحة ٢٥ من الجزء الخامس قائلا انه كتب إلى رينو الشهير في هذا الباب فأجابه بما يلي سماحه بنشره . وقد نقل لي ولدنا السيد محمد الفاسي كتابة رينو بنصها الافرنسي فأكثرت ترجمتها بالعربي وهي هذه :

« في تأليف نشرته سنة ألف وثمانمائة وستة وثلاثين تحت عنوان غارة العرب على قرنة ومن قرنة على سفواى وييمونت وسويسرة في القرون الثامن والتاسع والعاشر من التاريخ المسيحى قد ذكرت انه في سنة ٨٨٩ دخل بعض قرصان من الأندلس في أرض قرنة في خليج غريمونو الذي يقال له سانترويز وأنشأوا لأنفسهم في آخر الخليج على قلة جبل معقلا هائلا وهذا المعقل يسميه المعاصرون لذلك الوقت فركسيناتوم والآن تسمى القرية المبنية على سفح الجبل غاردفرينه Gadre Frainet والغابة التي تحيط بالجبل اسمها الآن غابة الموراى العرب . كلما استقر هؤلاء القرصان في ذلك الموقع المتناهى في الناعة استدعوا اليهم أفاقين آخرين جاءهم من سواحل الأندلس وافريقية ثم انضم اليهم بعض الجياع من أهل البلاد . وساعدتهم الفوضى التي كانت مضاربة أطنايها فيها فتقدموا في البلاد وقطعوا جبال الالب وانتشروا في السفواى وشمالى ايطالية وسويسرة . وعندما نشرت هذا الكتاب لم تكن النسخة المخطوطة من كتاب الاصطخرى قد نشرت وكنت أظن أن وجود هذا المعقل الاسلامى في قلب النصرانية كان لم يزل مجهولا عند كتاب المسلمين في الاندلس وافريقية وآسية فأما الآن فقد تحقق عندى ان الاصطخرى وابن حوقل قد سمعا في أثناء اسفارهما بخبر فركسيناتوم من سواحل بروفنس وان كلا منهما لم يهمل ذكر ذلك في كتابه

وأعظم من هذا ان خبر هذا المعقل الاسلامى في قلب اوروبا وصل الى أقاصى بلاد العجم

فالاصطخرى في صفحة ٣٩ من طبعة كتابه المخطوط يذكر بعض الجزائر مثل صقلية واقريطش وقبرص ثم يذكر جبل القلال ، فقد يظن القارىء أن مراده به احدى الجزر التي

الجبل آثار خراب وبقايا عمران : جدراناً متهدمة ، وبنياً منحتوتاً في الصخر وبثراً
منحتوتة في الصخر أيضاً

يحيط بها البحر وفي الاطلس الذي تحت نمرة ١١ مذكور هذا الجبل وموضوع في وسط البحر
الى الغرب من صيقيلية يقابله المهدية وتونس من جهة وطرطوشة من الاخرى وكذلك الحال في
الحارطة التي تحت نمرة ٥ ولا فرق بينهما سوى ان الجبل في الحارطة الثانية موضوع على مسافة
أبعد الى الغرب على علو مائة والجزائر ومن المعلوم أن الحرائط الملحقة بكتاب الاصطخرى هي
ناقصة جداً وفيها خطأ كثير نظير الاطلس العربية على وجه الاجمال

ولا يجوز أن ننسى أن اسم جزيرة وشبه جزيرة هو واحد عند العرب كما عند اليونان وترى
الاصطخرى يقول عن جبل الفلال ما يطابق موقع فركسيناتوم واليك كلامه : وأما جبل الفلال فانه
كان جبلاً خراباً وفيه ماء وأرض فوق اليه قوم من المسلمين فعمروه وبنوا في وجوه الافرنجة
لا يقهر عليهم لامتناع مواضعهم ومقداره في الطول يومان . ثم أتى على ترجمة هذا الفصل بالفارسية :
جبل الفلال كوهى بوده است خراب ودر انجا اب وزمين بسيار قوى از مسلمانان انجا مقام
گرفتند وآبادان كردند وفتر فرك است وفرك برايشان دست نيايدودرازي اين كوه دوروزه
راه باشد

ومن عادة ابن حوقل في رحلته أن يعلق بعض المشرح على كلام الاصطخرى الا أنه في هذا المقام
كانت عبارته مختصرة جداً والملاحظة المهمة التي يلاحظها القارىء في كلامه ان جبل الفلال هذا
تابع للأندلس وذلك ان علماء العرب يطلقون لفظة الأندلس على جميع بلدان الجنوب الغربى من
اورية التي دخلت في طاعة المسلمين (انظر الى ترجمتنا للجغرافية أبى الفداء صفحة ٢٣٤ وصفحة
٣٠٨) وهكذا كانت بلاد بروفس في القرن الثامن وفيما بعده في القرن الذى نحن الآن بسدده
معدودة من الأندلس

وهكذا أمكنهم أن يجعلوا جبل الفلال من الأندلس وفيه كان المسلمون واقفين في وجه الافرنج .
فالمكان الذى وصفوه لا ينطبق الا على فركسيناتوم اذ لو أردنا أن نقول ان ابن حوقل والاصطخرى
أرادا بجبل الفلال جزيرة صغيرة غفلا من الاسم واقعة بازاء سواحل تونس أو سواحل طرابلس
لكان الوصف الذى وصفه هذان الرحالة لهذا المكان خالياً من كل معنى (ثم ذكر رينو كلام
ابن حوقل بنصه)

بقى علينا أن نفسر كلمة فلال التى أضيف لها ذلك الجبل فهذه اللفظة تحتل تأويلات مختلفة فى
الاطلس التى وجدناها فى مخطوط الخزانة الامبراطورية الحاوى للرواية الفارسية من كتاب
الاصطخرى نجد لهذا الجبل شكلاً هرمياً وأما فى الاطلس التى فى المخطوط العربى فالتا نجد هذا
الجبل يرتفع تدريجاً فيكون اسم جبل الفلال مطابقاً له

ولم يبق شيء من شجر الدردار إلى هذا الوقت ، ولكن المسيو جرمون Germond كاتب العدل الحالي في سانتروينز الذي بحث بحثاً دقيقاً في هذه المسألة

أقول ان أخبار وقائع العرب الذين اخلوا هذا الجبل قد رأت في أناصى آسية فكتاب المعجم سموه كولا لال كلمة تفيد معنى جبل القلال وانا نجد تحت مرة ٣٨٤ من المخطوطات الفارسية من الخزانة الامبراطورية هذه الكلمات :

كولا قلال جزيرة است ودر كوهى است ودر روزگار قديم خراب بوده است وناسكون چون اسلام قوت گرفت ازن مسلمانان آنها ازانلدانجا مقام ساختند وساكن شدند واكنون در روى فرك باشند وميان ايشان وكافران پيوسته جنك باشند

ومعناه جبل القلال جزيرة اوشبه جزيرة واحة في وسط ساسلة جبال كان هذا الجبل في الماضي مهلا غير مسكون فلما انتشر الاسلام جاء بعض المساهين الى هذا المحل واستوطنوه وهم الآن هناك واقفون في وجه الافرنجة الذين يحيطون بهم ولا يزالون معهم في جلال مستمر

ثم قد وجد في كتاب فارسي من قبل عجائب المخلوقات للقزويني واسمه كاسيه وموضوعه كد موضوعه الجملة الآتية : قلال كوهى است ميان دريان روم خراب بودا بادان كردند ودر وجه مصالح افرنجيه نهادند واكر اين كولا نبودى اسلام برنج امدى

أى جبل القلال جبل واقع في وسط بحر الروم وكان خراباً واقد سكن فيه اناس وأووا الى هذا الجبل في جهادم للأفرنج ولولا هذا الجبل لسكان على الاسلام خطر عظيم

هذا كلام رينو بنصه ويتخلص منه ان جبل القلال ليس بجزيرة بل شبه جزيرة واذا رجعنا الى جزيرة مقاطعة الفار Ir. ١٢١١٢ على حدود ايطالية وجدنا أن المحل الذى يحمل فيه هذا العالم جبل القلال شبه جزيرة . ثم انى قد راجعت ما قاله رينو في كتابه فتوح المساهين بفراسة من صفحة ١٥٧ الى صفحة ٢١٠ فرأيت ان وصف جبل القلال في كتاب ابن حوقل من حيث امتناعه ينطبق تماماً على فرسيناتوم وأما قوله ان العرب يسمون هذا الجبل من ضمن الانداس لانهم يسمون بهذا الاسم كل البلاد الواقعة في جنوب اوروبا الى الغرب فأظن انه غير معيب بل السبب في ذلك هو ان جبل القلال كان تحت حماية لهما قرطبة وقد ذكر هذا رينو نفسه في كتابه الآنف الذكر صفحة ١٨٧ فقال : ان أوتون كان أنشأ علاقات مع أعظم ملوك عصره لاسيما خليفة قرطبة الذى كان هو الحامي للمستعمرة العربية في فرسيناتوم ويظهر من كتاب رينو ان فرسينة كانت عاصمة الممتلكات الاسلامية في فرنسا وسويسرة وايطالية الشمالية . وهذه الأهمية التى أشار اليها ابن حوقل والاصطخري لم تكن لجزيرة سردانة وهى كل حال فانى أظن الآن ان جبل القلال هو فرسيناتوم ويبقى مع هذا مجال للبحث للوصول الى الانتفاع العلمى المبني على الطبع الفاطمة . انتهى كتاب محمد القاسى رئيس جمعية طلبة شمال افريقية في باريس .

يظن أنه كان توجد غابة دردار في قعر الخليج على شاطئ البحر ، وأنه كان توجد قرية رومانية اسمها فركسينيتو احتلها العرب ثم هدموها واختاروا قمة من الجبل لإنشاء معقل لهم سموه فركسينيت Fraxinet ومن رأي السيو جرمون أن ذلك المعقل كان أشبه بمخفر يقصدون منه الاشراف على سهول بروفنس السفلى وذلك لأن المكان لايزيد محيطه على ثلاثمائة قدم ولا يتسع لأكثر من مائة رجل لاغير . ويظن السيو جرمون أن المعقل الأصلي الذي كان العرب يعملون عليه هو على نصف فرسخ من هناك ، بقرب البحر ، فوق جبل يقال له اليوم « سيدة ميرمار » Notre Dame de Miremar حيث توجد آثار مهمة وحنادق عميقة . وأما السيو بوش صاحب تاريخ بروفنس فيظن أن العرب قد أطلقوا اسم فركسينيت على حصون كثيرة شادوها في دوفيني وسافواي وبييمونت . واننا نرى رأي بوش هذا صواباً لكثرة وجود هذا الاسم في هذه النواحي

ولما انتهى العرب من بناء حصنهم بدأوا بشن الغارات في النواحي القريبة منهم وصادف ذلك تلك المحاربات الداخلية التي كان حامياً وطيسها بين زعماء البلاد فصارت كل فئة تجتهد أن تجذبهم الى نفسها ، ثم عند ما نمت شوكتهم عدوا أنفسهم سادة لتلك الأرض واستولى الرعب على قلوب الجميع من عاديتهم وأصبح لا يرتفع في وجههم رأس ولا ترتقى الى مصارعتهم همة . ومن جملة الأدلة على ذلك أنه وجدت في قبر القديسة مادلينه في فيزلاي Vezelay من بورغونية كتابة تفيد أن جسد القديسة نقل من مدينة اكس في بروفنس الى هناك ، خوفاً من العرب . وكان وجود هذه الكتابة قد انكشف سنة ١٢٧٩ . راجع في ذلك تاريخ هينو Hainut تأليف جاك دوغويز DeGuyse وتاريخ بروفنس تأليف بوش

وكان العرب يتقدمون يوماً فيوماً نحو جبال الألب تعلقاً وتسلفاً حتى وقفوا في أعلاها . وكانت مملكة آلل خاضعة للويس بن بوزون المتقدم الذكر . وكان لويس هذا سار بجيش الى ايطالية لمقاتلة بيرانجه ملك لونياردية فترك بلاده بدون حامية تقريباً وصارت ثفوره عورة وكان النرمنديون يعيشون في قلب فرنسا وكادوا احدى المرار

يستولون على باريز . وجاءت فرقة من البرابرة الوثنيين من الشرق وهم المجر فعاشت وخربت جانباً من ألمانية ثم من ايطالية وأوشكت أن تدخل إلى فرنسا

وفي سنة ٩٠٦ اجتاز العرب مضائق دوفيني Dauphiné وقطعوا جبل سنيس Mont Cenis حتى انتهوا الى دير نوفاليز على حدود بيمونت ، في وادي سوزة . وكان رهبان الدير قد تمكنوا من الفرار الى مدينة توزينو ومعهم ذخائر القديسين وما في الدير من أشياء ثمينة ، ومن جملتها خزانة كتب نفيسة فلما وصل العرب لم يجدوا في الدير الا راهبين بقيا كحراس فيه ، فنهب العرب الدير والقرية ، واحرقوا الكنائس جاء ذلك في تاريخ دير نوفاليز الوارد في مجموعة موراثوري : وفيه أنه كانت هناك كنيسة صغيرة باسم القديس هلدراذ Helderad من رجال اوائل القرن التاسع فأحرقوها وفر كثير من الاهالي الى الجبال بين سوزة وبريانسون Briançon واعتصموا بدير أولكس Oulx فاقتص العرب آثارهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً حتى سمي ذلك المكان بساحة الشهداء (راجع مجموعة دير أولكس التي نشرها ريفانتلا في تورينو سنة ٧٥٣) وكان الاهالي قد اجتمعوا وثاروا بالعرب ، وقبضوا على أناس منهم وساقوهم الى تورينو ، واعتقلوهم في دير القديس اندراوس . ولكن هؤلاء الاسرى حطموا الأصناد التي كانوا مقيدين بها واحرقوا الدير وافلتوا وكادوا يحرقون جانباً من المدينة . ثم ان العرب قطعوا المواصلات بين فرنسا وايطالية ، واحتلوا جميع مضائق جبال الالب ، فصار مرور الناس عائداً الى اذنههم . سنة ٩١١ كان رئيس اساقفة اربونة يريد السفر الى رومة لمهم مستعجل فلم يقدر على السفر خوفاً من العرب . وكانوا لا يسمحون لاحد ان يمر بدون ان يأخذوا منه رسماً معلوماً . ثم شرعوا يشنون الغارات على سهول بيمونت ومونفerrat . وفي سنة ٩٠٨ نزل بعض قرصان العرب في سواحل لنغدوق بقرب ايفمورط ونهبوا دير التريل الذي كانوا هدموه في زمان شارل مارتل ثم اعيد بناؤه

وكان صعد على عرش قرطبة سنة ٩١٢ عبد الرحمن الثالث الملقب بالكبير والذي تولى الملك خمسين سنة وجمع تحت حكمه بلاد الاندلس قاطبة وكان من ايمن ملوك الدهر

نقية اوصل الاندلس الى اعلى ذرى الهناء والسعادة والمجد ، وهو اول من تلقب من
امراءها بالخليفة امير المؤمنين

وكان حنشو غرسية ملك نابار واوردونة ملك ليون تحالفا مع ابن حفصون الثائر
على المسلمين ، وبالاتحاد مع مقاتلة الفرنسيين وقفوا في وجه جيوش عبد الرحمن . الا
ان عبد الرحمن سنة ٩٢٠ ارسل عمه المسمى ايضاً عبد الرحمن ، والملقب بالمظفر ، فهزم
جيوش الاعداء وقطع جبال البيرانية واكتسح جانباً عظيماً من غشقونية ووصل الى
ابواب مدينة طلويزة ثم اصيب في رجوعه بفشل اذهجم عليه غرسية بن حنشو أو سانجه
كايقول العرب واسترجع منه جميع الغنائم التي غنمها^(١)

(١) جاء في فتح الطيب : وأخبار الناصر طويلة جداً وقد منح الظفر على الثوار واستنزاهم من
معاقلهم حتى صفا له الوقت وكانت له في جهاد العدو اليد البيضاء فن غزواته أن غزا سنة ثمان
وثلاثمائة الى جليقية وملكها اوردون ابن اذفونش فاستنجد بالباشكنس فهزمهم ووطيء بلادهم
ودوخ أرضهم وفتح معاقلهم وخرّب حصونهم ثم غزا بنبلونة سنة اثنى عشرة ودخل دار الحرب
ودوخ البساط وفتح الدائل وخرّب الحصون وأفسد العائر وجال فيها وتوغل في قاصيتها والعدو
يحاذيه في الجبال والأوعار ولم يظفر منه بشيء ثم بعد مدة ظفر ببعض الثوار عليه وكان استمد
بالنصارى فقتل الناصر من كان مع الثائر من النصارى أهل ألبة وفتح ثلاثين من حصونهم
وبلغه انتفاض طوطة (ملكة الباشكنس) فغزاها في بنبلونة ودوخ أرضها واستباحها ورجع الى
قرطبة . ثم غزا غزوة الخندق سنة سبع وعشرين الى جليقية فانهزم وأصيب فيها المسلمون . وقعد
بعدها عن الغزو بنفسه ، وصار يردد البعوث والطوائف الى الجهاد . وبعث جيوشه الى المغرب ،
فلك سبتة وناساً وغيرهما من بلاد المغرب وطار صيته وانتشر ذكره

ولما هلك سانجه بن فرويلة ملك الباشكنس قامت بأمرهم بعده أمه « طوطة » وكفلت ولده ،
ثم انتقضت على الناصر سنة خمس وعشرين فغزا الناصر بلادها وخرّب نواحي بنبلونة ورد عليها
الغزوات وكان قبل ذلك سنة اثنين وعشرين غزا الى خشتمة ثم رحل الى بنبلونة ، فجاءته طوطة
بطاعتها ، وعقد لابنها غرسية على بنبلونة ثم عدل الى ألبة وبساطها فدوخها وخرّب حصونها ثم
اقتحم جليقية وملكها يومئذ ردهير بن اردون فتعاضى عن لقاءه ودخل خشتمة فنازله بالناصر فيها
وهدم برغش وكثيراً من معاقلهم وهزمهم مراراً ورجع الخ .

وجاء في كتاب أخبار مجموعة : وأما عبد الرحمن بن محمد الأمير فانه ولى الخلافة والفتنة قد طبقت
آفاق الأندلس والخلاف فاش في كل ناحية منها ، فاستقبل الملك بسعد ، لم يقابل به أحداً ممن خالفه

فامتد الصريح في بروفنس ودوفيني وبلاد الالب ، من اعمال غزاة العرب ، وحاول بعضهم ان يقاوموهم بالسلاح فهلكوا لعدم اجتماع كلمتهم . وكانت مرسيلية أيضاً قد نالها عيشهم ، وخرب العرب كنيسة المظلي ، وكذلك أغاروا على اكس . وروى بوش في تاريخ بروفنس وغويز في تاريخ هيبو ان العرب سلخوا جلود بعض من وقعوا في ايديهم احياء^(١) ، وفر مطران اسمه « اودول ريكوس » الى مدينة « رنس » في الشمال . وكان العرب يسبون نساء البلاد ويبنون بهن بما نشر سلاطنتهم فيها ، ولاشك أنه قد انضم اليهم أناس من ابناء البلاد ممن لا يبالون على اي جنبيه وقع الامر

وبلغ من شدة الذعر أن الاغنياء صاروا يجلون الى جهة الشمال فرارا من بطش العرب وجاء في سيرة القديس ميول Mayoul في مجموعة البولنديين ان القديس الذي كان أهله اغنياء من ابنيون فر من وجه العرب الى برغونية . واحرق العرب كنائس سيسترون Sisteron وغاب Gap وقتلوا في انبرون Enbrun القديس ينديكوتوس رئيس الاساقفة ومطراناً آخر معه . وجاء في تاريخ خطط الالب العليا تأليف المسيو

أو خرج عليه الاغلبه ، واستولى على ماني يديه ، فافتتح الأندلس مدينة مدينة ، وقتل حامتها واستنزل رجالها وهدم معاقلها ، وضرب المغارم الثقيلة على من استبقى من أهلها ، وأذلهم بعسف الهمال غاية الاذلال ، حتى دانت له البلاد وانتقاد له أهل العناد ، فمات ابن حفصون في حصاره ، وقتل سليمان ابنه محارباً له ، واستنزل سائر بنيته وأهله وأمنهم ، وساروا في جنده

وملك « بيشتر » وبناتها ، وحسنها ، وهدم كل حصن غيرها . وذكر أنه إنما استبقاها عدة لنفسه ولولده ، ليلج اليها ، لما كانوا يحدثون في الأمان من أن فتناً تهيج في الأندلس بخوارج يخرجون على أهلها يخربون البلاد ويقتلون الرجال ويسبون النساء والأولاد حتى يعم الفساد جميع أقطارها فلا يبقى فيها الا من اعتصم بالمعاقل أو لجأ الى البحور ، وهو عندهم الفساد المتصل بالبلاد الأعظم الذي لاصلاح بعده ولا بقاء معه والله أعلم . وهو المستعان . واتصل ملك عبد الرحمن حين سنة في عز منيع وسلطان فاهر . وافتتاح البلدان شرقاً وغرباً الخ .

قلت : وسنأتي بخبر الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي على أم وجه ان شاء الله في الأجزاء التالية التي فيها الكلام عن نفس الأندلس

(١) نحن نتقل روايات مؤرخي الافرنج في الفرون الوسطى على علائها وان كنا نعلم ما فيها من المبالغات ولا سيما ما كان منها مكتوباً بأقلام الفيسيين الذين يخلطون التاريخ بالدعابة

لادوسيت Ladoucete خبر ثلاثة أبراج محصنة في انبرون كان العرب زلواها وبواسطتها ملأوا تلك الناحية خوفاً وكان القديس ليرال قد انتخب خلفاً للقديس بندكتس فأراد ان يدخل انبرون ولكنه لم يجرؤ على ذلك بسبب وجود العرب هناك ورجع من حيث أتى

وكان من عادة اهالى فرنسا واسبانية وانكلترا ان يذهبوا الى رومة ، ولو مرة في العمر ، لزيارة قبور الرسل . ولم يكن بد من علاقات الاساقفة والقسيسين برومة كما لا يخفى ، ولكن معابر الالب صارت كلها الى ايدي العرب ، وصار هؤلاء يعتدون على السالبيين . وبرغم ان الناس كانت تجتمع قوافل وتسير بالاسلحة لم تكن تمضى سنة بدون ان تحصل في تلك المعابر وقائع دموية حسبما جاء في مجموعة مؤرخى فرنسا

وفي تلك الايام وصل المجرار الى فرنسا ، وملأوا البلاد عيشاً وتدميراً ، ورأى الاهالى فيهم تصديق نبوة حزقيال عن ياجوج وماجوج . ولما كانت سنة الالف للمسيح ظن الناس انها قد اذفت الساعة ، وسأل مطران فردن Verdin احد القسيسين عن صحة هذه المسألة وهل المجرار ياجوج وماجوج أم لا ؟ فطمأن القسيس خاطر المطران قائلاً له : إن من اشراط الساعة أن يأتى ياجوج وماجوج ومعهم شعوب اخرى ، والحال ان المجرار جاءوا وحدهم ، فلا تنطبق هذه النبوة عليهم ، على انه من المحقق انهم في العيث والتدمير بذوا الاولين والآخرين

ثم ان بلاد بيمونت ومونفرات كانت ميدانا لغارات العرب . روى مؤرخ دير نوفاليزه أن أحد أعمامه ، وكان من قواد الجند ، ذهب من « مويين » الى « فارسل » فداهمته عصابة عربية في احدى الحراج بقرب البلدة فتقاتل الفريقان وجرح عدد منهما ووقع بعض المسيحيين أسرى فاخلى العرب سبيل بعضهم واستبقوا القادرين منهم على الفدية ، وبقي عم الراوى وخادمه في ايديهم . وكان والد الاسير المذكور مارا من هناك فغسل بالخبر والتزم ان يحول في المدينة وان يقترض مبلغا من المال ليفك به ابنه مع خادمه . وروى هذا المؤرخ ان العرب كانوا وصلوا الى حدود ليغورية (على خليج

جنوة) وذكر المؤرخ الشهير ليوتبراند^(١) الذي عاش في الثلث الاول من القرن العاشر ان العرب اغاروا على مدينة آكي Aquis احدى مدن مونتفرات المشهورة بجملاتها المعدنية ولكنهم انهزموا في تلك الواقعة ، ويقول المؤرخ نفسه ان بعض قرصان العرب دخلوا مدينة جنوة وقتلوا ونهبوا وسبوا كثيرا من النساء والاولاد وكان الاساقفة الذين فروا من وجه العرب في بروفنس والرهبان وغيرهم قد لجأوا الى بلاد فاله Valais من سويسرة فجاء العرب ودخلوا هذا الوادى واكتسحوه وكان هناك دير على اسم الشهيد القديس موريس^(٢) كان الامبراطور شارلمان وغيره من الملوك اولوه مزيد العناية فجعله العرب دكا، على ما في تاريخ غالية كرسيتانية Gallia Christiana وذهب بعض المؤرخين الى ان المسلمين كانوا هدموا هذا الدير سنة ٩٠٠.

وجاء في مجموعة الدون بوكه ان العرب استولوا على ناحية تارتيس وان قافلة كانت ذاهبة من فرنسة الى ايطالية ، فوقعت في يدهم واضطرت الى الرجوع بعد ان قتل عدد منها

ولما استولى العرب على فاله تقدموا الى أواسط كورة غريزون^(٣) وكان هناك دير شهير اسمه دير دى زانتيس Disentis بناه احد تلاميذ القديس كولومبان فنهبه

(١) ليوتبراند Liutprand مؤرخ السانى من أشهر المؤرخين ولد سنة ٩٢٢ وهو من أسرة شريفة فى لوباردية نشأ فى معية الملك هوغ فى بافية وسنة ٩٤٥ بعد خلع الملك هوغ دخل فى خدمة خلفه برنغار وتوفى سنة ٩٧٠ وكتب كتابين باللاتينية أولهما يسمى معالى الامبراطور اوثنون الكبير

(٢) سان موريس بلدة فى وادى الفاله على السكة الحديدية المؤدية الى نفق السيلون الى ايطالية تبعد عن جنيف بالسكة الحديدية نحواً من ساعتين. تنسب هذه القصة الى دير القديس موريس الذى فيها وهذا الدير قد بناه سيجسموند دوق بورغونية فى القرن السادس للمسيح حسبما روى فى القسيس القيم على مكتبة الدير وذلك عندما زرت هذا الدير مؤخراً متقباً عن آثار العرب هناك كما سيأتى الكلام عليه

(٣) Grisons من مقاطعات سويسرة مركزها كوار

العرب وجردوه من كل حلاه . وكذلك فعلوا بكنيسة « كوار » . روى ذلك المؤرخ اشبريغر Sprecher . وقيل ان المطران فالديو Wualdo شكى سنة ٩٤٠ من غارات العرب المتواصلة . وان آثار تلك الغارات كانت باقية الى سنة ٩٥٢ وان الامبراطور اوتون اقطع المطران المذكور املا كاعلى سبيل التعويض بموجب مرسوم مؤرخ في سنة ٩٥٦ . ورد ذلك في مجموعة تاريخية المانية طبعت في كوار . وكانت سويسرة يومئذ تابعة لمملكة بورغونية

وكانت الحرب في تلك الايام مشتعلة بين ملوك اشتورية وناباره من جهة ، وخليفة قرطبة من جهة اخرى ، وتواقف الفريقان عند زمورة ، فانهمزم المسلمون في تلك الواقعة وقتل منهم نحو من مائة الف^(١) ولكن عبد الرحمن الناصر كان يقدر أن

(١) هذه الواقعة شهيرة ويقول ابن خلدون ان عبد الرحمن الناصر كان كثير الجهاد بنفسه والغزو الى دار الحرب الى أن هزم عام الخندق سنة ٣٢٣ وأما ابن الاثير فيجعل هذه الواقعة سنة ٣٢٧ ويقول انه في تلك السنة عصى أمية بن اسحق بمدينة شتري على عبد الرحمن الأموي لأنه قتل أخاه فالتجأ الى رودمير ملك الجلالة وغزا عبد الرحمن بلاد الجلالة فانهمزمت الجلالة وقتل منهم خلق كثير ثم خرج الجلالة وظفروا بالمسلمين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأراد رودمير اتباعهم فمنعه أمية وخوفه ورغبه في الفتيمة وعاد عبد الرحمن فجهز الجيوش الى بلاد الجلالة فألحوا عليهم بالغارات وقتلوا منهم أضعاف ما قتلوا من المسلمين . انتهى

أما في أخبار مجموعة فانه يقول : ان عبد الرحمن الناصر في آخر أمره مال الى الله واستولى عليه العجب واستمد بغير الكفاة وغازى الأحرار باقامة الأندال كنجدة الحيرى وأصحابه الأوغاد . فقلده عسكره وفوض اليه جليل أموره والجلأ أكابر الأجناد ووجوه القواد والوزراء من العرب وغيرهم الى الخضوع له والوقوف عند أمره ونهيه وحال نجدة حال مثله في غيه واستخفافه وركاكة عقله فتواطأ أهل الحفاظ من رجاله ووجوه أجناده على ما كان من انهزامهم في الغزوة التي غزاها عام ستة وعشرين وثلاثمائة وسماها غزاة القدرة لاحتفاله فيها وعظيم مشهدها فهزم فيها أفيح هزيمة . واتبعهم العدو أياما يأسرونهم ويقتلونهم في كل محلة فلم يكدر ينجو منهم الا قوم جمعوا أصحابهم على ألويتهم وتخلصوا الى بلدانهم فلم تكن له بعدها غزوة بنفسه اه . وذكر السعوى في مروج الذهب هذه الغزاة فقال : وكان عبد الرحمن في مائة ألف أو يزيدون فكانت وقعة بينه وبين ردمير ملك الجلالة في شوال سنة سبع وعشرين وثلاثمائة بعد الكسوف الذي كان في هذا الشهر وكانت للمسلمين عليهم ثم أنابوا بعد أن حوصروا واولجوا الى المدينة فقتلوا من المسلمين بعد عبورهم الخندق .

يجمع جميع قوى المسلمين في الأندلس فلم تكن هزيمة كهذه لتكسر من شوكرته ، وكان في استطاعته وقتئذ ان يفحش النكاية بالمسيحيين لولا اشتغاله بالفتوحات في افريقية ولولا ظهور الدولة الفاطمية التي اخذت تجاذب الدولة الاموية الحبل ، فكان هذا من حسن حظ المسيحيين

وكانت مدينة فريجوس في مقاطعة الفاربلدة عامرة ومرسى عظيما للسفن ، فأغار عليها العرب واجتاحوها اجتياحاً شديداً حتى لاذأهلها بالفرار وتركوها كجوف سحر ، واخذ المسيحيون الذين في السواحل كلها ينسحبون الى الجبال ، وكان في ذلك الوقت الكنت هوغ Hugues ملكا على بروفنس فأعلن عزمه على طرد المسلمين من تلك الاطراف ، ولما كان اهم معقل لهم هناك هو حصن فراسينث الذي منه كانت تنبعث غاراتهم الى داخل البلاد ، اجمع هوغ ان يهاجم هذا الحصن . ولما كان مضاهراً لامبراطور القسطنطينية أرسل اليه يطالب منه انجاده . باسطوله ، وكان الروم يملكون نفاطات يقال لها النار الاغريقية ، فكانت تحرق المراكب بمجرد ما تصيبها . ففي سنة ٩٤٢ زحف هوغ على حصن فركسينث بجيش جرار من البر . وجاء الاسطول الرومي من البحر فاحرق مراكب العرب التي في الخليج كما ان جيش هوغ تمكن من الحصن والتجأ العرب الى الجبال المجاورة ولكن جاء الخبر الى هوغ وهو في هذه الحرب مع العرب بان بيرانجه Berenger الذي كان ينازعه مملكة ايطالية ، وكان قد فر الى المانية ، رجع الى ايطالية يحاول ان يتنسم زيج الدولة ثانية فنسى هوغ الخطر الواقع على بلاده

خمسین ألفا وقبل ان الذي منع رودمير من طلب من نجا من المسلمين أمية بن اسحق فقد دخوفه الكمين ورغبة في ما كان في معسكر المسلمين من الأموال والعدد والخزائن ولولا ذلك لأتى على جميع المسلمين ثم ان أمية بعد ذلك استأمن الى عبد الرحمن وتخلص من رودمير فقبله عبد الرحمن أحسن قبول وقد كان عبد الرحمن بعد هذه الوقعة جهز عساكر مع عدة من قواده الى الجلالة وكانت لهم معهم حروب هلك فيها من الجلالة ضعف ما قتل من المسلمين في الوقعة الأولى وكانت للمسلمين عليهم الى هذه الغاية ورودمير ملك الجلالة الى هذا الوقت وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة انتهى كلام المسعودي المماصر لتلك الوقائم .

من العرب وأسرع الى مهادنتهم بشرطان يقطعوا الطريق في معبر سان برنار وسائر معابر الالب على بيرانجة . روى ذلك المؤرخ ليوتبراند الذى بهذه المناسبة أخش الطعن في هوغ وقال انه جاء بها صلحاء لاسبيل للمعذر فيها، وبلغ من حدته أنه أخذ يخاطب معبر سان برنار فيقول له شعراً معناه : انك تسهل هلاك الاتقياء وتجعل نفسك حصناً واقياً للطفاة الذين يقال لهم المورو افلاتنجبل ايها الشمس من أن تبسط ظلك على أناس يسفكون الدم البشرى ويعيشون من قطع الطريق ؟ وماذا أقول لك ، لعمري جذير بك أن تنقض عليك صاعقة أو أن تكسر تكسيراً أو أن تفنى فناء أبدياً ! الخ

ومن بعد هذه الحادثة ازدادت جرأة العرب ونفحوا عرفهم واستقرت قدمهم في البلاد وأصبحوا كأنهم سيلبثون أبدياً في قلب أوردية فأخذوا يتزوجون من أنفس الاهالي ويحرقون ويزرعون كسائر الفلاحين وكان امرآء النواحي يكتفون بأن يأخذوا منهم لثاوة خفيفة ، وربما اعتضدوا بهم في بعض الأحيان . أما الذين كانوا في أعلى الجبال فقد كانوا يتقاضون المارين الاموال الفادحة ، ويقتلون من يمتنع عن دفع ما يطلب منه ، وأما معبر سان برنار الكبير الذى كان يسمى من قبل بجبل المشتري فقد كان من قديم الدهر بموقعه بين قالة Valais ووادى أوسط Aoste هو واسطة الاتصال بين سويسرة وايطالية . ولما استولى عليه العرب وعلى غيره من المعابر تمكنوا من سائر النواحي المجاورة

وكانت مدينة نيس (أونيقة) تابعة لمملكة آرل وكانت أيضاً تحت طائلة العرب ويظهر أن جماعة من المسلمين كانوا يسكنون في نيس ، لأن دورانت يذكر في تاريخ نيس أنه كان فيها ناحية للمسلمين Canton Des Sarrazins

وقد احتل العرب أيضاً مدينة غرانوبل Grenoble مع الوادى الريع المسمى وادى غرايفودان Graisivaudan وذهب مطران غرانوبل ومعه ذخائر القديسين وكنوز الكنيسة والتجأ الى دير دونات Donat في فلانس الى الشمال . ولا يعلم تماماً في اية سنة دخلوا

عرا نوبل وانما من المحقق أن العرب في سنة ٩٥٤ كانوا استولوا على هذه البلدة لأنه وجدت كتابة منقوشة على حجر تاريخها سنة ٩٥٤ تدل على وجود المسلمين في غرانوبل .
والغالب على الظن ان مسلمي ييمونت كانوا قد اتخذوا لانفسهم عدة معاقل كانوا يعتصمون بها عند الحاجة . وقد ذكر مؤرخ دير نوفاليزه حصنا من هذا النمط كان يحتله العرب باسم فراسنيدلوم Frascenedellum وهو مكان بقرب كازال على نهر البو Po وكان هذا المحل يسمى أيضاً فركسيناتوم ، وقيل بل هذا الحصن هو الذى يسمى الآن فنستراى Fenestralle

وعلى كل حال فلينظر القارىء الى مؤرخ معاصر شاهد الحوادث بعينه وهو مؤرخ دير نوفاليزه ، فقد قال . ان العرب كانوا يسبون النساء والاولاد والخيول وغير ذلك وكان قد دخل معهم أفاق من أهل البلاد اسمه ايمون Aymon طمعاً فى الغنائم فوقعت فى أيديهم مرة امرأة بارعة فى الجمال فاستأثر بها ايمون لنفسه فجاء أحد زعماء العصابة العربية وانتزع تلك الحسناء من يد ايمون بالقوة فغلت مراحل الغضب فى صدر ايمون وثار للانتقام فذهب الى الكنت روتبلدس (١) الذى كان صاحب السيادة فى بروفنس العليا وكاله بالسر الخفى فى قضية طرد العرب من البلاد . وكان للعرب سعاة وجواسيس فى كل محل فاجتهد ايمون أن يكتم مسعاه بكل ما أمكنه حتى تمكنوا من استنفار الناس بدون أن يشعر العرب ، واجتمع الامراء والزعماء وقادوا الأهالى وهاجموا العرب وأخذوا جمرتهم ورفعوا نيرهم عن اعناق الاهلين . قال هذا المؤرخ وإن عائلة ايمون هذا كان لا يزال منها بقايا الى زمانه

وفى سنة ٩٥٢ كان المجار قد اكتسحوا الاراس ، وصارت جميع بلاد جبل جوراه Jura تحت خطر احتلالهم ، ففكر كوراد الذى كان اميرا على بورغونية وسويسرة وفرنشكونتى ودوفينى فى تدبير حيلة للتخلص من المجار والعرب معا ، فكتب الى العرب كتابا يقول لهم فيه ان لصوص المجار قد سمعوا بنحصب الاراضى التى فى أيديكم وهم

(١) Rotbaldus يقول رينو انه قد يكون روتبلدس الثانى كونت فوركالكية الذى كان يعيش فى نواحي سنة ٩٤٥ على ما فى تاريخ بروفنس للمسيو بوش .

عائدون الى انتزاعها منكم ، فتعالوا الى "لنرحف اليهم معا ونبيدهم . وفي الوقت نفسه كتب الى الجار قائلا لهم : لماذا ينازع بعضنا بعضا ؟ ان المسلمين هم الذين بأيديهم أخصب البقاع ، فتعالوا الى "لنرحف اليهم ونطردهم وحيث أنا اجعلكم في مكانهم . قال هذا وعين للفريقين مكانا للقاء فحضر الفريقان وألتحمت الحرب بينهما من نفسها وكان الكنت قد حشد عساكره وكن لهم جميعا فلما اشتبكوا في الملمحة انقض عليهم بجيشه فذبحهم ولم ينج منهم الا القليل فارسل بقية السيف الى آرل وبيعوا في أسواقها ارقاء

جاء هذا الخبر في مجموعة الدون بوكه ولم نعلم تماما في أى مكان حصلت هذه المعركة . وكان مركز العرب الاصلى في بروفس وكان الجار في الالزاس وفرنشكونتي فالظنون ان هذه الواقعة حصلت في نقطة متوسطة كائن تكون مثلا في السفواى . وقد ثبت ان العرب أقاموا طويلا في السفواى وكانت تسمى موريين Maurienne حتى ذهب بعضهم الى أن هذه اللفظة مشتقة من لفظة المورو التي تطلق على المسلمين المغاربة . ولكن هذا الزعم هو خطأ لأن هذه اللفظة معروفة منذ القرن السادس للمسيح . وكيف كان الحال فقد أقام العرب طويلا بسفواى . وقد علمنا أن المطران بيليه Billiet أسقف سان جان دومورين قام بمباحث دقيقة فيما يتعلق بتاريخ بلاد سفواى فعثر على أسماء كثيرة تدل على وجود العرب هناك لا سيما في جوار مودان Modane اذ يوجد واد يقال له وادى السرازين وقرية اسمها فريناي Freney وقد ذكر بوش مؤرخ بروفس ما يؤيد هذا القول .

وكان المسلمون يجولون في جميع أنحاء سويسرة بلا معارض كأنهم في دياراتهم وقد تقدموا الى أن صاروا على أبواب مدينة سافال وعلى ضفاف بحيرة كونستنز وكانوا يعتدون على الرهبان الذين كانوا هناك فلا يخرج منهم أحدا لا رشقوه بسهم ، وكانوا قد ألفوا سكنى الجبال والسير في الأوغار ، حتى قال أحد الكتاب المعاصرين انهم صاروا أشبه بالمعزى في خفة أقدامهم وسهولة سيرهم في حروف الجبال . وكانوا قد بنوا أبراجا في أماكن متعددة يقال ان آثارها لا تزال موجودة . وكانوا قد ألحقوا أضرارا لا تحصى

بالمسيحيين. وذكر مؤرخ دير سان غال Saint - Gall في كتاب داخل في مجموعة برتر أنه كان يوجد رئيس للدير المذكور اسمه «فالتون» قد جمع عصا من الرجال الأشداء وسلحهم بالحرايب والفؤوس وهاجم هؤلاء البرابرة بغتة ، فقتل أكثرهم ومن نجا منهم قبض عليه ، وساقوا الاسرى الى الدير ، فأبى هؤلاء أن يأكلوا أو يشربوا ، فماتوا جوعا !

وفي أثناء ذلك تغلب الألمان على المجار ، وكسروا شرتهم ، فنشقت سويسرة نسيم الفرج . ولكن البروفانس والدوفيني وجانب من جبال الالب بقيت تحت طائلة العرب الذين كانت ترد اليهم الامدادات من البحر . وكانت هذه البلدان لا تستريح ماداموا فيها . وكان الرجل العامل المدبر اذ ذاك ، بين ملوك أوربة ، أوتون ملك جرمانية الذي لقب فيما بعد بالامبراطور والذي استحققت له خلاله المجيدة لقب «الكبير» فدخل أوتون في علاقات مع خليفة قرطبة الذي كان أشبه بالحامي لمستعمرة فرا كسينيه العربية، فعزم أوتون لأجل الدفاع عن حقوق النصرانية أن يبعث بسفارة الى الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وكان قد جاء الى أوتون كتاب من عبد الرحمن لا يخلو من عبارات فيها غض من الدين المسيحي ، بحيث اعتمد أوتون بخاصة أن يجعل في سفارته الى قرطبة عالما لهوتيا يمكنه الاعتماد عليه في الأخذ والرد مع علماء المسلمين ، فوقع الاختيار على راهب من دير غورز Gorse بقرب متس كان يقال له جان وكان بلغ من تضلعه في علم اللاهوت أن حاول اقناع الخليفة عبد الرحمن بالتنصر .

وقد كانت هذه السفارة في سنة ٩٥٦ والمؤرخون من المسلمين ومن النصارى متفقون على ما بلغت قرطبة لذلك العهد من العظمة والمجد فقد كانت فيها العلوم والمعارف والصنائع والفنون والسياسة ، والكياسة قد أدركت الأمد الأقصى في وقتها ، وكانت أوربة المسيحية مدهوشة بعظمة قرطبة وكان عبد الرحمن مقصداً لجميع ملوك العصر ، وكان يرسله البابا وامبراطور القسطنطينية وملوك اسبانية وفرنسة والمانيّة وبلاد الصقالبة، وكان ملوك المسيحيين - بحسب قول مؤرخي العرب - يسيطون

أيدي الخضوع للخليفة ، ويمعدون شرفاً عظيماً لهم أن يرسل الخليفة يده لسفرائهم ليقبلوها وذلك للجلالة قدسه في أعينهم ولطف منزلته في أنفسهم وكان عبد الرحمن الناصر عندما تقدم عليه وفود هؤلاء الملوك لآسيا وفد ملك الروم ، يبلغ في الاحتفال ويشكف الكلف الثقيل ويأمر باستقبالهم بالمساكر والأعوان وبأظهار جميع عظمة الخلافة فكانوا يفرشون لهم الشوارع التي يمرون بها بفافر البسط والديباج وكانت الألوف من حرس الخليفة الخاص وأمامهم الأمراء وعظماء الدولة يصطفون على الجانبين ومنهم بطانة تحيط بعرش الخليفة وبعد ذلك يقوم الأئمة ويخطبون في هذا الحفل بما يناسب المقام من وصف عز الاسلام وأظهار مناقب الامام ثم يتلوهم الشعراء بالقصائد الطنانة التي تزيد من ابتهاج الحاضرين وحماسة السامعين^(١)

(١) وصف ابن خلدون كيفية استقبال عبد الرحمن لرسول صاحب القسطنطينية ، قال : ركب في ذلك اليوم المساكر بالسلاح في أكمل شكة وزين القصر بأنواع الزينة وأصناف الستور وحمل سرير الخلافة بين مقاعد الابناء والاخوة والأعمام والقرابة ، ورتب الوزراء والخدماة في مواقفهم ، ودخل الرسل فبالهم ماراً وقرّبوا حتى أدوا رسالتهم ، وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا في ذلك الحفل ويعظموا من أمر الاسلام والخلافة ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه واعزازة وذلة عدوه ، فاستعدوا لذلك ، ثم بهرهم حول المجلس فوجوا وشرعوا في القول فأرتج عليهم . وكان فيهم أبو علي الفاي واند العراق كان في جملة الحكم ولي العهد ونديه لذلك استثنأاً فجز .

فلما وجوا كلهم قام منذر بن سعيد البلوطي ، من غير استعداد ولا روية ولا تقدم له أحد بشيء من ذلك فخطب واستحضر وجلي في ذلك القصد ، وأنشد شعراً طويلاً ارتجله في الغرض . ففاز بفخر ذلك المجلس ، وعجب الناس من شأنه أكثر من كل ما وقع ، وأعجب به الناصر ، وولام القضاء بعدها وأصبح من رجال العالم . وأخباره مشهورة . وخطبته في ذلك اليوم منقولة في كتب ابن حيان وغيره .

ثم انصرف هؤلاء الرسل ، وبعث الناصر معهم هشام بن هديل بهدية حافلة ليؤكد المودة ويحسن الاجابة . ورجع بعد سنتين ، وقد أحكم من ذلك ماشاء ، وجاءت معه رسل قسطنطين . ثم جاء رسول من ملك الصقالبة ، وهو يومئذ دفوه ، ورسول آخر من ملك الالمان ورسول آخر من ملك الافرنجة وراء البرت ، وهو يومئذ أوفوه ، ورسول آخر من ملك الافرنجة بقاصية المشرق ، وهو يومئذ كلد ، واحتفل الناصر بقدمهم وبعث مع رسول الصقالبة ريعاً الأسقف الى ملكهم

أما سفارة الراهب غورز من قبل ملك فرنسا ، قامها وان لم تكن محفوفة بجميع تلك الاهمية فلم تكن خالية من الاحتفاء والاحتفال . ولقد بقي لنا عنها رحلة بقلم أحد تلاميذ الراهب المذكور يمكننا أن نلخص منها مايلي :

سافر الراهب جان ومعه راهب ثان لاغير . وكانت الهدايا التي لا بد من استصحابها هي من مال الدير الذي ينتسب اليه الراهب . فسار الراهب ماشياً على قدميه الى « فيين » Vienne على نهر الرون ، ومنها ركب في النهر الى البحر ، وركب فيه الى برشلونة التي كانت اذذاك تابعة لمملكة فرنسا . وانما كانت أول مدينة تخص الخليفة من الثغور هي طرطوشة ^(١) فلما وصل سفراء ملك افرنجة الى طرطوشة وأذن لهم عاملها بالسير الى قرطبة تقدموا في البلاد ، وقطعوا جانباً عظيماً من جزيرة

دوفوه ، ورجع بعد سنتين .

وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمائة جاء رسول أوردون ، يطلب السلم ، فعقد له ، ثم بعث في سنة خمس وأربعين يطلب ادخال فردالد قومن قشتالة في عهده فأذن له في ذلك ، وأدخل في عهده . وكان غرسية بن شانجة قد استولى على جليقية بعد أبيه شانجة بن فرويلة ، ثم انتفض عليه أهل جليقية وتولى كبرهم قومن قشتالة فردلدالمذكور ومال الى أوردون بن رودمير ، وكان غرسية بن شانجة حافداً لطوطة ملكة البشكنس ، فامتعضت لحافدها غرسية ووقدت على الناصر سنة سبع وأربعين ملقية بنفسها في عقد السلم لها ولولدها شانجة بن رودمير الملك واعانة حافدها غرسية بن شانجة على ملكه ولصره من عدوه . وجاء الملكان معها فاحتفل الناصر لقدمهم وعقد الصلح لشانجة وأمه ، وبعث العساكر مع غرسية ملك جليقية فرد عليه ملكه ، وخلع الجلائفة طاعة أوردون ، وبعث الى الناصر شكره على فعلته وكتب الى الأمم في النواحي بذلك وبما ارتكبه فردلد (قومن قشتالة) في نكته ووثوبه ويعيره بذلك عند الأمم . ولم يزل الناصر على موالاته واعانته الى أن هلك . ولما وصل رسول كلدة ملك الافرنجة بالمرق كما تقدم وصل معه رسول ملك برشلونة وطركونة راغباً في الصلح فأجابه الناصر ووصل بعده رسول صاحب رومة يخطف المودة فأجيب . انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار . وسنستوفي ان شاء الله وصف الناصر وأهله خلفته وعظمة قرطبة في ايامه في الاجزاء التالية المتعلقة بالاندلس فان محل ذلك هناك لاننا وانما ههنا هذا الفصل عن ابن خلدون تأييداً لما ذكره المستشرق رينو من هذا الباب

(١) وهكذا ذكر المسعودي في مروج الذهب وكان المسعودي من معاصري أيام الناصر عبد الرحمن.

الأندلس ، وهم في ضيافة العرب باليهود من كرمهم . فوصلوا الى قرطبة لم يتسكفوا
انفاق درهم واحد . وهناك استقبلوا برآ وترحيباً وانزلوا في محل على مسافة ميلين
من قصر الخلافة

ثم ان الخليفة علم بمهمة الراهب ، وما هو مكلف بتليغه من قبل ملك فرنسا ،
فأراد أن يتجنب الباحثات الدينية . وقال انه لم يكن لائقاً بمقام اثنين مثل الخليفة
والملك أن يدخلوا في مجادلات كهذه وانه لايسع الخليفة أن يسمع كلاماً فيه نيل من
الرسول (ﷺ) ولا يجوز له ذلك بحسب الشريعة ^(١) واقترح الخليفة أن يعد كتبه
الى الملك أوتون كأنه لم يكن . ولكن جميع هذه الملاحظات لم يقبلها ذلك الراهب ،
وأصر على رأيه ، وجاء مطران قرطبة ينصحه بترك هذا العناد ، فأخشن له الجواب
وأخذ يقرعه على هواده وتساهله وتساهل جماعته في أمر الدين المسيحي ، وكيف انهم
قد رضوا بختان أولادهم وبالامتناع عن أكل الخنزير مسaire للمسلمين . ولما علم
الخليفة بتصلب هذا الراهب وانه راكب رأسه لا يثني عن عزمه أبى أن يقبله وأرسل
اليه قائلاً انه كان قد بعث الى الملك أوتون أحد الأساقفة سفيراً عنه فانظره ثلاث
سنوات ولذلك هو يريد أن يمسك سفير أوتون لديه لا ثلاث سنوات فقط بل تسع
سنوات لأنه يرى نفسه أكبر من أوتون بثلاث مرات . فأجاب الراهب بأنه لا يقدر
أن يخرج عن الأوامر التي في يده من أوتون وتقرر عند ذلك أن يرسل الخليفة رسولا
آخر يسأله عما اذا كانت لا يزال مصمماً على رأيه في كيفية سفارة الراهب وأخذ
الخليفة ينتدب للرسالة الى أوتون من عنده ممن يصلح لذلك ، فكان المسلمون يستعفون
من تلك السفارة لأنه من المعلوم أن على المسلمين واجبات دينية يصعب عليهم القيام
بها في بلاد النصرى ومن أجل ذلك كان أكثر سفراء ملوك الاسلام الى ملوك
النصرى مسيحيين ، وكثيرا ما كانوا أساقفة أو قسيسين ، ففي تلك النوبة انتدب
لهذه السفارة رجل مسيحي اسمه «رسيمونديس» كوفيء فيما بعد على المهمة التي قام بها

(١) قال رينو تحت هذه الجملة انه ورد في قانون الدولة العثمانية أن كل من يقذف بالله وصفاته أو
بنبيه الكريم أو بكتابه العزيز يعاقب بالقتل ولا يستتاب ولا يعامل

بجمله اسقفاً وكان يحسن الاتينية والعربية معاً. ويظن بعضهم أن الأسقف رسيموندس هذا هو نفس رمندس الذي كانا مطراناً اسبانيولياً وكانت بينه وبين المؤرخ ليوتبرند علاقة ومودة وقد جعل هذا تاريخه باسمه

وفي تلك المدة كان أوتون مشغولاً باطفاء فتنة أثارها عليه ابنه وصهره فلما وصل السفير الاسبانيولي من قبل الخليفة أجابه الملك الى كل ما اقترحه ، وقفل الرسول الى قرطبة وقد دبر الأمور كما شاء الخليفة . ورضى الخليفة من بعدها أن يستقبل الراهب ، وكان الخليفة يعلم تقشف الراهب ومذهبه في لبس الخشن وبعده عن مظاهر الأبهة ، فبعث اليه بأنه يريد أن يستقبله كسفير من قبل الملك ، وأنه لابد له اجلالاً لقدر مرسله من قبول حالة السفارة وأنه ينبغي له أن يدخل على الخليفة بملايس لائقة فأجابه الراهب بأنه لايجد لبساً أهى ولا أنغر من ثوب رهبانيته ، فظن الخليفة أنه قد يكون الراهب عاجزاً عن شراء الملايس اللازمة ، فبعث اليه بعشر أقات فضة ، وكانت الأقة اثنتى عشرة أوقية ، ولكن الراهب تصدق بهذه الفضة على الفقراء . فأرسل الخليفة اليه قائلاً انه يقبله ويحتفل به ولو جاءه في كيس خيش

وفي اليوم المعين للاستقبال اصطفت العساكر على الجانبين ، ووقف العبيد الصقالبة قابضين على الحراب ، ووقف آخرون بالقسى . وكانت هناك الفرسان تلعب في الميدان وفي هذه الحالة دخل الراهب السفير ، وقد فرشت أمامه مداخل القصر بالبسط والديباج، فما زال يتقدم الى أن وصل الى البهو الذى فيه الخليفة، فوجد الخليفة جالساً على سرير الخلافة متربعا على عادة الشرقيين . فعند وصوله اليه أعطاه باطن يده تمييزاً له عن غيره فقبلها الراهب، ثم أمر له بالجلوس وبعد المراسم المعتادة في المجاملة شرع الخليفة يتكلم عن الملك اتون وما بلغه من المقام السامى بين الملوك وأثنى عليه مزيد الثناء. ثم انه لما كان عبد الرحمن قد بلغه كون ابن الملك أوتون نار على أبيه أنهى بشيء من اللائمة على الملك قائلاً : انه لا ينبغي للملوك أن تقبل أقل انتقاص من سلطتها ولا ترعى في ذلك عاطفة اشارة الى شئ كان وقع مع عبد الرحمن نفسه ، فانه عصى عليه أحد أولاده فاتتهى الأمر بأن أمر بقتله

ثم دار الكلام على موضوع الرسالة التي جاء بها الراهب سفيراً ؛ فمؤرخو العرب أو بالأقل المؤرخون الذين عرفناهم ، لم يكونوا يذكرون شيئاً عن قضية احتلال العرب لسواحل بروفنس وبثم الغارات الى الداخل ، مما يدل على أنهم لم يكونوا يابهون لهذه الحادثة (١) على أن المؤرخ ليوتبرند الذي عاش في ذلك العصر يؤكّد أن تلك المستعمرة العربية في جبال الألب كانت تحت حماية الخليفة نفسه ، وصاحب الرسالة التي نحن بصددّها عن رحلة الراهب سفيراً من قبل الملك اوتون الى الخليفة عبدالرحمن هو نفسه يقول ان موضوع تلك السفارة لم يكن سوى التوسط لدى الخليفة لوضع حد لغارات العرب في فرنسة وإيطاليا . ومن المؤسف أن الرسالة ناقصة والكلام منقطع في أهم نقطه من الموضوع ولم يعثر الى الآن على نسخة تامة لتلك الرسالة .

هذا وفي سنة ٩٦٠ تم طرد العرب من جبل سانبرنار وليس عندنا معلومات عن تفاصيل الواقعة . ويظهر أن القديس برنار دومنتون Dementhone الذي بنى ملجأ في أعلى هذا الجبل ، حتى نسبت الى اسمه سلسلة تلك الجبال كلها ، كان هو نفسه في هذه المعركة .

ومات عبد الرحمن الثالث (أى الناصر) سنة ٩٦١ خلفه ابنه الحكم الثانى ، وكان ملكاً محباً للعلوم والمعارف جانحاً الى السلم ، ففي أيامه ازداد عكوف الناس فى الاندلس على العلوم والصناعات وبلغوا منها شأواً مدهشاً وغلبت الكياسة والرقّة ودماثة المدينة على أولئك الأقوام الذين كانوا فى مبدأ أمرهم على جانب عظيم من الخشونة والجفاء فأما فى زمن الحكم فقد صارت الدولة للعلم وترقى به حتى النساء اللاتى كان منهن العالمات والفاضلات وصاحبات المكنانة فى دار الخلافة . وكان الحكم فى أوائل أيامه ، استجلاباً لثقة المسلمين به ، قد غزا جليقية واشتورية

(١) قد تقدم لنا فى حواشى هذا الكتاب . ترجمة رسالة من قلم رينو يقول فيها : انه لما حرر هذا التأليف لم يكن اطلع على رحلتى الاصطخرى وابن حوقل فلما اطلع عليهما علم أن العرب لم ينقلوا هذه الحادثة بل كانت عندهم ذات بال

وكتلونية ودوخها ولكن المسيحيين طلبوا منه الصلح فأجابهم اليه ، ولما أخذ وزراؤه وقواده يحثونه على تقض هذا الصلح لما عند المسلمين من حب الجهاد ، أجابهم بهذه الآية البديعة من القرآن : (وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئلاً) نعم انه اشترط على كنت برشلونة وسائر أمراء الكتلان ذلك حصونهم القريبة من ثغوره وأخذ منهم موثقاً بأنهم لن يمالئوا أحداً من ملوك المسيحيين الذين يدخلون معه في حرب (١)

(١) قال ابن خلدون : ولاول وفاة الناصر طمع الجلالقة في الثغور فزنا الحكم المستنصر بنفسه واقتحم بلد فردند بن غنتشاب فنازل شنت اشتاين San Estevan وفتحها عنوة واستباحها وقتل فيادروا إلى عقد السلم معه واقتضوا عما كانوا فيه ، ثم أغزى غالباً مولاة بلاد جليقية وسار إلى مدينة سالم لدخول دار الحرب ، فجمع له الجلالقة ، ولقيهم فهزمهم واستباحهم ، واوطأ العساكر بلد فردند ودوخها . وكان شانجة بن رومير مالك البشكنس قد انتقض فأغزاه الحكم التجبي صاحب سرقسطة في العساكر ، وجاء ملك الجلالقة لنصره فهزمهم ، وامتنعوا بقورية وعاثوا في نواحيها ، وقتل . ثم أغزى الحكم أحمد بن يعلى ويعي بن محمد التجبي إلى بلاد برشلونة ، فعانت العساكر في نواحيها . وأغزى هنديل بن هاشم ومولاة غالباً إلى بلاد القومس فعاثا فيها وقتلا وعظمت فتوحات الحكم وقواد الثغور في كل ناحية . وكان من أعظمها فتح قلعية من بلاد البشكنس ، على يد غالب ، فعمرها الحكم واعتنى بها . ثم فتح قطوية على يدقائد وشنة وغنم فيها من الأموال والسلاح والاقوات والأثاث وفي بيطها من الغنم والبقر والرمك والأطعمة والسبي مالا يحصى .

قال : وفي سنة أربع وخمسين سار غالب إلى بلد ألبه ، ومعه يحيى بن محمد التجبي وقاسم بن مطرف بن ذى النون ، فابتنى حصن عرماج ودوخ بلادهم وانصرف . وظهرت في هذه السنة مراكب الجوس في البحر الكبير وأفسدوا بسائط اشبونة ، وناشبهم الناس القتال ، فرجعوا إلى مراكبهم . وأخرج الحكم القواد لاحتراس السواحل ، وأمر قائد البحر عبد الرحمن رماحس بتعجيل حركة الاسطول ، ثم وردت الأخبار بأن العساكر نالت منهم من كل جهة من السواحل . ثم كانت وفاة اردون بن اذفونش ملك الجلالقة وذلك أن الناصر لما أعان عليه شانجة بن ردمير وهو ابن عمه ، وهو المملك من قبل اردون وحمل النصرانية على طاعته واستظهر اردون بصهره فردند قومس قشتالة توقع مظاهرة الحكم لشانجة كما ظاهره ابوه الناصر ، فبادر إلى الوفاة على الحكم مستجيراً به فاحتفل لقدمومه وعي العساكر ليوم وفادته وكان يوماً مشهوداً ، وصفه ابن

وكان العرب لا يزال منهم جماعات محتلة لبروفنس ودوفيني ولا تزال الناس هناك تخشى عاديّتهم ، وكان الملوك في منازعاتهم يستعينون بهم فيكون الترجيح بواسطتهم .

حيان كما وصف أيام الوفادات قبله ، ووصل الى الحكم وأجلسه ووعد بالانصر من عدوه ، وخلع عليه ، وكتب بوصوله ملقياً بنفسه وعاقده على موالة الاسلام ومقاطعة فردلند القومس ، وأعطى على ذلك صفقة يمينه ورهن ولده غرسية ، ودفعت الصلات والمجلات له ولأصحابه وانصرف معه وجوه نصارى النعمة ليوطدوا له الطاعة عند رعيته ويقبضوا رهنه . وعند ذلك بعث ابن عمه شانجة بن ردمير ببيعته وطاعته مع قوامس أهل جليقية وسمورة وأساقفتهم ، يرغب في قبوله ويمت بما فعل أبوه الناصر معه ، فتقبل بيعتهم على شروط شرطها كان منها هدم الحصون والأبراج القريبة من ثغور المسلمين .

ثم بعث ملكا برشلونة وطوكونية وغيرهما يسألان تجديد الصلح واقرارهما على ما كانا عليه ويعثا بهدية وهى عشرون صنياً من الحصيان الصقالية وعشرون قنطاراً من صوف السمور ، وخمسة قناطير من القمدير ، وعشرة أذرع صقلية ومائتات سيف قرنجية . فتقبل الهدية وعقد على أن يهدموا الحصون التى تضر بالثغور ، وأن لا يظهروا عليه أهل ملتهم ، وأن ينزروا بما يكون من النصارى في الاجلاب على المسلمين .

ثم وصلت رسل غرسية ابن شانجة ملك البشكنس في جماعة من الأساقفة والقوامس يسألون الصلح ، بعد أن كان توقف وأظهر المكر ، فعقد لهم الحكم . فاغتنبوا ورجعوا . ثم وفدت على الحكم أم لدرىق القومس بالقرب من جليقية ، وهو القومس الأكبر فأخرج الحكم لتلقيها أهل دولته واحتفل لقُدومها في يوم مشهود مشهور ، فوصلت وأسعفت ، وعقد السلم لابنها كما رغبت ، ودفع لها مالا تقسمه بين وفدها دون ماوصلت به هى وحملت على بغلة فارهة بسرج ولجام مثقلين بالذهب وملحفة ديباج ، ثم عاودت مجلس الحكم للوداع فعاودها بالصلوات لسفرها وانطلقت .

ثم أوطأ عساكره أرض العدو ، من المغرب الأقصى والوسط ، وتلقى دعوته ملوك زناتة من مفراوة ومكناسة فبثوها في أعمالهم وخطبوا بها على منابرهم وزاحوا بها دعوة الشيعة فيا بينهم . ووفد عليه من بنى الحرز وبنى ابى العافية ، فأجزل صلتهم وأكرم وفادتهم وأحسن متصرفهم واستنزل بنى ادريس من ملكهم بالعدوة في ناحية الريف وأجازهم البحر الى قرطبة ثم جلاهم الى الاسكندرية . وكان محباً للعلوم مكرماً لأهلها جامعاً للكتب فى أنواعها بمالم يجمعه أحد من الملوك قبله . قال أبو محمد بن حزم أخبرنى تليد الحصى ، وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بنى مروان ، أن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربعة وأربعون فهرسة وفى كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها الا ذكر أسماء الدواوين لا غير . وأقام للعلم والعلماء سوقاً نافقاً جلبت اليه بضائعه من كل قطر

وكان أوتون ملك الألمان بعد أن قهر المجار واستصنى جميع ألمانيا اجبر البابا على تنويجه بتاج الامبراطورية وتغلب على برانجة ملك لونياردية ، وخرج هذا من مملكته شريداً فقام ابنه ادالبرت للمطالبة بملك أبيه . وروى بعض المؤرخين مثل البريك المنقول تاريخه في مجموعة لاينبتز أن ادالبرت استعان بمسلمي فركسينت .

وفي سنة ٩٥٦ تم اجلاء العرب عن غرينوبل . وقد تقدم أن أساقفة هذه المدينة كانوا هجروها الى ساندونات من جهة فالانس ، فقام أحدهم ايزاردن وجمع أكبر البلاد وقوادها واستنفرهم لقتال المسلمين . وكان هؤلاء يملكون اخصب النواحي وأجود الأراضي فتقرر أن كل انسان يكون نصيبه من هذه الأراضي بقدر بسالته واقدامه . فلما تمكن الأهالي من اجلاء العرب عن غرينوبل ووادي غرازيفودان تقاسم المقاتلون للعرب تلك البقاع التي كانت ييدهم بحسب درجة انغماسهم في الحرب . ومن ذلك جاءت ثروة بعض العائلات القديمة في مقاطعة دوفيني ومن جملتها عائلة اينارد Aynard التي يقال ان أصل ثروتها من تلك الحرب الصليبية . وبعد أن استصنى الأسقف إيزورن تلك البلاد ومحا آثار العرب فيها أعلن عن نفسه أميراً على

قال أبو محمد بن خلدون : ولما وفد على أبيه أبو علي الفاي ، صاحب كتاب الأموال ، من بغداد أكرم مشواه وحسنت منزلته عنده ، واورث أهل الأندلس علمه ، واختص بالحكم المستنصر واستفاد علمه . وكان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار ويرسل اليهم الأموال بشرائها حتى جلب منها الى الأندلس مالم يعهدوه . وبعث في كتاب الأغاني الى مصنفه أبي الفرج الاصفهاني ، وكان نسبة في بني أمية ، وأرسل اليه فيه بألف دينار من الذهب العين ، فبعث اليه بنسخة منه قبل أن يخرج الى العراق . وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الابهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم وأمثال ذلك .

وجمع بداره الخدائق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والاجادة في التجليد ، فأوعى من ذلك كله واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده ، الا ما يذكر عن الناصر العباسي ابن المستضيء . ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة الى أن بيع أكثرها في حصار البربر وأمر باخراجها ويبيعها الحاجب واضح من موالى النصور ابن أبي عامر ، ونهب ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم إيها عنوه .

انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار .

غرينوبل وعلى الوادى . وحفظ خلفاؤه تلك الامارة مدة طويلة وبقى جانب من امتيازاتهم الى زمن الثورة الافرنسية .

فالقارى يرى أن أمور المسلمين فى تلك الاصقاع كانت قد أخذت تتراجع الى الواء ، وأن ذلك التقهقر كان يزيد طمع الأهالى فى التخلص منهم تماماً ، ففى سنة ٩٦٨ نادى الامبراطور أوتون بهننه العزيمة وأجمع أن يستأصل شأفتهم من هذه النواحي ، الا انه مات قبل أن يحقق وعده . وكان فى ذلك العصر رجل لا يذكر اسمه الا مقروناً بالتجلة والاكرام سواء عند الملوك أو بين الشعوب وهو القديس مايول Mayenl الذى كان قسيساً فى بلدة كلونى Cluny فى بورغونية ، وكان قد بلغ من شهرته بالفضائل أن تحدث الناس بانتخابه لمقام البابوية ، وكان هذا القديس ذهب الى رومة لزيارة كنائسها وفى اياه من رومة جاءت طريقه على بلاد البييمونت قاصداً الرجوع الى ديره من جهة جبل جنيفر Genevre وأودية دوفيني ، وكان المسلمون اذ ذاك محتلين البلاد الواقعة بين غاب Gap وامبرون Embrun ومركزهم فى الأعلى المشرفة على وادى دراك Drac بازاء جسر أورسيير (ولا يزال هذا المكان معروفا الى اليوم) فلما وصل القديس مايول الى ذيل الالب وجد هناك عدداً كبيراً من الزوار القافلين من رومة والمسافرين قد علموا بمجيئه فانتظروه ليسيروا معه اذ لم يكونوا يرجون أن تتدح لهم فرصة خير من هذه لاجتياز جبال الالب . فتقدمت قافلة القديس . وفيها هذا الجهم الفقير . وما وصلوا الى ضفاف الوادى سائرين فى طريق منحصرة بين الجبل والنهر ، حتى انهال عليهم العرب يرشقونهم بالسهم من عل . وكان العرب نحواً من الف مقاتل ولم يكن للمسيحيين مفر ، فأحيط بهم ووقع أكثرهم فى الاسر . وكان من جملة الاسرى القديس مايول ، وقد جرح فى يده وهو يذب عن أحد رفاقه ؛ فسيق الاسرى الى مكان على حدة ، وكان أكثرهم فقراء لا يطعم الانسان من ورأهم فى مغنم فدنا العرب من القديس وسألوه عن درجة يساره فأجابهم القديس بأنه من قوم أغنياء ولكنه خرج من جميع أملاكه ووقف نفسه على عبادة ربه وهو الآن راهب فى دير ذى أملاك وأراض واسعة فتساوتوا معه على

فدية تبلغ مائساوي ألف لييرة من الفضة أو ثمانين ألف فرنك من المعاملة الحاضرة .
وطلب العرب من القديس أن ينفذ رفيقه الى دير كلوني ليحمل اليهم المال وضربوا
له موعداً قالوا له ان فات هذا الموعد ولم يروا المال فانهم يقتلون القديس وسائر الأسرى
فكتب القديس الى الدير قائلاً : الى آباء كلوني والاخوان الذين فيه مايول
المسكين أسير مكبل بالقيود النخ . فلما وصل هذا الكتاب ارتفع البكاء والعويل
من كل جانب وأسرعوا بجمع الأموال واستجدوا أ كلف ذوي الجمية وجردوا
الكنيسة من زخرفها ، وأرسلوا كل ما وقع في أيديهم من المال لفكك القديس
ومن معه من الأسرى . فوصل المال قبل انقضاء الأجل وأطلق المسلمون سراحهم
وكان القديس في أثناء وقوعه في الاسر قد حاول أن يرشد المسلمين قائلاً لهم : ان
الذي يعتقدون به لا يقدر أن يخلصهم من العذاب ولا ينفعهم بشيء . فعند ما سمعوا منه
هذا الكلام حاجت حفيظتهم وشدوا وثاقه وصاروا به الى أحد الكهوف وحبسوه
فيه ثم انهم عادوا فسكنوا ورجعوا الى معاملته بالحسنى . وكان اذا اشتهى الطعام جاء
أحدهم وغسل يديه وأصاح له طعاماً شهيماً ووضع بين يديه بكل أدب . وكان مع
القديس نسخة من التوراة ، فحاف أحد المسلمين ومد يده اليها بدون احترام ، فلامه
رفاقه وقالوا له : ان هذا كتاب مقدس ونحن معاشر المسلمين نقدر جميع الكتب
السبوية . وبهذه المناسبة قال أحد كتاب ذلك العصر : ان المسلمين يحترمون مثلنا
انبياء العهد القديم ويرون المسيح نبياً كبيراً وانما يجعلونه على كل حال أصغر من محمد
بقولهم ان محمداً كان خاتم الرسل وهم يقولون ان محمداً هو من سلالة اسماعيل ابن ابراهيم .
وقد وقعت حادثة القديس مايول هذه في سنة ٩٧٣ فصار لها دوى عظيم في
الاقطار وضح لها المسيحيون الصغار والكبار وهبوا طالبين الأخذ بالثأر وكان في
نواحي سيسترون Sisteron في قرية يقال لها نويه Noyers رجل نبيل يقال له بوبون
Behon كان قد استنفر الناس مراراً لتخليص هذه البلاد من العرب فانتهز هذه
الفرصة التي كان فيها الناس غضاباً من أجل حادثة مايول فجمع كلمة الفلاحين والأعيان
وسكان البوادي والخواضر ممن يغضبون للدين والوطن ثم بنى حصناً في نواحي

سيسترون بإزاء حصن كان ينزله المسلمون يريد بذلك مراقبة حركاتهم حتى ينقض عليهم في أول غرة و يتقحم أول ثلثة . وحاول المسلمون أن يمرقلوا مساعى بوبون هذا فلم يفلحوا وكان الحصن الذى فيه المسلمون على رأس جبل يقال له « بيترة انبيه » . Petra - Empia و بينا الفريقان يداور كل منهما الآخر اذ اغتصب قائد حصن العرب امرأة الحرسى الموكول اليه باب الحصن فانتقم البواب المذكور عن هذه الفعللة بان عرض على بوبون أن يفتح له الباب على حين غرة فيدخل الى الحصن و يفتك بمن فيه . وهكذا تم وجاء بوبون ومعه رجاله فوجدوا الباب مفتوحا فدخلوا وذبحوا المسلمين وهم غارون ومنهم من عرض على المسيحيين ان يقتصر فهُؤلاء عفوا عنهم واستحيوهم ومن جملتهم القائد وقد جعلت الكنيسة بوبون هذا فى مصاف القديسين كما يستفاد من المجموعة البولندية (١)

وفى الوقت نفسه كان أهالى غاب (٢) قد ثاروا بالعرب ووثبوا عليهم واستأصلوهم . وجاء فى كتاب قديم يتعلق بهذه البلدة أن الذى جمع كلة الالهين وثار بهم على العرب هو رجل يقال له غليوم فكبسوا العرب بيانا فى جميع المواقع التى كانوا يحتلونها ، واستأصلوا عرقاتهم وكانت مكافأة الذين قاموا بهذه الحرب أن أخذوا نصف البلدة ونصف الأراضى وتركوا النصف الآخر للمطران والكنائس . وهكذا تحررت بلاد الدوفينى وأصبح خلاص مملكة بروفنس بعد ذلك قريبا .

وان من المؤسف أن لاتكون لدينا على هذا الحادث المهم معلومات مفصلة ، وغاية ما علمناه أن غليوم كونت بروفنس هو الذى تولى كبر تلك الحرب . ومن يدرى فقد يكون هو نفسه غليوم الذى عنى آثار العرب فى « غاب » فان غاب كانت من توابع بروفنس . وكان غليوم كونت بروفنس محبا للعدل محافظا على الديانة برأ برعيته فأجبه رعاياه حبا جما . ولما استنفر أهالى بروفنس ودوفينى السفلى ونيس لقتال العرب لبوا

(١) هى مجموعة حياة القديسين منسوبة الى راهب يسوعى اسمه بولاند . وقد بدأ هو بها وأكملها غيره فصارت تسمى مجموعة البولنديين .

(٢) قصبة هى مركز مقاطعة الألب العليا كان العرب استولوا عليها طويلا .

تدأه ، فلما اجتمع اليه الجم الغفير منهم قصد أن ينهد الى العرب في فركسينت ، وعند ما علم العرب أن أهالي البلاد ضيقوا عليهم من كل جانب نزلوا من جبالهم مجتمعين ودافعوا عن أنفسهم صفاً وأول معركة وقعت معهم وقعت في نواحي دراغينمان Dragengman في مكان يقال له تور تور Tourtour حيث يوجد الى الآن برج مبنى منذ ذلك اليوم ، تذكرنا تلك المعركة ، فانهزم المسلمون والتجأوا الى حصن منيع . ولكن المسيحيين أخذوا بمخنقهم حتى اضطروهم أن يغادروا الحصن ليلاً ويلجأوا الى الحراج المجاورة ، فتأثرهم أهالي البلاد وتغلبوا عليهم ، فقتل أكثرهم ، وأخذ الباقون أسرى^(١) وجميع من وقع في الأسر أو استسلم من المسلمين عفوا عنه كما أنهم لم

(١) نقل رينو هذا الخبر عن مجموعة مؤرخي فرنسة وقال من الجائز أن يكون بعض المسلمين فروا الى البحر وذهبوا الى الأندلس أو الى صقلية أو الى سواحل افريقية . وقد قال دربلو D'Herhelot في «المكتبة الشرقية» تحت اسم المعز وكذلك كاردون Cardonne في تاريخ مغاربة افريقية انه في ذلك الوقت أي نواحي سنة ٩٧٠ كان المسلمون مالكيين لجزيرة سرديانية وأن الخليفة المعز قبل أن يفتح مصر كان أقام بسرديانية مدة سنة وقد وافق على هذه الرواية ميمو Mimaut صاحب تاريخ سرديانية وزعم «دلين» Delbene أن المسلمين كانوا استولوا على كورسكة أيضا وهي التي يقول لها العرب قرسقة .

ويقول دلين انه كان لهم أمير يقال له «موجه» Mugat جرد عليه كونت بروقنس جيشاً انضم اليه الجنويون . ولاشك أن دلين يريد أن يتكلم عن الأمير مجاهد الذي كان أغار على سرديانية وكان البيزانينيون أو البيازنة (كما يقول العرب) ولكن قصة مجاهد هذا وغارته على سرديانية متأخرة عن هذا التاريخ بنحو من ثلاثين سنة . انتهى كلام رينو .

قلت مجاهد العامري من ممالك الملك الغازي الشهاب المنصور بن أبي عامر ، كان بعد ذهاب دولة المنصور قد تقلبت به الأحوال ، فاستولى على دانية وشن الغارة على سرديانية . ترجمه ابن عميرة في بنية المنصور فقال : مجاهد بن عبدالله العامري . أبو الجيش الموفق ، مولى عبد الرحمن الناصر بن المنصور محمد . كان من أهل الأدب والشجاعة والعلوم وأهلها . نشأ بقرطبة وكانت له همة وجلادة وجراءة ، فلما جاءت أيام الفتنة وتغلبت السكاكر على النواحي بذهاب دولة ابن أبي عامر قصد هو في من تبعه الجزائر التي في شرق الأندلس ، وهي جزائر خصب واسعة ، فغلب عليها وحماها (يريد بهذه الجزائر ميورقة ومينورقة ويابسة) ثم قصد منها في المراكب الى سرديانية (جزيرة من جزائر الروم كبيرة) في سنة ست أو سبع وأربعمائة فغلب على أكثرها وافتتح معانقها .

يقتلوا المسلمين الذين كانوا ساكنين وادعين في القرى المجاورة . ومن هؤلاء من تنصر
واندمج في الأهالي ، ومنهم من بقي مسلماً ولكنه أصبح رقيقاً مستخدماً إما في

ثم اختلفت عليه أهواء الجند وجاءت امداد الروم ، وقد عزم على الخروج منها طمعاً في تفرق من
يشغب عليه ، فعاجلته الروم وغلبت على أكثر مراكبه ، فأخبرني أبو الحسن نجبة بن يحيى قال :
أبناؤنا شريح بن محمد عن أبي محمد بن حزم قال ان أبا الفتح ثابت بن محمد الجرجاني قال : كنت مع
أبي الجيش مجاهد في سردانية فدخل المراكب في المرسى نهاه عنه أبو خروب رئيس البحرين ، فلم
يسمع كلامه ، فهبت ريح فجعلت تهدف مراكب المسلمين مركباً مركباً الى الريف ، والروم وقوف
لاشغل لهم الا القتل والاسر للمسلمين ، فكلما سقط مركب بين أيديهم جعل مجاهد يبكي بأعلى
صوته ، لا يقدر هو ولا غيره على أكثر من ذلك ، لارتجاج البحر وزيادة الريح
الى أن يقول : قد كنت حذرته من الدخول ههنا فلم يقبل ، قال فبجريمة الذنن ماتنا في
يسير من المراكب . هذا آخر خبر ثابت بن محمد .

ثم عاد مجاهد الى الجزائر الأندلسية التي كانت في طاعته واختلفت به الأحوال حتى غلب على دانية
ومايلها ، واستقرت اقامته فيها . وكان من السكرماء على العلماء ، باذلاً للرغائب في استئالة الأدباء ،
وهو الذي بذل لأبي غالب اللغوي تمام بن غالب ألف دينار على أن يزيد في ترجمة الكتاب الذي
ألفه في اللغة مما ألفه لأبي الجيش مجاهد على ما ذكرنا في باب الناء . وفيه يقول أبو العلاء صاعد
ابن الحسن اللغوي وقد استأله على البعد بخريطة مال ومركب أهدهما اليه قصيدة أولها :

أنتنى الخريطة والمركب كما اقترن السعد والكوكب
وحط بمينائه قلعة كما وضعت حملها المقرب
على ساعة قام فيها الثناء على هامة المعتبرى يخطب

الى أن قال

مجاهد رضت إباء الشموس فأحبب ما لم يكن يصحب
فقل واحتكم فسمع الزمان مصيخ اليك بما ترغب

وقد ألف في العروض كتاباً يدل على قوته فيه . ومن أعظم فضائله تقديمه للوزير الكاتب أبي العباس
أحمد بن رشيق وتمويله عليه ، وبسط يده في العدل وحسن السياسة . وكان موته بدانية في
سنة ٤٣٦ .

وجاء في معجم البلدان لياقوت ان المسلمين غزوا سردانية في سنة ٩٢ في عسكر موسى بن نصير
والذي قرأته في التواريخ أن عبد الله بن موسى بن نصير هو الذي فتح مبدرة واخواتها ولعله
غزا سردانية .

أراضي الأديار أوفى أراضي الرعماء . وقد بقيت لهذه الأمة بقايا معروفة مدة طويلة كما سيأتى الكلام عليه .

أما سقوط حصن فر كسينت فقد وقع في سنة ٩٧٥ وكانت مدة بقاء هذا الحصن في أيدي المسلمين أكثر من ثمانين سنة . ولما كان هو المركز الأصلي لجميع العرب المنتشرين في داخل فرنسا وشمالى ايطالية وفي سويسرة ، فلا بد من أن ذلك الحصن كان ملائ بالأموال والنفائس ، فوزع الكونت غليوم صاحب بروفنس تلك الأموال على الذين امتازوا بقتال العرب ؛ وأشهرهم « جيبيلين غريما لدى » الذى كان من أهل جنوة فانه كوفى على اقدامه بالأراضي التى كانت في منتهى خليج سان ترويز . ومن يذكر بين المشاهير الذين جالدوا حق الجلال بهذه الحرب مسيحي آلت اليه السيادة على مدينة كاستلان Castallane في مقاطعة الالب السفلى . وربما

وجاء في تاريخ ابن عذارى المراكشى المسمى بالبيان المغرب ، أن المسلمين غزوا سردانية في سنة ٢٠٦ وعليهم محمد بن عبد الله التميمي فأصابوا وأصيب منهم ثم قتلوا . وقد اطلعت في مدينة جنوة على تاريخ الطلياني للجمهورية جنوة لمؤلف يقال له « فريديسي دونافر » De Naver جاء فيه انه في سنة ١٠١٦ ذهب أسطول جنوى إلى سردانية وتغلب على قوة مجاهد الأمير العربى الذى كان استولى عليها ، وانه في سنة ١٠٣٤ وصل الأسطول الجنوى الى افريقية واحتل الجنوبية عنابة . وانه في سنة ١٠٨٧ ذهبت الأساطيل الجنوبية والبيزانية ، ومعها اسطول اماني (بقرب نابولي) بأمر البابا فكتور الثالث ، واجتاحت سواحل تونس وطرابلس واضطر أمير افريقية أن يدفعهم عنها بقدية تبلغ نصف مليون بحسب المعاملة في زمن صاحب التاريخ وسلم اليهم الأسرى المسيحيين الذين كانوا عنده .

وتما جاء في تاريخ جنوة هذا أنه في مدة ١٣ سنة غزا الجنوبية ثمانى غزوات في بلاد الاسلام ، وان فتح الصليبيين لطرابلس انشام كان على أيدي الجنوبية في ١٣ تموز سنة ١١٠٩ وان أمير يانثى قائد الجنوبية تولى مدينة جيل ثم انه في سنة ١١١٠ كانت له اليد الطولى في حصار بيروت وفتح الصليبيين لها . قال : واشترك الجنويون مع غودفروا دو بويون في فتح القدس وفتحوا صور وقيسارية .

هذا وجاء في تاريخ الخلفاء للإمام السيوطي أن الوليد بن عبد الملك تولى الخلافة في شوال سنة ست وثمانين وانه في سنة ٨٧ فتح سردانية من جملة فتوحات عدها وانه في سنة ٨٩ فتح جزيرتي ميورقة ومينورقة .

كانت ثروة آل كاستلان الحاضرة راسحة عن تلك الفتوحات . ولا ينبغي أن ننسى أن العرب كانوا أيضاً قد أجلوا عن مدينة ريز في (الألب السفلى) فانه في كل سنة يحتفل أهالي هذه البلدة بعيد خلاصهم منهم الذي يصادف يوم العنصرة . وقد استولت الكنيسة أيضاً على كثير من الأراضي التي كانت بأيدي المسلمين . وذلك لأن رجال الدين المسيحي كانوا قد أصيبوا أكثر من سواهم بهذه الغارات العربية وتهدم كثير من أديارهم فلهذا كانوا هم دائماً في طليعة الحركة لاجلاء العرب ، فقال أساقفة فريجس ونيس نصيباً كبيراً من الأراضي التي كانت بأيدي المسلمين . وفي طولون وقع نزاع بين الأهالي على الأراضي التي كانت للمسلمين لأنه كان قد طال حكم العرب لتلك البلدة فدفرت آثار الملك القديم واصبحت الحدود مجهولة . فجاء الصكونت غليوم من آرل وأجرى التقسيم بين الأديار والأهالي والامراء ، وأرضي الجميع . ولذلك بقى لغليوم هذا اسم كبير في التاريخ ، وأطلقوا عليه لقب أبي الوطن .

فقد تقرر اذاً أن سقوط حصن فركسينت في أيدي المسيحيين وقع في سنة ٩٧٥ وانه من ذلك الوقت لم يبق للمسلمين شيء في أرض فرنسة . نعم ان بعض المؤرخين ومنهم دالين المار المذكور يزعم بقاء المسلمين في جبال الالب مستمراً الى ما بعد سنة ٩٨٠ بل الى ما بعد سنة الألف ، ولكننا لا نثق بهذه الرواية ، ونظن أنه ان كانت قد بقيت عصابات عربية في جبال الالب من بعد تاريخ سقوط فركسينت فلا تكون عصابات محاربة بل تكون عصابات مستسلمة وقد اردت عن الاسلام الى النصرانية أو صار رجالها في حكم الرقيق . وبالاختصار فمن بعد ذلك العهد لم يبق على أتباع الانجيل خطر من أتباع القرآن الا ان كان من قبيل وقائع قرصانية كان لا بد لأجل التخلص منها من مطاردة البرابرة الى نفس بلادهم .

وفي سنة ٩٧٦ مات الخليفة الحكم الثاني في قرطبة وكان ابنه بليداً فتقلد الامور الحاجب الملقب بالمنصور وكان آية باهرة في البسالة والاقدام وحسن التدبير بلى منه النصراني بياقة لا نظير لها فاعاد للاسلام رونقه الأول وبث الغارات في أطراف بلاد

النصرانية حتى أوقع الذعر في جميعها وعادت النصرانية على شفا خطر عظيم . وكان المنصور عندما تسلم الزمام قد بدأ بترتيب أمور الولايات الافريقية ، حيث أدخل في الطاعة جميع أهلها وجند منهم الجيوش الجرارة واستنفر أيضا أهل الأندلس منتخبا منهم أشجع الشبان وأخذ يشوقهم الى القتال ويمرهم عليه . وكانت غزوات المنصور كلها في فصل الصيف ، ما عدا غزاة واحدة ، وذلك لأن رجال افريقية كانوا لا يتحملون برد الاصقاع الشمالية . وبلغ عدد غزواته في مدة سبع وعشرين سنة ستا وخمسين غزوة ، لم تنهزم له فيها راية ولا ولي جيشه مدبرا^(١)

وكان المسلمون في الغالب فرسانا فاذا قصدوا الى بلاد النصارى وهزموا لهم جيشا ذهبوا الرجال وسبوا النساء والأولاد وباعوهم رقيقا ، فكنت ترى بعد كل غزاة من غزوات المنصور أسواق قرطبة واشبيلية واشبونة وغرناطة مكتظة بالرقيق من ذكور وإناث ، وكان تجار الرقيق يأتون بهذه الخلائق الى افريقية ومصر وسائر بلاد الاسلام فتنتشر فيها . وكان المنصور يرى جهاده في بلاد النصرانية أفضل قرباته الى الله تعالى ، وكان يستصحب في جميع اسفاره التابوت الذي يريد أن يوضع فيه عند موته . وكان من عاداته أن ينفذ الغبار الذي يعلق بثيابه في أثناء غزواته ويجعله في ذلك التابوت ، ليصنع منه لبنة يضمها تحت رأسه عند الموت . فجال غزاة المسلمين تحت راياته المنصورة في قشتالة وليون وناباره وآراغون وكتلونيه الى أن وصلوا الى غاشقونية وجنوبي فرنسة

وجاست خيل المنصور في أماكن لم يكن خفق فيها علم اسلامي من قبل ، وسقطت مدينة شانتياق من جليقية وهي أقدس معهد مسيحي في اسبانية في أيدي المسلمين ، واحرقت تلك المدينة . وأخذت اجراس الكنيسة الكبرى المعروفة بكنيسة

(١) لي من قصيدتي الأندلسية التي نظمتها بعد وصولي الى قرطبة :

وسائل عن المنصور نجل ابن عامر يجاوبك عنه كل قوس موتر
غزا في العدى ستا وخمسين غزوة فأب بها طرا بنصر مؤزر

(م - ١٣)

القديس يعقوب الى قرطبة حيث عمل منها قناديل وعلقت في الجامع الأعظم . ولأجل أن يزيد المنصور من اذلال المسيحيين أجبرهم على حمل الاجراس المذكورة على ظهورهم من شاتياقب الى قرطبة وهي مسافة ثمانمائة كيلو متر ولا ينكر أن المسيحيين عادوا عند ما دخلوا قرطبة فاسترجعوا هذه الاجراس وحملوها على ظهورهم من قرطبة الى شاتياقب ، وتلك الايام نداولها بين الناس .

وفي أيام المنصور ^(١) كاد الأمل ينقطع من بقاء النصرانية في اسبانية ، فاتحد

(١) سنأتي في الأجزاء التالية على كل ما يتصل بنا من أخبار المنصور بن أبي عامر الذي يقدر أن يضعه المؤرخون في الصف الأول من رجال العالم ، لأن محل هذه الترجمة هو في تاريخ الاندلس لافي تاريخ فرنسا ، ولكن من حيث ان المستشرق رينو أشار الى غزوات المنصور الشهيرة لم نشأ أن نخلى هذا الجزء أيضاً من شيء من ترجمته ، فنقول :

جاء في فتح الطيب مايلي : ومن ذلك غزوة المنصور لمدينة شنت ياقب قاصية غليسية وأعظم مشاهد النصرى الكائنة ببلاد الاندلس وما يتصل بها من الأرض الكبيرة ، وكانت كنيسة عندم بمنزلة الكعبة عندنا « والكعبة المثل الأعلى » فيها يحلفون واليها يجمعون من أقصى بلاد رومة وما وراءها ، ويؤمنون أن القبر المزور فيها قبر ياقب أحد الحواريين الاثني عشر وكان أخصم عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وهم يسمونه أخاه الزومه إياه وياقب بلسانهم يعقوب ، وكان أسقفاً ببيت المقدس فجعل يستقرى الأرضين داعياً لمن فيها حتى انتهى الى هذه القاصية ، ثم عاد الى أرض الشام فمات بها ، وله مائة وعشرون سنة شمسية ، فاحتبل أصحابه رمته فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثره . ولم يطعم أحد من ملوك الاسلام في قصدها ولا الوصول اليها لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها وبعد شقتها فخرج المنصور اليها من قرطبة غازياً بالصائفة يوم السبت لستة بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، وهي غزوته الثامنة والأربعون ، ودخل على مدينة موريتة فلما وصل الى مدينة غليسية وافاه عدد عظيم من القوامس المتسكين بالطاعة ، في رجالهم وعلى أتم احتفالهم ، فصاروا في عسكر المساهين وركبوا في المغاورة سبيلهم ، وكان المنصور تقدم في انشاء أسطول كبير في الموضع المعروف بقصر أبي وانس من ساحل غرب الاندلس وجيزه برجاله البحريين وصنوف المترجلين وجمال الأقوات والأطعمة والعدة والأسلحة باستظهاراً على نفوذ المزيمة ، الى أن خرج بتوضع برثقال على نهر دويرة فدخل في النهر الى المكان الذي عمل المنصور على العبور منه ، فمقد هناك من هذه الاسطول جسراً يقرب الحصن الذي هنالك ، ووجه المنصور

ملوك النصارى بأجمع أصحاب ليون ونابار وقشتالة وسائر المقاطعات المسيحية ، وبنذوا كل ما كان بينهم من خلاف . وصاروا عصابة واحدة ، وتسليح الأساقفة والقسيسون

ما كان فيه من الميرة الى الجند فتوسعوا في التزود منه الى أرض العدو ، ثم نهض منه يريد شانت ياقب فقطع أرضين متباعدة الأقطار وقطع بالبور عدة أنهار كبار وخلجان يدها البحر الأخضر ، ثم أفضى العسكر بعد ذلك الى بسائط جليلة من بلاد فرطارس وما يتصل بها ثم أفضى الى جبل شامخ شديد الوعر لامسلك فيه ولا طريق لم يهتد الادلاء الى سواه ، فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه فقطع العسكر وعبروا بعده وادى منية وأنبسط المسلمون بعد ذلك في بسائط عريضة وأرضين ، وانتهت مغيرتهم الى دير قشان وبسيط يلتبوا على البحر المحيط ، وفتحوا حصن شنت بلايه وغتموه وعبروا بساحته الى جزيرة من البحر المحيط لجأ اليها خلق عظيم من أهل تلك النواحي ، فسبوا من فيها من لجأ اليها . وانتهى العسكر الى جبل مراسية المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط فتخللوا أقطاره واستخرجوا من كان فيه وحازوا غنائمه ، ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليجاً في معبرين أرشد الأدلاء اليهما ثم نهرا به ثم أفضوا الى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة ، ثم انتهوا الى موضع من مشاهد ياقب صاحب القبر تلو مشهد قبره عند النصارى في الفضل يقصد لساكنهم له من أقاصى بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرها ففادره المسلمون قاعاً ، وكان النزول بعد على مدينة شانت ياقب البائية ، وذلك يوم الأربعاء للثنتين خلنا من شعبان ، فوجدها المسلمون خالية من أهلها فعاز المسلمون غنائمها وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها وعفوا آثارها ، ووكّل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الأذى عنه . وكانت مصانعها بديعة محكمة فنودرت هشيماً كأن لم تكن بالامس وانتسفت بعد ذلك سائر البسائط . وانتهت الجيوش الى مدينة شنت مافكش متقطع هذا الصقع على البحر المحيط ، وهي غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ولا وطنها لغير أهلها قدم ، فلم يكن بعدها للخيّل مجال ولا وراءها انتقال ، وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقب وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله ، فجعل في طريقه القصد على عمل برمند بن اردون يستقره عائناً ومفسداً حتى وقع في عمل القوامس المعاهدين الذين في عسكره فأمر بالسكف عنها ومر مجتازاً حتى خرج على حصن بليقية من افتتاحه ، فأجاز هنالك القوامس بجملتهم على أقدارهم ، وكساهم وكسا رجالهم وصرفهم الى بلادهم وكتب بالفتح من بليقية

وكان مبلغ ما كساه في غزاه هذه الملوك الروم ولبن حسن غنائمه من المسلمين الفين ومائتين وخمباً وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازي وواحداً وعشرين كساء من صوف البحر وكسائين غيريين وأحد عشر سقلاطونا وخمسة عشر مزيماً وسبعة أمانط-دياج وثوبين ديباج روى وفيروى فلكه ،

وساروا في مقدمة الجيوش بحسب رواية مؤرخي النصارى على ما في مجموعة الدون بوكه . واجتمعت جيوش جرارة من المسيحيين على حدود قشتالة القديمة ، وحشد المنصور جميع ما عنده من قوة وكانت الواقعة هي التي ستكون الفاصلة بين الفريقين ، وتلاقى الجمعان على نهر دويره فكانت المعركة من أهول ما يتصور العقل وقيت طول النهار وسالت الدماء كالأنهار ولم ترجح فئة على الاخرى ، ولكن المسيحيين كان أكثرهم في زرد الحديد فكان التلف منهم أقل . ولما خيم الظلام رجعت كل فئة الى مخيمها وانتظر المنصور مجيء قواده وأعوانه للتشاور معهم فلم يحضر منهم أحد فسأل عن سبب تأخرهم فقليل له أنهم سقطوا صرعى في المصاف ، فلم المنصور أن العاقبة وبيلة والثالث جسمه وامتنع عن أخذ أى علاج ، ومات بعد أيام قلائل ، فدفنوه في الثياب التي كانت عليه يوم المعركة وفي التابوت الذي كان يحمله معه ليدفن فيه . ولا يزال قبره معروفاً في مدينة سالم^(١)

ووافى جميع العسكر قرطبة غانماً وعظمت النعمة والمنة على المسلمين ولم يجد بشئ ياقب إلا شيخاً من الرهبان جالساً على القبر فسأله عن مقامه ، فقال : اونس يعقوب . فأمر بالكف عنه . قال : وحدث شعله قال : قلت للمنصور ليلة أطال سهره فيها : قد أفرط مولانا في السهر وبدنه يحتاج الى أكثر من هذا النوم وهو أعلم بما يحركه عدم النوم من علة العصب ، فقال : يا شعله الملك لا ينام اذا نامت الرعية ولو استوفيت نومي لما كان في دور هذا البلد العظيم عين نائمة . انتهى ما نقلته من الكتاب المذكور

(١) جاء في نفح الطيب نقلاً عن ابن سعيد أن المنصور رحمه الله توفي في غزاته للفرنجة سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة وحمل في سريرته على أعناق الرجال وعسكره يحف به وبين يديه الى أن وصل الى مدينة سالم انتهى

وجاء في النفح من جملة مناقبه أنه خط يده مصحفاً كان يحمله معه في أسفاره وغزواته يدرس فيه ويتبرك به ، ومن قوة رجائه انه اعتنى بجمع ماعلق بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده فكان الخدم يأخذونه عنه بالنناديل في كل منزل من منازلهم حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بتصويرها في حنوطه ، وكان يحملها حيث سار مع أكفانه ، توقفاً لحلول منيته ، وقد كان اتخذ الاكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته . وكان يسأل الله أن يتوفاه في طريق الجهاد فكان كذلك انتهى .

قلت : وقبره معروف في مدينة سالم والاسبانيول يلفظونها مدينة سالى أو ثالى بالناء

وكان المنصور طول استيلائه على الدولة جامعاً بين مجد السيف ومجد القلم ، فازدهرت في أيامه العلوم والصنائع وتقدمت الزراعة وازداد العمران وبلغت الاندلس لعهد من السعادة مبلغاً لم تعرفه من قبل . وفي أيام المنصور انتشرت مبادئ الفروسية «Chevalerie» والمبالغة في حفظ الشرف والرفق بالمرأة وبأى ضعيف ونجدة الملهوف أياً كان . وهذا أمر لا نزاع فيه إلا ان المسيو فياردو Veiredot في كتابه المسمى « مشاهد الاخلاق العربية في اسبانية في القرن العاشر » قد تجاوز الحد في زعمه أن العرب لعهد المنصور ، هم الذين قرروا نظام الفروسية كما كان معروفاً عند فرسان المسيحيين فيما بعد ، وقد كان واجباً على المسيو فياردو أن يأتي بالبرهان على ما قاله لأن الذي بأيدينا من تواريخ الذين عاشوا في ذلك العصر ليس فيه شيء مما قرره المسيو فياردو^(١)

وكانت وفاة المنصور سنة ١٠٠٢ فقام بالأمر بعده ابنه عبد الملك ولكنه مات سنة ١٠٠٨ وبموته انقضت أيام الاسلام الزاهرة في اسبانية^(٢)

ثم نشبت الحرب الداخلية في قرطبة وأخذت الحكومات تهدم بعضها بعضاً وفترت الحية الاولى وبدأ الاسلام يتقهقر ويستسرّ بדרه منذ ذلك الوقت . وقد كان في استطاعة المسيحيين من شمالي الاندلس أن يسترجعوا بلاد آباؤهم وأجدادهم من ذلك الحين الا انهم هم أنفسهم أيضاً كانوا منقسمين وكانت المداوة بين نابار وغاليسية كما كانت بينهم وبين المسلمين ، وكان المسيحيون يدخلون في حروب المسلمين بعضهم

(١) ذهب كثير من المؤرخين الى أن نظام الفروسية الذي كان معروفاً في اوروبا في القرون الوسطى رشح الى الاوربيين من عرب الاندلس ولنجيب بك غالى من أفاضل المصريين الأقباط كتاب تقيس في هذا الموضوع معزز بالأدلة والشواهد

(٢) جاء في النسخ : ولما توفي المنصور قام بالأمر بعده ابنه عبد الملك المظفر أبو مروان فجري على سنن أبيه في السياسة والغزو وكانت أيامه أعياداً دامت مدة سبع سنين وكانت تسمى بالسابع تشيياً بسابع العروس ولم يزل مثل اسمه مظفراً الى أن مات سنة تسع وتسعين وثلاثمائة في المحرم وناثرت الطوائف في ممالكهم وتحركت الجلائفة لاسترجاع ممالكهم وحصونهم انتهى

مع بعض منحازين الى احدى الفئتين المتقاتلتين حسب مقتضى مصلحتهم ، وربما كان مع كل من الفئتين فئة من المسيحيين ؛ وكان الاساقفة بأنفسهم يخوضون غمرات هذه الحروب . وفي سنة ١٠٠٩ انضم المسيحيون في الفتن التي وقعت في قرطبة الى احدى الفئتين ونصروها على الفئة الأخرى فاستعانت الفئة التي دارت عليها الدائرة بمسيحيي كتلونية الذين زحفوا الى قلب الاندلس ، ولكنهم فقدوا في أثناء الحرب ثلاثة من اساقفتهم ورجلا من أبطالهم اسمه ارمانجو كونت إيرجل (١)

(١) بعد وفاة عبد الملك الظفر بن المنصور قام بالأمر أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر لدين الله وجرى على سنن أبيه وأخيه ، في الحبر على الخليفة هشام الأموي والاستبداد والاستقلال بالملك دونه ، ثم بدا له الاستئثار بما بقي من رسوم الخلافة فطلب من هشام أن يولية عهده ، ولما لم يكن لهشام أدنى ارادة معه أجابه الى ما طلب وأحضروا لذلك الملأ من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد ، فكان يوماً مشهوداً ، فكتب عهده من انشاء أبي حفص بن برد ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس شهادتهم بخطوط أيديهم ، وتسمى عبد الرحمن بن المنصور بولي العهد

وكانت هذه هي الغلطة الكبرى التي بدأ بها اقراض دولة المنصور ودولة بني أمية ودولة الاسلام كلها في الأندلس لأن هذا الاعتداء أغضب الكثيرين ، وبدأت به الحرب الأهلية التي شغلت المسلمين بعضهم ببعض وتركوا الثغور عورة ، واوجدت ملوك الطوائف يقتتلون ليلاً ونهاراً بمشهد من عدو الامة .

وجاء في النفع ان أهل الدولة تقوموا على عبد الرحمن (ولي العهد) ما فعله مما كان فيه حظه واقراض دولته ودولة قومه وكان أسرع الناس كراهة لذلك الأمويون والفرشيون ، ففصوا بأمره وأسفوا من تحويل الأمر جملة من المضرة الى اليمينية ، فاجتمعوا لشأنهم وتمشت من بعض الى بعض رجالاتهم وأجمعوا أمرهم في غيبة من المذكور ، في غزاة من صوائفه ببلاد الجلالة ، ووثبوا بصاحب الشرطة بقرطبة فقتلوه بمقعد من باب قصر الخلافة ، وخلعوا هشاماً المؤيد الذي ولي عهده عبد الرحمن بن المنصور ، وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ولقبوه بالمهدي بالله ، وطار الخبر الى عبد الرحمن بمكانه من الثغر فانقض جمعه وقفل الى الحضرة وقد تسلل عنه جنده ووجوه البربر ولحقوا بقرطبة وبايعوا المهدي وأغروه ببعد الرحمن لسوء سيرته فاعترضه من قبض عليه واحتز رأسه وحمله الى المهدي . وذهبت دولة العامين كان لم تكن

والحاصل أن مسلمي اسبانية كانوا قد أخذوا ينكصون وتنحسّ أجنتهم ولم يبق أدنى خطر منهم على فرنسة ، وأخذت هذه المملكة تتقوى وتتقدم الى الأمام .

قال : وكان رؤساء البربر وزنانة قد لحقوا بالمهدى الخليفة الجديد لما رأوا من سوء تدبير عبد الرحمن ، إلا أن الامويين كانوا حاقدين عليهم لما كان من مظاهرتهم للعالمين ، فلم يلبثوا أن سخطنهم القلوب وخزرتهم العيون ونهبت العامة دورهم وشكوا أمرهم الى المهدى فلم تنفع شكواهم ، فتمشت رجالتهم وأسروا نجوهم ، وباعوا هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر ، فعوجلوا عن مرامهم ذلك وثار بهم السواد الأعظم وأزعجهم عن المدينة ، وتقبضوا على هشام وأخيه أبي بكر وأحضروهما بين يدي المهدى ، وضربت أعناقهما

وفر سليمان ابن أخيهما واجتمع في البربر في ظاهر قرطبة ، فباعوه ولقبوه المستعين بالله ونهضوا به الى طليطلة فاستجاشوا بالنصارى ، وزحف ابن اذفونش في جيش انضم الى البربر ووصلوا الى قرطبة وهزموا المهدى ومن معه ، وقتل في ذلك اليوم مايزيد على عشرين ألفاً . ودخل المستعين قرطبة ختام سنة أربعائة ، ولحق المهدى بطليطلة واستجاش هو أيضاً بابن اذفونش فزحف معه الى قرطبة وهزموا المستعين والبربر أصحابهم ، ودخل المهدى قرطبة وملكها ثانية وخرج المستعين مع البربر وتفرقوا في البسائط ينهبون ولا يقون على أحد ، ثم ارتحلوا الى الجزيرة الخضراء ، فخرج المهدى ومعه ابن اذفونش لفتالهم فكروا عليهم وانهزم المهدى وابن اذفونش ومن معهما من المسلمين والنصارى ، ودخل المستعين قرطبة ثانی مرة ، ولكنه لم يدخلها هذه المرة خليفة بل اخرج هشاماً الخليفة القديم وباع له وقام بأمر حجابته ، ظناً منه أن ذلك يحسم الفتنة ، وقام أهل قرطبة وأغروا أهل القصر بالمهدى وقتلوه ، ظناً بأن قتله يحسم النزاع ، وصار هشام هو الخليفة ، وقام واضح العامري بحجابته . فعند ذلك بعث المستعين الى النصارى يستعديهم لمظاهرة فبعث اليهم الخليفة هشام وحاجبه واضح يكفونهم عن ذلك بأن يسلموا اليهم الحصون والقلاع التي كان المنصور قد افتتحها من بلادهم وهكذا وقف الاذفونش عن مساعدة المستعين . ولكن المستعين والبربر تغلبوا على أهل قرطبة ودخلوها عنوة ونهبوها وأنزلوا المعرات في أهلها ، وتولى البربر الأعمال واستقلوا بالبلاد مثل باديس بن حيوس في غرناطة ، والبرزالى في قرمونة والغرنى في وندة ، وهزرون في شريش .

وافترق شمل الجماعة بالأندلس وسقطت هيئة الخلافة وبدأ دور الانحطاط بخمس دول صغيرة كبنى عباد باشيلية ، وبنى الافطس ببطليوس ، وبنى ذى النون بطليطلة ، وبنى هود بسرقسطة ، وابن أبي عامر بيلنسية ، ومجاهد العامري بدانية والجزائر . انتهى تقلا عن فتح الطيب

وسنة ٩٨٧ انتقل الملك الى آل كابت Gabet فكانوا أجدر به من التأخرين من سلالة شارلمان ، ثم تنصر النورمنديون وصاروا عاملا عظيما من عوامل

وقال ابن عذارى في كتابه « البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب » ان عبد الملك المظفر بن المنصور عند وفاة أبيه كتب الى أقطار المملكة بالأندلس والعدوة ، فاستوثق له الأمر ولم يرد أحد طاعته ، واجتمع الناس على حبه . وكان مع غلبة النيذ عليه واستغراقه في لذاته مراقبا لربه باكيا على ذنبه . وكان من فرط الحياء مع الشجاعة في غاية بعيدة . وله في بلاد الروم آثار عظيمة ، غزا سبع غزوات في مدته وفي السابعة توفي ، قيل مات مسموماً وقيل مات من علة الذبحة . وكان موته بمنزل أم هاني بمقربة من أرملاط لاربع خلون من صفر سنة ٣٩٩ فكانت مدته في الملك ست سنين وأربعة أشهر وسبعة أيام . وكانت أول غزواته الى بلاد الافرنج سنة ٣٩٣ ودوخ بسائط برشلونة وفتح حصن ممصر عنوة وأسكنه المسلمين

وقال ابن عذارى انه لما ذهب عبد الملك الى مدينة سالم وافاه هنالك عدة زعماء من وجوه النصارى وفرسانهم ، أرسل بهم ملك القوط يومئذ اذفونش بن اردن المعروف بابن البربرية ، ومعهم آخرون عن أرسل بهم خاله شانجة بن غرسية زعيم الجلالة وصاحب قشتالة وألبه ، وحضر هؤلاء الأرهاط للغزو بين يدي عبد الملك على ما تضمنه شرط سلمهم المنقذ صدر هذه الدولة ، وافين بالمهد حافظين للحرمة ، فأحسن عبد الملك قبولهم وأصعد عن مدينة سالم نحو الشفير الاعلى . قال تقلا عن حيان بن خلف انه في غزاته لأرض برشلونة افتتح ستة حصون . ولكن الحصون التي دمرها للعدو خمسة وثمانون حصناً .

قال : وفي سنة ٣٩٥ غزا جليقية ، وكان مظفراً ، وسنة ٣٩٦ غزا بنبلونة وسار الى سرقسطة ثم الى وشقة ثم الى بربشتر ، ومنها دخل أرض العدو ودمرها تدميراً ، وسنة ٣٩٧ غزا بلاد قشتالة من عمل الطاغية شانجة بن غرسية بن فرلند ، وهي غزاة قلونية الخامسة من غزواته المعروفة بغزاة النصر التي لقي فيها شانجة بجميع النصرانية على اختلافها ، فهزمه عبد الملك هزيمة عظيمة ، رزق الله المسلمين فيها النصر المبين . وعلى أثرها تسمى عبد الملك بالمظفر ، وصدر له بذلك منشور من الخليفة هشام ، وأضاف الى لقب المظفر لقب سيف الدولة . وسنة ٣٩٨ غزا عبد الملك بالثانية ، وهي السادسة من غزواته ، واحتل شنت مرتين . ثم غزا غزاته السابعة سنة ٣٩٨ وقال فيها تقلا عن ابن حيان : ومن كبار علل عبد الملك ومنكراتها على الاسلام ومؤذنتها بما جرى عليه بعد من الاثلام ، علة الشديدة بمدينة سالم ، مخرجه اليها سنة ثمان وتسعين ، محتفلاً لقصد عدو الله شانجة بن غرسية بن فرلند ، فصدته عن الدخول اليه بمجموع المسلمين واشتدت به

القوة النصرانية وسكنوا وركنوا وتركوا العيث والدعارة . وكذلك تنصر المجار . وأصبحت أوربة كلها مسيحية . وفي ذلك الوقت بدأت الناس تطالب الملوك بحقوقها . وتنبهت الجماعات وناقشت السلطة الحساب وتأسس مايسمى بالحرية البلدية مما أدى في آخر الأمر تدريجاً الى الحالة الاجتماعية التي جعلت أوربة في مقدمة العالم المتمدن ، واورق من ذلك الوقت غصنها واخضر رعيها وأفلح سعيها . على أن سواحل فرنسة لم تسلم من غارات المسلمين الى ما بعد ذلك بمدة طويلة ففي سنة ١٠٠٣ نزل مسلمون اندلسيون في أرض أنطيب أوعين الطيب Antibes وأخذوا بعض رهبان أسرى . وفي سنة ١٠١٩ غزا منهم أناس مدينة أربونة فاجتمع عليهم الأهالي وكشفوهم ثم قتلوهم وأسروا منهم عشرين رجلاً كانوا في غاية الطول والعظم ، فarsلوهم الى دير سان

مدة تفرق عنه فيها أكثر المطوعة ، وصارت على الاسلام مصيبة بما أوهنت من بطش عضده وتقصت من حفيلى عدده ، ورام مع ذلك كله الاقتحام على أعداء الله في حل تقووه طمعاً في اتمام غزوه فكانت آخر صائفة نفذت من الحضرة ، اذ هلك عبد الملك وافقت بركها الفتنة

قال : لما دفن المظفر رحمه الله تأهب أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول (اسم غلب عليه من قبل امه بنت شانجه النصراني الملك تذكر أنها لاسم أيها فكانت تدعوه في صغره بشنجول وكان أشبه الناس بجده شانجه) فنظر في الأمور نظراً غير سديد وأنفق الأموال في غير وجهها ، ثم لما مضى لوقته شهر ونصف تصنع للخليفة هشام بن الحكم ، وطلب منه أن يولييه العهد من بعده ، وأن يتسمى بولي عهد المسلمين . ففعل ذلك هشام لضعفه وسوء نظره وتقصان فطرته ، فولاه عهده ، فكان ذلك سبب انحراف أكابر الأندلس عن عبد الرحمن ، لما تبين لهم من سخف عقله وسرعته الى نقل المملكة عن خلفائها اليه دون غزاة ولا نصرة في حرب

وقد شرح ابن عذارى فتنة قرطبة التي أدت الى انهيار الاسلام في الاندلس مع أسبابها وتفاصيلها بما لم يشرحه مؤرخ قبله ولا بعده . وسنأتى على ذلك في الأجزاء التالية . وقد ذكر في عرض كلامه على استجاشة مسلمي قرطبة بالاسبانيول بعضهم على بعض أن رجلاً نصرانياً وقف في أعظم شوارع قرطبة فقال قولاً نال منه صلى الله عليه وسلم ، فلم يكلمه أحد بكلمة ، فقال رجل من المسلمين غيره للنبي : ألا تشكرون ماتسمعون أما أنتم مسلمون ؟ فقال له جماعة من أهل قرطبة : امض لشغلك . وكان الافرنج اذا سمعوا الأذان للصلاة قالوا قولاً لا يذكر فلا يعترض عليهم أحد بشيء انتهى

مارسيال في ليوج ، فاستخدم منهم رئيس الدير اثنين وفرق الباقين على أصحابه . وجاء في مجموعة الدون بوكه خبر يفيد أن هؤلاء لم تكن لغتهم عربية .

وفي سنة ١٠٤٧ نزل مسلمون أندلسيون في جزيرة لارين Lerins^(١) واستاقوا عدداً من الرهبان أسرى فذهب رئيس دير سانت فكتور في مرسيلية الى الأندلس لافتكاكهم . وكان بعض امراء الأندلس شرعوا يشنون الغارات البحرية على بلدان المسيحيين واشهر هؤلاء مجاهد العامري الذي استولى على دانية وجزر الباليار والافرنج يسمونه موجيت Mujel أو موزكتوس Musectus وكان اسمه يلقى الرعب في سكان كورسكة وسردانية وبيزة وجنوه . وبقيت غارات المسلمين على سواحل فرنسة تتوالى ولا تغيب طويلا الى أن اشتدت قوة فرنسة البحرية ولم تنته تماماً الا بفتح فرنسة لجزائر الغرب^(٢) وكانت مدينة ماغلون مقصداً لغزاة المسلمين حتى أطلق عليها لقب بورسارازين Port - Sarrazin ومن هذا القبيل مدينة مارتيج عند مصاب نهر الرون التي فيها ابنية يقال انها من أيام العرب ومثلها جزر هييار Hyeres التي قبالة ساحل الفار وقد جاء في احصاء لمقاطعة مصاب الرون بقلم السيوتولوزان انه وجدت أوراق قديمة في مارتيج تتعلق باقامة المسلمين في تلك البلاد وكذلك وجدت أوراق قديمة في فوس يظهر منها أن المسلمين سكنوا في جزائر هييار المارة الذكر . على أن المسلمين بدأوا بالتقهقر البحري في أواسط القرن الحادى عشر ، ففي سنة ٩٦١ كان الروم استردوا جزيرة اقريطش ، وفي سنة ١٠٥٠ أجلى المسلمون عن جنوبي ايطالية وفقدوا ملكهم في صقلية ، وتجاوز المسيحيون البحر ونزلوا في بعض سواحل افريقية حيث خفقت لهم أعلام مدة طويلة ، ثم لم يلبث الاسبانيول أن استرجعوا طليطلة وقرطبة واشبيلية وغيرها . ثم زحف من أوربة الى آسيا الصليبيون بجيوش لاتحصى فوقفوا المسلمين عند حدودهم بل غزوهم في عقر دارهم وفقد المسلمون كل أمل في

(١) أمام سواحل فرنسة الجنوبية عدة جزر بهذا الاسم أشهرها سانت مارغريت وسان اونورا .

(٢) ان هذا الفتح وقع قبل لفر رينو كتابه بخمس سنوات

التجاوز على فرنسة والجنوب الغربي من أوربة . وفي سنة ٩٦٠ كان الكاتب العربي ابن حوقل يصف مسلمى الأندلس بالجن والطيلى وققد الصلابة والحزم . وكذلك ابن سعيد الذى كان يكتب فى القرن الثانى عشر قد تعجب كيف أن المسيحيين لم يطردوا مسلمى الأندلس تماماً فى ذلك الوقت (١)

(١) قال ابن حوقل فى المسالك والممالك : وأما الأندلس فجزيرة كبيرة فيها عامر وغامر ، وطولها دون الشهر فى عرض نيف وعشرين مرحلة ، وتغلب عليها المياه الجارية والشجر والثر والرخص والسعة فى الاحوال من الرقيق الفاخر والحصب الظاهر ، الى أسباب التملك الفاشية فى أكثرهم ولما هم به من رغد العيش وسعته وكثرته يملك ذلك أهل منهم وأرباب صنائعهم لقلة مؤنهم وصلاح بلادهم ، ويسار ملكهم بقلة شغلهم وسقوط تكلفه بغيره . يحذرهم وحال يخافه ، اذ لا خوف عليه ولا رقبة لأحد من أهل جزيرته ، مع عظم مراقبه وجباياته ووفور خزائنه وأمواله . وما يدل بالقليل منه على كثيره ان سكة دار ضربه على الدنانير والدرهم ضربيتها فى كل سنة مائتا ألف دينار ، يكون عن صرف سبعة عشر بدينار ثلاثة آلاف ألف درهم وأربعمائة ألف درهم . هذا الى صدقات البلد وجباياته وخراجاته وأعشاره وضماناته ومراصده والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة والجوالى والرسوم على بيوع الأسواق

ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هى فى يده ، مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم وتقص عقولهم وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنجاد والأبطال انتهى

وجاء فى المسالك والممالك لابن حوقل عند الكلام على بحر الروم ما يؤيد قول رينو من ادبار أمر المسلمين منذ أوائل القرن الرابع للهجرة ، وذهاب ما كان فيهم من حماسة فى القرون الثلاثة الاولى ، واستيلاء الرخاوة عليهم حتى أصبحوا لا يمتنون ذمارهم ولا يقدرين أن يحموا جازم

قال ابن حوقل : وليس فى البحار أمر حاشية من هذا البحر ، لأن العارات فى الجانبين ممتدة غير منقطعة ولا ممتعة وسائر البحار تعترض فى شطوطها المفاوز والمقاطع . وقد ألح الروم فى وقتنا هذا على المسلمين الذين على سواحله بالعارات واختطاف مراكبهم من كل جهة ولا غيات لهم ولا ناصر ، والملك فيهم حقير ذليل وهو جامع مانع والعالم يسرق ولا يشبع ، ويفتى بالتأويل على ما يختار ولا يخاف معاداً ولا مرجعاً ، والتاجر فاجر لا يعاف حراماً ولا مطمعاً ، والزاهد ذئب أدرع فى كل بلية يشرع وبكل ريح يقلع ، فالثغور والجزائر الى الأعداء مسلعة ، والأرض الى الله من أربابها متظلمة انتهى

ومما يدل على ما وقع في نفوس المسلمين من هذه الجهة الشاهدان الآتيان : روى مؤرخو العرب أنه لما قفل موسى بن نصير الى الشام بعد فتحه الأندلس ، سأله الخليفة عن الشعوب المختلفة التي مارسها ، فأجابته ان الافرنج فيهم العدد والشدة والاقدام والثبات . ويستغرب أن يكون موسى بن نصير وصف الافرنج بهذا الوصف وهو لم يباشر معهم حرباً . وعلى فرض أنه وصل الى جنوبي فرنسا كما يزعم مؤرخو العرب ، فانه لم يكن قد لقي الافرنج بل لقي القوط الذين كانوا أصحاب الحكم في البلاد الجنتوية من فرنسا . ولكن مسلمي الأندلس عندما تلاقوا مع رجال شارل مارتل وشارلمان علموا من هم الافرنج في صلابة العود وعلموا من هم الفرنسيين في حب المجد والاقدام على الأخطار . وقد روى المؤرخ الاسبانيولى كوندى كلام موسى ابن نصير هذا وأضاف اليه بزعمه قول موسى ان الافرنج اذا انهزموا فليسوا بشيء^(١)

قلت : كان هنا كلام ابن حوقل في الثلث الأول من القرن الرابع للهجرة مما يدل على ان المرض قديم . وانه لا عجب اذا آلت الحال الى ما آلت اليه فيما بعد . لكن المسلمين هبت لهم ريح في القرن التاسع للهجرة وعاد بحر الروم كما بدا تحت سلطنتهم وذلك في أيام السلطان سليمان العثماني وخير الدين بربروس وعمال السلطان على جزائر الغرب وبقيت لهم تلك الصولة مدة طويلة الى أن اتكت حلها في القرون الأخيرة . وما زالت الأيام مداً وخزراً منذ خلق الله العالم

(١) قلت : ان كلام مؤرخي العرب عن الافرنج هو أنهم مع شجاعتهم أقل صبراً في الحروب من الجلافة ، أى من الاسبانيول سكان شمالى اسبانية ، قال ابن حوقل : وثغور الجلافة ماردة وقزوه ووادي الحجارة وطليلة ومدينة الجلافة مما يلي ثغور الأندلس يقال لها سمورة وعظيم الجلافة بمدينة يقال لهايون فيها سلطانهم وعدتهم بعد سموره ومدينة لهم يقال لها أويط (Oviedo) وهى بعيدة عن بلد الاسلام وليس في أصناف الكفر الذين يلون الأندلس أكثر عدداً من الافرنج ، غير أن الذين يلون المسلمين منهم فئة ضعيفة شوكتهم قليلة ، وفيهم اذا ملكوا طاعة وحسن نصيحة ومحاسن كثيرة ، واليه يربغ أهل الأندلس عن الجلافة ، والجلافة أصدق محاسن وأقل طاعة وأشد قوة وأكثر بأساً وبسالة ، وفيهم غدر ، وهم في عرض طريق الافرنجة انتهى وجاء في صبح الأعشى عن الجلافة انهم امة يغلب عليهم الجهل والجفاء ، ومن زيمهم أنهم لا يفسلون ثيابهم بل يتركونها عليهم الى أن تبلى ، ويدخل أحدهم دار غيره بغير اذن . وهم أشد من الفرنج

والشاهد الآخر هو ما يرويه العرب من وجود كتابة منقوشة على تمثال في مدينة أربونة معناها : يا أولاد اسماعيل لا تتجاوزوا هذا المكان فانكم ان تجاوزتموه ولم ترجعوا على أعقابكم هلكتم . هكذا روى المقرئ في نفح الطيب في النسخة الخطية التي في المكتبة الملوكية ^(١)

ثم ذكر الفلقشندي مدينة سموره وقال انها قاعدة جليقية وقال : ان المسلمين كانوا ملكوها ثم استرجعها الجلائقة زمن الفتنة ، أى زمن فتنة شنجول العامري الذي باعتدائه على الخلافة مع عدم أهليته الشخصية جر على الاسلام من الفرقة بما انتهى أخيراً بضياع الأندلس

(١) الذي وجدناه في نفح الطيب للمقرئ هو هذا : وقيل انه أوغل (يعنى موسى بن نصير) في أرض القرنجية حتى انتهى الى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فأصاب فيها صنماً عظيماً قائماً كالسارية مكتوباً فيه بالقرنجية عرية قرئت فاذا هي : يا بنى اسماعيل انتهيتم فارجموا . فهاله ذلك ، وقال : ما كتب هذا الا لعنى كبير فشاور أصحابه في الاعراض عنه ، وجوازه إلى ماوراءه . فاختلفوا عليه فأخذ برأى جمهورهم وانصرف بالناس وقد أشرفوا على قطع البلاد وتقصى الغاية انتهى قلت : وقد تقدم هذا الخبر وهو أشبه بالاساطير

القسم الرابع

الصفة العامة لغارات العرب هذه والنتائج التي ترتبت عليها

مرادنا أن ننظر الى هذه الغارات العربية من حيث المجموع وأن نشير الى بعض حقائق لم يتسن لنا حتى الآن ان نتبسط فيها .
وكذلك نريد أن نذكر الشعوب المختلفة التي ضربت بأسهم مذكورة في هذه الغارات . ولأنواع في أن النهضة الأولى قد كانت للعرب ، وأن جميع الفزوات الكبرى كان يرأسها قواد من هذه الأمة ، وان الاسم العربي هو الذي كان غالباً فيها، وانه كان بمنزلة القطب من الرمح ، وان المراد بلفظة « ساراين » عند كتاب الاوربيين هو العرب لاغير .

فن أين جاءت لفظة ساراين هذه ؟ الجواب جاءت من اللفظة اللاتينية « ساراسنوس » التي أصلها اللفظة اليونانية « سراكنوس » وهذه اللفظة معروفة منذ القرون الأولى من التاريخ المسيحي ، والناس تقصد بها العرب الرحل الذين في جزيرة العرب وبين دجلة والفرات وسورية وبلاد المصم . قد ذهب الناس مذاهب شتى في مأخذ هذه اللفظة ، واكثر الآراء اتفقت على انها مشتقة من « شرقى » لاسيما ان بطليموس الجغرافى الفلكى اليونانى الذى كان بمصر يتكلم في جغرافيته عن شعب يقطن في بلاد جزائر الغرب يقال له مغاربة Machurebe فن هنا ظهر انه أريد بكلمة « شرقيين » التي جاءت منها كلمة « ساراكنو » العرب الذين بقوا في آسية ، كما ان الذين جلوا منهم الى افريقية تسموا مغاربة وذلك كما هي الحال اليوم .

وقد ذهب بعض علماء المسيحيين في القرون الوسطى الى ان « سرازين » مشتقة من « سارة » بنت ابراهيم الخليل . وهذا غير وارد ، لأن سارة هي ام اسحق لا أم اسماعيل جد العرب .

ومن الأسماء التي يطلقها المسيحيون على العرب في القرون الوسطى الاسماعيلية (١)

(١) من الغريب أن لفظة اسماعيلية لم تتناول العرب وحدثهم بل صارت تطلق فيما بعد على جميع المسلمين . وقد كان في بلاد الجار طائفة من المسلمين في القرن الثاني عشر والثالث عشر للمسيح اقرضت الآن وكان يقال لها الاسماعيلية ، وهذه الطائفة معروفة في تاريخ الجار ويظهر انه لفلة عددها أخذت تذوب تدريجاً في سواد الامة المجرية ، كما ان بعض ملوك الجار القدماء ضيقوا على هؤلاء المسلمين مراراً ليحولهم على النصرانية وهكذا تلاشوا من هناك .

وقد ذكر ياقوت الحموي هذه الطائفة في معجم البلدان تحت لفظة باشغرت فقال : وأما أنا فاني وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم الباشغودية شفر الشعور والوجوه جداً يتفقهون على مذهب أبي حنيفة رضى الله عنه فسألت رجلاً منهم استعقلته ، عن بلادهم وحالهم ، فقال : أما بلادنا فن وراء القسطنطينية في مملكة أمة من الفرنج يقال لهم الهنكر ، ونحن مسلمون رعية للمسلمين في طرف من بلادهم نحو ثلاثين قرية ، كل واحدة تكون بليدة ، الا أن ملك الهنكر لا يمكننا أن نعمل على شيء منها نسوراً خوفاً من أن نعصى عليه ، ونحن في وسط بلاد النصرانية ، فمما لنا بلاد الصقالبة وقيلينا بلاد البابا وفي غربتنا الأندلس وفي شرقتنا بلاد الروم قسطنطينية وأعمالها . قال : ولساننا لسان الافرنج وزينا زيهم ونخدم معهم في الجندية ونفرو معهم كل طائفة ، لأنهم لا يقاتلون الا بخالفى الاسلام . فسألته عن سبب اسلامهم مع كونهم في وسط بلاد الكفر ، فقال : سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون انه قدم الى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار وسكنوا بيننا وتلطفوا في تعريفنا ما نحن عليه من الضلال وأرشدونا الى الصواب من دين الاسلام ، فهدانا الله والحمد لله فأسلمنا جميعاً وشرح الله صدورنا للإيمان ، ونحن تقدم الى هذه البلاد وننفعه ، فاذا رجعنا الى بلادنا أكرمنا أهلها وولونا أمور دينهم . فسألته لم تحلفون لحاكم كما تفعل الافرنج ؟ فقال : يحلفنا منا للتجنودون ويلبسون لبسة السلاح مثل الافرنج أما غيرهم فلا . قلت : فكيف مسافة ما بيننا وبين بلادكم ؟ فقال : من هنا الى القسطنطينية نحو شهر ونصف ، ومن القسطنطينية الى بلادنا نحو ذلك انتهى .

قلت : ان قوله الافرنج مبني على كون الشرقيين يسمون جميع نصارى اوروبا افرنجية ، والا فالجار ليسوا من الافرنج في شيء . ثم اني قد سألت علماء التاريخ من الجار عن قضية هؤلاء المسلمين

الى ابناء اسماعيل ، وهذه هي نسبة موافقة للواقع ، لأن قسماً كبيراً من قبائل العرب متسلسل من اسماعيل ، ومحمد من هذه السلالة ولكن العرب لا يعترفون بأن اسماعيل كان ابن أمة وان اسحق يمتاز عليه ، وهم ينسبون الى اسماعيل كل ماورد في التوراة عن اسحق . ومما استعملوه في القرون الوسطى من الأسماء التي كانت تطلق على العرب لفظة « هجارنة » أى سلالة هاجر . وهذا الاصطلاح ، أى هجارنة ، مجهول عند العرب . ثم ان أعظم شعب اشترك مع العرب في هذه الغزوات هو الشعب

الذين وجدوا في بلادهم في القرن السابع للهجرة ، فأجانبى الجنرال « تيودور كلوك » معلم التاريخ في جامعة بودابست بما خلاصته : انه كان يوجد مسامون أصلهم من البلغار في بلاد المجر عاشوا في أيام الملوك المجر من عائلة اربارد من سنة ٨٩٦ للمسيح الى سنة ١٣٠١ وكان يقال لهم الاسماعيلية . وكانوا في القرن الحادى عشر يعيشون جماعات في جنوبى بلاد المجر ، وكان منهم حراس لفلعة بست ، وكان منهم في القرن الثالث عشر لافي مدينة بست فقط بل في جميع هكاريما ، وكان أكثرهم من طبقة التجار . وفي سنة ١٠٧٧ صدر أمر الملك « لاديسلاوس » بتنصير الاسماعيلية ، ولكن بقي منهم كثيرون في الباطن على دين آبائهم . وفي سنة ١٠٩٥ صدر أمر الملك « كولومان » بأن لا يكون في القرية من الاسماعيلية أكثر من النصف ، وبأن يزوجوا بناتهم من المسيحيين . وفي أيام الملوك الذين بعده كان الاسماعيلية يؤثرون الخدمة العسكرية . وكان الملك غيزه الرابع أرسل الى الامبراطور الالماني « فردريك بربروسة » سنة ١١٦١ جيشاً لمعنته فيه خمسمائة من الاسماعيلية المذكورين . وفي سنة ١٢٢٦ للمسيح كان اجتماع ياقوت الحموى بأناس من هؤلاء الاسماعيلية في مدينة حلب . وفي سنة ١٢٢٢ وقع اضطهاد على الاسماعيلية واليهود . وفي المدة التي بين سنة ١٢٣٥ وسنة ١٢٧٠ كان الاسماعيلية صيارف يقرضون ملك المجر أموالاً . وما زالوا الى سنة ١٢٤٢ معروفين كمسلمين . ومن ذلك الوقت أخذوا يندمجون في الشعب المجرى . وفي سنة ١٢٦٦ كان لايزال منهم قرية اسمها تيمركنى Temerkeny وفي زمان لورفيك الكبير كان لايزال بعض عائلات مسلمة من بقايا الاسماعيلية

وسنذكر شيئاً أوسع من هذا عن الاسماعيلية (أى مسلمى المجر) في رحلتنا الى بلاد المجر وبوسنة . وانما كان مرادنا هنا أن نذكر كون الافرنج لا يقتصرون على العرب بلقب اسماعيلية بل قد يعنون بذلك كل المسلمين من عرب وعجم فانه مما لاشك فيه أن المسلمين الذين كانوا في بلاد المجر لم يكونوا عرباً بل كانوا من المجر أو الباشقرد وعلى كل حال من أصل تتارى

السكان في جبل الأطلس ونواحيه المنتشر من مصر الى الأوقيانوس الاطلنطيكي .
ومن البحر المتوسط الى السودان ، والذي يقال له البربر . يعرفهم الانسان بلونهم
النحاسي وانوفهم الحادة وشفاههم الرقيقة ووجوههم المستديرة . والمظنون ان هذه الأقسام
التي يقال لها البرابر قد وجدت في افريقية قبل أن وجد الفينيقيون في قرطجنة . وهم
من قديم الزمان معتصمون بجبالهم لا يخضعون لسلطة أجنبية . وكان اليونان
والرومان يقولون عنهم البرابرة فبقى عليهم اسم بربر الى الآن . وقد اندمج هؤلاء
البربر مع غيرهم من الافريقيين ومع بقايا الشعب القرطجني وبقايا الرومان والفاندال ،
وتألف منهم شعب واحد يقال له الشعب المغربي Maure أو الشعب الافريقي
Afri ou Afrecaia

وقد كان بين الأقسام الذين اشتهر كوا مع العرب في غزو فرنسة من هم من سلالة
جرمانية أو صقلبية . وذلك أنه في القرنين الرابع والخامس للمسيح تقدم أسلاف الذين
كانوا ساكنين في شمالي البحر الأسود ونهر الدانوب ، زاحفين الى قلب أوربة وإلى
جنوبها ، بأسماء مختلفة ، كصقالبة وخرواطيين وسريين ومورافيين وبوهيمين وتديروا
بولونية وبوهيمية وسربية ودالماسية ، وقسمها من بلاد اليونان . وكانوا في أثناء زحفهم
يقتتلون مع الأمم السكسونية والأمم الهونية التي منها المجر . وكان الفريقان في حروب
دائمة مع شارل مارتل وأولاده وأحفاده ، لأن ممالك هؤلاء كانت دائماً عرضة لغارات
هؤلاء البرابرة . ولم تنقطع هذه الحروب المصطمة الا بعد أن دخل الجرمانيون
والسلاف في النصرانية . وقد كان البرابرة المذكورون يستعملون الأسرى الذين
يقعون في أيديهم كالحیوانات بلا فرق ، وكان أهالي هولندة يبيعون أسراهم كالعبيد ،
وانتشرت هذه العادة في فرنسة والبلاد المجاورة لها ، ولم تنقطع الا بعد أن دخل
هؤلاء البرابرة في النصرانية (١) وتهدبوا

(١) استشهد رينو على مسألة الرقيق ويومه في أوربة بمجموعة الدون بوكه وبجغرافية ابن حوقل
وبالمقرى . وقد رأينا أن ننقل عبارة ابن حوقل عن « السالك والمالك » قال : وبالأندلس سلاع

ومن المعلوم أن تجارة الرقيق امتدت جداً بعد أن افتتح المسلمون الشام ومصر وإفريقية والأندلس ، لأن العرب كانوا يعرفون الرق ويحملون عبيدهم على جميع الأشغال اليدوية وعلى الحرث والزرع ، أما في الشرع الإسلامي فالرقيق لا يهان أصلاً ، وكل عبد تظهر كفايته في شغل من الأشغال يقدر أن يرقى إلى ما يرقى إليه الحر بدون فرق وكان التجار يذهبون إلى بلاد الجرمانيين والسلاف وأحياناً إلى نواحي بحر الادرياتيك والبحر الأسود ويأتون بأصناف الرقيق . ولم يزل أهالي القوقاس يبيعون من أولادهم إلى اليوم ، فكانت هذه الشعوب تتبع من أولادها إلى التجار ، وكان يأتي منهم قسم إلى فرنسة لالبيع والشراء بل بواسطة السبي في الحروب .

ولما كان المسلمون غيراً في قضية الحرير صاروا يخصون هؤلاء العبيد ليمكنهم استخدامهم في داخل الأحاريم بدون خوف فتنة . وهكذا تولدت في فرنسة مهنة

كثيرة ترد إلى مصر والمغرب وأكثر جهازهم الرقيق من الجوارى والغلمان من سبي إفريقية وجليقية والخدم الصقالبة وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الحصيان من جلب الأندلس ، لأنهم بها يخصون ، ويفعل ذلك بهم تجار اليهود عند قرب البلد . وجميع ما يسي إلى خراسان من الصقالبة باقى على حاله ومقر على صورته ، وذلك أن بلد الصقالبة طويل فسيح ، والخليج الآخذ من بحر الروم ممتداً على الفسطينية وأترا بزوندة يشق بلدهم بالعرض ، فنصف بلدهم بالطول يسيه الخراسانيون والنصف الشمالى يسيه الأندلسيون من جهة جليقية وإفريقية وانكيزدة (لونبارديه وتوابعا) وقلورية (كالابره) وبهذه الديار من سبيهم الكثير باقى على حاله انتهى

وأما في نصح الطيب فيقول عن الاسبانيول أنهم : يحاربون بالافق الشرقي أمة يقال لهم الفرنجة ، هم أشد عليهم من جميع من يحاربونه ، اذ كانوا خلقاً عظيماً في بلاد واسعة جليلة متصلة المارة أهلة تدعى الأرض الكبيرة ، هم أكثر عدداً من الملقين وأشد بأساً وأعظم امداداً يحاربون أمة الصقالبة المتصاين بأرضهم لخالفتهم أيام في الديانة ، فيسبونهم ويبيعون رقيقهم بأرض الأندلس ، فلم هنالك كثرة وتخصيهم للفرنجة يهود ذمتهم الذين بأرضهم وفي ثمر المسلمين المتصل بهم ، فيحمل خصياتهم من هنالك إلى سائر البلاد . وقد تعلم الحصاء قوم من المسلمين هناك فصاروا يخصون ويستحلون الثلثة . انتهى

قلت : والحصاء ممنوع شرعاً

جديدة هي مهنة الخصى ، وتأسس لذلك معمل كبير في فاردون Verdun في بلاد اللورين .

وكان الصبيان الذين ينجون من خطر هذه العملية القاسية يباعون في أسواق الأندلس بأثمان عالية . وكانوا يتهادون الحصيان من الصقالبة كما يتهادون الخيل أو الحلي الثمينة .

وقد روى أحد كتاب العرب أنه في سنة ٩٦٦ أراد أمراء كتلونية من الافرنج أن يتزلفوا الى خليفة قرطبة فقدموا له هدايا من جملتها عشرون خصياً صقلياً . والعرب يصفون جميع الرقيق الجرمانى والصقلبي والسلافي بلفظة صقلبي Saclabi ونظن أنه من هذه اللفظة جاءت كلمة اسكلاف Esclave بمعنى عبد . وكان أكثر حرس خلفاء قرطبة وأمراء الأندلس من الصقالبة . وكان منهم كثير في صقلية ، ولهم في مدينة بلرم حارة منسوبة اليهم . وكان منهم عدد كبير في افريقية . وقد يصل الصقالبة الى أعلى المناصب ، ولذلك لا يمكنك أن تقرأ تاريخاً للدولة عربية ليس فيه ذكر للصقالبة ، اذ بدون ذلك يكون التاريخ مغلقاً لا يتحصل فهمه . (١)

ولم يكن بين العرب والبربر أناس من شمالي أوربة ومن أصل وثني فقط ، بل وجد لهم أنصار ويا للخجل قد ولدوا في حجر النصرانية ، من أهل ايطالية وأهل فرنسا . وقد كان اليهود يستثمرون بؤس الأهالي ويشترون الأولاد من ذكور واثاث ويأتون بهم الى مراسي البحر حيث كانت ترد سفن اليونان والبنادقة وتحملهم الى بلاد الاسلام . وكانت هذه التجارة القبيحة قد وصلت الى قلب عاصمة النصرانية . وقد جاء في مجموعة موارثوري أنه في سنة ٧٥٠ اضطر البابا زخريا أن يشتري بماله من أيدي البنادقة عدداً كبيراً من الأولاد ذكورا واناثا كانوا يريدون الخروج بهم من رومة ثم ان البابا الذي خلف زخريا اضطر أن يحرق مراكب كثيرة لليونان آتية لحمل

(١) لو اردنا التعرض لموضوع الصقالبة ومن نبع منهم في الاسلام ومن وصلوا الى الدرجات العلى لطال الأمر جداً وقد يستحق ذلك تاريخاً مستقلاً

الرقيق . وقد جاء في تاريخ الصليبيين للمسيو ميشو أن هذه التجارة كانت جارية في أوربة حتى القرن الثالث عشر ، ولكن بشيء من الاحتياط . وكان أسارى المسيحيين والسبي منهم يستخدمون في جيوش المسلمين . وكان السبي من أعظم مقاصد هؤلاء في الغزو ، فكلما حصلت معركة رأيت أسواق الأندلس وأفريقية غاصة بالأسرى المسيحيين ، فأما الأطفال والاولاد فكانوا يربون في الاسلام وفي اللغة العربية ، وكانوا لا يقدرون أن يرتدوا عن الاسلام اذا بلغوا . وأما الأرقاء الذين بلغوا سن الرشد فلم يكونوا يجبرون على الاسلام لانه جاء في القرآن « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » على أن كثيراً من المسيحيين البالغين كانوا يخدمون في جيوش المسلمين عن طيب خاطر

وأضف الى هؤلاء قسماً من أهالي البلاد التي افتتحها المسلمون ، فان العرب والبربر عندما افتتحوا الاندلس وجدوا أعواناً لا يحصى عددهم من المسيحيين واليهود ، ولما لم يكن جيش العرب كافياً لحفظ جميع هذه الفتوحات كانوا كلوا بلدة عهدوا الى اليهود بحراستها^(١) ولما دخل العرب الى أرض فرنسة وما جاورها من البلاد لم يخل الامر من أنهم وجدوا من أهل البلاد رجلاً ممن لا يعرفون الحمية الدينية ولا الوطنية ، وممن دأبهم أن يستفيدوا من المصائب العامة ، فمشوا بين أيدي العرب في غزواتهم وفتوحهم وخطبوا في جبالهم . ولقد رأينا كيف أن « مورونا » دوق مرسيلية وغيره من سادة البلاد تمالأوا مع العرب على أبناء بلادهم . فاذا كان هذا شأن الكبار فما ظنك بالصغار ؟ ولا شك أن العرب في فتوحاتهم في مقاطعات دوفيني وبييمونت وسفواي وسويسرة كانوا قد وجدوا من الاهالي أعضاداً لهم سرراً وعلناً، وكان مؤرخو

(١) جاء في فتح الطيب ان ميثاً مولى الوليد بن عبد الملك جمع يهود قرطبة فضمهم الى مدينتها استقامة اليهم دون النصارى للعداوة بينهم وقال : انهم لما فتحوا غرناطة ضموا اليهود الى قصبتها وصار ذلك لهم شنشنة في كل بلد يفتحونه أن يضموا يهوده الى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها ويعضى معظم الناس لغيرها واذا لم يجدوا يهوداً وفروا عدد المسلمين الخلفين لحفظ ما فتح . انتهى

ذلك العصر لا يصرحون بذلك حياء ، ويجتزئون بالاشارة الى خيانة بعض المسيحيين .
ولكن الحقيقة أنه لولا تلك الخيانة لم يكن المسلمون ليستقروا في تلك البلاد القاصية
المنقطعة عن أوطانهم الاصلية ، وهم في قلة من العدد ، في زمن كانت فيه المواصلات
غير ماهي الآن .

نعم ان العرب كانوا يجردون من أهالي البلاد رداء لهم ، وقد رأينا في تاريخ دير
نوفاليس كيف أن المسلمين قاتلوا الاهالي بقرب فرسل Verceil وتغلبوا عليهم وساقوا
عدداً منهم أسرى ثم دخلوا المدينة وعرضوا الاسرى للبيع ، كما تعرض السلع ، وصار
كل من أراد يدفع في الاسير ثمناً الى آخر القصة .

أما من جهة اليهود وسياستهم في جنوبي فرنسة ، لذلك العهد ، فقد قرأنا في سيرة
القديس تيودار Theodard رئيس أساقفة اربونة انه لما دخل المسلمون بلاد اللانغدوق
انحاز اليهود اليهم وفتحوا لهم أبواب مدينة طولوزة ، وان شارلمان - تأديباً لليهود على
خيانتهم - أمر بأنه كل سنة في الأعياد الكبرى الثلاثة يؤتى بيهودى ويصفع على باب
الكنيسة العظمى . وقد بقيت هذه العادة مدة طويلة ثم تبدلوا بها دفع مبلغ من
الدراهم . ولنا اعتراض على هذه الرواية من جهة أن العرب لم يدخلوا طولوزة فعلاً فعل
هذه الحادثة وقعت في فتح مدينة أخرى . واذا تركنا قضية أنساب الغزاة ورجعنا
الى لغاتهم فأننا نجد أنهم لم يكونوا بأجمعهم يتكلمون بالعربية ، فقد روى ابن القوطية
أن بعضهم كان يتكلم بالبربرية ، وانه سنة ١٠١٩ عندما غزا المسلمون اربونة كان
الغزاة ذلك اليوم من الذين لا يعرفون العربية ، وكذلك لم يكن جميع الغزاة مسلمين ،
بل كان فيهم يهود ووثنيون وأحياناً مسيحيون . وقد كان في البربر عبدة أوثان
ومجوس ، ولم يدخلوا جميعاً في الاسلام الا بعد فتح افريقية بمدة طويلة (١) . ومن
الغريب أن المسيحيين في القرون الوسطى كانوا يسمون غزاة العرب بالوثنيين ، مع

(١) ومن الغريب أنه في أخريات هذه الأيام قام أناس من الفرنسيين يريدون أن يثبتوا كون
البربر ليسوا جميعاً بمسلمين . تفصيد هذه الفئة أن تأفك البربر عن الاسلام . فالمؤرخ السنشورق رينو
يشهد كما ترى بأن البربر أسلموا قاطبة وان كانت هذه القضية لا تفتقر الى شهود

انه لا يوجد أبعد عن الوثنية من المسلمين ، ومن شدة توحيدهم للبارى تعالى يكرهون جميع شعائر الوثنية ويحرمون تصوير المخلوقات الحية ، نظير اليهود ، ولكن شدة حرمة المسلمين لمؤسس ديانتهم جعلت العوام في أوربة يعتقدون أن المسلمين يعبدونه ، كما أن المسيحيين في القرون الوسطى كانوا يطلقون لقب وثني على كل من ليس مسيحياً وقد جاء في التاريخ المنسوب إلى المطران توربين Turbin أنه يوجد في اسبانية على شاطئ البحر تمثال من نحاس صنعه محمد نفسه وإن المسلمين يسجدون له . وكذلك فيلومين Philomane في تاريخه لفتح شارلمان بلاد لانغدوق يتكلم عن تمثال لمحمد من الفضة المذهبة كان المسلمون في أربونة في أثناء استيلائهم عليها يعتقدون أنه ملجأ لهم . وكذلك جاء في رواية تمثيلية اسمها لعب القديس نقولا كان لها شهرة في القرون الوسطى أن أحد أمراء المسلمين في افريقية كان يعبد صنما اسمه ترفاغنت Tervagant وأنه عند ما كان يحصل على مراده كان يغطي خدود الوثن بأوراق الذهب . ثم ان في قصيدة افرنسية تذكر وقائع رولان الشهير أن مسلمي سرقسطة كان عندهم مغارة جعلوها هيكلآ لألهتهم ، وكان فيها تماثيل من ذهب كل تمثال في يده صولجان وعلى رأسه تاج ، وإن المسلمين كانوا يجتمعون في تلك المغارة للعبادة^(١)

وكان اسم « ترفاغنت » ينقلب أحيانا إلى ترماغنت وكان يرد معه اسم ابولين Apolin وأسماء أخرى ما أنزل الله بها من سلطان ، فتدور في أقاصيصنا القديمة ، مثل قصة

(١) يمثل هذه الحرافات خدع رجال الكنيسة أهل أوربة مدة تزيد على ألف سنة . ولم يكن العوام في القرون الوسطى وحدهم يصدقونهم بل كان أسيراً لهذه الأوهام أو لبعضها كثير من الخواص . ولا تزال الى ساعتنا هذه في أوربة برغم ترقيتها وانتشار المعارف فيها أوهام وأفكار مخلوطة عن المسلمين تضحك الشكلى نسمع منها ونقرأ كل يوم بل كل ساعة

وقد نقلنا عن المسيو درمنغمم الافرنسي في السيرة النبوية في الطبعة الثانية من حاضر العالم الاسلامي هذه الأقوال المضحكة التي يهزأ بها رينو هنا . وقد شدد درمنغمم نفسه عليها التكثير ولكن رجال الكنائس لا يزالون الى يوم الناس هذا يذبحون أبناء ملهم في مثل هذه الترهات البسباس ويقلبون هم حقائق الاسلام عمداً تنفيراً لهم منه كما فعل سلفهم في القرون الوسطى

لا فيوكت (البنفسجة) التي نشرها فرنسيسك ميشال ، وزعموا أن هذه الأسماء هي أسماء آلهة اسلامية !

وقد بلغ من تعصب أجدادنا وتحاملهم على المسلمين أنه في الرواية السمة بلعب القديس نيقولا كان يوجد تمثال لذلك القديس كانوا يسمونه محمداً باعتبار أن لمحمد تمثالا ، وأنهم كانوا يسمون هيكل الأوثان محمديّة Mohamarie فانظر الى غرابة تصارييف الأقدار ، وقابل بين هذه الخرافات وبين الحقيقة ، وتأمل كيف صنع محمود الغزنوى عند ما غزا الهند سنة ١٠٢٥ م ، واستولى على صنم أصر على كسره ، وعرض عليه الهندو مقدار وزنه ذهباً فأبى الا أن يكسره وأن يضعه على أسكفة باب المسجد في عاصمته ، حتى تدوسه الأقدام ^(١) . وليست هذه الحادثة فذة في بابها ، فتأمل في كتابنا المسمى « خلاصة التواريخ العربية عن الحروب الصليبية » تجد من أمثالها كثيراً ماذا كان السبب ياترى في ذهاب آباءنا في الوهم والخطأ الى هذا الحد ؟ الجواب ان بعض العلماء ذهبوا الى كون أسماء ترفاغنت وابولين وما أشبه ذلك كانت آتية من بلاد النورمانديين أهالي شمالي أوربة الذين كانوا يعبدون الأصنام ، فالعامة في أوربة خلطوهم بالمسلمين بزعمهم أن كل من ليسوا مسيحيين وثنيون ! وكذلك كان البربر الذين جاءوا مع العرب متمسكين ببعض شعائر وثنية كانوا يمارسونها ظنت العامة أن هذه الشعائر كان يمارسها العرب أيضاً . ولا يجوز أن ننسى انه في هذه الكتب التي تهم المسلمين بالوثنية وتزعم هذا الزعم الغريب أنهم ينتحون تماثيل من حجر أو خشب أو معدن ويعبدونها وقد ورد أن المسلمين اذا وجدوا تلك التماثيل لم تنفعهم انقضوا عليها وحطموها وجعلوها جذاذاً

على أن الاسم العربي والدين الاسلامي كانا هما السائدين في هذه الفتوحات الاسلامية في أوربة ، فليس عندنا شيء من الآثار عن البربر أو الصقالبة الذين كانوا مع العرب في مغازيهم . وكل ما عندنا عن هذه الفتوحات انما هو من رشحات أقلام العرب المسلمين .

(١) الصنم المذكور هو صنم سومانات وقصته شهيرة

أما أسباب هذه الفتوحات العربية ، والعلل الأصلية في اقتحام هذه الغمرات ، فهي متعددة ، فمنها ما يرجع الى حب الغنائم وكسب الأموال ، ومنها ذوق خاص بالضرب في الآفاق ، ومنها ما هو محض تجرد لنشر الدين الاسلامي ورجاء ثواب هذا العمل المبرور عند الله فان القرآن يحث على الجهاد في سبيل الله (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) فالمسلمون الذين كانوا يقدرّون على حمل السلاح كانوا يجاهدون بأنفسهم ، والذين لم يكونوا قادرين على القتال كانوا يجاهدون بأموالهم . جاء في القرآن « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » وكل مسلم يموت وهو يقاتل في سبيل الله فانه يموت شهيداً (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) فالمسلمون يسمون شهيداً كل من بذل دمه في سبيل الاسلام ، كما أن المسيحيين يسمون شهيداً كل من مات لأجل النصرانية .

ثم ان الشرع الاسلامي يفرض على المسلمين أن يدعوا غير المسلمين الى الاسلام ، أو الى دفع الجزية ، وذلك قبل اعلان الجهاد ومباشرة الحرب ويجوز أن يكون قد حصل هذا الاعلان عند دخول العساكر الاسلامية الى فرنسا ولكن الأهالي لم يجيبوا دعوة الاسلام فاضطر أمراء المسلمين الى تجريد الحسام . وكان المسلمون في أوائل الفتح يتقلدون السيوف ويتأبطون الرماح ويتكبون القسي ، وكانوا كلهم متعممين ، ثم انهم بتغير الأوقات صاروا يتشبهون بالنصارى في أزيائهم وأسلحتهم ، ويلبسون الدروع ويعوصون في الزرد وطالما كانوا يقتنون سيوف مدينة « بوردو » لشهرتها في ذلك الوقت ، وتركوا عساكرهم المائمه وصاروا يلبسون على رؤوسهم الكمة الهندية . وكان أمراء الفرنسيين في كتاونية أهدوا الخليفة عشر أذراع سلافية ومائة سيف افرنسي ، وأنعم الخليفة على حاجبه يوم توليته اياه الوزارة بمائة فارس افرنجي متقلدين السيوف والحراب غائصين في الحديد على رؤوسهم الكم الهندية . وبالاختصار كان المسلمون قد اقتدوا في شكّتهم وأعلامهم وسروج خيولهم بأوربة المسيحية . ولكن بدون شك

كانوا يسترجعون في التسلح جانب الخفة ، ويتجنبون السلاح الثقيل الذي كان يعول عليه الأروبيون (١) .

أما الغنائم فكانت عبارة عن الحجارة النفيسة والنقود المضروبة والمنسوجات والأدوات والأسرى والسبي . وكان السبي أفضل جزء من الغنائم . وكان الأمير يستأثر بالخمس بحسب الشريعة ، وينفقه في إعانة الفقراء وأبناء السبيل ، وكان الباقي يوزع على الجند . وللفارس ضعفاً مالم للراجل . وكان يوجد دائماً في ساقة الجيش تجار يشترون كل ما يقع في أيديهم من صامت وناطق

أما الأسرى فليسوا كأسرى هذه الأيام ، فكان المسيحي إذا وقع أسيراً كبلوه وإذا انتهت قسمة الغنائم عرف الأسير ذلك الرجل المسلم الذي خرج هو في نصيبه فيصير

(١) جاء في الاحاطة في أخبار غرناطة تأليف لسان الدين بن الخطيب كاتب الأندلس الأكبر في وصف ملابس أهل الأندلس وأسلحتهم مايلي : وجندهم صنفان أندلسي وبربري والأندلسي منهم يقوده رئيس من القرابة (أي قرابة السلطان) أو حصي (الحصى الرجل العاقل) من شيوخ الممالك وزعيم في القديم شبه زى أقيالهم وأضدادهم من جيرانهم الفرنج من اسباغ الدروع وتعليق الترسه واتخاذ عراض الأسنة وقرايس السروج واستركاب حملة الرايات كل منهم بصفة تختص بسلاحه وشهرة يعرف بها ثم عدلوا الآن عن هذا الذي ذكرنا الى الجواشن المحصورة والبيض المرفهة والبرق العربية والسهام الملطية والاسل العطفية . (ثم قال) : والعمائم تقل في زى أهل هذه الحضرة الا ماشد في شيوخمهم وقضاتهم وعلامتهم والجند العربي منهم . انتهى . ولا يخفى أن لسان الدين كان يصف الأزياء في حضرة غرناطة في زمانه وهو القرن الثامن للهجرة

وجاء في نفع الطيب نقلا عن ابن سعيد في المغرب : وأما زى أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم لاسيما في شرقي الأندلس فان أهل غربها لانكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاراً اليه الا وهو بعمامة وقد تسامحوا بشرقها في ذلك ولقد رأيت عزيز بن خطاب أكبر عالم بمدرسة حضرة السلطان في ذلك الأوان واليه الاشارة وقد خطب له بالملك في تلك الجهة وهو حاسر الرأس وشبيه قد غلب على سواد شعره وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمامة في شرق منها أو في غرب وابن هود الذي ملك الأندلس في عصرنا رأيت في جميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عمامة وكذلك ابن الأحمر الذي معظم الاندلس الآن في يده وكثيراً مايتزي سلاطينهم وأجنادهم بزي النصارى المجاورين لهم فسلحهم كسلحهم وأقبيتهم كأقبيتهم وكذلك أعلامهم وسروجهم انتهى

له مملوكا يتصرف به كيف شاء ، ويصير هو وجميع ما يعمله ملكاً لسيده ، ويتوارثه الأبناء عن الآباء ، ويعود أولاده أيضاً أرقاء نظير والدهم . وإذا كان سيده غيوراً على الاسلام عرض على ذلك الأسير المسيحي اتخاذ الاسلام ديناً فإذا أسلم فقد يعتقه وان لم يعتقه افتكه بعض الصالحين وعجبي الخير من المسلمين ، لأن تحرير الرقاب هو من أفضل القربات عند المسلمين . وهو بعد تحريره يصير في المجتمع الاسلامي نظير سائر الأحرار ويبلغ من درجات العلية ما يقسم له حفظه ونصبيه ويطلق عليه اسم مولى وهو اسم يتضمن معنى السيد ومعنى المملوك معاً ، وهناك طبقة أخرى وهى طبقة العبيد الذين يعتقهم ساداتهم ولكن على شرط أن يؤديوا الى ساداتهم شيئاً معلوماً كل سنة (١) .

وان كان الأسير المستعبد أبى أن يتحول عن دينه الى الاسلام فقد كانوا يستعملونه في حرق الأرض أو في حمل الأثقال . وقد وجد مسيحيون كثيرون قبلوا الاسلام ، وآخرون بقوا متمسكين بنصرانيتهم ، وكلهم كانوا يمتازون بالخدمة وكان يعول عليهم في الحروب وقد كان منهم كثير في الحرس الخاص للخلفاء والملوك لاسيما في قرطبة . ولم يكن أسرى المسيحيين الذين بقوا متمسكين بدينهم ليلبثوا عبيداً بدون أمل في

(١) الولاء هو حالة العبد بعد عتقه بالنسبة الى سيده ومن العبيد من يتفق مع سيده على أنه يعتقه ثم يأخذ العبد بدفع ثمنه تقسيطاً ، ويسمى هذا العبد مكاتباً ، قال ابن الاثير : الكتابة أن يكتب الرجل عبده على مال يؤديه اليه منجماً فإذا أداه صار حراً قال وسميت كتابة بمصدر كتب لانه يكتب على نفسه لمولاه ثمنه ويكتب مولاه له عليه العتق . وقد كاتبه مكاتبه والعبد مكاتب . قال : وانما خص العبد بالمفعول لان أصل المكاتبه من المولى وهو الذى يكتب عبده . قال ابن سيده : كاتب العبد أعطاني ثمنه على أن أعتقه ، وفي التنزيل العزيز « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيراً » معنى الكتاب والمكاتبه أن يكتب الرجل عبده أو أمته على مال ينجمه عليه ويكتب عليه أنه اذا أدى نجومه في كل نجم كذا فهو حر ، فإذا أدى جميع ما كاتبه عليه فقد عتق وولاؤه لمولاه الذى كاتبه

الحرية ، بل كان أمراء المسلمين وأغنيائهم ممن يصير اليهم بعض هؤلاء الأسرى اذا وقعت لهم حوادث جاء التوفيق فيها لهم رفيقا أرادوا شكر الله تعالى على نعمته فحروا من عندهم من الأسرى وسنة ٩٩٧ علم المنصور بن أبي عامر بأن الله كتب لجنوده النصر في واقعة كبيرة في افريقية فشكراً لله تعالى أسرع الى تحرير ألف وثمانمائة أسير مسيحي من ذكور وإناث^(١) . وكان المسيحيون يجمعون أموالاً وينهبون الى

(١) قال الاستاذ العلامة حجة الاسلام السيد رشيد رضا في كتابه الذي صدر جديداً باسم « الوحي المحمدي » ان العلماء اتفقوا على شرعية عتق الكافر وأنه قرينة ولكنهم اختلفوا في عتقه في الكفارة

ولقد رأينا أن تنقل الى هذا الكتاب خلاصة ما أورده الاستاذ المشار اليه في كتاب « الوحي المحمدي » بشأن الرقيق في الاسلام فان الناشئة العصرية لاسيما المتخرجين في المدارس الاوربية لا يعلمون عن الرق في الاسلام ما يلزم أن يعلموه واذا سألوا الفقهاء الجامدين عن هذا الباب زادهم خبالاً فلماذا اخترنا أن نفهم على حكم الاسلام في قضية الرقيق محرراً بقلم الاستاذ الحجة . قال للدره: كانت شعوب الحضارة القديمة من المصريين والبابليين والفرس والهنود واليونان والروم والعرب وغيرها تتخذ الرقيق وتستخدمه في أشق الاعمال ، وقد أقرته الديانتان اليهودية والنصرانية وظل الرقيق مشروعاً عند الافرنج الى أن حررت الولايات الاميركية المتحدة رقيقها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي وتلتها انكلترة باتخاذ الوسائل لمنع من العالم كله في أواخر القرن التاسع عشر ولم يكن عمل كل منهما خالصاً لمصلحة البشري وجنوحاً للمساواة بينهم ، فان الاولى لاتزال تفضل الجنس الابيض الاوربي المتغلب على الجنس الأحمر الوطني الاصلي بما يقرب من الاستعباد السياسي المباح عند جميع الافرنج للشعوب ، كما أن انكلترة تحتقر الهنود وتستذلهم ولسكن النهضة الهندية في هذا العهد قد خفضت من غلواء الانكليز.

فلما ظهر الاسلام كان مما أصلحه من فساد الامم ابطال ظلم الرقيق وارهاقه ووضع الأحكام لا بطلان الرق بالتدريج السريع ، اذ كان ابطاله دفعة واحدة متعذراً في نظام الاجتماع البشري من الناحيتين : ناحية مصالح السادة المسترقين ، وناحية معيشة الأرقاء . فان الولايات المتحدة لما حررت رقيقها كان بعضهم يضرب في الارض يلتمس وسيلة للرزق فلا يجدونها فيعود الى سادته يرجو منهم العود الى خدمتهم كما كان . وكذلك جرى في السودان المصري فقد جرب الانكليز أن يجدوا للأرقاء رزقاً يعمل يعملونه مستقلين فيه ، فلم يمكن ، فاضطروا الى الاذن لهم بالرجوع الى خدمة الرق السابقة بشرط أن لا يكون مسموحاً للمخدومين ببيع الأرقاء والاتجار بهم . وقد شرع الله تعالى لأبطال

اسبانية وافريقية لافتكك الأسارى ، هذا يفتكك أباه وهذا أخاه وهذا صديقه وهلم جراً . ومن هناك تأسست رهبانيات بقيت مدة قرون في أوربة لم يكن لها عمل الاافتكك الأسارى من بلاد المسلمين . وقد سجل التاريخ من مآثر هذه الجمعية

الرق طريقتين : عدم تجديد الاسترقاق في المستقبل ، وتحرير الرقيق القديم بالتدريج الذى لا ضرر ولا ضرار فيه

الطريقة الأولى : منع الاسلام جميع ما كان عليه الناس من استرقاق الأقوياء للضعفاء الا استرقاق الأسرى والسبايا في الحرب التى اشترط فيها دفع المفاصد وتقرير المصالح ومنع الاعتداء ومراعاة العدل والرحمة ، وهى شروط لم تكن قبل الاسلام مشروعة عند الملين ولا عند أهل الحضارة ، فضلا عن المشركين الذين لا شرع لهم ولا قانون . ولست أعنى بالاستثناء أن الله تعالى شرع لنا من هذا النوع من الاسترقاق كل ما كانت الأمم تفعله معاملة لهم بالمثل ، بل شرع لأولى الأمر من المسلمين مراعاة المصلحة للبشر في امضاءه أو ابطاله ، بأن خيرهم فى أسرى الحرب الشرعية بين المن عليهم بالحرية والفداء بهم . وهو نوعان : فداء المال ، وفداء النفس اذا كان لنا أسارى أو سبي عند قومهم . وذلك قوله تعالى الذى أوردناه فى قواعد الحرب « فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء » ولما كنا مخبرين فيهم ، بين اطلاقهم بغير مقابل والفداء بهم ، جاز أن يعد هذا أصلاً شرعياً لابطال استئناف الاسترقاق فى الاسلام . فان ظاهر التخيير بين هذين الأمرين أن الأمر الثالث الذى هو الاسترقاق غير جائز لولم يعارضه أنه هو الأصل المتبع عند جميع الأمم فن أكبر المفاصد والضرر أن يسترقوا أسرانا ونطلق أسراهم ونحن أرحم بهم وأعدل ، كما يعلم مما يأتى ، ولكن الآية ليست نصاً فى الحصر ولا صريحة فى النهى عن الأصل فكانت دلالتها على تحريم الاسترقاق مطلقاً غير قطعية ، فبقى حكمه محل اجتهاد أولى الامر ، إذا وجدوا المصلحة فى ابقائه أبقوه . وإذا وجدوا المصلحة فى ترجيح المن عليهم أو الفداء بهم عملوا به

وانما تكون مصلحة الاسترقاق أرجح من هاتين المصلحتين — أى المن على الأسرى والفداء بهم — فى حالات قليلة لا تدوم كأن يكون المحاربون للمسلمين قوماً قليلي العدد ، كبعض قبائل البدو ، يقتل رجالهم كلهم أو جلهم فاذا ترك النساء والاطفال والضعفاء من الرجال لانفسهم لا يكون لهم قدرة على الاستقلال فى حياتهم ، فيكون الخير لهم أن يكلفهم الغالبون ويقوموا بشؤونهم المعاشية ، ثم تجرى عليهم أحكام الطريقة الثانية فى تحريرهم . وقد يتسرون بالنساء فيكن أمهات أولاد وربات بيوت حرائر أو محصنات من الفواحش مكفيات أمر المعيشة على الأقل . وقد سن النبي صلى الله عليه وسلم لأمنته ترجيح المن على الأسارى . والسبايا بالعتق ، قولاً وعملاً ، فى غزوة بنى المصطلق وغزوة فتح مكة وغزوة حنين كما هو مفصل فى كتب السيرة النبوية وغيرها ، اذ لم يكونوا أسروا

ما هو فوق الوصف . ومن ذلك عمل ايزان رئيس دير القديس فيكتور في مرسيلية الذى ذهب في سنة ١٠٤٧ الى الأندلس برغم ضعف جسمه وكثرة أمراضه ، وافتك عدداً من أسارى المسيحيين وجاء بهم قاصداً فرنسا ، فبينما هم في البحر هاجمهم قرصان

من المسلمين أحداً ، لأن المسلمين قد أئخنوم وظهروا عليهم . فعلم منها أن روح الشريعة الاسلامية ترجيح جانب الفضل والاحسان عند القدرة ، ومنه عتق الأسرى والسبايا والمن عليهم بالجزية بلا مقابل حاضر ولا خوف مستقبل ، بل لمحض الاحسان

الطريقة الثانية ماسرعه لتحرير الرقيق الموجود وجوبا وتدابا وهو أنواع :

النوع الأولى من أحكام الرق ووسائل تحريره اللازمة وفيه عشر مسائل :

١ - الحرية في الاسلام هي الأصل في الانسان ، كما كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى عامله على مصر عمرو بن العاص (وقد اشتكى عليه قبطى) : يا عمرو منذكم تعبدتم الناس وقد ولتهم أمهاتهم أحراراً ؟ وقد أخذ الفقهاء من هذا الأصل أن الرق لا يثبت باقرار المرء على نفسه وجعلوا قول منكره راجعاً على قول مدعيه فيكلف اثباته

٢ - إن الاسلام حرم استرقاق الأحرار من غير أسرى الحرب الشرعية العادلة بشروطها كما تقدم وجعل ذلك من أعظم الآثام . روى البخارى وغيره من حديث أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « قال الله تعالى : ثلاث أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حراً ثم أكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره » وفى حديث الثلاثة الذى لا يقبل الله منهم صلاة « ورجل اعتبد محرراً » أى جعله كالعبد فى استخدامه كرهاً وأنكر عتقه أو كتمه وهو فى سنن أبى داود وابن ماجه

٣ - شرع الله تعالى للمملوك أن يشتري نفسه من مالكة بما يدفعه ولو أقساطا . ويسمى هذا فى الشرع الكتاب والمكاتبة ، وأصله قوله تعالى « والذين يبتغون الكتاب مما ملكتم أيماكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » أمر بمكاتبتهم ان علم المالك أنهم يقدرون على الكسب والوفاء بما التزموه وأنه خير لهم وأمر باعانة المالك لمكاتبة على أداء ما باعه نفسه به ، ويدخل فيه الهبة وحط بعض الاقساط عنه وجعل فى مال الزكاة المفروضة سهماً تدخل فيه هذه الاعانة ونذب غير المالك لذلك أيضاً

ذهب بعض العلماء الى أن الأمرين فى الآية للوجوب : الأمر بالمكاتبة والأمر بالاعانة عليها . والأكثر على أن الأول للتدب والثانى للوجوب . وفى صحيح البخارى بعد ذكر الآية : قال روح عن ابن جريج قلت لعطاء : واجب على اذا علمت ان له (أى لمملوكه) مالا أن أكاتبه ؟ قال : ما أراه الا واجباً . وقال عمرو بن دينار قلت لعطاء : أثأثره عن أحد ؟ قال : لا . ثم

فأخذوهم ووقعوا ثانية في الأسر ، ورجع ايزان يسعى من جديد سعيًا حثيثًا ويذهب ويجيء حتى افتكهم مرة ثانية وعندما جاء بهم الى مرسيلية كان الضنى قد بلغ منه مبلغه فما وطىء أرض مرسيلية حتى مات دنفًا .

أخبرني أن موسى بن أنس أخبره ان سيرين سأل أنسًا المكاتبة — وكان كثير المال — فأبى ، فانطلق سيرين الى عمر فدعاه عمر فقال له : كاتبه . فأبى . فضربه بالدرّة وتلا (فكتبوهم أن علمت فيهم خيرًا) فكاتبه

٤ — اذا خرج الأرقاء من دار الكفر ودخلوا دار الاسلام يصيرون أحراراً وعلى الحكومة الاسلامية تنفيذ ذلك ومستنده في السنة معروف

٥ — ان من اعتق حصّة له في عبد عتق كله عليه من ماله ، ان كان له مال ، وان كان لغيره حصّة فيه فله أحكام . وفي ذلك أحاديث في الصحيحين وغيرهما ، منها حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أعتق نصيباً أو شقيصاً في مملوك فخلاصه عليه في ماله ان كان له مال وإلا قوم عليه فاستسعى به غير مشقوق عليه » وحديث ابن عمر مرفوعاً أيضاً « من أعتق نصيباً له في مملوك أو شركاً له في عبد فكان له من المال ما يبلغ قيمته بقيمة العدل فهو عتق » والشقيص كالنصيب وزناً ومعنى

٦ — من عذب مملوكه أو مثل به أو خصاه عتق عليه ، فقد روى الامام أحمد أن زبناً أبا روح وجد غلاماً له مع جارية له فجدع أنفه وجبه فشكاه الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسأله فاعترف وذكر ذنبه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للغلام « اذهب فأنت حر » ويؤخذ منه أن الجلب والخصاء حرام وموجب لعتق العبد وينفذه الحاكم فكل ما كان يتخذ من الحصيان . المالك فقيه مخالفة للشرع الاسلامي بخصائهم وعدم عتقهم

وفي رواية له (الامام أحمد) أخرجها أبو داود وابن ماجه جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم صارخاً فقال له مالك ؟ قال : سيدي رأى أقبل جارية له فجب مذاكيرى . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « على بالرجل » فطلب فلم يقدر عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم للغلام « اذهب فأنت حر » وفي جامع الأصول من حديث سمرة بن جندب وأبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من مثل بعبد عتق عليه »

٧ — إذاء المملوك بما دون التمثيل والتعذيب الشديد حرام ، ولا كفارة لذنبه الا عتقه ، فقد روى أحمد ومسلم وأبو داود عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه . وللشيخين والترمذى عن سويد بن مقرن قال : كنا بنى مقرن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لنا الا خادمة واحدة فلطمها أحدنا فبلغ ذلك النبي فقال : أعتقوها . وقيل له انه ليس لبنى مقرن خادم غيرها . فرخص لهم باستخدامها

وأما الرقيق من النساء فكان يشتغلن في قصور الأمراء وحرم الأغنياء ويساعدن زوجات الرجل الذي يملكهن ، وإذا امتازت احداهن بجمال أو قسام كانت تعلم وتهذب وتباع بضمن غال أو يتزوج بها مالكا وكثيراً ما كن يرسلن

مادامت الحاجة وإطلاقها اذا زالت . وروى مسلم وغيره عن أبي مسعود البدرى قال : كنت أضرب غلاماً بالسوط فسمعت صوتاً من خلفي : اعلم أبا مسعود فلم أفهم الصوت من الغضب قال : فلما دنا مني اذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو يقول : اعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود . فألقيت السوط من يدي . وفي رواية فسقط من يدي السوط من هيئته ، فقال : اعلم أبا مسعود أن الله أقدر منك على هذا الغلام (وفي رواية عليه) فقلت يا رسول الله هو حر لوجه الله فقال : اما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار

٨ - التدبير عتق لازم وينعقد بقول السيد لعبده أنت مدبر وأنت حر عن دبر مني أى بعد أن أدبر عن هذه الدنيا وكذا أنت حر بعد موتى اذا قصد به التدبير فان اطلق ولا قرينة فبعض العلماء يرجح أنه تدبير تقوية الجانب العتق الذي هو من مقاصد الشرع الأساسية . ومنهم من يرجح جانب الوصية . ومن أحكام التدبير أنه لازم في الحال لا يجوز الرجوع عنه كالوصية وأنه لا يجوز للمدبر (بالكسر) بيع المدبر (بالفتح) عند مالك وأبي حنيفة وأن من دبر بعض مملوكه وهو مالك له كله سرى العتق الى باقيه وقال جمهور العلماء ان أولاد الجارية المدبرة تابعون لها في العتق والرق فاذا عتقت عتقوا معها

٩ - عتق أمهات الأولاد . وهو أن الجارية التي تلد لسيدها ولداً تصير حرة من رأس ماله بعد موته ، فلا تدخل في ملك الورثة ولا يجوز له بيعها في حياته عند جمهور السلف والخلف ، وأولهم عمر وعثمان ، ففي حديث عمر عند الامام مالك : أيما وليدة ولدت من سيدها فانه لا يبيعها ولا يهبها ولا يورثها وهو يستمتع منها فاذا مات فهي حرة

١٠ - ان من ملك أحداً من أولي القرية عتق عليه وأعم ما فيه حديث سمرة بن جندب مرفوعاً : من ملك ذا رحم محرم فهو حر

النوع الثاني من وسائل تحرير الرقيق الموجود الكفارات والمراد بها القربات التي تمحو الذنوب وأعظمها عتق الرقاب وهي ثلاثة أقسام أحدها واجب حتماً على القادر على العتق ككفارة قتل النفس خطأ وكفارة الظهار ، وهو تشبيه الرجل وزوجه في أمه ، وكان طلاقاً في الجاهلية ، وكفارة افساد الصيام عمداً . ثانيها واجب بخير فيه وهو كفارة اليمين فمن حلف يميناً وحنث فيها فكفارته اطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة كما قال الله تعالى وحكمة التخيير ظاهرة . ثالثها مندوب وهو العتق لتكفير الذنوب غير المعينة وهو من أعظم مكفراتها

هدايا الى الخلفاء والكبراء . وذلك كما حصل للأميرة « لميحية » ابنة أود دوق اkitانية التي صارت الى الخليفة في دمشق واذا تزوج المسلم بأمة صارت بذلك حرة . وكان أولادها أيضاً أحراراً ، ولم يكن فرق بينها وبين الزوجة التي هي حرة من الأصل . وان كان ولد للرجل من جاريته أولاد ، ولو لم يكن عقد نكاح ، ورضى بأن يعترف بهم فانهم يصيرون أحراراً وتصبح أمهم حرة أيضاً لكن مع بقائها تحت سلطة زوجها . ومثل هذه الجارية عند وفاة زوجها تتحرر تماماً ويقال لها عندهم أم ولد . وكانت قصور خلفاء دمشق وبغداد وقرطبة ملأى بالنساء اللائي يقال لهن أم ولد . وكان أولاد هارون الرشيد ، ماعداً واحداً فقط ، كلهم أبناء جوار يقال للواحدة منهن أم ولد . أما اذا كان الأب ولد له أولاد من جاريته ولم يرد أن يعترف بهم فانهم يبقون هم وأمهم عبيداً

النوع الثالث من وسائل الغاء الرق الموجود . جعل سهم من مصارف الزكاة الشرعية المفروضة (في الرقاب) بنص القرآن ، هو يشمل العتق والاعانة على شراء الملوك نفسه . ومن المعلوم ان زكاة الامة الاسلامية قد تبلغ مئات الألوف وألوف الألوف من الدراهم والدنانير فلو نفذت أحكام الاسلام فيها وحدها لتمكن تحرير الرقيق في دار الاسلام

النوع الرابع منها العتق الاختياري لوجه الله تعالى . قد ورد في الكتاب والسنة من الترغيب في العتق ما يدخل تدوينه في سفر كبير ومما يدل على انه من أعظم العبادات آية البر من سورة البقرة . ومن أشهر أحاديث الترغيب في العتق قوله صلى الله عليه وسلم : أيما رجل اعتق امرءاً مسلماً استغفرت الله بكل عضو منه عضواً من النار . وحديث أبي ذر قال سألت رسول الله أي العمل أفضل قال : إيمان بالله وجهاد في سبيله . قلت : فأى الرقاب أفضل قال : أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها . ومن أشهرها حديث أبي موسى الأشعري : أيما رجل كانت له جارية أذهبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها وأعتقها وتزوجها فله أجران

أضف الى هذا وصايا الله ورسوله بالماليك . ومنها تخفيف الواجبات عليهم وجعل حد المملوك في العقوبات نصف حد الحر وقد قرن الله الوصية بهم بالوصية بالوالدين والأقربين ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قول السيد « عبيدي أو أمتي » وأمره أن يقول « فتاتي وفتاتي وغلامي » وأمر بأن يطعموهم مما يأكلون ويلبسوهم مما يلبسون . انتهى بعض اختصار ، ومنه تفهم معالي الشرع الاسلامي وما فيه من المبادئ الانسانية والرحمة بالضعفاء والعمل لتحرير الرقاب بكل وسيلة ممكنة .

ولنضرب لك مثلاً على ما كان يمانيه الأسرى المسيحيون ، في بلاد الاسلام ،
بالحادثة الآتية :

في أواخر القرن العاشر وقع رجل من احلاس الحرب ، من بلدة طلويزة ، أسيراً
في أثناء ذهابه لزيارة بيت المقدس فصار الى بيت رجل من الأغنياء استخدمه في
حرث الأرض ، فقال لهم انه لا يحسن هذا العمل وانه لا يحسن غير القتال ،
فجعلوه جندياً ، وحضر وقائع كثيرة وآل به التقلب في البلاد الى أن حضر حرب
قرطبة الأهلية سنة ١٠٠٩ مسيحية ، وهناك امتاز بالبسالة ونبه أمره . ولما كان
« شنجو » كونت قشتالة قد خاض غمرات تلك الحرب وشاهد ما شاهده من إقدام
هذا الرجل أمر باطلاق سبيله .

أما مصير المسلمين الذين كانوا يقعون في أيدي الافرنج فلم يكن يختلف كثيراً عن
مصير المسيحيين الذين يقعون أسرى في بلاد الاسلام . ولقد كان الرق معروفاً
بفرنسة ، وكان يأتيها رقيق كثيرون من جرمانيين وسلاف وغيرهم من شمالي اوربة ،
فاذا كان يستعبد فيها الأوربيون فبدينه أن يستعبد فيها الأسرى من المسلمين . ولم
يكن فرق بين الأسرى في الاسلام والأسرى في بلاد الافرنج ، سوى أن الرقيق في
الاسلام اذا تحرر أصبحت له جميع حقوق الأحرار ، بخلاف القاعدة في اوربة فان
طبقة العبيد ولو تحرروا تبقى منحطة عن طبقة النبلاء وتبقى بينهما فواصل . وكان
المسلمون يبدلون أيضاً الأموال في افتكاك أسراهم ، فمنهم من يفكه أهله ، ومنهم
من يفكه أصحابه ، ومنهم من يفكه سلطانه . وقد تأسست عند المسلمين جمعيات
لفداء الأسرى كما عند المسيحيين ، وذلك أن فك العاني معدود من أفضل الأعمال في
الاسلام وقد سأل محمد (صلى الله عليه وسلم) سائل عما يجب أن يعمل لينال أفضل الثواب
وتعلم أنه ليس من ضرب تحرير الرق عند الافرنج الذي فيه من الرياء ومن تسلط الأقوياء على
الضعفاء ومن استعباد الشعوب القوية للشعوب المهضومة ومن جعل الأجناس البشرية نازلاً بعضها
عن بعض ما كل أحد يحكم به ان كان منصفاً

فأوضحه النبي بتحرير الرقاب . وقد روى النويرى ولوزديق شيميناس أنه في زمن الأمير هشام بن عبد الرحمن بلغ من ظفر جيوش الاسلام انهم بحثوا عن أسرى يفكونهم بالمال المجموع لذلك الغرض فلم يجدوا أسيراً مسلماً يفكونه

وكان يؤتى بأسرى المسلمين الى آدل ومرسيلية وأربونة ، ويباعون فيها ، ويأتى أناس من أبناء ملتهم الى هذه المدن فيفقدونهم فأما المسلمون الذين لم يحصل لهم نصيب الافتكاك من الأسر فكانوا يصيرون الى العبودية ، فيشتغل الواحد منهم في خدمة مالكة . وأكثر ما كانوا يستعملونهم في الحرث . وكان يحق للمالك العبد أن يبيعه أو أن يضربه أو أن يعذبه ، وكثيراً ما كانوا يكبلونهم بالحديد لئلا يفروا . ولم يكن للعبيد من المسلمين ، كما لم يكن للعبيد من اليهود ومن الوثنيين ، حق أن يتزوجوا بالمسيحيات ولو كن من الخوادم . ومن كانت منهن متزوجة بغير مسيحي كان لا يؤذن بدفنها في مقابر النصارى بل هناك ما هو أكثر من ذلك وهو أنه لم يكن يؤذن في زواج العبد من الأمة ولو كانا من ملة واحدة ، وإنما كان للمالك أن يأذن في مساكنة العبد للأمة في مكان واحد ، ولكن على شرط أن الأولاد الذين يولدون لها يكونون ملكاً للمالك المذكور . ولقد تلاشى الرق من أوربة في نواحي القرن الثاني عشر إلا أنه بقي جائزاً بحق غير المسيحيين لاسيما المسلمين ، وعلى ذلك شواهد من آثار القرن الثاني عشر والقرون التالية ، ومن جلتها نصوص واردة في مجموعة القوانين البحرية القديمة. تأليف المسيو بارديسو ، غير أن ذوى التقوى كانوا إذا أرادوا أن يشكروا الله تعالى على نعمة أفاءها الله عليهم أعتقوا عبيدهم ثم عمت العادة بأن كل عبد طلب أن يتعمد أى أن يتنصر يصير حراً . وهكذا اندمج العبيد في سائر الأمة

وكان العبيد من المسلمين يشتغلون في المزارع من أملاك الممولين أو أوقاف الأديار والكنائس . وقد مر بنا أن أسارى المسلمين الذين وقعوا في اليد سنة ١٠١٩ أمام أربونة قد وزعهم المسيحيون على الكنائس وعلى بعض الزعماء . وهكذا وقع للمسلمين الذين كانوا في فرنسة بعد سقوطهم في معركة سنة ٩٧٥ ولجميع عساكر المسلمين الذين انفصلوا عن مجموع جيشهم في أثناء غزواتهم للبلاد الافرنسية .

وكانت هناك أسباب أخرى لزيادة عدد الرقيق المسلم في فرنسا ، منها الحروب الصليبية في الشرق ، ومنها الحروب التي كانت تقع بين الافرنج وبين مسلمي الأندلس . وقد ذكر المسيو بارديسو في كتابه المار الذكر أن منها ما كان آتيا أيضا بطريق التجارة . ومما لا نزاع فيه أنه قد بقي استعباد أسرى المسلمين في فرنسا عادة متبعة دهرًا طويلا ، وفي سنة ١١٤٩ أوصى ارنود مطران أربونة بمبيده المسلمين لمطران بيزيه Beziers وفي سنة ١٢٥٠ أوصى روميوفيلنوف Romeo de Villeneuve الذي كان وزيراً عند كونت بروفنس ، قبل موته ، ببيع العبيد المسلمين الذين كانوا في أراضيه . وكانوا من الذكور والاناث . ذكر هذا المسيو يوش في تاريخ بروفنس . وبعد ذلك بمئتي سنة ورد ذكر شراء الملك رينه^(١) René لثلاثة عبيد من المسلمين . وقد اطلعنا على قرارات لمجمع الاساقفة في طرا كونية في اسبانية المنعقد سنة ١٢٣٩ من جعلها أن يجبر المسلمون الذين بفرنسة على اتخاذ لبس خاص بهم ، وكذلك اليهود ، وقد جاء مثل هذا الاقتراح في قانون لأسقف بيزيه سنة ١٨٦٣

وكان المتحمسون بالنصرانية يفضون للسماح بزواج الارقاء في فرنسا بحيث وجد في قانون رهبانية جيتو Jéteau مادة تمنع أديار هذه الرهبانية أن يجتمع فيها مسلمون ومسلمات في محل واحد ، بل كان هناك معاهد دينية ترفض استخدام العبيد المسلمين في أشغالها

لقد مرّ بنا أن المسلمين الذين كانوا يطلبون المعمودية يصيرون أحرارا وكان هذا حقاً لهم ، ولما كان كثير من هذا الطلب لا يقع عن اخلاص أو عقيدة ، وكان بعض هؤلاء المتعمدين إذا حصلوا على حريتهم يعودون الى ضلالهم ، فكان لسادة هؤلاء العبيد الحق في امتحانهم مدة من الزمن . وعند ذلك صار كثير من المسيحيين الذين لا وجدان لهم يمتحنون عبيدهم من المسلمين امتحانات يقصدون بها منعهم من الدخول في النصرانية . ومنهم من كانوا وقد تنصر عبيدهم ، يرفضون الموافقة على تحريرهم ويستمرون على ارهاقهم بأشد ما يمكن . ولقد أصدر البابا كليمنفوس الرابع سنة ١٢٦٦

(١) كان يقال له الملك رينه الصالح وكان من ألقابه دوق أنجو وكان كونتا على بروفنس توفي

منشوراً أنزل به صواعق الغضب على رئيس دير القديس بندكتس في ميرنده ،
لكونه عذب رجلاً مسلماً غنياً كان قد تنصر ، وزعم هذا الرئيس أن تنصره كان غير
حقيقى وضبط له أملاكه وحرم منها اولاده

فأنت ترى أنه كان من المسلمين المستعبدين في فرنسة أشخاص ذوو أملاك ،
وكانوا مثل اليهود يقرضون الأموال بالربا ، وكان اذا غضب الشعب على المرايين من
اليهود أدخلوا المسلمين أيضاً في دائرة غضبهم . وقد قلنا انه لم يكن للمسلمين حق في
التزوج بمسيحيات ، وان كل مسيحية كانت ترضى بأن يتزوجها مسلم كانت تحرم
من حق الدفن في المقابر المسيحية ، وكان هؤلاء المسلمون يعطون أشغالهم في الأعياد
المسيحية قسراً

وبالاجمال فعدد المسلمين الذين تنصروا في فرنسة كان كبيراً^(١) وهذه نتيجة

(١) في فرنسة ولاسيا في المقاطعات الجنوبية منها ، عائلات كثيرة معروفة بأنها من سلالة
السرازين . أى المسلمين ، ومنها ماتدل سحناؤها الى اليوم على العروبة . وفي نفس سويسرة
عائلات ملقبة بالسرازين ، في جنيف وفي بازيل . ومن أشهر من انتسب الى أصل عربى في جنيف
العالم العلامة الفيلسوف « ابن أبى زيد » وكان أهل سويسرة يقولون له أبو زيت Abou Zit
وأصله عربى من سكان طولوز . وكان أهله من العرب الذين تنصروا ثم اتخذوا مذهب البروتستانت ،
فلما صدر أمر لويس الرابع عشر باخراج كل البروتستانتين من فرنسة ، خرج أبو زيد هذا مع
من خرجوا الى جنيف ، ثم نشأ فيها ونجح في جميع العلوم الرياضية والطبيعية والفلك والفلسفة
والتاريخ وغيرها . وكان معاصراً لفولتير وروسو ونيوطن في انكلترة ، وصديقاً لهم جميعاً ، وكانت
له عندهم المكانة العليا وربما استفتوه في عويص المسائل العلمية . وقد ذكرت جريدة جورنال
ده جنيف احدى المراسل أن فولتير استفتاه في مسائل غاب عنه علمها . ومر بفولتير صاحب له قاصداً الى
جنيف ، فسأله فولتير : ما شغلك في تلك البلدة ؟ وكان فولتير ساكناً في ضواحي جنيف كما لا يخفى
بقرية فرناى . فقال له صاحبه : أريد الاجتماع بعالم كبير . فقال له . اذن تريد أن تجتمع بصاحبنا
العربى . وأما جان جاك روسو فينبه وبين أبى زيد مراسلات بمجموعة في كتاب . وكان هذا العلامة
العربى زاهداً عظيم التواضع معرضاً عن الدنيا ، عرضوا عليه في جنيف أعلى المناصب فرفضها ،
واقصر على وظيفة قيم لحزانة الكتب العمومية . وفي جنيف اليوم شارع مشهور باسم شارع
أبى زيد . وكان سلف أبى زيد هذا أطباء في طولوز . وقد كتب محرر هذه السطور عن أبى زيد
العربى الجنيفى منذ بضع سنوات مقالة في الجرائد العربية لحصنها عن الجرائد السويسرية وربما
نعود الى موضوعه بعد التوسع في معرفة حياته

طبيعية للحالة التي كانت يومئذ ولكن الفرنسيين الذين مع الأسف اتخذوا الاسلام ديناً كان عددهم أكبر ، فان الغزوات الاسلامية الأولى لفرنسة وسبي المسلمين للنداردى من أهلها وما كان التجار يتجرون به من الرقيق ، كل هذا قد أدخل في الاسلام عدداً لا يحصى من الافرنج . ومن المعلوم أن المسلمين يتلقون المسيحيين الداخلين في دينهم بمزيد التساهل ويعتنون بهم ويوفرون حظوظهم وأرزاقهم وبهذا كثر عدد النصراني الذين صبأوا عن دينهم ودخلوا في الاسلام .

ولنتكلم الآن عن كيفية حكم المسلمين في فرنسة أيام كانوا سائدين فيها وعن طرز معاملتهم لرعاياهم وعن سياستهم المدنية والدينية والخراجية ، فانهم قد استقروا بعد غزواتهم الاولى في بروفنس ودوفيني وبيمونت وسفواى وسويسرة ، ولكن استقرارهم الحقيقي لم يكن إلا في بعض المعاقل الحصينة وفي ضواحيها ، ولم يتفق لهم أن استولوا في فرنسة على بلاد بأسرها . نعم كانت في أيديهم معابر الجبال والأنهار ، فكانوا يأخذون من السابلة رسوماً على المرور ، وكان الوادعون منهم يشتغلون بالفلاحة والزراعة ، وربما أدوا الضرائب عن محصولاتهم الى أمير البلاد التي كانوا فيها . أما بلاد بروفنس التي كانت تتجاوز حصن فركسينت فقد كانت دائماً عرضة لعبث عصاباتهم . وفي أوائل فتحهم لجنوبي فرنسة أيام شارل مارنل وابنه بين القصير لم يطل الأمر أن وقعت بينهم الحروب التي أدت الى التنفيس من خناق المسيحيين . فكان للقوط في اللانغدوق امراؤهم وقوامسهم يلون أمورهم وأما لم يكن المسلمون يعطون هؤلاء الأمراء سلطة عسكرية واسعة فكانهم كانوا يحفظون حق السيطرة لأنفسهم على الحكومات المسيحية المحلية . وقد ذكرنا يزيدور الباجي المؤرخ المسيحي الذي عاش في ذلك العصر أن عقبة أمير الأندلس في سنة ٧٣٤ كان يلتزم سياسة ترك الشعوب التي تخضع لحكم المسلمين على قوانينها الأصلية ، وقد وقع في يدنا منشور من والى المسلم لمدينة قويمرة في البرتغال يظهر منه أنه كانت للمسيحيين ادارة خاصة بهم ، ونص هذا المنشور هو مايلي : يكون على مسيحيي قويمرة كونت بلى أمورهم ويحكم فيهم بالسداد ، وكما كانت عادة المسيحيين في الأحكام وله أن يفصل الخصومات

التي تقع بينهم ، ولكنه لا يقدر أن يحكم على أحد بالقتل إلا بعد موافقة قاضي المسلمين وذلك بأن الجاني يؤتى به أمام القاضي ويقرأ نص الحكم عليه بحسب الشريعة المسيحية ، فاذا وافق القاضي أمكن تنفيذ الحكم بالقتل والا فلا . ويكون لكل مدينة من المدن الصغيرة قاض خاص بها يحكم فيها بالعدل ويكف المنازعات ، وإن أهان مسيحي مسلماً عومل بشرع المسلمين ، وإن سطا مسيحي على عرض مسلمة أجبر على الاسلام وعلى الزوج بالمرأة التي اعتدى على عرضها ، والا فالقتل ، وإن كانت المرأة محصناً فإن المعتدى على عرضها يقتل بلا مراجعة^(١) وقد وجد نص هذا المنشور في دير لوربان Lorban وطبع في اشبونة سنة ١٦٠٩

أما من جهة سياسة المسلمين الدينية في فرنسا فليست عندنا عنها معلومات شافية للقليل ، وكل ما نعلم أن المسلمين تركوا للنصارى حريتهم الدينية ، وأن السواد الأعظم من أهل أربونة مثلاً بقوا مسيحيين ، وكان عددهم كبيراً . وقد ترك لهم المسلمون كنائسهم وبيعهم مع القسيسين والوفية الذين يخدمونها . على أنه لم يسمع أن المسلمين في أربونة وما جاورها من فرنسا مثلاً تمتعوا المسيحيين بالحقوق التي أمتعهم بها في قرطبة والمدن التي في قلب المملكة . نعم إن المسلمين في قرطبة استولوا على كنائسها الكبرى ، ولكنهم أبقوا للمسيحيين سائر كنائسهم وتركوا لهم أديارهم التي للرهبان والتي للراهبات على السواء ، وتساعوا معهم في أمر لم يتسامح فيه المسلمون لا في افريقية ولا في آسية وهو قرع المسيحيين للأجراس^(٢) في مواعيد صلاتهم أما في أربونة وما جاورها من المدن فلم يكن للمسيحيين أساقفة كما في قرطبة ، ولا كانت لهم أديار ولم يكن السبب في ذلك كله من المسلمين بل كانت هناك فوضى كنسية كما

(١) كان يجب على المسيو رينو وهو مستشرق عالم بأمور المسلمين أن ينبه على كون المعتدى على عرض المسلمة المتزوجة يجازى بالقتل بحسب الشرع سواء كان مسيحياً أو مسلماً أي إن هذا الجزاء ليس خاصاً بالمسيحيين

(٢) ذكر رينو في حاشية هذه الجملة أن المسيحيين في جبل لبنان هم وحدهم الذين في الشرق يسمح لهم المسلمون بقرع الأجراس

يستدل عليه من كتاب بعث به القديس بونيفاس الى البابا زخريا سنة ٧٤٢ وهذه الفوضى كانت ناشئة عن الانقلابات التي أحدثتها حروب أولاد كلوفيس فيما بينهم . أما في شمالى اسبانية فقد وقعت الفوضى الكنسية لدى وصول المسلمين الى البلاد . ففي أراغون مثلاً ، عندما جاء المسلمون واستولوا على هذه المملكة ، فر الأسقف الى جبال البيرانة ولم تعد الأسقفية الى أراغون الا بعد ذلك بثلاثمائة سنة أي عندما أجلى المسلمون عن البلاد . ولا يظهر أنه كان في برشلونة أسقفية لعهد وجود المسلمين فيها ، بل يظهر أن أمراء المسلمين تحاشوا قبول الاسقفيات في المدن الواقعة في الثغور . وقد كان المسلمون يتركون للمسيحيين كنائسهم على شريطة أن يكتفوا بالقديم منها ، وأن لا يؤسسوا كنائس جديدة ، وأن بنوا شيئاً جديداً منها فلا يكون الا مكان القديم . وذهب بعض فقهاء الاسلام الى أنه لا يجوز تجديد الكنيسة الجديدة الا بأحجار الكنيسة القديمة . ولم يكن للمسيحيين حق في الطواف في الأسواق بالصلبان والأعلام المسيحية ولم يكن أيضاً للمسيحيين أن يعارضوا نصرانياً يريد الدخول في الاسلام . وقد تبين من الأمر المتعلق بنصارى قويمرة في البرتغال أنه كان على كل كنيسة دفع ضريبة لبית المال ، مقدارها خمس وعشرون قطعة فضية ، وكان على كل دير دفع خمسين قطعة أما الكنائس العظمى فكانت تدفع مائة قطعة

وقد تقدم أن المسلمين في مدن الأندلس كانوا يعاملون النصارى بالحسنى ، كما أن النصارى كانوا يراعون شعور المسلمين فيختنون أولادهم ولا يأكلون لحم الخنزير . ومع هذا فقد وجدت كتابات للمسيحيين من القرن التاسع تدل على أن مراحل البغضاء كانت تغلي أحياناً بين الفريقين ، وأنه كان محظوراً على المسيحيين إقامة شعائر دينهم علناً بالاحتفال اللازم ، وأن المسلمين كانوا اذا سمعوا قرع النواقيس اشمأزوا ونفروا وربما قذفوا وشتموا . ولكن لا ينكر أن المسيحيين أيضاً كانوا اذا سمعوا الأذان تعوذوا بالله ورسموا اشارة الصليب على صدورهم . وقد أقر بذلك القديس اولوج Euloge الذي كان من المضطهدين سنة ٨٥٠

أما من جهة الخراج فقد تقدم أن السمع (ابن مالك الخولاني) أمير الأندلس كان

هو البادىء بتنظيم الجبايات واستخراج الارتفاعات سواء فى اسبانية أو فى جنوبى
فرنسة ، وقبل ذلك كانت أمور الجباية فوضى والحبل منتشراً وقد وزع السمع قبلاً
من الأراضى المأخوذة من المسيحيين على غزاة المسلمين وعلى العائلات الفقيرة ، بعد
أن كان بعض ذوى السلطة قد استأثروا بها لأنفسهم من دون الفقراء ، وقد ضم السمع
بقية الأراضى الى بيت المال . وكان الخراج المفروض على أراضى المسلمين هو عشر
المحصول بخلاف المسيحيين فقد كانوا يدفعون الخمس ، أى ضعف خراج المسلمين وكان
المسيحيون عدا الخمس يدفعون الجزية وهى إتاوة شخصية كان يتقاضاها المسلمون من
المسيحيين فى مقابلة محافظتهم على دماءهم وأموالهم وامتاعهم بحريتهم الدينية . أما من
أسلم من المسيحيين فكان معنى من الجزية . وكان ملوك الأندلس يضربون رسماً على
البضائع والسلع ، فالسلم كان يؤدى اثنين ونصفاً فى المئة ، والمسيحي كان يؤدى خمسة
فى المائة ، وكانوا يسمونها زكاة وكانت تنفق فى إعانة الفقراء وافتكاك الاسرى

وكان المسلمون يسمون المسيحيين الذين خضعوا لهم ودفعوا الجزية المعاهدين
أو أهل الذمة ، أى الذين لهم على المسلمين ذمة الحماية والحفاظة . أما المسيحيون الذين
لم يكونوا خاضعين للإسلام فكانوا يسمونهم أعلاجاً واحداً عالج ، وكانوا يقولون
عجمى لكل من ليس بعربى ، ويسمون مشركاً كل من يقول بأن الله ثلاثة أقانيم
لأن المسلمين لا يرون فى الثلاثة الأقانيم الا ثلاثة أشخاص .

ويحق للإنسان أن يسأل : بأى لسان كان العرب يكلمون الأمم التى تغلبوا عليها ؟
فان من عادة العرب أن لا يحفلوا بغير لغتهم كما أن المسيحيين لذلك العهد كانوا من
الجهل والبربرية بحيث لم يكونوا يفكرون فى تعلم العربية . ولم يذكر التاريخ رجلاً
مسيحياً لأوائل أيام الفتح الاسلامى أتقن العربية غير هارتموت Hertmote رئيس دير
سانغال الذى كان يعرف العربية واليونانية والعبرية ، وكان من رجال أواخر القرن
التاسع . ولم يبدأ أباًؤنا بتعلم العربية إلا فى أيام الحروب الصليبية ، إذ لم يجدوا غنى
عن الاطلاع على لغة قوم استولوا على جانب من بلادهم ، فكانوا يذهبون الى اسبانية
حيث كانت العربية واللاتينية تعلمان جنباً الى جنب ويقرأون العربية على أهلها . وفى

سنة ١١٤٢ أكمل بطرس رئيس دير كلوني Gluny أول ترجمة لاتينية للقرآن ، وبدأ يكتب الردود على دين الاسلام ، وتبعه في ذلك مؤلفون كثيرون من النصارى .
على أننا لا نشك في أنه في أول دخول العرب الى فرنسا كانت اللغة العربية معروفة فيها ، وكان كثير من الافرنج يحسنون التكلم بها ، وذلك لأن العرب كانوا يأخذون أبناء البيوتات النبيلة رهائن على طاعة أهلهم لهم ، ويرسلون هذه الرهائن الى قلب مملكتهم ، فكان لابد لهم هنالك من أن يتعلموا العربية . وكذلك كان بديهيًا أن الأسرى والعبيد من المسيحيين يتعلمون العربية ، فاذا عادوا الى بلادهم كانوا من جملة الافرنج الذين يعرفون هذه اللغة . وأضاف الى ذلك المسلمين المستعبدون الذين كانوا في أرض فرنسا فقد كانوا كلهم يتكلمون بالعربية ، ولا تنس التجار وزوار بيت المقدس الذين برغم جميع تلك الحروب الهائلة لم ينقطعوا عن التجارة ولا عن الزيارة ، وكانوا يختلفون الى مصر والشام وغيرهما من بلاد الاسلام ، ومن جملة هؤلاء الانكليزي القديس غيلبود Geillebaud الذي ذهب الى الشرق ووصل الى الشام سنة ٧٣٤ للمسيح ، وقيل انه عند وصوله الى دمشق قبض عليه على ظن أنه جاسوس ، فلما علموا أنه قادم لزيارة بيت المقدس خلوا سبيله ، فطاف في سورية وفلسطين بدون معارضة ؛ ولكن لم يقع في أيدينا شيء من المعلومات عما دار من الأحاديث بين الخليفة في دمشق وبين القديس المذكور

وكان المسيحيون في ذلك العصر مستسلمين للاقدار يعتقدون أن غزوات العرب لبلادهم انما هي عقاب من الله تعالى للبشر على خطاياهم فكانوا راضين بما قدره الله عليهم لا يحاولون دفع منازلهم ولم ينهضوا في أوربة لاستعمال الوسائل البشرية الكفيلة بدفع الأذى عنهم الا في أيام الحروب الصليبية

وكان المسلمون في غاراتهم يستعملون السبي فيربون الصبيان الى أن يبلغوا رشدهم ، ويحملونهم جنوداً ، ويربون الصبيات الى أن يبلغن رشدهن فيتخذوهن حلائل . وكانوا في أي مكان شنوا فيه الغارة وضعوا ذلك نصب أعينهم . تأمل في كيفية حلولهم بجزيرة اقريطش . فقد تقدم أن خمسة عشر ألفاً من ربض قرطبة أجلوا عن الأندلس

على أثر فتنة الربيض المشهورة، فاجاءوا الى الاسكندرية ، ومن هناك عزموا على النزول في اقريطش نظراً لحسن هوائها وجودة تربتها، ولما وصلوا الى تلك الجزيرة أمرهم قائدهم بأن يبدأوا بالمارة ، وأحرق السفن التي جاءوا بها ، فصاح رفاقه به قائلين له : كيف يمكننا بعد الآن أن نراسل نساءنا وأولادنا ؟ فأجابهم : اننى أعطيتكم وطناً جديداً وهذا الوطن هو الذي يكفل لكم ايجاد نساء تتزوجون بهن ، وبعد ذلك عليكم أن تنسلوا الأولاد . ولما جاء المسلمون ودخلوا أرض فرنسة فاتحين لم يكن لهم مقصد سوى نشر دين الاسلام واخضاع فرنسة وكل اوربة لأحكام القرآن . ولكن فيما بعد ذلك دخل في تلك الغزوات مقاصد أخرى ، كحب النهب أو الأخذ بالثأر . ومن هذا القبيل نزول العرب في أواخر القرن التاسع في أرض بروفنس وقد ذكر المؤرخ ليو تبرند كيفية فتح العرب لصقلية فقال : ان أمير صقلية من قبل امبراطور القسطنطينية كان قد خرج من طاعته ، فأرسل يستنجد أمير العرب في القيروان ، فشاور هذا أعوانه فيما يفعل ، فأشاروا عليه باصراخه ، ولكن على شرط أن العسكر الاسلامي يأخذ ما يمكنه من الغنائم ويقفل بدون استقرار في تلك الجزيرة . وذلك لأنهم لمعرفتهم بشدة قرب صقلية من الأرض الكبيرة كانوا يعتقدون أن مقام أمة تخالف أهل تلك الديار في اللغة والعقيدة لا يمكن أن يكون هناك لاطويلا ولا وطيداً ، وأنه لا مناص من أن يكر اليونان والافرنج فيسترجعوا تلك الجزيرة ولو بعد حين . قيل ان أحدهم سأل يوم عقد تلك الشورى بشأن غزو صقلية ما مقدار المسافة التي تفصل بين الجزيرة والأرض الكبيرة؟ فأجابوه بأن الانسان يقدر أن يأتى ويرجع مرتين أو ثلاثا في النهار . فسألوكم المسافة بين صقلية وافريقية ؟ فقليل له مسافة يوم وليلة . فقال : لو كنت طيراً ما رضيت أن أجعل مقامى بهذه الجزيرة والحال هي هذه من جهة المسافة . ذكر ذلك النويرى . والحقيقة أن المسلمين لم يعملوا على البقاء في صقلية الا بعد أن رأوا أمورها فوضى ، وبمسند أن وجدوا أمراء تلك البلاد يستعينون بهم بعضهم على بعض ، لا تجمعهم جامعة قومية ولا تضمهم صارخة وطنية

أما الآثار الحجرية التي تركها المسلمون في فرنسا على أثر غزواتهم فيها فهي قليلة جداً في أربونة مثلاً حيث بقى العرب نحواً من أربعين سنة ، لم نجد لهم بناءً خاصاً بهم ، وغاية ما عملوا أنهم زادوا في تحكيم القلاع التي فيها حتى جعلوها من مناعتها لا تؤخذ . ولكن لم يجد المؤرخون هناك كتابات عربية ولا آثاراً يتحققون كونها عربية . وقد قيل عن بناء في مدينة سردانية التي بجوار جبل لويس انه من عمل المسلمين ، ولكن ذلك القول لم يثبت لأنه بناء لا يشابه أبنيتهم المعهودة . نعم يوجد في جنوبي فرنسا كثير من المسكوكات العربية وأكثرها ليس عليه ذكر الملوك الذين ضربت في أيامهم ، ولا ينكر أنه في أواخر القرن التاسع للميلاد كان المسلمون قد قطعوا مراحل بعيدة في المعارف والفنون وأخذوا يتقدمون يوماً فيوماً في المدنية ، وفي ذلك الوقت كان نزولهم في بلاد بروفنس ودوفني وسافواي وسويسرة . ولا نزاع في أن مسلمي اسبانية وصقلية بل مسلمي افريقية نفسها كانوا في ذلك العصر أرقى من مسيحيي فرنسا والبلاد المجاورة لها التي كانت غائصة في فتن كقطع الليل المظلم . ولسنا الآن في صدد المدنية الباهرة التي أثلها العرب في الأندلس فمن ذا الذي لا يسمع بعظمة جامع قرطبة الأعظم ، ومن لا يعلم ماشاده العرب من الجسور والمبار وشقوقه من الأنهر والجداول لرى الأراضي ، وما بنوه من القصور المنيفة الشاخنة ولعمري لم ينحصر فضلهم في الصناعة والفن بل كانت لهم القدم الراسخة في العلوم العقلية والفلسفة وكانوا ترجموا إلى العربية كتب أرسطو وأبيقراط وجالينوس وديسقوريدوس وبطوليمايوس وغيرهم ، وكشفوا من العلم أسراراً جديدة أضافوها إلى ما تلقوه عن غيرهم . فكان تفوق العرب على المسيحيين في ذلك العصر حقيقة ثابتة لا مرأى فيها وكان المسيحيون يفتقرون اليهم في العلم ويردون حياضهم فيه . وقد روى المؤرخون أن شانجه ملك ليون كان في سنة ٩٦٠ جاء إلى قرطبة ملتسماً بالاستشفاء ، لدى أطباء العرب ، من مرض كان قد أعياه شفاؤه ، فوجد عند أطباء العرب الراحة التي كان ينشدها وبقي طول حياته يذكر الحفاوة التي استقبل بها والاعتناء الذي رآه في قرطبة بشأنه . وفي تلك الأيام كان راهب اسمه جربرت انتجع اسبانية ،

طلبا للعلوم الطبيعية والرياضية ، فبلغ من العلم مبلغا خيل لعامة فرنسة اذ ذاك أنه ساحر^(١)

أما العرب الذين جاءت عصائبهم ونزلت في أرض فرنسة وتدرجت الى جبال الألب فلم يكونوا من النمط الأول أى من الذين يريدون أن ينشروا ثقافة أو يؤثروا مدنية ، وإنما كانت غاراتهم كلها منبعثة عن طمع في الذهب وغرام بالكسب . فالنهضة الحقيقية في أوربة لم تبدأ الا منذ القرن الثاني عشر أى منذ زحف أهل الغرب لقتال أهل الشرق ، ووجدت النصرانية والاسلام في الصراع وجهها لوجه ، فوقع الاحتكاك بين المسلمين والمسيحيين ، وأفاق الفرنسيين والانكليز والالمان من رقبتهم ونفضوا عنهم غبار الخمول ، ووجدوا ضرورة المشاطرة في المدنية الاسلامية . وكان علم اللغة اليونانية قد درس وصار العلم اليوناني غير معروف الا عند العرب ، فأخذ

(١) في موضوع آثار العرب في فرنسة يحسن أن نذكر شهادة طبيب كبير اسمه البروفسور دالماس هو أستاذ الأمراض النسائية بكلية الطب في مدينة مونييليه في جنوبي فرنسة الذي ألقى في فضل العرب على جامعة مونييليه محاضرة قيمة حضرها جم من الشبان الشرقيين ، من مصريين وعراقيين وسوريين ، ونشروا عن ذلك مقالة في حريدة الاهرام وقد بدأ البروفسور دالماس بذكر فتوحات العرب لمهد الخلفاء الأولين ، وقال انهم كانوا يحملون مدنيتهم حيثما ذهبوا واينما حلوا ، وقال : ان مدينة العرب لم تنحصر في فن البناء ونشر الزخرف العربي وتشديد الجوامع فقط بل كانت تتناول الكثير من العلوم والمعارف التي هي أساس العلوم الحديثة ، وخص بالذكر علمي النبات والطب ، وذكر أنه الى العرب يعود الفضل في تعريف الغرب بالمدنية اليونانية . ثم قال : ان العرب نزلوا ببلدة ماجلون ، صاحبة مونييليه ، وأقاموا بها مدة من الزمن الى أن أجلاهم عنها شارل مارتل وأحرقها حتى لا يعودوا اليها وكانوا في اثناء وجودهم فيها يبيعون بعض الكتب الطبية ، ثم جاء منهم أطباء وصاروا يمارسون حرفة التطبيب ، ثم ذكر من الأطباء أسماء بعض اليهود الذين تلقوا الطب العربي مثل صموئيل بن طيبون وناتان بن زكريا وأسماءها منقوشة على لوحة الاستاذية بمدخل كلية الطب ، وقال : ان بعض الرهبان الذين ترقوا الى درجة البابوية كانوا قد طلبوا العلم بجامعة مونييليه على أستاذ من العرب وقال : ان ملك نابار عند مامرض بصدرة التجأ الى أطباء العرب ، وقال : انه يوجد في متحف الجامعة بعض آثار وجدت في ماجلون عليها بعض الآيات القرآنية والاشعار العربية وكنت سمعت من المرحوم الاخ أحمد بك شوقي أمير الشعراء الذي درس علم الحقوق في جامعة مونييليه هذا الخبر بعينه رواه لي لأول تمارقنا في باريس سنة ١٨٩٣

المسيحيون من فرنسة وجوارها يؤمنون اسبانية لأجل ترجمة التآليف العربية المنقولة عن اليونان ، وذلك الى اللغة اللاتينية التي كانت يومئذ لغة الكتابة والعلم في أوربة . وقد بقيت هذه التراجم الى القرن الخامس عشر هي عمدة الجامعات والمدارس في معرفة علوم يونان

ولا مندوحة لنا عن أن نقول كلمتين عن آثار هؤلاء العرب الذين نزلوا في فرسنت ، فان الأثر الذي أثروه هناك من الآبار المحفورة والأمراب المكفورة والحجارة المنحوتة والأبنية المحكمة لا تزال بقاءه بارزة للعيان ، دالة على صبر عجيب وهمة بعيدة ، ولكن لم يوجد على شيء من ذلك الحصن كتابات عربية كما وجد في الحصون التي من بناء العرب في الأندلس .

وقد ذكرنا أن حصوناً كثيرة على قن الجبال هي من بناء العرب المذكورين وأنه كانت لهم أبراج كثيرة منتظمة بلبه الساحل الافرنسي والاطالي ، اختاروا لها تلال الجبال لتوقد بها النيران ليلاً على حسب عادة العرب الذين كانوا يشبون هذه النيران ايذاناً بوقوع الحرب وطلباً للمدد وجمعاً للقوة . وقد ذكر ذلك المسيو انفونس دى نيس Denys فى كتابه الزهرة البديعة فى مقاطعة الفار . وكذلك جاء فى كتب العرب كلام على الأربطة والمراقب التي شادها الأمير عقبة بن الحجاج السلولى ، أمير الأندلس فى جنوبى فرنسة ، فى نواحى سنة ٧٣٤ وقد ذكر ايزيدور الباجى أن السمع ابن مالك الخولانى الذى تولى قبل عقبة اماره الأندلس ، قد بنى هو جانباً من هذه الابراج ، ولكننا لانعلم لماذا ينسبون بناء هذه الابراج كلها الى العرب ولماذا لا يجوز أن يكون أهل البلاد أنفسهم هم الذين بنوها ، أو بنوا بعضها ، احتياطاً لانفسهم ومراقبة لاعدائهم^(١) . هذا ومما وجد من آثار العرب فى فرنسة الاطالس الحربية والاسقاط

(١) قول انه يجوز أن يكون الافرنج قد بنوا شيئاً من هذه الابراج فى سواحلهم ولكن ممالا مشاحة فيه أن الابراج التي فى جميع سواحل الاندلس مطردة متسقة على طول تلك السواحل كانت من بناء العرب وان عادة ايقاد النيران فى الابراج ايذاناً بالحرب وتدأ للصربخ إنما هي عادة فى الغالب عربية . وكان العرب فى أوائل الفتح الاسلامى نسمروا هذا النمط من الابراج النارية من

التمينة من الماس والفضة والكؤوس البلورية والاسلحة النفيسة ، ولا يزال منها جانب في خزائن الكنائس وفي مخادع الغواة؛ والناس تقومها بأثمان غالية مما يدل على مكانة الصنعة العربية في الانفس. ولكن من المحقق أن أكثر هذه المصنوعات العربية هي من عصر متأخر عن القرن الثامن . ولم يكن مقام العرب بفرنسة خالياً من تأثير في طرق الزراعة فان هؤلاء القوم لم يحلوا في مكان الا طبقوا الأراضي بالعمل ، وجروا الاقنية ، ونسقوا من تحتها الجنان شاهدك على ذلك تلك البساتين المنقطعة النظير ، في مرسية وبنسية وغرناطة ، ويقال ان العرب الذين نزلوا في بروفنس هم الذين بدأوا في استثمار شجر البلوط ، ولا يزال هناك غابة منه يقال لها غابة المغاربة . وكذلك العرب هم الذين كانوا يستخرجون القطران من أشجار الصنوبر والارز ، ويقلفطون به المراكب . ولهذا تجد أهالي بروفنس لا يقولون للقطران غودرون Goudron كما يقول سائر الفرنسيين ، بل يقولون قطران Quitran (١)

وقالوا ان العرب هم الذين أصلحوا جنس الخيل في فرنسة . وذلك انهم كانوا يأتون على سفنهم بالحياد العرب ليتسنى لهم عليها بث الفارات في داخل البلاد ، فبقى جنسها في فرنسة من ذلك الوقت والآل يوجد صنف من الخيل في مقاطعة كامرغ Camergue متولد من ازدواج الخيل الاندلسية بخيول تلك المقاطعة

ومما يظنه الناس من بقايا عادات العرب نوع الرقص الذي يطلع عليه الانسان في جنوبي فرنسة وهو يختلف باختلاف الأماكن ، فمنه زفن يقع في الليالي يرقص فيه

الاسكندرية الى طنجة ، فكانت اذا وقعت واقعة ذات بال أوقدت النيران من طنجة ولا تزال من برج الى برج حتى يبلغ ذلك الاسكندرية ، في الليلة الواحدة .

ولما سرت من مאלقة الى الجزيرة الخضراء سنة ١٩٣٠ التي ذهبت فيها الى الاندلس اجتازت بنا السيارة هذه المسافة في ست ساعات ، فسكنت كلما قطعت مسافة ٣٠٠ أو ٥٠٠ متر حاذيت برجاً مخروطي الشكل شاهقاً في الفضاء ، وعلمت أن هذه الأبراج كلها عربية

(١) القطران : عرفه العرب بأنه دهن يخرج من شجر الابل والارز ، وهو يلفظ بالفتح وبالكسر . ونحن في سورية نلفظه بالفتح (قطران) ويظهر أن العرب الذين نزلوا سواحل بروفانس كانوا يلفظونه بالكسر (قطران) ولذلك قال الفرنسيين Quitran

الشاب بين فتاتين ، وفي أثناء رقصه يقدم فاكهة تارة الى هذه وطوراً الى تلك . ومنه ما يقف فيه الراقصون خطأ ، بازاء الراقصات خطأ ، ثم يشتبك الخطان أحدهما بالآخر والشخص الذى يكون على رأس كل من الخطين يعمل اشارات يقتدى بها الآخرون . وهناك رقص عسكرى يرقص فيه اثنان كل منهما متقلد سيفاً يحاول أن يصيب به الآخر أشبه بالأقران فى ساحة القتال اذا أرادوا أن يهاجوا أو يدافعوا

أما وجود أناس فى فرنسة نقدر أن نحكم عليهم حكماً باتاً بأنهم من أصل عربى فغير محقق . قيل لنا ان قوماً يسكنون على ضفاف نهر الصاوون ، بين ماصون وليون ، لاسياً على الضفة الشمالية انهم من بقايا شردمة من العسكر العربى انقطعت عن مجموع الجيش فى أيام شارل مارتل وقالوا ان لهؤلاء عادات خاصة وألفاظاً خاصة قد تكون باقية من اللغة العربية ولكن شيئاً من هذا لم يتحقق ، لاسياً أن تلك الألفاظ هى فى الحقيقة مشتقة من اللاتينية ، أو باقية من الافرنسى القديم وأن البلاد الواقعة بقرب ماصون لم ينزل بها عرب بل كانت ملجأ لمن فروا من وجه العرب وكذلك قيل ان جماعة من سكان البلاد المجاورة لجبال البيرانه ، يقال لهم كاغوت ، هم من أصل عربى . ولكن لم يثبت شئ من هذا ، بل الأرجح أن هذا الجيل من الناس هو من جملة الأجيال الغريبة المنتشرة فى بريطانيا واورفنيه باسم كاكو وكابوت وما أشبه ذلك

ثم انه كما لا يخفى فى زمن الملك هنرى الرابع هاجر من اسبانية الى فرنسة عدد كبير ، نحو من مائة وخمسين ألف نسمة من مسلمى الأندلس ، فراراً من تضييق فليپ الثالث ملك إسبانية الذى منع أن يجتمع فى جزيرة الأندلس دينان ، وأجبر بقية المسلمين فيها على التنصر بالنار والسيف . ولما وجد أن الكثيرين منهم لا يزالون مسلمين باطناً ، وأن لهم علاقات بالدولة العثمانية التى كانت فى ذلك العصر ذات صولة عظيمة ، أجمع أخيراً على طردهم من بلاده ، فجاءوا الى فرنسة ولكنهم لم يكونوا فى فرنسة الا عابري سبيل ، لأنهم أبحروا من سواحل فرنسة الى افريقية والبلاد العثمانية ومن بق منهم

في فرنسا تنصر واندمج في مجموع الأمة كما أشار الى ذلك شينيه Chenier في كتابه
المباحث التاريخية عن المغاربة (١)

أما تأثير الأدب العربي في آداب لغات الأمم الساكنة في جنوبي أوربة ، فقد

(١) عند ما اشتد التضييق الى الدرجة القصوى على بقايا مسلمي الأندلس ، تحريقاً بالنار ، وتبليصاً
من المال ، واستعباداً للذكور والانات ، وتعذيباً بمختلف الأشكال ، بحجة أنهم وإن كانوا قد
تنصروا ظاهراً فلا يرحون مسلمين باطناً أرسل هؤلاء سرّاً يستغيثون بالدولة العثمانية . وذهب منهم
خلسة من الأندلس وفد أدرك مدينة بلغراد ، حيث كان الصدر الأعظم على رأس العساكر العثمانية
الزاحفة يومئذ الى تلك الأقطار ، فبت الوفد الى الصدر الأعظم كل ما يمانيه المسلمون من العذاب
تحت حكم الاسبانيول ، وأنهم مع ذلك لا يسمحون لهم بالخروج من البلاد ، وأن منهم مئة وخمسين
ألفاً خرجوا الى فرنسا ، وهم يلتصقون من الدولة العثمانية أن تتوسط لدى ملك فرنسا وملك اسبانية
في أمر السماح لبقايا المسلمين المذكورين بالرحيل الى بلاد الاسلام . فعرض الصدر الأعظم ماسمعه من
الوفد الأندلسي على السلطان أحمد خان الأول رحمه الله وفي الحال لبي السلطان العثماني نداهم ، وكتب
الى ملك فرنسا هنري الرابع يرغب اليه في تسفير المسلمين الذين التجأوا الى مملكته على مراكب
تبعث بها الدولة العثمانية فتحملهم الى بلاد الاسلام ، أو على مراكب افرنسية تتعهد الدولة العثمانية
بدفع كرائها

وكان هنري الرابع قد سمح بدخول هؤلاء المسلمين الى فرنسا على شريطة أن يقبلوا المذهب
الكاثوليكي ، فلما جاءه هذا الكتاب من السلطان أحمد وكان يهيمه عدم اغضابه ، أجاب طلبه
وأمر بتسفير المسلمين المذكورين الى افريقية وغيرها من بلاد الاسلام ، فخرج منهم فئات لحقوا
بالغرب ، وآخرون بالجزائر وتونس ، وآخرون وصلوا الى مصر والشام ، ومنهم من قصد الى
القسطنطينية . وقد بقيت منهم فئة قليلة في فرنسا انتهى الأمر بأن سلاتها صارت الى النصرانية واندججت
في الفرنسيين . أما الذين كانوا لا يزالون في اسبانية ، فبقي « فليب الثالث » يمنع خروجهم منها ،
إلى أن بلغه الخبر عما فعله هنري الرابع من النزول على ارادة السلطان العثماني ، فحسب لتدخل الدولة
العثمانية حساباً كبيراً ، وأمر فجمع عظماء مملكته ، وتشاوروا في قضية بقايا المسلمين في تلك
المملكة ، فأشار بعضهم بمنع خروجهم منها وقع وعول الجمهور ومنهم الملك على اخراجهم جميعاً ،
تخلصاً من غوائل بقائهم في اسبانية ، اذ قد ثبت للدولة الاسبانية أنه مع وجود هذه العلاقات السرية
بين المسلمين الأندلسيين وبين الدولة العثمانية لم يأت أحد منهم برغم تنصرهم في ظاهر الأمر ، ليخبر
الحكومة الاسبانية بشيء من تلك الحركات . فاستدلوا من هذا على أن هؤلاء لا يزالون
مسلمين ، وإن أظهروا التنصر ، وأنه يتوهم من الحزم اجلاؤهم بأجمعهم عن اسبانية حتى لا تتعرض هذه
المملكة بسببهم لحرب مع الدولة العثمانية لا تعلم عاقبتها . فأخرجهم جميعاً على مراكب الحكومة

قليل فيه انه وقع في لغة الاوك Oc التي كان يتكلم بها أهالي جنوبي فرنسا وكتلونية ، اذ هناك أقام العرب طويلا . وقد دخل في اللغة الافرنسية كلمات كثيرة من العربية لامراء فيها وهذا الاختلاط في اللغات لم يقع بخاصة أيام وجود العرب بفرنسة ، بل قد وقع أكثره بعد جلائهم عنها ، لأن العلاقات التجارية لم تنقطع بين العرب والفرنسيين في يوم من الايام . وبالأجمال فتأثير العرب في فرنسا كان أقل مما يتوهم الناس ، وان ما أجروه فيها من العيث والتدمير ليتضاءل في جانب ما خربه النورمانديون والمجار ، بل نقدر أن نقول انه بقيت للعرب مكانة عظيمة في نفوس الناس ، حتى أصبحت لفظة سرازين ولفظة روماني كأنهما واحدة ، وحتى تعود العامة أن ينسبوا إلى السرازين أي العرب كل ما يروونه كبارا أو جبارا .

ومن الغريب أنه لم يبق من غارات النورمانيين والمجار الا تذكارات في بطون التواريخ ، والحال أن تذكار غزو العرب لفرنسة لا يزال في جميع الأذهان كأنه حديث العهد . وقد وقعت غزوات العرب قبل غزوات النورمانيين والمجار ، واستمر وجودهم في البلاد الى ما بعد جلاء المجار واندماج النورمانيين في مجموع الأمة ، الا أن غزوات العرب الأولى كان فيها من العظمة والأبهة ما لا يمكن أن يقرأه الانسان الا وتعموه الدهشة والحيرة . وكان العرب يمتازون عن النورمانيين والمجار بكونهم أمة بقيت

الاسبانية ، وكانوا نحواً من ستائة ألف نسمة ، فذهب أكثرهم الى المغرب ، وانبثوا في الريف ، وعمرؤا تطوان والرباط وسلا وجانبا من فاس . وذهب كثيرون فسكنوا تلمسان والجزائر وتونس ، ووصل آخرون الى الشرق . وكان ذلك في سنة ١٦١٢ مسيحية

وقد استوفينا تاريخ هذا الجلاء الأخير لمسلمي الأندلس في الطبعة الجديدة من « حاضر العالم الاسلامي » واعتدنا في كثير من المعلومات التي كانت مجهولة عند الجمهور على كتاب ابن عبد الرقيق الأندلسي الذي روى عنه ابن جندار صاحب تاريخ رباط الفتح فمن شاء عن هذه المسألة بحثاً شافياً للقليل فليراجع تاريخ رباط الفتح أو حاضر العالم الاسلامي الطبعة الجديدة . ولكننا سنخصص بهذا الموضوع ان شاء الله جزءاً بتمامه من أجزاء هذا الكتاب ، فيه جميع تاريخ مسلمي الأندلس الذين أجبروا على التنصر بعد سقوط مملكة غرناطة ولبثوا مسلمين في الباطن أكثر من مائة سنة ، وكان الاسبان يقولون لهم « الموريسك » وقد أجمع المنصفون على أنه لم تعذب في الدنيا أمة ما عذبه الموريسك هؤلاء ، حتى انفك عقابهم وخرجوا من اسبانية .

مدة طويلة تسير على رأس المدنية العامة ، وأنهم بعد جلائهم عن فرنسة لم تزل تحت الرعدة من احتمال غاراتهم . ثم ان الحزوب العظيمة التي تولوا كبرها ، سواء في الأندلس أو في افريقية أو في آسية في وجه الصليبيين ، قدأضافت إلى اسمهم لمعانا جديداً فوق اللعان الذي كان من قبل . وكل هذا لم يكن كافياً في تفسير مكانة العرب المكيئة في الصدور لولا قصص الفرسان والفروسية التي كان يتغنى بها أهل فرنسة وجوارها ، خلفا عن سلف . فقد كانت هذه القصص تكاد تكون الأسمار الوحيدة للأمرء والنبلاء ، بل الأسمار الوحيدة لعامة الشعب . وانما كانت يعجب بتلك القصص وهاتيك الأخبار من سير الأبطال كل من كان يدعى نفساً عالية وحساً نجيباً . وقد تضاعف كل تاريخ بجانبها وهزل كل أدب ما عداها . وكان أكثرها شعراً ولهذا الشعر رواة اختصوا به ، يذهبون من بلدة إلى بلدة ومن قرية إلى قرية ، فينشدونها الجمهير التي تترنج لها أعطافهم . وكان لا يحتفل بعيد ولا بموسم إلا اندفع أولئك الرواة في انشاد تلك القصائد عن سير أبطال الوطن . وكانت أكثر هذه السير تدور على حروب المسلمين ، وعلى ما جالده صناديد الفرنسيين في دفع غاراتهم . ولما كان في هذه القصص وتلك القصائد من المبالغة ما هو جدير بكل القصاص الذين يترنمون بوقائع الأبطال ، كانت الواقعة الواحدة تتجسم وتنمو وتصبح أضعاف ما هي تجسما لفضل أولئك الذين تولوا كبر تلك الوقائع ، حتى صار في تاريخ كل مدينة وكل بلدة من فرنسة وإيطالية أمير عربي أو بطل عربي يبارزه أمير افرنسي أو بطل افرنسي وبعد أن يشتد البراز ويطول العراك وتظهر فيه خوارق الاقدار ، ينتهي بالبداهة بتقلب البطل الافرنسي على البطل العربي

وبالجملة فقد كان العرب لذلك العهد ، هم الأمثلة العليا والاقيسة البعيدة ، في الشجاعة والشهامة وعزة النفس ومكارم الاخلاق والعفو عند المقدرة وقرى الضيف تشهد بذلك وقائع ونوادير كثيرة ، منها مارواه بعض مؤرخي الاسبانيول من أنه في سنة ٨٩٠ أراد ملك اشتورية ، اذفونش الكبير ، أن ينتدب مؤدباً لابنه وولى عهده . فاستدعى اثنين من مسلمي قرطبة ، حرصاً على تهذيبه ، اذ لم يجد في المسيحيين إذ

ذاك كفوًا لهذه المهمة .

ومن الغريب أنه في قصة من قصص الفروسية المتعلقة بشارلمان الكبير يروون أنه في صغره ذهب واقتبس من أنوار العرب ، وأنه من تأثير ذلك تمكن من إدارة تلك السلطنة العظيمة التي جدد بها مجد العالم الغربي . وقد بقيت هذه الأقاويص هي المول عليها في الاندية والمجامع ، وهي الفكاهة المستطرفة في المواسم والمخافل الى عهد غير بعيد . ولم يدخل التخصيص التاريخي عندنا الا منذ مائة وخمسين سنة ، اذا أخذ الناس يبنذون ما هو من عمل الخيال الى ما هو من لباب الوقائع الراهنة .

وختم القول أنه لو نشر موسى بن نصير وطارق بن زياد وعبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبي عامر ، ورأوا ما هي عليه الحالة في زماننا هذا ، لوجدوا اختلافًا كثيرًا في بيئتي المسيحيين والمسلمين ، عما كانتا عليه في الأعصر السالفة . ولكن مما لا شك فيه أنهم بعد الوهلة الأولى كانوا يبتهجون بالمسكنة العليا التي جعلها القصاص والزجالون من آباءنا لأعمالهم الكبيرة ، وكانت نفوسهم المشغوفة بعمالي الأمور تقابل بمزيد الاكبار ذلك الشعور النبيل الذي كان يخلج عند من نسميهم البرابرة من آباءنا والذي لا يزال يتلاشى يوماً فيوماً . انتهى كتاب رينو ببعض اختصار وتصرف

كتاب غارة العرب على سويسرة

في أواسط القرن العاشر

تأليف

الدكتور فرديناند كلفر

Der einfall der Sarazenen in die Schweiz
um die mitte des X Jahrhunderts
Von dr Ferdinand Keller
mittheilungen der antiquarischen
Gesellschaft in Zurich

وهو كتاب بالالمانية ، نشرته شركة « الآثار العتيقة » في زوريخ ، في سنة ١٨٥٦
وقد أطلعنا عليه العلامة الأستاذ « البروفسور هس » مدرس التاريخ والألسن
الشرقية في جامعة زوريخ من سويسرة . وذلك في سنة ١٩١٩ وهو أول كتاب اطلعنا
عليه في هذا الموضوع ، فلخصناه يومئذ ، ونشرنا خلاصته في مجلة المنار لصاحبها
الأستاذ العلامة السيد رشيد رضا . ثم اتنا رأينا نقل هذا الكتاب برمته الى العربية
في كتابنا هذا ، ولم نختصر منه الا في المظان التي ليس فيها طائل
قال فرديناند كلفر في كتابه :

قال ليوبراند (Liupran) : انه بحسب ارادة الله التي لا يدرك سرها ، قد
جرى في سنة ٨٩١ انه جاء عشرون عربياً في مركب صغير من سواحل اسبانية ،
قذف بهم الريح بالرغم منهم نحو خليج القديس ترويز St Tropez في بروفانس
Provence . فنزلوا الى البر هناك ، على عادة لصوص البحر ، وكان نزولهم في جوف
الليل فتسللوا الى قرية « ترويز » وقتكوا بأهلها المسيحيين ، وملكوا الناحية .
ثم اتخذوا معقلاً الجبل المسمى موريوس Maurus ليكونوا في حرز حريز من عادية

الأمم المجاورة . وكان ذلك الجبل مغطى بالأشجار الشائكة التي كانوا يهتمون بأشواكها وألفافها ، ولم يجعلوا فيها سوى شعب واحد لأنفسهم يعمرون فيه . وهذا المكان يسمى فراكسينيتوم Fraxinétum ^(١) يحده البحر من جهة ومن جهة أخرى غابة مؤتشفة مشبكة الأغصان ، من نشب فيها نفذت فيه اشواك أحد من الحراب فلا يقدر أن يتقدم ولا أن يعود . فأمنوا في هذا المكان المنيع وصار لهم سربا وصاروا يجولون في الجهات المجاورة بدون وجل ، واثقين بمكنهم هذا . ثم أنفذوا رسولا الى اسبانية لأجل أن يندب الناس من قومهم ، ليتحققوا بهم ، فمدح الرسول المكان وأطعم الناس فيه ، وقال ان أهالي تلك البلاد لا يخشى بأسهم وليسوا بجمرة قوية فلم يلبث الا قليلا حتى رجع ومعه مائة رجل من العرب ، جاءوا ليتحققوا ما ذكره لهم الرسول عن هذا الموقع وطيب نبعته

وقد أسمع غارة العرب هذه ما كان بين أهل بلاد بروفانس ، من الشقاق البعيد ، وقيام بعضهم ضد بعض ، فكان بعضهم لأجل أن يستأصل البعض الآخر يستنجد هؤلاء العرب العفارية المسكارين فكان من اختلاف أهالي تلك البلاد ومن توالى النجيدات الى العرب من اسبانية ، أن أصبح هؤلاء آمنين في سربهم ، وشرعوا يجولون ويسلبون ويقتلون كيفما شاءوا ، وكيفما لاح لهم الصيد ، واجتاحوا تلك البلاد الخصبية اجتياحاً تاماً وأصابوا فيها مغنم كثيرة

هذه هي الرواية الحرفية لمؤرخ معاصر ^(٢) عن نزول المسلمين في سواحل بروفانس وعن طبيعة جبل « فراكسيناتوم » وكيفية تحصينهم له ، بحيث بقى مدة سنين طوال مركزاً لقوتهم في هذا الجانب من أوربة وصيصية يمتنعون بها ويبعثون منها سراذم كثيرة أو قليلة ، الى الجنوب ، والى الشرق من جبال الألب البحرية . وما عتصموا

(١) وفي الحاشية مذكور أنه يقال له أيضاً : Garde - Frainet في خليج سان ترويز

(٢) ذكر المؤرخ في الحاشية اسم هذا المؤرخ وهو Antapold وأشار الى أن هذه الرواية جاءت في صفحة ٢٧٥ من كتابه الذي ترجمه البارون فون دراوستت زاكين Von der Osten Sacken

أن صارت لهم شوكة يتحدث الناس بها ، برعب الناس منهم ، وباعتمادهم هم على أنفسهم . وكانت لهم غزوات بعيدة الغار ، لأجل الغنائم ، فإذا لم يجدوا أمامهم

من يقرع النبع بالنبع نهبوا تلك الاديار الغنية والمدن المحصنة والمعقل التي كان يسكنها أشراف البلاد ، وتركوها قاعا صنفصفا كأن لم تكن بالامس
والذي يظهر جلياً من روايات مؤرخي ذلك العصر أن هذه الغارة لم تكن ذات مغزى سياسى كغيرها من الغارات ، ولا كان لهاغرض راجع الى توسيع ممالك الدولة الاسلامية الاندلسية . ولم يكن مقصد هذه العصابة اخضاع أهالى هاتيك البلدان لسلطانها . وذلك لان عددها لم يكن كافيا لتحقيق دعوى كهذه . وقصارى ما كانت ترى اليه أن تحوز الذهب والكنوز التي تكثر عليها ، وتعود بها الى معقلها في جبل فرا كسيناتوم ، وأنها اذا وجدت طالع الحرب قد خانها تشحنها في السفن الراسية في خليج فر كسيناتوم وتطير بها بجناح الريح قافلة الى اسبانية . وكذلك يظهر أن خليفة اسبانية لم يكن ذا علاقة بهذه العصابة التي تطوحت في ذلك الفج السحيق ولا أتاها أدنى مدد من جهته^(١)

وأما السؤال عن الوقت الذي اجتاز فيه المسلمون جبال الالب ، وتوغلوا في أرض ايطالية ، فانه لايجد جواباً مستندا على معلومات دقيقة ويجب أن يكون هذا الحادث قد وقع عاكساً في أذهان القراء الماهرين . فقد كنا محبذاً للذكريات المهمة لدد

يجولون ويقتلون ويحرقون . ومن المحقق أنهم في هذه السنة كانوا يتوكلون في جبل سنيس وكانوا قد فتحوا الباب نحو بلاد سافواى وسويسرة . وفي أسفل هذا الجبل كان دير نوفاليزه الذى كان من أعظم الأديار وأغناها . فلما سمع الرهبان بلصوصية هؤلاء القوم وبقسوتهم ، وكانوا يعرفون جيداً ما وراءهم حزموا ما فى الدير من الأشياء الثمينة ومن جملتها خزانة الكتب النفيسة وذهبوا بها الى تورين لتكون بأمن . فما كادوا يفارقون الدير حتى جاء المسلمون واكتسحوا كل شئ وأجرقوا الكنيسة والبناء كله . وكان راهبان طاعنان فى السن قد بقيا فى الدير لأجل حراسته فقبضوا عليهما وأهانوهما (١)

وفى ذلك العهد أصبحت البلاد الواقعة بين نهري « بو » Po و « الرن » مجالا للغارات والعيث، فالبييمون وبروفانس وبلاد «دوفيني» Dauphiné و «مونتفرات» Montferrat وبلاد «تارنتيزة» Tarentaise كانت كل سنة عرضة للدمار والنار . وقد حدث مدونو الوقائع اليومية فى ذلك العصر عن حوادث ترعد لها الفرائص، مما فعله هؤلاء العرب ورووا كيف كانوا يهجمون على التجار والزوار عابرى السبيل، ويسلبونهم مائمتهم وإذا حاولوا الدفاع عن أنفسهم يقتلونهم (٢) . وكان أكبر القوم لاسيا الرؤساء الروحيون الذين يؤمنون رومة واقعين تحت الخطر الشديد من غارات العرب ، بسبب ما يحملون

(١) هذه الرواية جاءت فى كتاب رينوكا تهم

(٢) لا نريد أن تنفي عن هذه الفئة من مفيرة العرب حب النهب والكسب ولكننا نؤكد أن أكثر هذه الروايات هى من وضع أولئك المؤرخين التعصبين الذين كان جملهم أو كلهم رهباناً وقسيسين . وناهيك بعداوة الدين وحسبك دليلاً على ذلك أن هذه الفئة من رجال الكنيسة هى التى بقيت مدة قرون فى أوربة تؤكد لشعوبها الجاهلة أن المسلمين وثنيون وأنهم يعبدون تمحداً وأن لمحمد (صلى الله عليه وسلم) تماثيل من ذهب وفضة وما أشبه ذلك من الخرافات التى كانت تلك الشعوب تصدقها وتنقلها فى كتبها فكيف تقدر بعد هذا أن تتلقى بدون احتياط روايات المؤرخين الكنسيين عن وقائع عصائب العرب ؟

من الذخائر وما يستصحبون من الأعلاق النفيسة . وأما في القرى فلم يكونوا يقتصرون في النهب على الخيل والمواشي ، بل كانوا ينهبون كل ماله قيمة ، ويقبضون على الرجال والنساء والأطفال ويبيعونهم في سوق الرقيق . وكانوا اذا رأوا مقاومة من بعض البلاد وطاح منهم أناس في المعركة ، انتقموا لأنفسهم باحراق هاتيك المدن حتى يصيروها رماداً . وكانت تنقطع العلاقات والمواصلات أحيانا بين البلاد بسبب غارات العرب وكان أهالي الأماكن التي يهاجمها المسلمون يفرون ويلجأون الى الجبال والغابات ، وربما قاوموا العرب وربما كانت لهم الغلبة عليهم ، الا أنهم لم يكونوا يقومون عليهم بصورة نفي عام ولا كان ينتدب لهم يومئذ أدلاء مستبسلون . وأشنع شيء كان هو عدم الوثام بين أهالي البلاد ، بسبب عداوة الأمراء بعضهم لبعض ، واستنجادهم في حروبهم الداخلية بهؤلاء الأعداء . وكان من الطبيعي أن يوجه العرب كل همتهم الى الاستيلاء على الطرق العامة ، وبنوع خاص على معابر جبال الألب ، لأنهم كانوا يرون في ذلك أحسن طريقة للكسب والسلب ، فكانت المتاجر والبضائع تقع هناك تحت أيديهم على طرف النمام وكان المسافرون الأغنياء يأخذون معهم في أسفارهم كل ما يلزم لهم ، فكان في ذلك مطمع عظيم للمسلمين . وكانوا في تلك الطرق الجبلية يتمكنون من استقبال السابليين بالسهم والحجارة ، ومن القائهم في الأودية والمهاوى بحيث أنهم بعدد غير كبير كانوا يقدرون على مالا تقدر عليه الجيوش الكبيرة

وروى «فلودوارد» Flodoard في تعليقاته السنوية أن المسلمين سنة ٩٢١ اتوا على قافلة من حجاج الانكليز كانت ذاهبة الى رومة ، فلقوها في بعض أودية الألب ، واستأصلوها . وبعد ذلك بستين لقوا قافلة انكليزية أخرى وفتكوا بها . ثم انهم في سنة ٩٢٩ لقوا قافلة حجاج أخرى أيضاً ، فاضطر هؤلاء الى الرجوع قبل أن يقوموا في أيديهم . ولما كان غير ممكن تعيين أماكن هذه الوقائع فلا تقدر أن نحكم في أي محل حصلت ، أي ضمن حدود ايطالية الى جهة سويسرة ، أم في حدود فرنسة ؟

واذا فكرنا أنه كان من عادة المسافرين الانكليز الذين يقصدون رومة أن يجتازوا من معبر سان برنارد^(١) لزم أن نرجح كون الوقائع المذكورة جرت في ضمن حدود ايطالية . ولقد اطلعنا على تاريخ يثبت أن كنوت «Knut» ملك انكلترا والدا انمرك الذى كان يلقب بالكبير كان قد طلب من رودولف «Rudolf» الثالث ملك برغوند Burgond أن يأمر بالتسهيلات اللازمة سواء من جهة تأمين الطرق أو من جهة الاعفاء من الرسوم للقسوس والتجار والحجاج الذين من ممالكه يؤمنون رومة^(٢)

في أي حقبة من القرن العاشر تمكن العرب من معبر سان برنارد الذى كان يسمى حينئذ بجبل جوفيس «Mont Jovis» وفي أية سنة بسطوا سيادتهم على تلك البقعة ؟ هذا شيء لا نقدر أن نحدده . نعم توجد كتابات ، من ذلك الوقت ، متعلقة بهذه الحوادث ، الا أنها لا تحتوى على تواريخ يمكن الاعتماد عليها . والذي يظهر من كلام رينو^(٣) أنه يميل للقول بأن هذه الحوادث جرت في سنة ٩٣٩ لكننا سنرى فيما يأتي أنها جرت قبل هذا التاريخ^(٤). ومن المحقق أن العرب نزلوا سنة ٩٤٠ من جبال سان برنارد العالية الى وادى الرون الخصب ، حيث كان مبنياً دير اغاونوم «Agaunum» العظيم ، المؤسس على اسم سان «موريتيوس» Mauritus وأصحابه ، والذي كان فيه ذخائر كثيرة من الذهب والفضة وأصناف الجواهر ، المهداة اليه من الملوك

(١) St - Bernard وهو من أشهر معاير جبال الالب

(٢) ذكر المؤرخ في الحاشية نص الكتابة اللاتينية التي يستفاد منها أن الملك كنوت الكبير طلب اجراء هذه التسهيلات بحق قصاد رومة من رعاياه . ونقل هذا النص من الصفحة ١٦٤ من تاريخ أصل الفولفيين وهم شعب ألماني كان جاراً للسكسونيين

(٣) هو المستشرق الافرنسي رينو Reinaud الذي ترجمنا كتابه

(٤) يذكر المؤرخ كيلر كتاب رينو الذى لخصناه وهو « غارة العرب على فرنسا ومن فرنسا على سافواى والبيامون وسويسرة » المطبوع بباريز سنة ١٨٣٦ وكتاباً آخر عظيم القيمة على منسكة البورغوند تأليف فون غينغيس Von Gingins

الكارلوفنجيين والبورغونيين ، وكانت محفوظة ضمن حيطانه . فى السنة المذكورة هجم العرب على هذا الدير ونهبوه وأحرقوه وتركوه رماداً . ولم يمض الا قليل حتى جاء القديس « أولريك » Ulrich أسقف « أوغسبورغ » Augsburg فى أثناء سفرته الى برغوند ، وزار هذا المكان لأجل نقل عظام الشهداء التى أذن له كونراد ملك بورغوند فى دفنها فى أوغسبورغ . ولم يكن باقيا هناك سوى خادم واحد يحرس البناء الذى صار طعمة للنار (١)

وبما جاء فى تاريخ « فلودوارد » أنه فى سنة ٩٤٠ جاءت قافلة مؤلفة من حجاج انكليز وغاليين ، كانوا قاصدين رومة ، فبعد أن فقدت بعض رجالها رجعت من حيث أتت لأن العرب كانوا قد استولوا على القرية والدير المذكور وقد ذكر مؤرخو الفرنسيس كتاباً محفوظاً موجه من راهب من دير سان « موريس » St - Maurice اسمه رودولف الى ملك فرنسا لويس الرابع المسمى « أوترمير » Outremer يقول له فيه : كم ألقى الله من سلام على ملوك فرنسا من « كلوفيس » و « داغوبرت » الى كارل الكبير (٢) لكونهم اعتنوا بهذا المكان وقدسوه . وهو يلمس منه أن ينفق على هذا المكان لأجل تجديد بناء الدير وترميم قبور القديسين الذين دفنوا فيه

وفى ذلك الوقت كانت المصابة من دعار العرب الذين جعلوا مساكنهم فى جبال

(١) نقل المؤرخ كيلر هذا عن كتاب غرهاردى Gerhardi المسمى « حياة القديس اولريك » وهذا هو اسم « اولريك » او « اولريخ » باللاتينى Vita S. Oudalrici . كذلك استشهد كيلر بتاريخ مؤرخ آخر اسمه « فلودوارد »

(٢) الفرنسيس يقولون له كلوئيس والالمان كلودفينغ وأما كارل الكبير فهو الذى يقول له الفرنسيس شارلمان Charlemagne

الألب المعروفة بالألب البونينية Pönninische قد بدأت تشالغارات على بحيرة جنيف وبلاد «فاد»^(١) كما ذكر المؤرخون المعاصرون. ويظهر أنها كانت استولت على معاير جبال الألب الشرقية . فإذا كان يتقصنا تواريخ مضبوطة عن دخول العرب الى جبال الألب الغربية ، وجوسهم الاودية التي تتخللها ، فإن عندنا قاعدة متينة لتاريخ وجودهم في شرق سويسرة ، بما هو محفوظ من الوثائق التاريخية في سجلات «كور Ghur» الاسقفية. فان فلودوارد يذكر من جملة وقائع سنة ٩٣٦ : « أن العرب شنوا الغارة على سويسرة الألمانية وقتلوا كثيراً من الحجاج الذين كانوا قافلين من رومة »

وما لا ينقدح فيه أدنى عارض من شك أن جانباً من سويسرة الألمانية وهو القسم الذي من «كور» الى وادي «الرين» كان المسلمون قد اكتسحوه. وليس هذا القسم سوى جبال الألب الراجية Ratische العليا فان ثبت هذا الرأي فقد ترتب عليه اما أن تكون غارة العرب على مقاطعة «فالس Wallis» قبل سنة ٩٣٩ أو أن يكون احتلالهم لجبال الألب الراجية سبق احتلالهم لجبال الألب البونينية . وليس من المحقق ماذهب اليه فلودوارد من أن احتلال العرب لمعاير الألب سنة ٩٣٦ أو سنة ٩٣٣ يعني به احتلالهم جبال الألب الراجية ، وانما المحقق كون «كور» ونواحيها قد اجتاحتها العرب قبل سنة ٩٤٠ وانه ليسكون ذا بال أن تتمكن من معرفة الطريق التي سلكها العرب عندما تبطنوا أحشاء هذه البلاد . هل جاءوا من اليامون منقسمين شطرين ، شطر منهم اتبع جبال الألب الشرقية ، والشر الآخر اتبع جبال الألب الغربية من سويسرة ؟ الجواب: ليس بمستحيل أن يكونوا قصدوا ناحية «راتين» وبلغوها برغم قلة عددهم ، معتمدين على بسالتهم والرعب الذي وقع في قلوب الناس منهم ،

(١) الألمان يقولون Waadt والفرنسيون Vaud وهي البلاد التي قاعدتها لوزان

ففتحوا طريقاً لأنفسهم على ضفاف بحيرات لانغن « Langen » وكومر « Comer » وعرفوا مسالك الألب^(١). ان تاريخ ايطالية العليا لا يذكر هذه الحوادث ولكن قد افترضنا أن العرب تقدموا من مارتيناخ « Martinach » خارجاً عن مجرى نهر الرون وتتبعوا ناحية فوركا « Furka » والألب العليا اللتين يفصل بينهما وادي أورزيرن « Urseren » وساروا على الطرق القديمة المؤدية الى منابع اليرين وأبواب معبر الألب الراحية . وهذا الافتراض لا يستند على رواية مكتوبة وليس فيما وجد في دير ديستينيس « Dissentis » الواقع أمام وادي اليرين ما يؤيد مرور أتباع محمد من هناك . إلا أن المؤرخين لا يزالون يعتقدون أن العرب كما عاثوا بنواحي « كور » ونهبوا ديارها قد اجتاحتها أيضاً دير « ديستينيس »

وأما السند الذي ثبت به حضور العرب في وادي اليرين فهو أن هرمان أمير سويسرة الألمانية قد التمس من أوتو الكبير في المجلس الذي عقده الامبراطور في كويد لنبورغ Quedlinburg في شهر ابريل سنة ٩٤٠ أن يهب فالتو « Walto » أسقف كور تعويضاً عما لحقه من اجتياح العرب لديره ، وأن الامبراطور قد أجاب رجاءه فعمد إلى الاسقف المذكور بادارة كنيسة واحدة كنيسة « بلودنس » Pludenz في وادي « دروس » Drusthale والثانية كنيسة سان مارتين في وادي شامزر Schamserthale على شرط أن ريع الأولى يعود الى أساقفة كور وأن ريع الثانية يعود الى دير الراهبات في « كازيس »

وظاهر أن العيث الذي عاثه العرب قد كان طويل الأمد ، وأنه وقع منذ سنة ٩٣٩

(١) نقل كيلر في الحاشية عبارة عن الأب « سيراسه » من رهبان دير « جورا » ura وهي هذه: مما يستجلب النظر أنه في المقاطعات المجاورة لمدينة بازل وفي نواحيها نجد بقايا الأسماء العربية مجاورة للطرق الرومانية وما ذاك إلا لأن العرب تعقبوا هذه الطرق التي لم يكن غيرها في البلاد منذ سقوط السلطنة الرومانية اه

وأن احتلالهم للالب الراية كان في زمن احتلالهم للالب البونينية ، وأن هذا الحادث تقدم احراق العرب لدير سان موريس الذى يذهب رينو الى أنه وقع عند عبور العرب من سان برنار

ولكن في قولنا أنهم عاثوا واكتسحوا تلك البلاد ، لا نعى أنهم أقاموا بها مستقرين في مكان ، بل كانوا يكمنون في الجبال وينقضون من مكائهم لدى الفرصة فلم تكن لهم قدم ثابتة في محل . وكانت حياتهم حياة عصابة تنتجع في كل يوم جبلا متى لاحت أمامها بارقة أمل في الكسب أقدمت ، والا أحجمت . فكان مطمح نظرهم كله قطع الطرق على التجار وعلى الحجاج الذين كانوا يقصدون رومة ومعهم الأموال والذخائر . ومما لا شك فيه أنهم كانوا قد احتلوا بعض قرى صغيرة ، واتخذوها لهم مركزاً ، وكانت لهم أنزال يلجأون اليها وأبراج يضعون فيها مغانمهم . وأكثر ما كانوا يهجمون على القوافل في الأودية العميقة وفي المضائق التي لا يمكن فيها الدفاع . وكانوا متى أعوزهم القوت صالوا على الاماكن غير الحصينة وعلى الأديار الملوئة بالأعلاق الكنسية

وبقيت حالتهم على ما وصفناه مدة مديدة ، الا أنه بعد دخولهم الى البلاد باثنتي عشرة سنة طرأ حادث فجائي وافق مصالحتهم ، ومكنهم من معابر جبال الالب ، فازدادت بهم جرأتهم وتضاعف طمعهم

وهو أن « هوغو » Hugo كونت « بروفانس » كان في سنة ٩٢٦ قد أحرز تاج مملكة « لومبارديا » Lombardie ودخل في حرب عوان مع صهره « البريكوس » Albericus بطريق رومة . فاهتبل العرب من هذه الحرب الغرة ، واستفادوا من غياب الامير المذكور عن بلاده ، فتمكنوا من سلسلة جبال الألب ، سواء من الشمال أو من الغرب ، ونهبوا البلدان التي بمخاضها . ولما وصل صريخ رعايا الكونت هوغو بما لقوه من عيش العرب ، صحت عزيمته على مصالحة صهره والرجوع الى ايطالية

العليا ، ثم على مهاجمة المسلمين في معقلهم الأول « فرا كسينيتوم » . ولأجل أن يستوثق من الانتصار سعى في استمداد سلطنة القسطنطينية ، لتجده بمقدار من النار الاغريقية يحرق بها سفن العرب الراسية في ميناء فرا كسينيتوم ، ويقطع عن هؤلاء كل مدد من البحر . وكان في نيته مهاجمة العدو من جهة البر بينما يكون أسطول القسطنطينية ممسكا عليهم البحر . فبعد أن اتفق هوغو مع امبراطور القسطنطينية وقبل شروطه جاءت السفن البيزنطية الى مرسى « سان ترويز » بينما كان الجيش البري يزحف من جهة « بافيا » Pavia فلم يكد الأسطول البيزنطي يصل الى المرسى حتى أحرق سفن العرب كلها . وتقدم الملك هوغو من جانب البر فضيق عليهم الخناق حتى انهزموا معتمدين بجبل « موريوس » وكاد يستأصلهم ويأخذهم جميعاً أسرى ، لولا أن حدث حادث غير متظر وذلك أن « برنغار » Berengar كونت « ايفريا » Ivrea حفيد الامبراطور « برنغار » المتوفى سنة ٩٢٦ ووارثه كان قد أخذ يسعى سراً للحصول على تاج مملكة لومبارديا . فبلغ هوغو خبر هذه المؤامرة فعزم أن يقبض على المتآمرين وأن يقتلهم أو يسمل أعينهم . ولكن برنغار كان على حذر شديد فأنسل من لومبارديا بفتنة والتجأ الى هرمان أمير الشفاب Schuvaben وسار اليه عن طريق سان برنار . فلتقاء الأمير هرمان برأ وترحيباً ، وقدمه للامبراطور أوتو وهذا أكرمه وخلم عليه . فما كان أسرع هوغو عندما عرف بالقضية الى ارسال الهدايا من الذهب والفضة الى أوتو

وكان هوغو قد خلص ممالكه من العرب ، وخضد شوكتهم ، وتحول فكره الى جهة الامبراطور وأوجس خيفة أن يحشد هذا عليه وينزع منه تاج لومبارديا . فعدل هوغو مع العرب عن العداوة الى المسالمة ، وبعث اليهم في جبل مورو يمرض عليهم السلم على شرط أن يجوسوا خلال ديار برنغار ويمنموه بجميع الوسائل من أن يجتاز جبال الالب بجيشه ^(١) فاشتراط العرب حينئذ على هوغو أن

(١) نقل كيلر عن المؤرخ ليود براندنس روايته باللاتينية ومعناها ان هوغو عقد مع المسلمين معاهدة يبيعهم فيها جميع معابر جبال الالب حتى يمنحوا برنغار من المرور بجيوشه الى ايطاليا

يعترف لهم بحق احتلالهم معاير الالب الراتية والبونينية ، كما أن هوغو اشترط على العرب أن يخلوا المدن والقرى التابعة له . ولكن لم يكن هذا الشرط الاخير مصرحا به في المعاهدة . فالسلمون قاموا بأحكام المعاهدة حق القيام واحتلوا جميع معاير الالب المذكورة ، يستدل على ذلك من كون برنغار عاد الى ايطالية مع جند قليل من أصحابه عن طريق جبال التيرول Tyrol

فأما العرب فقد تلقوا هذا العقد ، مع الملك هوغو ، بفرح عظيم ، وأصبحوا يرون أنفسهم السادة الشرعيين لهذه المعاير ، وصاروا يأخذون رسوماً من السابليين . ومن لم يؤد الرسم أخذوه أسيراً ثم اضطروا أن يفك رقبتهم بمبلغ عظيم من الذهب ^(١) . وتقدم العرب من سان برنار وجاسوا في بلاد « فاتلانند » ^(٢) الى « أفانشس » . Avanchez ونيوشاتل Niochatel في جبال « جورا » Jura وكانوا حيث مروا يعيشون وينهبون . ولقد كانت غاراتهم في شمالي الألب الراتية من « كور » ^(٣) الى بحيرة « كونستانس » ^(٤) في وادي الرين هائلة جدا ، فقد وجد في خزانة كتب دير « كور » كتابة تفيد أن الامبراطور أوتو الكبير عندما مر في ٢٤ فبراير سنة ٩٥٣ بقصر « ارنشتاين » Ehrenstein تجاه الأسقف « هارتبرت » مطران « كور » في تعويضهم من الرزايا التي ألحقها بهم العرب ، فأقطعهم أوقافا في « الانزاس » وأخرى في « كونينغسكهايم » Konigsheim وكنيسة « موخنهايم » Mauchenheim وما يتبعها

(١) نقل كيلر هنا نص رواية فلودوارد باللاتينية وهي التي يقول فيها ان العرب كانوا يأخذون

الرسوم من القوافل القاصدة الى رومة فاذا أدت الرسم خلوا سبيلها

(٢) هي مقاطعة « فو » Vaud الحاضرة التي قاعدتها لوزان

(٣) تقدم ذكرها وهي التي فيها الدير الشهير Chur

(٤) الا لان يقولون لبحيرة كونستانس بحيرة « بون » Boden See .

وقد وجدت كتابة ثالثة فى «دورنبورغ» Dornburg تاريخها ٢٨ ديسمبر سنة ٩٥٥
حآ لها أن الامبراطور «أوتو» كان منصرفا من ايطالية فشهد بعينه آثار عيث العرب
وبناء على التماس أخيه رئيس أساقفة «برونو» أنعم على دير كور بتلك التعميصات .
وقيل ان جزالة هذا العطاء الذى أعطاه الامبراطور كان من قبيل نذر نذره لأجل
عودته موفقا من ايطالية على طريق الألب ، فانه أنعم على الأسقف بالدار التى كانت تخصه
فى «زيرس» وأمر باعفاء سفن الأساقفة فى بحيرة «فالنزي» من المكوس . وقد
أتبع ذلك أعطيات أخرى ، مثل اعطائه ايام كنيسة «ننتسينغن» فى وادى «دروس»
مع العقارات التابعة لها ، وانعامه بجباية الأملاك التى كانت تخصه فى كور ، وبمكوسها
التي كان يؤديها سابلة الجبال من الالمان . وأخيراً أعطاهم فى سنة ٩٥٨ كنائس عدة
مثل «سان لورنز» و «سان هيلاريوس» و «سان مرتينوس» وكنيسة
«كاربوفوروس» ومنحهم حق ضرب السكة . وكذلك أعطى دير «ديستتيس»
فى سنة ٩٦٥ الدار التى كانت له فى «فافيكون» على بحيرة زوريخ ، وأقطع فيكتور
رئيس رهبان كور سنة ٩٦٧ قطاع فى «فينشفاو» و «انغادين Engadin»

وفى ذلك الوقت أوصل العرب غازاتهم الى «زارغانس Sargans» و«توغنبورغ
Togenburg» وابنسيل «Appenzell» وصلوا على أهالى تلك الجبال ، فقتلوا
الرجال ونهبوا المواشى وأحرقوا المساكن . وقد روى الراهب «ايكهارد»^(١)
الذى حرر تاريخ دير «سانت غال» ما يلى .

«كان العرب يعمدون جدا مغارهم فى جبال الألب لا سيما فى زمان «فالتو»
ويفتكون بأهلها بجرأة غريبة ، حتى أنهم فى ذات يوم رشقوا بالنبال من أعالى جبل
واقع شرقى الدير جماعة كانوا قائمين بطواف دينى يتقدمهم الصليب مرفوعاً . ولكن

(١) Ekehard مؤرخ معروف

« فالتو ^(١) » كان شديد البأس فأمر قومه بأن يتعقبوا العرب الى مكائهم ، وسلحهم بالحرايب والمناجل والفؤوس . وفي الليلة الثانية كبسهم بيانا ، فقتل منهم وأسر بعضهم ^(٢) وفر الباقون . ولم يقدروا أن يدركوهم لأنهم كانوا أقدر على التوغل ، وأبصر بالتوغل في الجبال . أما الذين وقعوا أسرى فسيقوا الى الدير في الأغلال ، وقد رفضوا رفضاً باتاً أن يأكلوا ويشربوا ، وما زالوا حتى هلكوا جوعاً . وقال « اكهارد » ان الرزيثة التي رزى بها الدير من غيث العرب كانت من الجسامه بحيث يستلزم وصفها كتاباً ^(٣)

ولا يقدر أحد أن يعلم بالتام كم كانت مدة اقامة العرب بشرق سويسرة ، فان الأوراق والوثائق التي وجدت في دير « كور » ودير « سان غالن » ودير فافرس « Pfafers » لم يوجد فيها ما يحدد هذه المدة ، ولا يظهر أن رحيلهم من هناك متأخر عن العقد السادس من القرن العاشر

وفي سنة ٩٥٤ نفسها ، وهي التي وصل فيها العرب الى سان غالن ، وقع الحادث المهم الذي هو هزيمة العرب والمجار معاً . فقد تمكن كونراد ملك بورغوندا أو البرجان ، ببسالته الشخصية وبخدعة حرية دبرها ، من استئصال طائفة مهمة من هؤلاء العرب ^(٤) وتطهير أودية بلاده منهم . إلا أنه برغم هذه الهزيمة كان العرب لا يزالون مستولين على معابر الألب الغربية

وليس بمحقق وجود عرب الألب الغربية في هذه الواقعة ، فان « اكهارد » الرابع ، راهب دير سان غالن الذي روى خبر هزيمة العرب في هذه الواقعة يقول :

(١) Walto كان رئيساً للدير في سنة ٩٥٤

(٢) سبقت هذه الرواية في كتاب رينو

(٣) وقد أيد كبلر هذه الرواية في الحاشية برواية أخرى لمؤرخ اسمه فون اركس Von Arx كتيب تاريخ مقاطعة « سان غالن » وقد نقلها من ٢٢٦ من الجزء الأول من كتابه

(٤) تقدمت هذه الرواية ايضاً في كتاب رينو

ان العرب كانوا متمكنين جيداً في قلب الجنوب من أوربة حتى انهم لم يكونوا يتحدثون أنفسهم بإمكان خروجهم منها . وكانوا يتزوجون ، بحسب قوله ، من بنات أهل البلاد ، ويسكنون أودية خصيبة ، ويؤدون للملك ضرائب . وعلى كل حال فلما لا شك فيه أن قسماً من العرب الذين كانوا يصلون هذه الحروب قد أقاموا في الآخر وأوطنوا ، ونووا أن يؤسسوا لأنفسهم مستعمرة ويتعاطوا الفلاحة والزراعة . ولكنه غير ممكن تعيين المكان الذي نووا أن يستعمروه ، هل هو في « فاله » أو في « سافواي » أم في غيرها ، فان المؤرخين لم يمينوه . وفي سنة ٩٥٤ التي اشتهرت بغارة العرب من جهة ، وغارة المجار من جهة أخرى على سويسرة وقعت حادثة فرار الملكة برتا « Bertha » مع عمها المطران « أولريك » أسقف « أوغسبورغ » والتجأتهما إلى البرج الذي كانت بنته هي في « نوشاتل » والمظنون أن هذا الحادث كان مبدأ لعمران مقاطعة « فو »^(١)

ولم ترد قصة العرب هذه في التواريخ العالمية فقط بل جاءت في سيرة بمض القديسين . وبالأجمال قد كانت اشتدت وطأتهم ، وعم الرعب منهم ، إلى أن أصبح الجميع في حنق شديد عليهم . ومما زاد حنق الناس عليهم أنهم كانوا تعرضوا لرجل من أكبر رجال عصره ، وهو القديس مايولوس « Majolus » راهب دير كلوني « Cluny » قبضوا عليه وهو عائد من « بافيا » إلى بورغوندي ، وذلك سنة ٩٧٢ وقد روى هذه القصة خلفه في رئاسة دير كلوني كما يأتي :

عبر القديس مايولوس ورفاقه في ٢٢ يوليو سنة ٩٧٣ قن جبال الألب ، ووصلوا إلى قرية واقعة إلى الشمال من معبرسان برنار على ضفة نهر درانس « Drance » كان يقال لها لذلك العهد « بونس أورزاريي « Pons Ursarii » وتسعى اليوم « أورزير »^(٢)

(١) لوزان وتوابها

(٢) ان المستشرق رينو يذهب إلى أن القديس مايولوس سار من اليامون على طريق جبل جنيف ووادي الدوفيني وأنه قد جرت معه هذه الحادثة في أعالي وادي « دراك » بقرب قرية « بون دوزير » وان العرب الذين سطوا عليه كانوا من المتوطنين بين « غاب » و « امبرون » وأما المؤرخ كيلر فإنه يخطئ . رينو في هذا الرأي ويقول انه وهم في ظنه وقوع حادثة القديس مايوليوس في

وقد كان انضم اليه عدد من الحجاج من أقطار مختلفة أملا بأن يكونوا بمعيته في مأمن . فلما وصلت هذه القافلة الى هذه القرية ومرت هناك من معبر ضيق ، انقضت عليها عصابة من العرب فأوقعت بها ، ولم يكن من سبيل في ذلك المكان للدفاع ، فأركنت الى الفرار لا تلوى على شيء ، فتأثرها العرب وقبضوا على من أدركوه منها وأوثقوه بالقيود . وكان أحد العرب يحاول طعن أحد خدمة القديس بمزراقه اذ تقدم القديس وابقى الطلعة بكفه ، فنفذت الطلعة منها ، وكانت جراحة شديدة بقي أثرها في يده طول حياته . وأما الخادم ففر ناجيا . ثم جردت هذه العصابة العربية الحجاج من كل ما معهم ، وساقتهم الى كهف من الصخر حبستهم فيه ، ولم تستثن من الحبس القديس مايولوس . فلحظ العرب رجلا جالسا على حجر لا يلوح على وجهه علامة الاهتمام بالخلاص ، وبينما كانوا يهينونه كان هو مهتما بدعوتهم الى الديانة المسيحية ، فازداد بذلك غضبهم منه ، فقيدوا رجله بالحديد ، وأدخلوه الكهف مع الآخرين . وفي الليلة التالية رأى مايولوس رؤيا أنه سيخلص من أيدي العرب ، بواسطة الرسل الحواريين ، فقد رأى أسقف زومة بالأنواب الجبرية وفي يده المبخرة . ثم رأى رؤيا ثانية أيدت أمله في أنه سيحتفل هو ورفاقه بعيد صعود السيدة مريم . ولما أصبح الصباح وجاء وقت الطعام عرض العرب عليه أن يطعم من طعامهم ، وكانوا يأكلون لحما وخبزاً يابساً ، فأجابهم مايولوس أنه ليس بأكل من هذا الطعام الذي لم يألفه حينئذ عجنوا له بسرعة وخبزوا خبزا نظيفا طريا ، وقدموه له فتناوله منهم وأكل الخبز بعد أن بارك عليه بحسب عادته وعادت اليه قوته . وكان أحد المسلمين قد أراد قطع عصا من شجرة واحتاج الى أن يتسلق عليها ، فوضع رجله على التوراة التي كان القديس يحملها دائما معه في أسفاره ، فأخذ القديس يتنفس الصعداء . ولحظ ذلك المسلمون فوبخوا أحام على عمله هذا ، وقالوا له لا يليق أن تفعل هذا بكتاب يتضمن كلام الأنبياء . وذلك أن المسلمين يعظمون الأنبياء ويقولون ان ما قاله الأنبياء عن عيسى قد الوقت الذي ذكره ، فعى متأخرة عن الوقت الذي ظنه ريدو لأنها وقعت سنة ٩٧٣ وريينو بحسب انها وقعت في العقد الخامس من القرن العاشر

تم بشخص محمد (صلى الله عليه وسلم)

ثم ان العصابة العربية دخلت مع القديس في قضية فدائه وفداء بقية الأسرى ، لا سيما بعد أن رأوا منه ما استوجب حرمتهم له . وقد سأله أهو من ذوى اليسار ، أم معدم ؟ فأجابهم بأنه لا يملك شيئاً ولكن للدير أصحاب يقدرون أن يفكوا الأسرى بأموالهم . فأرسل مايولوس ، بالاتفاق مع العرب ، راهباً كان معه ، وأحجبه بكتاب الى دير « كلونى » يقول فيه : « إلى السادة والاخوان في دير كلونى ، من مايولوس المسكين المقيد بالحديد ، اننى محاط بالهلاك من كل ناحية فأسرعوا بانقاذى واتقاذ رفاقى وبارسال المال اللازم للفداء » فلما قرىء هذا الكتاب في مجتمع الرهبان ، وكانوا يحبونه جميعاً ويحترمونه احتراماً زائداً ، بلغ منهم الحزن مبلغه وسارعوا الى جمع المال لساعتهم ، ولم يرضوا بشيء ولا ادخروا منفساً حتى أنهم بذلوا الأشياء الضرورية فضلاً عن الكمالية وعن الذخائر والاعلاق التى كانت عندهم . وفى اليوم المين كان أحد الرهبان المبجلين فى قرية « أورزير » ومعه جميع المال المطلوب . فتخلص مايولوس هو ومن معه ، وتمتعوا بفرح الاحتفال بعيد صعود مريم الى السماء كما كان رأى القديس فى المنام

ومما بهم الاطلاع عليه هو أن العرب تقاضوا فى فداء القديس مايوليوس الف دينار فضة ، ولم يتقاضوا على الآخرين الا ديناراً واحداً عن كل رقبة ثم انه من هذه الحالة تتجلى القوة التى تمكن بها العرب فى ذلك الوقت من الاستيلاء على جميع معار الألب . ومن الغريب أنهم لم يكونوا يتقاضون مكوساً على البضائع التى تحمل على هذه الطرق كما كانوا يتقاضونها فى الأزمنة الأولى . ولم يطلبوا فى البداية شيئاً منها من مايولوس نفسه ، وذلك حتى يطمعوه فى التقدم فيقطع أعلى الجبال ويصير فى الجهة الأخرى ، حينئذ ينقضون عليه ويسلبونه على حين يتعذر عليه الفرار . وهكذا حصل

وكان الملك هوغو قد اشترط عليهم أن لا يتعرضوا للحجاج ولا يأخذوا منهم شيئاً ، فرعوا ذلك العهد إلا أنه لما مات هوغو رأوا أنهم أصبحوا غير مقيدين بعهد

وقد قال « رينو » ان حادثة مايولوس كان لها صدى عظيم في كل الأقطار ، وارتفع الصراخ من كل الجهات لأخذ الثأر ، وفي ذلك الوقت كان في جوار سيسترون « Sisteron » رجل نبيل يقال له « بونو » أو « بوفو » (Bobo أو Beuoo) مشهور بالحمية والنجدة ، عظيم الهم في تحرير وطنه ، فاستنهض الناس المعروفين بالحمية على دينهم ووطنهم ، وقرروا بناء قلعة مناوئة لحصن العرب ، ليتمكنوا من استئصالهم . فبوبو هذا الذي أصبح فيما بعد معدودا من القديسين هو الذي بدأ بتخليص نواحي سيسترون من العرب وأخرجهم من جميع بلاد « دوفينه » Dauphiné ثم انهم أخرجوا من « بروفانس » Provence لأن غيليوم أحد أكناد^(١) بروفانس هاجم رجال أشداء من صناديد تلك البلاد ومن رجال دوفينه السفلى وامارة نيقه^(٢) وذلك في قلمتهم فراكسينيتوم المشهورة ، فبعد دفاع شديد استولى الافرنج على القلعة وفر بعض حماة العرب الى الغاب الذي بقربها وطلب آخرون النجاة في الجبال وانتهى الأمر بأن فريقا منهم هلك وفريقا تنصر ، فاستحيهم الافرنج واختلطوا بالأهلين

ولما كانت فراكسينيتوم مستودعا لجميع كنوز العرب وذخائرهم ، سواء الذين منهم كانوا في فرنسة أو عليا ايطالية أو سويسرة ، فقد أصابها الغالبون وتقاسموها فيما بينهم .

(١) جمع كند وهو ترجمة Conte في اصطلاح العرب . وكان كتاب العرب يجمعون كند على أكناد

(٢) nice بالفرنسية و nizza بالالمانية والاطالة

آثار كتابية

في كنيسة القديس بطرس مونتجو^(١)

من أهم الآثار التي تركها العرب في بلادنا الكتابية التي في كنيسة القديس بطرس مونتجو^(٢) في « فاله » Valais فقد كان هذا الوادي مجالا لغاراتهم ومركزاً لهم في أثناء مقامهم بجبال الألب . وهذه الكتابة هي دليل واضح على أن تذكارتهم الخفيف لم يكن أبهى من قلوب الأهالي حتى من بعد مائتي سنة من جلائهم فإنها قد كتبت في العقد الثالث أو الرابع من القرن الحادي عشر ، أي زمان بناء الكنيسة التي شيدها هوغو أسقف جنيف . وهو الذي كان ولدا طبيعيا للملك البورغوني رودولف الثالث ، وتولى كرسى الاسقفية نحواً من تسع عشرة سنة^(٣) ودفن في كنيسة لوزان الكاتدرائية بجانب أبيه . ومما يؤسف له أن هذه الكتابة كانت قد ذهبت في أثناء ترميم هذه الكنيسة سنة ١٧٣٩ وجعل الحجر الذي كانت منقوشة عليه من جملة عتبات الباب . ولقد طمست الآن هذه الكتابة حتى لم يبق منها سوى حرف هاء h وحرف ف f وصليب صغير . ولقد ورد نص هذه الكتابة على روايات مختلفة في بعض الكلمات اكنها متفقة في المعنى^(٤) وهي لاتينية معناها :

(١) Saint - Pierre montjoux

(٢) قد خاط رينو بن كنيسة القديس بطرس مونتجو وكنيسة القديس بطرس التي بين مارتيني وسيون

(٣) من سنة ١٠١٩ الى سنة ١٠٣٨

(٤) اورد كيلر الروايات وعزا كل رواية الى صاحبها ما لم نجد حاجة لذكره

« ان عصابة اسماعيلية ^(١) انتشرت في وادي الرن وألقت الرعب في البلاد بالنار والحديد ورفعت الهلال في أودية الألب البنينة ^(٢) »
وفي أسفل الكتابة تاريخ بناء الكنيسة حسبما تقدم

(١) الأفريخ في القرون الوسطى كانوا يسمون العرب بابناء اسماعيل وقد تقدم لنا ان الحجار كانوا يسمون المسلمين الذين كانوا في بلادهم بالاسماعيلية
(٢) الألب سلسلة جبال تبدأ عند خليج جنوة وتنتهي جنوبي الدانوب . وهي تنقسم الى ثلاثة أقسام : الألب الغربية وهي الليغورية الممتدة من سواحل البحر المتوسط الى مضيق «ناند» والبحرية الممتدة من ناند الى جبل «فيتزو» والساحلية الممتدة من جبل فيتزو الى جبل «سنيس» والفراية الممتدة من جبل سنيس الى الجبل الأبيض
والألب الوسطى ، وهي الجبال المهلثية ، أي السويسرية والبنينة ، الممتدة من الجبل الأبيض الى جبل السبلون ، والليوننية الممتدة من السبلون الى بحيرة كوم ، والراية الممتدة من بحيرة كوم الى بلاد النمسة والألب الشرقية ، وهي الجبال الالفافية والبافاروية والستيرية في النمسة والكادورية والكارنية واليولية بين النمسة وإيطالية ، والدينارية في دالماسية
وأعلى قنة في الألب قنة الجبل الأبيض علوها ٤٨١٠ أمتار ، وهي أعلى قنة في اوربة ، وبعدها تأتي قن روز وسرفين وبلفو وفيتزو وجنيف وسبلون وسان غوتار الخ . ويمرون من فرنسا الى ايطالية من ناند والأرجنتير وجبل سنيس وسان برنار الصغير الخ . ويمرون من سويسرة الى ايطالية من سان برنار الكبير وسبلون وسان غوتار وسان برناردينو والبولا ويرثينا الخ . وقد اخترقت الألب خمسة خطوط حديدية من ليون الى تورينو ، ومن لوزان الى ميلانو من طريق نفق السبلون ، ومن بازل الى ميلانو عن طريق نفق سان غوتار ، ومن بازل الى اينسبورغ عن طريق نفق آرلبرغ ، ومن اينسبورغ الى فينا عن طريق بريكسن وبوتزن وترنت

أسماء عربية في البلاد

كان علماء الآثار قد بحثوا عن أسماء بلاد « قاله » فوجدوا ألفاظا كثيرة لم يعملوا لها أصيلا في اللغات الغالبة على هذا الشطر من أوربة . ولما كانت هذه البلاد واقعة في معابر « الفاله » الى « البيامون » حيث مر العرب في القرن الحادى عشر فقد ترجح أن هذه الأسماء عربية الاصل ونحن الآن موردون عدة أسماء لا شك في كونها عربية

« الماغل » في وادى زاسى ^(١)

هذا المكان هو قرية صغيرة في الجنوب من أعالي وادى زاس الذى يمتد منه طريقان الى البيامون ، أحدهما يمر في وادى « فوركا » ويسمى معبر « انترونا » والآخر هو معبر « مورو » نسبة الى جبل مورو . وكلا الطريقين معروف منذ سنة ١٤٤٠ بكونه من أقدم المعابر ، فأحدهما كانت تمر منه المواشى والحيوانات الموقرة بأموال التجار ، والآخر كان يمر منه البريد الطليانى قبل تمهيد طريق السمبلون ^(٢) . ولقد ثبت أن معاهدة الملك هوغو مع العرب لم تضمن لهؤلاء احتلال معبر سان برنار فقط بل حق الاستيلاء على جميع المعابر لمنع مرور الجيوش . فمن البديهي أن يكون العرب قد استولوا على وادى زاس ملتقى هذين الطريقين وجعلوا هناك برجاً فيه خفراء ، ومنه يأتى اسم « الماغل » بالتشديد محرفاً عن « محل » ^(٣)

(١) Almagell فى الوادى المسمى Saasthale

(٢) Sinplon وهو الذى فيه النفق الشهير اليوم بين سويسرة وإيطاليا

(٣) هذا خطأ من صاحب الكتاب الذى لا يعرف العربية فالماجل ليس محرفاً عن محل وإنما الماجل هو الماء فى أصل الجبل أو فى الوادى أو مستنقع الماء ، وهو معروف كثيراً وكانوا فى مكة المكرمة يستعملون هذا اللفظ لبركة الماء . ذكر ذلك أبو الوليد محمد الأزرقى صاحب كتاب « أخبار مكة » . واخبر عن ماجل عند حائط خرمان وماجلين أحدهما بالمعلاة . وقال صاحب القاموس : الماجل موضع بمكة يجتمع فيه ماء يتحلب اليه . وفى حديث أبى واقد : كنا نأكل فى ماجل أو صهريج ، قال ابن الأثير الماجل هو الماء الكثير المجتمع وقيل هو معرب . والتماقل التفاضل فى الماء

« على العين^(١) » في وادي زاس

في القسم الأعلى من وادي زاس مثلجة يقول لها أهالي تلك الجهات « مثلجة على العين » اذ منها تخرج ساقية من سواقي نهر « فيسب » Visp الذي هو وادي زاس فتسمية ذلك المكان « على العين » هي في غاية المطابقة

« العين » في وادي زاس

ان الجبل الألى الشرقي الذي هو منبع نهر « فيسب » كان يسميه العرب أيضاً « ألب العين »

« مشابل » في وادي زاس

ان أسماء القسم الغربي من وادي زاس لم تكن معروفة المعاني ، الا أن الأستاذ « هيتزيج^(٢) » يذهب إلى أن « مشابل » Mischabel جاءت من الأشبال أي الأسود ، ويشرح ذلك بقوله ان هناك عدة قن صغيرة تملوها قنة كبيرة هي بينها أشبه بلبوة بين أشبالها وانه لا يبعد مثل هذا التخيل عن أم الجنوب . ولأجل تأييد هذا الرأي يستشهد بكون القمم التي الى الشرق من السمبلون تسمى بجبل الأسد^(٣) وانه يوجد أسماء أخرى يظهر عليها الأصل العربي لكنها محرفة تحريفاً يصعب معه الاهتمام الى حقيقة أصلها ، فلذلك تركناها واكتفينا منها بجبل « مورو^(٤) »

(١) Alalain

(٢) Hitzig وهو من كبار المستشرقين كان يقطن زوريخ

(٣) المشابل : اما ان تكون جمع مشبل بمعنى اللبوة أم الاشبال ، او أن يكون أصلها المشابل جمع مشبول وهو المكان الذي فيه الأسود

(٤) moro معناه مغربي وهو اسم يجده الانسان كثيراً في جنوبي اوروبا حيث أقام العرب

فأول ما يعرف بجبل «مورو» الجبل الذى الى الجنوب من حصن «فرا كسينيت»
والثانى الجبل الذى فيه معبر «مورو» الذى يؤدى من حصن العرب هذا الى
«ما كونيغا» macugnga فى البيامون
ويوجد أيضا قمة يقال لها «قمة المورو»^(١) الى الجنوب من «بانيو» فى وادى
«انزه»^(٢) ثم قمة أخرى بهذا الاسم بين «اترونا» ووادى «انزه» الى الشمال
من «برينونة» Prebenone
وكذلك الى الشرق من معبرسان برنار قمة اسمها جبل مورو
فانقلهارد Engelhard المؤرخ يرى فى كثرة هذه الأسماء بالجبهة الايطالية من جبال
الألب ان العرب كانوا فيها قديما

اسوار وطرق وكهوف

وغير ذلك

ان العرب كما هو معروف هم أهل اتقان لصناعة البناء ، ولا سيما بناء الأبراج ، وطالما
أثروا فى هذا الباب آثارا باهرة . فمن الغريب أن لا يكونوا تركوا عند معابر الألب
شيئا من الماقل والحصون . ولكن من المحتمل أن يكونوا أقاموا بالأبراج التى كانت
قبل مجيئهم قائمة عند مضائق الجبال باقية من القرنين الثامن والتاسع ، فلم تكن بهم
حاجة الى بناء حصون جديدة . وعلى كل حال ينبغى أن تكون الحوادث التى جاءت
بعد خروجهم من البلاد قد أنست الاهالى ذكراهم بالمره
وأما فى سويسرة فليس الأمر كذلك ، ولا سيما فى مقاطعة لوزان ، فانك تجد
« برج العرب La tour Des Sarrazins فوق « شيزاس » عنيده « فيفاى »^(٣) »

(١) وفى الأصل Pizzo del moro

(٢) وفى الأصل الألمانى Anzathale ومعناه « وادى انزه » ويمحوزان تكون « وادى عنزة »

(٣) Vevey وهى بلدة من انزه بلاد سويسرة على شاطئ بحيرة ليما بين لوزان

وموترو

ودهليز العرب وغار الغرب بقرب « لوسنس » Lucens
وفي « فيفلسبورغ » Viflisburg يوجد حائط يقال له حائط العرب ^(١) جاء
ذكره في تاريخ سويسرة لمولر Muller في الجزء الاول صفحة ٢٥١
وان كثيراً من الاسماء المضافة الى « ساراين » المراد بهم العرب توجد في مدينة
« بازل » ^(٢) ونواحيها حسب ذكر الأب « سيراسه » Serasset في تاريخه
« المباحث التاريخية والآثرية والجغرافية عن ابرشية بازل » في الجزء الثاني صفحة
١٤٩ فهو يقول :

« ويؤكدون أن هذه العصابات الفتاكة ، بعد أن أحرقت دير سان موريس
تقدمت نحو بحيرة جنيف وزحفت الى « الجورا » Jura ولم يقل لنا التاريخ شيئاً
عن توغل العرب في بلاد « روراسيا » Rauracie ولكن ان كانت الكتب قد
سكنت فقد قامت الأخبار الممنعة المتواترة مقامها . وان كثيراً من أماكن بلادنا
باضافتها الى أسماء عربية ، تشعير بوقوع هذه الفارة الخفيفة . فعلى نصف مرحلة من
« دفلية » Develier على الجبل ، وإلى الشمال الغربي منه ، يوجد على مقربة من الطريق
السلطاني الروماني فسحة صغيرة بين صخرتين ، يقال لها غار « الساراين » وأهالي
هذه النواحي يروون بالتواتر ، نقلاً عن آبائهم ، أن هذا المحل كان قد احتله
« الساراين » أي العرب ، وأنهم كانوا يذهبون ويوردون جالهم عند « السورن »
Sorane بقرب « كورتيتيل » Courtetelle فهذا هو الاسم الذي يطلقه الأهالي على
ذلك الطريق الروماني . وعلى أحد صخور الغار محفور عدد ٢٣ بالأرقام العربية . ولما
كان لا يعرف من نقش هذا الرقم في الصخر ، وكان قديماً جداً ، فيترجح أنه قد نقشه
العرب عند ما كان لهم محرس في ذلك المحل

(١) في الأصل Sarazins

(٢) مدينة بازل Basel والإفرنيس يقولون « بال » وهي من أشهر مدن سويسرة
واقعة على حدود ألمانيا . وفي هذه المدينة أسرة يقال لها الى اليوم أسرة « ساراين » ومنهم اناس
في جنيف ومن هؤلاء السكولولل سرازين الذي هو من أمراء الجيش السويسري

وبقرب من « روسميزون » Rossemaison بحذاء جبل « شايوت » Cheibut
توجد آثار طريق يقال له طريق السارازين^(١).

(١) ذكر كيلر في الحاشية تولا عن « ادوارد كليرك » مؤرخ بلاد « فرائش كوتنه » من
فرنسة في الجزء الأول الصفحة الثالثة من كتابه ان الأسماء العربية في « فرائش كوتنه » كثيرة جدا
قال فعندنا خمسة كهوف منسوبة الى السارازين وجسران منسوبان الى السارازين ، وثلاثة قصور
وطريقان وقناة ومطحنة وواد صغير وجندلان من كبار الجنادل ومسلقة حديد ، وكلها منسوبة
الى السارازين أى العرب . ويوجد أيضا حائط يقال له حائط السارازين . ويحل يقال له تخيم السارازين
وقرية يقال لها « ساراز » والجملة ٢٠ اسما

وكثرة هذه الأسماء المنسوبة الى العرب معهود في بلاد « بريس » Bresse ومقاطعة ليون ،
فن مدينة ليون الى آخر حدودنا الجنوبية تجد مذاود ومسالف منسوبة اليهم ، وتجد اماكن مثل
ساحل السارازين ، ومثل سارازينه وغيرها انتهى كلام كليرك .
أما بلاد فرائش كوتنه فهي من مقاطعات فرنسة ، وكانت داخلة فيها بلاد « جورا » من سويسرة

المسكوكات

من قديم الزمان يوجد في سويسرة مسكوكات عربية من الفضة ، غير قليلة ، تستجلب النظر . ولقد تمكن العلماء باللغة العربية من اثبات مكان ضربها وزمانه ، ولكن لم يكن عليهم من السهل الجواب على كيفية وجود هذه المسكوكات تحت الأرض نظير ماوجد من المسكوكات الباقية من الدور الروماني . فقبل ان ندخل في بحث تاريخ هذه المسكوكات يجب أن نذكر الأماكن التي عثر عليها فيها وكيفية العثور عليها

فأول تنقيب جرى بشكل علمي وأدى الى نتيجة كان سنة ١٨٣٠ وذلك أنه وجد على مائة خطوة من قرية «شتيكبون» Steckbon على الطريق العام ثلاثون قطعة من الفضة ، لم يعرف احد في البداية ماهي . وقد اشترى اكثرها الماحور « شينغ » Schiegg وبمضئها دخل في حيازة البرنس لويس نابوليون^(١) ثم اهداه البرنس بواسطة الاستاذ « اوكن » Oken الى مجموعة العاديات في زوريخ . وبعد هذا اهدى الاستاذ « كيرن » Kern والاب « ران » Rahn من شتيكبورن جملة من هذه القطع الى المجموعة المذكورة . وقد كان أول من شرح تاريخ هذه القطع ، من علماء المسكوكات ، الاستاذ « فراين » Fraehn من أعضاء أكاديمية بترسبورغ ، فقال : ان هذه الدراهم هي من ضرب عمال الخلفاء على افريقية في الربع الأخير من القرن الثامن . وكانوا يطلقون لفظة افريقية على البلاد التي تركب اليوم من تونس وطرابلس . فاقدم هذه الدراهم مضروبة سنة ١٦٩ للهجرة وأحدثها سنة ١٨٢ أى أقدمها في زمن الخليفة الهادي وأحدثها في زمن هرون الرشيد الشهير . وكلها مضروبة

(١) اخو بوناپارت وهو الذي صار ملكا على هولاندة

في القيروان عاصمة إفريقية في زمان الأمراء عمال الخلفاء نصر^(١) وهرثمة^(٢) (ابن أعين) ويزيد^(٣). وإن قطعة واحدة هي مضروبة في زمان ادريس مؤسس الدولة الإدريسية^(٤)

وهذه المسكوكات مغطاة بالكتابة، كاسم الأمير، ومكان الضرب وتاريخه، وبعض آيات من القرآن

وأكثر الكتابة هي بالخط السكوفي الذي يختلف عن الخط العربي الحاضر وأما كيفية دخول هذه المسكوكات الإسلامية إلى سويسرة فيظن الأستاذ فرين أنه كان عن طريق فرنسة، لأنها وجدت مع هذه الدراهم مسكوكات مضروبة باسم كارلوس الأصغر ملك فرنسة (٨٤٣ - ٨٧٧) وإن النورمانديين قد أتوا بها إلى فرنسة في أثناء غارتهم عليها. وكان النورمانديون أتوا بها من شمالي إفريقية، في أثناء غارتهم على سواحل تلك البلاد. ولقد ظن ذلك بناء على أنه وجد من هذه المسكوكات

(١) نصر بن حبيب ولاء إفريقية هرون الرشيد وكان في الأصل على شرطة يزيد بن حاتم في إفريقية ومصر كانت ولاية نصر في العشر الأخير من رمضان سنة ١٧٤ فحسنت سيرته وعدل في أحكامه

(٢) هرثمة بن أعين ولاء الرشيد إفريقية سنة ١٧٩ في ربيع الآخر، فسكن الناس، وهزم الثوار وبني سور طرابلس والقصر الكبير المعروف بالمتستير. قال الرقيق. لما رأى هرثمة بن أعين ما رأى من الخلاف في إفريقية وسوء طاعة أهلها طلب الاستعفاء فكتب إليه هرون بالقدوم عليه فرجع إلى المشرق

(٣) يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب كان يكنى أبا خالد ولاء أبو جعفر المنصور إفريقية سنة ١٥٥ وكان من عظماء الرجال وفيه قال الشاعر

حلفت يميناً غير ذي مثوية عين امري آلى وليس بآثم
لشنان ما بين اليزيديين في الندى يزيد سليم والأغر ابن حاتم

واستمرت ولايته ١٥ سنة و ٣ أشهر بحسب رواية ابن عذارى

(٤) دخوله ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم إلى المغرب كان سنة ١٧٠ وكان معاصروه من الأمراء هشام بن عبد الرحمن الداخل في الاندلس ويزيد بن حاتم في إفريقية

في الروسية مما كان قد جاء به النورمانديون أيضاً . إلا أنه بعد أن تحقق كون العرب أقاموا زماناً طويلاً في نفس سويسرة لا يبق محل لنسبة جلب المسكوكات الى النورماندين

وقد وجدت دفينية أخرى من المسكوكات العربية في « مودون » لكنهم لم يعرضوها على علماء المسكوكات إلا منذ سنة . ولقد اعتنى بهذه المسألة المسيو « سوره » Soret من جنيف ومن أعضاء الأكاديمية الذين لهم مباحث جلية عن مسكوكات سويسرة

فأحدي هذه القطع مضروبة في افريقية أيام العباسيين سنة ١٧٠ هجرية (٧٨٦ - ٧٨٧ للمسيح) والثانية عليها اسم اسماعيل بن أحمد في أيام الخليفة المعتضد ، وكان ضربها الشاش ، وزمان ضربها سنة ٢٨٣ للهجرة (٨٩٦) والثالثة مضروبة في بغداد سنة ٣٦١ (٩٧٤)

وقد ترجم الأستاذ « سوره » كتابات الدراهم ، فأحدها مكتوب عليه من إحدى الجهتين لا اله الا الله وحده لا شريك له : عضد الدولة أبو علي بويه . وعلى الدائر باسم الله ضرب هذا الدرهم في مدينة السلام سنة أربع وستين وثلاثمائة . ومن الجهة الأخرى لله المجد . محمد رسول الله . الطائع لله . الملك العادل عضد الدولة أبو شجاع

ورأى المسيو « سوره » يوافق رأى الأستاذ « فرين » بشأن المسكوكات العربية التي وجدت في شتكلورن ، وهو أنها دخلت سويسرة بواسطة النورماندين . أما التي وجدت في مودون فانه يراها دخلت بواسطة العرب الذين أقاموا بسويسرة . ومن جملة الاقتراضات أن تكون هذه المسكوكات قد وصلت إلى سويسرة بطريقة سلمية ، أي كضمن بضائع ، أو أن تكون وصلت الى أيدي السويسريين في أيام الحرب الصليبية من جملة ما غنمه الافرنج من المسلمين . ولا نميل الى قبول هذين الاقتراضين كما نميل الى رأى « سوره » من كون دفينية مودون هي مما تركه العرب الذين شنوا الغارة على سويسرة

الملابس العربية

ان في خزانة كنيسة « كور » من بقايا القرون الوسطى أشياء نفيسة الى الغاية ،
يندر وجود مثلها في البداعة ، فمنها حلة من الحرير يلبسها القسيس في القداس ،
تختلف عن بقية الملابس الكنسية وهي مطرزة بأيات قرآنية مكتوبة بالاحرف العربية .
ولانعلم شيئاً عن كيفية حيازة الكنيسة لهذه الحلل ، ولكن يرجح انها كانت في
أيام وجود العرب في سويسرة . وكما ان رينو يقول ان في كنائس فرنسة كثيراً من
الحلل الدمشقية والآنية الثمينة والأقداح البلورية التي جاءت في زمان وجود العرب
بفرنسة ، فلا يبعد أن يكون ما في كنيسة كور من هذه الملابس الكهنوتية قد جاء
في زمان وجودهم بسويسرة

واننا مضطرون للاعتراف بأن العرب كانوا في أيام ازدهار الخلافة في اسبانية ، أعلى
كعباً في الصناعات والعلوم من الأوربيين ، وأن الثياب التي كانوا ينسجونها للزينة
كانت من أفخر ما يوجد . ولقد اتفقت السكامة على كون الصنائع العربية اليدوية ، من
الحلى والآنية الفضية والأسلحة ، هي من الأشياء التي يتنافس الناس بها . إلا أننا نقول
ان الشيء الذي فاق العرب به الجميع هو صناعة النسيج التي كان أكثر ازدهارها في
القرن العاشر والحادى عشر والثانى عشر . وكان الخلفاء يهدون منها أمراء أوربة
وملوكتها ، فأنهم كانوا يتحفونهم بنفائس الأسلحة والآنية . وأنفر ما كانت تشتمل
عليه هداياهم هو الثياب المطرزة المنسوجة بأنواع التصاوير المزركشة بالذهب والفضة
حما كانت تخرجه معامل المسلمين . وكان من اصطلاح العرب في النساجة أن يجعلوا
خطوطاً عرض الواحد منها سبعة سنتيمترات ، وينسجوا عليها حروف الكتابة التي
يريدونها من جهة ، والتصاوير من جهة أخرى . ولم تكن هذه الكتابات وهذه
التصاوير من صنع الأيدى ، بل كانت من عمل المعامل والأنوال . وكانت مادة النسيج
من الخبز وخيوط الفضة مصنوعة بالتطريق ، وكانت تدور بخيطان الفضة بنود

من الحرير الأصفر ، بحيث لا تزال الفضة تلمع في أثناء النسيج ، وتنعكس عليها ألوان الأطلس الأصفر فيخال الرائي تلك الفضة ذهباً .

وقد ذكر ابن خلدون الكاتب العربي المشهور أن أمراء العرب وملوكها كانت تخلع على من تريد تشريفه أو تكريمه خلعاً من هذا النوع ، وكان العمل الذي يخرج هذه المنسوجات يسمى بالطراز . وقد نقل المستشرق الشهير « دساسي » عبارة ابن خلدون في المجلد الثاني صفحة ٧٨٢ من كتابه « المنتخبات العربية » Chrestomatie Arabe كما أنه في صفحة ٣٠٥ من هذا الكتاب ذكر ما يأتي :

« اننا نعرف منسوجات كثيرة من صنع العرب ، هي من النوع الذي يسميه ابن خلدون بالطراز . وأول ما أذكره الطيلسان الذي كان يرتديه قياصرة المانيا عند تتويجهم ، فقد كان هذا الطيلسان يشتمل على كتابة عربية منسوجة من خيطان الذهب ، كان قد ترجمها وشرحها المرحوم المسيو « تيخسن » Tychsen وظهر أن هذا الطيلسان صنع في بلرم ^(١) سنة ٥٢٨ للهجرة (١١٣٣ للمسيح) ولا شك في أن ذلك كان في زمن رجار ^(٢) لأنه لا يوجد في تلك الكتابة شيء يتعلق بالديانة الاسلامية » ثم ذكر دساسي أسماء كتب ألمانية تتكلم عن هذا الطيلسان . ثم قال :

« وأذكر قطعة ثانية من هذا النوع من الحرير والذهب محفوظة في ذخائر كنيسة نوتردام في باريز . وهي من أنفس النسيج وعليها ألقاب الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي المتوفى سنة ٤١١ (١٠٢٠) ثم أذكر قطعة ثالثة من هذا النوع وجدت في

(١) Palerme عاصمة جزيرة صقلية

(٢) Roger والمراد به رجار الثاني فان السكونت رجار الأول النورماندي جاء الى ايطالية سنة ١٠٥٢ وبعد أن فتح قلاية غزا صقلية ولم يزل يجاهد العرب الى أن استولى هذه الجزيرة سنة ١٠٩٠ بعد حروب بينه وبين العرب استمرت ٢٨ سنة وكان العرب قد ملكوا صقلية مدة ٢٠٠ سنة ثم مات رجار سنة ١١٠١ وخلفه ابنه رجار الثاني فتزوج ملكاً في بلرم سنة ١١٣٠ باسم ملك الصقليتين لانه كانت فتح قلاية ونابولي وغيرها وكان ملكاً عظيماً ومات سنة ١١٥٤

أحد قبور دير « سان جرمان دى پراى » St - Germain - Des - Près وفيها كلتان عربيتان مكررتان كثيراً . وقد ذكر هذه التحف المسيو « فيلمين » Villemin في كتابه عن الآثار المجهولة الى الآن والتي تذبغى معرفتها خدمة لتاريخ الصناعة . وتكلم أيضاً عن هذه القطعة المسيو « دمارست » Demarest في رسالة مطبوعة سنة ١٨٠٦ وما يلحق بهذا الباب ما وجد في قبر الامبراطور فريديريك الثانى (١) المتوفى في ١٣ ديسمبر سنة ١٢٥٠ فقد عثروا على قميص على أكمامه كتابة عربية . وذكر ذلك في كتاب ايطاليانى مطبوع سنة ١٨١٤ في نابولى يتضمن كلاماً على قبور بلرم . ولقد نشر المسيو « دمور » Demurr في أحد تأليفه صورة سجادة ، عليها كتابة عربية ، منسوجة بمصر في زمان المستعلى بالله أى بين سنة ١٠٩٤ وسنة ١١٠١ وهى محفوظة في خزانة الفاتيكان في رومة « انتهى كلام دساسى .

(١) امبراطور المانيا الشهير ، حفيد الامبراطور فريديريك بربروس الذى اغتسل في نهر طرسوس ، ومات وهو ذاهب لمحاربة المسلمين في الصليبية الثالثة . وكان الامبراطور فريديريك الثانى امبراطوراً على المانيا وملكاً على صقلية . وكانت ولادته سنة ١١٩٤ ومات أبوه هنرى السادس ، وهو ابن ثلاث سنوات ، فشكله البابا اينوشنسيوس الثالث الى أن بلغ رشده . ولكن البابا غريغوريوس التاسع كان عدواً له لانه كان يرى فيه عدواً للبابوية ولإستقلال الأمة الايطالية . وكان يشغل على الطليان أن يكون فريديريك امبراطوراً على المانيا وملكاً على الصقليتين في وقت واحد ، فلاجل أن يستجلب اليه ميل النصرانية قام بالحرب الصليبية السادسة سنة ١٢٢٨ واسترجع من المسلمين القدس صلحاً ، ورجع الى ايطالية ، وهزم « جان بريان » الذى كان شن الفارة على نابولى . ثم عاد الى المانيا بعد غيبة ١٥ سنة لقتال ابنه هنرى الذى كان قد خرج عن طاعته . ثم تألب عليه امرء ايطالية فزحف اليهم وهزمهم فأعلن البابا غريغوريوس حرمه ، ثم جدد البابا اينوشنسيوس الرابع هذا الحرم ، وأعلن اسقاطه من جميع ممالكه ، وذلك سنة ١٢٤٥ فثار به الناس من كل ناحية ، وطمع غيليوم ملك هولاندة وغيره في تاج امبراطورية المانيا ، وقتله الطليان من الجهة الاخرى وهزموه ، وانتشر عليه الامر واشتد به الغم ، الى أن مات في « فلورتينو » سنة ١٢٥٠ وكان أرقى ملوك عصره ، متكلياً بالالمانية والايطالية واللاتينية واليونانية والعربية . وله مؤلف في العربية باحث في عدة من المسائل الفلسفية . وله رسائل باللاتين وقصائد بالايطاليانى وكانت له علاقات كثيرة مع المسلمين ، وكان عنده جيش منهم كثير العدد

وعاد كيلر الى ذكر القطة التي وجدت في دير « كور » بسويسرة ، فقال : ان
عليها كتابة بالمرية « أطال الله لنا أهله » وقال : ان الأستاذ « هيتزغ » قد ترجمها
واذا بالترجمة هي دعاء للمدعوله باطالة حياة رجال ثقتهم وقومه . وهو تفسير غريب .
والمرجح أن هذا الأستاذ تصبغت عليه كلمة « أجله » فقرأها « أهله » لا سيما أن
الكتابة هي بالأحرف الكوفية . ولا بد أن تكون العبارة « أطال الله أجله »
لأن « أطال الله أهله » ليس لها معنى . انتهى كلام كاريمض اختصار

الخاتمة

القصص على آثار العرب في وادي فاله من سويسرة

قد تقدم في هذا الكتاب بحسب الروايات المتفق عليها والتي يعدها المؤرخون من الحقائق التاريخية أن العرب أغاروا على هذا الوادي واستولوا على معبر سان برنارد الكبير ، وتغلغلوا في عدة من شعاب الوادي ، وأقاموا بها ، وكانت لهم وقائع مع الأهلين ومن جلتها احراقهم دير القديس موريس . ومنذ جشنا إلى سويسرة ، وألقينا فيها عصا التسيار ، علمنا في أثناء الحديث مع علماء البلاد ، ولا سيما الذين ينعنون بالآثار التاريخية ، أنه يوجد في ذلك الوادي قرى أصل أهلها من العرب أو فيها أناس من سلاسل العرب اندمجوا مع سائر الأهالي ، وانهم يعرفون من سحناتهم أنهم عرب . فلما أجمعنا نشر هذا الكتاب ، وفيه كل ما تعلق بموضوع اقامة العرب بفرنسة وسويسرة وإيطالية ، رأينا حريانا ، زيادة في التثبت ونصحاً بالبحث ، أن نتوجه بنفسنا الى هاتيك القرى التي يقال ان أهلها من أصل عربي ، وننقب ما استطعنا عن هذه المسألة بمشاهدة أهل الديار ومراجعة ما يمكن العثور عليه من الآثار . وكان طيبينا في لوزان الدكتور جاك رو^(١) قد أشار علينا بزيارة دير سان موريس الذي فيه خزانة كتب قيمة ومخطوطات متناهية في العتق ، وكتب كتاب توصية لرئيس الدير حتى يضع بين أيدينا من الكتب والمخطوطات ما يوافق موضوعنا ، كما أن صديقنا المحامي الدكتور فريدريش من جنيف ، وهو من المتخصصين في العلوم التاريخية والأثرية ، قد ذكر أنه من جملة تلك القرى قرية اسمها ايزيرابل Iserables وقرية أخرى اسمها فريثوريس Freytorreus وقال : ان القرية الأولى في مكان حصين ، محاط بالأوعار ، مما يستدل منه على أن العرب لجأوا الى ذلك المكان واعتصموا به .

(١) Dr Jacques Roux طبيب وجراح شهير بلوزان

ففى ٢٩ يونيو من هذه السنة قصدت الى سان موريس وهى تبعد عن جنيف بالسكة الحديدية ساعتين وربع ساعة ، وذهبت الى الدير الذى تنتسب اليه القصبية، وهو دير عريق فى القدم بناه سيجموند أمير بورغونية فى سنة ٥١٥ للمسيح ، ولا يزال معموراً من ذلك الوقت . فعند ما دخلت الى الدير ناولتهم الكتاب الذى معى من صديقهم الدكتور جاك رو ، فاستدعوا الى الراهب المتولى حفظ المكتبة واسمه طونولى Tonoli فجاء وجلس الى ، وتجاذبنا أطراف البحث الذى جئت الى هناك من أجله ، فقال لى انه لا يمهّد فى خزانة كتب الدير مخطوطات فيها شىء يتعلق بفارة العرب على وادى فاله ، وانه يمكن الاطلاع على هذه المسألة فى الكتاب الذى يقال له Monumanta Germanica Historica أى مجموع التاريخ الجرمانى . ثم قال لى : الا أنه من المتواتر عند الجميع أن العرب مروا من هنا وأحرقوا هذا الدير . ثم أشار على بالذهاب الى بلدة مارتيني Martigni وهى على الخط الحديدى تبعد نحواً من نصف ساعة عن سان موريس الى الجنوب ، وتقع بعد سان موريس بثلاث محاط ، وأن هناك رجلاً محامياً يقال له كوكو Coquoz يقدر أن يدلنى على القرى التى يقال ان من أهلها من هو منحدر من دم عربى ، ويقفنى على معلومات قد يهمنى الاطلاع عليها . وكذلك فى مدينة سيون Sion قاعدة مقاطعة فاله رجل يقال له الأب ليومير ، متخصص فى الأمور التاريخية ، وله كتاب عن تاريخ مقاطعة فاله ، فهو أيضاً من الأشخاص الذين قد أجد ضالتي عندهم .

وعلى هذا فقد ذهبت الى مارتيني وبحثت عن السيوكوكو ، وحدثته بالمقصود من زيارتي له ، فدلى على رجل يقال له فيليب فاركه Farquet يقيم بدائرة تخص دير سان برنار ، وهو معدود من العلماء ، فذهبت واجتمعت بهذا الرجل ، فقال لى انه لا يعلم شيئاً من جهة تاريخ العرب فى وادى فاله غير ما هو شائع على ألسن الجميع ، ولكنه أشار الى ساحة وراء كنيسة مارتيني وقال لى ونحن ننظر من النافذة : ان هذه الساحة التى أمامنا يقال لها ساحة السرازين Place des Sarrazins ومن هنا يعلم أن العرب سكنوا فى مدينة مارتيني هذه ، وهو أمر معقول جداً ، لأنه قد ثبت

في التاريخ كونهم استولوا على معبر سان برنار المشهور . ومن المعلوم أن مارتيني هي البلدة التي يصعد منها الناس الى جبل سان برنار الذي فيه الدير القديم ، وكل يوم تسير السيارات بالسافرين بين سان برنار ومارتيني .

وكنيت علمت من هؤلاء الأشخاص الذين تحدثت معهم في هذا الموضوع أن قرية ايزرابل هي التي يرجح أن فيها من بقايا العرب ، وأنه يوجد أيضاً قرية أخرى تابعة لمدينة سيون يقال لها ايفولين Evolene هي من هذا القبيل . فسرت بالقطار الى سيون ، واجتمعت بالقسيس الذي يقال له ماير وهو قيم خزانة الكتب التي في مدرسة سيون ، فلم أجد هذا الرجل معتقداً بصحة هذه الروايات . وهو يظن أن العرب مروا ببلاد فاله غزاة ، عابري سبيل ، وما عدوا أن أحرقوا دير سان موريس ولا أعلم هل هو معتقد ذلك فعلاً ، أم يحاول انكار وجود آثار للعرب في تلك الديار فقد وجدته من القسيسين المتعصبين في الكتلكة الى الغاية ولم أجد في كلامه ما ينقض شيئاً من الروايات التي أطبق عليها المؤرخون من كون العرب أوطنوا وادى فاله وأقاموا بها حقبة وبقيت لهم فيها أعقاب . وهو نفسه أشار على بمراجعة كتاب بالألماني لؤلف يقال له فيشر Fischer لكنه يقول انه غير واثق برواياته .

فتركت القسيس وركبت سيارة وسرت الى قرية ايفولان ، والمسافة من سيون اليها نحو من ٢٥ كيلو متراً ، وهي في الجبال ليس وراءها عمران ، ومنها الى حدود ايطالية بضع ساعات لا غير . فلما وصلت الى القرية وجدت قرية صغيرة ليس فيها أكثر من مئة بيت ، أهلها فلاحون ، يمشي أكثرهم من الحرث ومن قطع الأخشاب ، لكثرة الحراج التي حولهم . فسألت عن شيخ القرية أو عمدها ، كما يقال في مصر ، فدلوني على بيت حقير ، دخلت اليه فوجدت الرجل ، وحادثته في الموضوع فقال لي انه يسمع بهذه الروايات كسائر الناس ، وانه ليس عندهم وثائق خطية على شيء من هذا . ثم أشار على بمقابلة القسيس مرشد أهل القرية فسألت عن القسيس فلم أجده . ثم ملت الى فندق صغير في تلك القرية ، يقصد اليه السياح الذين يحبون العزلة في الجبال ، فوجدت صاحب الفندق رجلاً على أمانة من علم ،

وهو من أهل سيون ، فقال لي : ان الجميع يسمعون أن أهالي هذه القرية أو بعضهم على الأقل هم من أصل عربي ، واته في الوادي الآخر الذي وراء وادي ايفولن والذي يقال له انيفيه Anniviers قري يقال أيضا ان فيها من بقايا العرب الذين أغاروا على وادي فاله . وسألت هذا الرجل هل يعلم في ايفولين عائلة تعلم نفسها منحدرة من أصل عربي ، فأجابني : أما هكذا فلا أعلم وغاية ما هناك أنهم يقولون بوجود الدم العربي في هذه القرية ، وأن في سحنة بعض أهلها ما يدل على كونهم ليسوا من أصل سويسري .

فغادرت قرية ايفولين ، ورجعت الى سيون ، ومنها ركبت القطار وجئت الى محطة ريد Rid التي منها يمكن الذهاب الى قرية ايزارابل ، فنزلت في ريد ، وسألت : هل يوجد طريق مبدد الى ايزارابل ؟ فقالوا : لا ، ولا سبيل الى الذهاب الا على ظهر دابة أو سيراً على الأقدام . ولما كان وجود مطية يأخذ وقتاً ، وكان من عادتي بحسب اشارة الطبيب أن أمشي كل يوم لا أقل من ساعتين ، لأجل الرياضة الجسدية ، اخترت أن أذهب الى ايزارابل ماشياً . ولكنها كانت مرحلة شاقة لأن الطريق الى ايزارابل انما هو تصعيد مستمر في عقبة كؤود ، يأخذ اجتيازها ساعتين ونصف ساعة فيصل الانسان الى تلك القرية التي يجدها في أوعر محل من ذلك الجبل ، لولا ذلك الطريق الذي ينفذ اليها لا يكاد الماعز يجد اليها متسلقا ولا متعلقاً . ولا شك أن العرب ان كانت بقيت منهم بقايا ولاذت بالجبال ، طالبة النجاة من أيدي أهل البلاد ، لم يكونوا ليجدوا للامتناع خيرا من ذلك المحل . والقرية في سفح جبل قائم ، تشرف على واد عميق الغور ، والغابات تحف بها . فلما وصلت اليها سألت عن شيخها ، ويقال له كازيمير تافر Tavre فسألته عما يعلم من قضية انتساب هذه القرية الى العرب فقال لي : ان العرب كانوا شنوا الغارة على وادي فاله ، وأحرقوا دير سان موريس ، وانتشروا في هذه الأرض ثم انقرضوا كما جاء في التواريخ ، وان كانت لهم أعقاب في هذه البلاد فليس ذلك خاصاً بقرية ايزارابل ، فربما كانت بقايا العرب في عدة قري .

فسألته هل يعلم عائلات تعلم نفسها من أصل عربي ، فقال لي لا ، فسألته : هل يوجد عندهم أوراق عتيقة تدل على صحة تلك الروايات ؟ فأجابني ان عندهم في خزانة البلدية أوراقا مكتوبة باللاتينية ترجع الى سنة ١٢٠٠ مسيحية فما بعدها ، وان هذه الأوراق كلها صكوك بيع وشراء يراجمونها عند وقوع الخلاف على حدود الأراضي ، وليس فيها شيء عائد الى التاريخ . فتركته وجئت الى ساحة القرية ، فوجدت شبان القرية كلهم مجتمعين في مقهى صغير يشربون فيه المرطبات ، فسألت عن سبب هذا الاجتماع فقيل لي : ان لشبان القرية جمعية قد جعلت لنفسها علما خاصا ، وان ذلك اليوم هو يوم الاحتفال بالعلم . فكان لي اجتماعهم هذا فرصة لأجل التفرس في هياكلهم وسجنهم فرأيت فيهم سحنا لا تفرق عن غيرها من خلقه أهل سويسرة ، ورأيت أشخاصا تغلب عليهم السمرة الشديدة ، ولا تشبه خلقه الآخرين . وأما من جهة لغتهم فانهم يتكلمون بالفرنسية ولغة أخرى عامية مشتقة من اللاتينية ، وهذه اللهجة العامية غالبية على جميع قرى ذلك الوادي من أوله الى آخره . ولا يتكلم الأهالي فيما بينهم الا بها . وقد تختلف لهجة ناحية عن ناحية . ولم يتسع لي الوقت أن أبحث في عاميتهم هذه ، ولا سيما في لهجة أهالي ايزارابل وايفولين ، لأعلم هل هناك ألفاظ عربية أم لا فان بحثا كهذا يأخذ وقتا طويلا لم أكن أملكه . فترك ايزارابل مكتفيا بما رأيته وسمعته ، وعلمت أن تاريخ العرب في ذلك الوادي لا يمكن أن يؤخذ الا من بطون الكتب ، وماعدا ذلك فهو روايات شائعة متواترة لاشك في أن لها أصلا ولكن هذا الأصل قد اختفى بمرور الأيام

ثم ان أحد أصحابي ممن يعنون بتاريخ سويسرة نبهني الى مطالعة القاموس التاريخي السويسري المسمى Dictionnaire historique et biographique de la Suisse اذ فيه تحت لفظة « سرازين » فصل يتعلق بمقام العرب في سويسرة وجبال الألب ، فذهبت الى خزانة كتب الجامعة في جنيف ، وطالعت الفصل المذكور ، ولخصت منه مايلي : في القرن التاسع للمسيح استغاث البابا بالسويسريين والفريزوزيين ، لوقاية

رومة من غارات العرب . وفي سنة ٨٨٨ جاء عرب من اسبانية واحتلوا فرسيناتوم .
(مقاطعة الغار في فرنسة) وأغاروا من هناك على الشمال والغرب . وسنة ٩٠٦ .
اجتازوا جبال الألب الغربية واكتسحوا دير نوفاليز بقرب سوز Suze وفي سنة .
٩١٣ كانوا في آكي Acque في بيامونت . وفي سنة ٩٢١ وصلوا الى جبل سان برنار
الكبير ، حسب روى فليودار دورتر Fléodard de Reims وهناك رموا بالحجارة .
قافلة انكليزية كانت ذاهبة الى رومة . وفي سنة ٩٣٦ قطع العرب جبال الألب .
الريتيية Alpes Rhétiennes واكتسحوا أسقفية كوار Coire فاضطر الملك أوتون
الأول أن يعرض أسقف كوار مما رزأه به العرب . ومن الوقائع التي لاشك فيها أن
العرب نزلوا من جبل سان برنار ، ونهبوا دير سان موريس في وادي فاليه ، وذلك
سنة ٩٤٠ كما روى ذلك أولريك مطران أوغسبورغ . ولا تمكن معرفة ما اذا كانت
ثمة علاقة بين حوادث سان برنار وحوادث كوار . وفي سنة ٩٤١ كان هوغ ملك
ايطالية في حرب الماركيز بيرانجه الايفري Berenger D'ivree والملكة برته صاحبة
برغونية التي كانت طلقها ، فاستمال هوغ العرب واستخدمهم وألقى اليهم
بحراسة معابر الألب . ففر بيرانجه من وجههم والتجأ الى الدوق هرمان الشوابي .
Hermann de Soiab وبلغ من قوة العرب أنهم جعلوا رسوماً على المارة الذين كانوا
يقطعون جبال الألب ، قاصدين رومة ، ويقال أنهم تقدموا من هناك حتى بلغوا
مقاطعة فو Void التي قاعدتها لوزان ومقاطعة جوره ، التابعة لنيوشاتال ، واستطالوا
على دير سان غال Saint Gall وكانت توجد كتابة في كنيسة القديس بطرس في
بورغ Bourg محفورة بين سنة ١٠١٩ و ١٠٣٨ يستدل منها على الغارات العربية
الى جهة الغرب .

وأما غاراتهم الى جهة الشمال الشرقي فالروايات عنها لم تحقق بصورة قطعية .
وكذلك لم يتحقق كونهم تديروا جبال الألب ، بصورة ثابتة ، وإنما تحقق على
وجه ليس فيه مرأ أن الملك أوتون مر بكوار سنة ٩٥٢ ومعه زوجته « ادليدة »

فوجد الدير قد نهبه العرب فعوض الدير مما فقده . وذلك سنة ٩٥٥ وأما في جنوبي الألب فقد طال مقام العرب ، ولكن لا نظن صحيحاً أنهم استعمروا وادى ساذ Saas سنة ٩٤٠ الى سنة ٩٦٠ وكذلك ما يقال من احتلالهم بوترازينه Pontresina وأما ما يقال من كون بعض أسماء وادى ساذ هي عربية مثل « على العين » Allalin والعين Ein والماجل Almagel ومشابل Mischabel وبالفرين BaIfrin ومونتومورو Monto Moro فلم يثبت كون هذه الألفاظ عربية . وفي ٢٣ يوليو سنة ٩٧٣ قبض العرب على الراهب ميوز ورفاقه ، فثار الناس من أجل هذه الفعلة ، واجتمع غليوم كونت آرل ، وهاردوين أمير تورينو وربالد كونت بروفانس ، وزحفوا الى العرب من كل جهة واستولوا على فركسينة وانقرض العرب من هناك

وهذا الفصل من قاموس سويسرة التاريخي عليه امضاء H. Dübi وهو مأخوذ من بضعة عشر تأليفاً بالانكليزية والفرنسية ، وأكثرها بالألمانية ، وفي رأس هذه التأليف كتاب كلر Keller الذي ترجمناه وأردفنا به كتاب رينو المستشرق الافرنسي بقى علينا أن نلاحظ على هذا الفصل اذتياب كاتبه في عروبة الألفاظ التي ذكرها فنحن نخالفه في هذا الرأي ، ونوافق على رأى كلر ، وهو أن هذه الألفاظ عربية لا ريب فيها وأنه يستحيل أن توجد ثلاثة ألفاظ كهذه مشابهة للالفاظ العربية تصادفاً . وذلك مثل « على العين » و « العين » و « الماجل » فان هذه كلمات عربية صريحة ، وشكل التلفظ بها بحسب رسم حروفها باللغة الافرنسية يدل على كونها عربية مغربية ، لأن اخواننا المغاربة والاندلسيين يميلون الى الكسر في تلفظ الحرف الأول من لفظ عين وما في ضربها من الألفاظ كزيت وجيش وزيد وغيرها ، بخلافنا نحن المشارقة فاننا نلفظ كل هذه الألفاظ بفتح أولها . وأما الماجل فقد تقدم أنه حوض الماء ، وأن هذه اللفظة كانت تستعمل في مكة لحياض الماء التي فيها . وأما مشابل فيجوز أن تكون من أصل عربي بمعنى مكان الأسود ، أو كما قيل من أن هناك جبلاً شبهوها بلبوة تجر أشبالها كما أنه يجوز أن يكون أصلها لفظة أوربية

تشابهت اتفاقاً مع اللفظة العربية . أما الألفاظ الثلاثة الأولى فلا يمكن أن يكون وجودها مجرد اتفاق ، لا سيما أنها أسماء لأماكن فيها مياه . وأما بالقرين فقد تكون محرفة عن أصل عربي ويكون أصلها بالقرين تصغير فرن . ويجوز أن تكون لفظة افرنجية . وأما « موتومورو » فهو ظاهر ومعناه جبل المغاربة أو العرب . وبالاختصار فرأى كاتب هذا البحث من جهة هذه الألفاظ هو في غير محله .

فهذا ما اخترنا نقله وجمعه من أخبار غارات العرب على فرنسا وإيطالية وسويسرة .

محصلاً مخوضاً معمولاً فيه على أوثق المصادر والله تعالى من وراء العلم هو المبدىء المعيد والأول والآخر .

فتح المسلمين مالطة

قد كان أصل المحور الذي دارت عليه مباحث هذا الكتاب هو غزوات العرب في شمالى جبال البيرانية من فرنسة وإيطالية وسويسرة . ولكن الحديث شجون والتاريخ إنما هو حديث عن حوادث يثير بعضها بعضاً . وقلما تجد منها حادثة الا وهى متعلقة بسابقة لها ، ولذلك لم يمكن حصر الكتاب ضمن الحدود التي ذكرناها ، بل تعدى الى موضوع غزو العرب لجزائر البحر الرومى مثل كورسيكة وسردانية وصقلية والأرض الكبيرة المقابلة لها التي يقال لها كالابرة . وتناول البحث أيضاً جزيرة اقريطش التي يقال لها اليوم كريد . فأما جزر الباليار فهذه تابعة للاندلس قديماً وحديثاً . ولذلك أبقينا الكلام عليها الى الكتاب الذي ننوى وضعه على الأندلس ، وقد هيأنا كثيراً من مواده . وإنما بقيت جزيرة في البحر المتوسط ، فاتنا ذكر فتح المسلمين لها ، مع كونها ذات ذكر شهير في التاريخ أكبر كثيراً من جرمها الجغرافى الا وهى جزيرة مالطة ، فأحببنا أن نذكر عنها خلاصة تاريخية في هذا الكتاب . فنقول :

يوجد أرخبيل يقال له الأرخبيل المالطى مؤلف من جزيرة مالطة وأخواتها غوزو Gozo وكومينو Comino وكومينوتو Cominotto وفلفولا Filfola وصخور أخرى تحاذيها ، جاء في الانسيكلوبيدية الاسلامية المحررة بالفرنسية أن هذه الجزر كانت في الأعصر القديمة مأهولة بطائفة من طوائف البحر المتوسط ، لها آثار تدل عليها ، محفوظة في مكان من مالطة يقال له « الحجر القائم » Hagiar kaim وأول ما عرف التاريخ عنها هو أن الفينيقيين استعمروها قبل القرن العاشر قبل المسيح ، واتخذوها قاعدة لسفنهم التجارية . قالت الانسيكلوبيدية : ولم يتحقق كون اسم مالطة مشتقاً من الفينيقية وإنما تحقق كون جزيرة غوزو أو غولوز Gailos معنى اسمها « سفينة تجارية مستديرة الشكل » وقد استولى القرطاجيون على مالطة في القرن السابع قبل

المسيح، وبقوا فيها أربعة أو خمسة قرون ، ثم استولى عليها الرومانيون سنة ٢١٨ قبل الميلاد وبقيت نحواً من عشرة قرون في أيدي الرومانيين واليونانيين . وفي القرن الأول للمسيح تنصر أهل مالطة عن يد القديس بولس . ولما سقطت السلطنة الرومانية الغربية استولى عليها البيزنطيون ، وكانت لهم مركزاً ضرورياً بعد استيلائهم على شمالى افريقية .

وقد استولى المسلمون على مالطة سنة ٢٥٦ للهجرة وفق ٨٦٩ و ٨٧٠ مسيحية . ولكن هذا الاستيلاء هو الاستيلاء الثابت ، لأن ابن الأثير يخبرنا أنه في سنة ٢٢١ أرسل ابراهيم بن الأغلب أسطولاً لغزو الجزائر ، والأرجح أن مراده بالجزائر هو الأرخبيل الذى من جلته مالطة . وقد كانت غزوات المسلمين لمالطة وصقلية في القرن الثامن للمسيح ، وربما كانت مالطة دخلت في حوزة المسلمين قبل سنة ٨٠٠ وكان مقام المسلمين بمالطة أطول وأثبت من مقامهم بصقلية ، بدليل كون لغة مالطة عربية وقد اختلف العلماء في أصل اللهجة المالطية ، فزعم بعضهم أنها من أصل فينيقي . وذهب آخرون الى أنها لهجة عربية ، وهذا رأى الجمهور . فاللغة المالطية عربية تشابه في كثير من الألفاظ لهجات العرب الشرقيين ، وفي كثير منها العرب المغاربة وتكثر في لغة مالطة الامة ، كما يكثر أيضاً قلب الألف ياء ، فيقولون « بينا » بدلا من أنا ، ويقلبون القاف همزة ، ويستعملون أحيانا نون الجمع المتكلم قبل المفرد ، فيقولون مثلا : انا نقول له بدلا من نحن نقول له . وهذا على نسق أهل المغرب وتختلف اللهجات في نفس مالطة بين المدينة والقرى ، وبين مالطة وغوزو ، ولا توجد الخاء والنين في مدينة مالطة المسماة « فاليت » وإنما توجد في جزيرة غوزو . ولم يتم البحث حتى الآن عن اللهجات المالطية حتى يعرف ما هو راجع منها الى العربية الشرقية وما هو راجع الى العربية الغربية . وقد أثرت الثقافة اللاتينية الايطالية في اللغة المالطية ، ودخلت ألفاظ كثيرة منها في لغة مالطة . ولم يكن للمالطيين حروف يكتبون بها الى أن قام في القرن الثامن عشر رجل يقال له « آجيوس سلدانيس » فاعتنى بالبحث عن لغة بلده . ومن ذاك الوقت أخذوا يكتبون لنهم ، واستعملوا

الحروف العربية . ثم نهضت عصبة من المالطيين اسمها « عقدة تالكتية تالمطى » أى أى عصبة الكتاب المالطية ونشرت كتاباً فى نحو اللغة المالطية ستمته « تعريف الكتبة المالطية » وذلك فى سنة ١٩٢٤ وجاء فى مقدمة هذا الكتاب ذكر أنواع الكتابة المالطية . ثم ان هذه العصبة نشرت مجلة اسمها المالمطى فى سنة ١٩٢٥ وكان غرضها الاصلى احياء اللغة المالطية العربية أو ما تعبر عنه بالمالمطى الصافى

ومنذ سنة ١٨٥٠ أخذت مسألة اللغة المالطية شكلاً سياسياً . وذلك لأن الانكليز أحبوا أن يعزوا اللغة المالطية العربية ، لعدم رغبتهم فى نشر اللغة الايطالية التى هى لغة الطبقة المثقفة ولغة رجال الكنيسة فى مالطة . ومن شاء الاطلاع على آداب اللهجة المالطية فليراجع كتب بونللى L, Bonelli وشتومة H. Stumme

وقد ترك المسلمون فى مالطة ، عدا أسماء البلاد واللغة العربية ، قطعاً من المسكوكات وعدداً كبيراً من الآثار الكتابية لا سيما كتابات القبور . وأشهر هذه الكتابة السبابة « ميمونة » تاريخها يوافق سنة ١١٧٣ مسيحية . وقد نشرت منذ قرن تام ، وبمحت فيها المستشرقون مثل ايطالينسكى Italenski ولنسى Lance وآمارى Amari وغيرهم . وقد وجدوا كتابة أيضاً فى جزيرة غوزو ، وهى محفوظة فى متحف مالطة ثم انه وجدت كتابات نحو العشرين فى أثناء الحفريات التى وقعت بين سنة ١٩٢٢ وسنة ١٩٢٥ فى محل يقال له رباطو Rabato بقرب نوتابيل Notabile وهى محفوظة فى متحف مربع رومانا Romana على مقربة من مكان الحفريات

هذا وقد خرجت مالطة من أيدي المسلمين سنة ١٠٩٠ مسيحية ، فان النورمنديين استردوها بعد استردادهم لصقلية . ولكن كان المسلمون مأذوناً لهم فى الإقامة بهذه الجزيرة الى سنة ١٢٤٩ ثم ان مالطة من سنة ١٥٣٠ الى سنة ١٧٩٨ صارت مركزاً لفرسان ماريوحنا أورشليم الذين طردهم الترك من رودس سنة ١٥٢٣ فانتقلوا الى مالطة وأنشأوا أسطولا عظيماً ، كانوا يلاقون به أساطيل المسلمين ، الترك أو الافريقين ، وكان يؤتى بالوف من أسارى المسلمين الى مالطة . ولهذا قصد الأتراك

الاستيلاء على مالطة سنة ١٥٦٥ ولكنهم لم يتمكنوا منها . وحاولوا ذلك مرة أخرى في أيام السلطان محمد الرابع . وفي المكتبة العمومية في مالطة وفي متحفها بعض كتابات عربية متعلقة بفن الملاحة . انتهى ما ذكرته الانسيكلوبيديّة الاسلاميّة عن مالطة ، نقلناه باختصار

ولما كان العلامة الرحلة اللغوي المشهور احمد فارس الشدياق ، صاحب الجوانب قد أقام بمالطة أربع عشرة سنة وكتب عليها كتاباً سماه « الواسطة في معرفة أحوال مالطة » فقد أردنا أن نأخذ من هذا الكتاب بعض ما يتعلق بفرضنا من جغرافية مالطة وتاريخها وذكر فتح المسلمين لها ، فنقول :

قال احمد فارس : ان تخطيط مالطة هو في ٢٢ درجة وأربع وأربعين دقيقة من الطول ، وفي ٢٥ درجة و٥٤ دقيقة من العرض . أما موقعها في الكرة فان بعض الجغرافيين ألحقوه بأفريقية ، بالنظر الى السكان ، وبمضهم ألحقه بجزائر ايطالية بالنظر الى عادات أهل مالطة وأحوالهم وديانتهم . فأما عرض مالطة فاثنا عشر ميلا ، وطولها عشرون ، ودورتها ستون وقاعدتها الآن هي المدينة المسماة فالتة « La Valette » فأما في الأعصر السالفة فكانت نوتابيلي ، ويقال لها الآن المدينة ، وموقعها في وسط الجزيرة في أرفع موضع منها . وكانت الجزيرة منقسمة بها الى شطرين : أحدهما يمتد جهة الشرق ، والآخر جهة الغرب . والذي بنى فالتة كان أحد أمراء الافرنج وسماها باسمه ، وذلك سنة ١٥٧٦ وهي على ربوة بقرب البحر يقال لها شبراس . قلت : زعم بعض المالطين أن أصل هذه الكلمة « شبر الرأس » وبمضهم أنها « جبل راس » وعندى أنها شعب الراس . قال في الصحاح : شعب الراس شأنه الذي يضم قبائله اهـ . وهو كناية عن أصل الشيء ومجتمعه . كما أن قبائل الراس مرجعها الى الشعب ، ويحتمل أنها سميت بشيب الراس لأن أهل مالطة كانوا يناصبون المسلمين الحرب وكل فريق ملاق من فريقه ما يشيب الرأس اهـ

قلت : تأييداً لما استشده به احمد فارس أقول : جاء في لسان العرب « والشعب

شعب الراس وهو شأنه الذى يضم قبائله . وفى الرأس أربع قبائل ، وأنشد .

فان اودى معاوية بن صخر فبشر شعب رأسك بانصداع اه

ثم نقل أحمد فارس عن المؤلف الفرنساوى بوليه أن قاعدة مالطة سميت باسم الأمير لافاليت رئيس طريقة الفرسان ، ولد فى سنة ١٤٩٤ ومات سنة ١٥٦٨ وكان شهيراً بالبأس . وأول ما استولى عليه من الجزيرة عند محاصرته المسلمين بها برج « سانت المور » ثم قوى عليهم وأخرجهم منها اه . قلت : ان هذه الرواية تخالف ما جاء فى الانسيكلوبيديّة الاسلاميّة من كون مالطة خرجت من أيدي المسلمين سنة ١٠٩٠ اذ ينبغى من هذه الرواية أنه كان فيها مسلمون فى أواسط القرن السادس عشر للمسيح ، وانه كانت فى أيديهم حصون وأبراج ، ولولا ذلك ما قيل ان الأمير لافاليت أخرجهم منها

وأما اسم مالطة فجاء فى كتاب احمد فارس أن اليونانيين سموها مليته ، واشتهر ذلك سنة ٨٢٨ قبل الميلاد . ومعنى ميليته أو ميليسه فى لغة اليونان النحل فحرف المسلمون ذلك وقالوا مالطة . قال : وزعم قوم أنها سميت باسم ميليته ابنة دوريس ، وهو مشتق من ميليت فى السريانية ، وهو اسم إله . ولا يبعد أن يكون ذلك فى اللغة الفينيقية أيضاً . قال : ومن ذكر مالطة من الشعراء الأقدمين اوميزوس واوفيدىوس ويفهم من كلام الأول أن القبيلة التى يقال لها « الفياكونس » هم أول من استوطنوا هذه الجزيرة وكانوا ذوى قوة وبأس . ثم خلفهم الفينيقيون ، وهم من جهات صور وصيدا ، وذلك سنة ١٥١٩ قبل الميلاد ، فلبثوا فيها نحو أربعائة وخمسين سنة ، حتى تغلب عليهم الاغريقيون ثم سموها للقرطاجنيين ، وذلك نحو سنة ٥٢٨ قبل الميلاد ، ثم جاء من بعدهم الرومانيون سنة ٢٨٣ من التاريخ المذكور . وأعظم ما حدث فى أيامهم قدوم ماربولس ، وانكسار السفينة به وبمن كان معه ، وذلك سنة ٥٨ للميلاد ، فى موضع يقال له الآن خليج ماربولس . ومنذ ذلك الوقت تنصر أهل الجزيرة . ثم بعد الرومانيين استولت قبيلة « الفندلس » ثم « القوث » ثم « البليساريون » وألحقوها

بمحكمة البلاد الشرقية وبقيت كذلك الى سنة ٧٨٠ فأخذوه في هضم الرعية ، فقاموا عليهم وسلموا الجزيرة للمسلمين هـ . ملخصاً

قلت : يريد بالقوٲ أمة القوط الذين كانوا غلبوا على اسبانية ، وبالفاندالس الأمة التي كانت أيضاً غلبت على اسبانية وافريقية . وأما البليساويون فهم قوم بليساير Belisaire وكان من قواد الامبراطور يوستينيانوس صاحب بزنطية ، ولد سنة ٤٩٠ وفي سنة ٥٣٣ غزا الفندلس في افريقية ، واستولى على قرطاجنة . ثم غزا أيضاً القوط عند ما كانوا في ايطالية واستولى على صقلية وناپولى ورومة . ولعله في هذه الغزاة استولى على مالطة . ثم قال أحمد فارس :

ذكر في كتاب الجمع والبيان في أخبار القيروان أن مالطة فتحت في أيام أبي الغرائق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب ، توفي سنة احدى وستين ومائتين ، وانما لقب بالغرائق لأنه كان مشغولاً بالصيد . روى انه بنى قصراً في السهلين ، لصيد الغرائق أتفق فيه ثلاثين ألف دينار ، فكنى بهذه الكنية . فعلى هذا فلا معنى لقول المؤلف (أى المؤلف الذى نقل عنه أحمد فارس) : وسلموا الجزيرة للمسلمين . هـ . يريد أحمد فارس أن يقول ان المسلمين أخذوها فتحاً

ثم نقل صاحب « الواسطة في معرفة أحوال مالطة » عن ذلك المؤلف بقية حوادث مالطة ، فقال : ثم قام الأمير زوجر النورماندى بعدها بمائتي سنة ، واسترد الجزيرة وألحقها بصقلية ، فبقيت كذلك نحو سبعين سنة . ولما تزوج القيصر هنرى السادس قيصر جرمانية ولية عهد صقلية دخلت مالطة في حكمه وذلك سنة ١٢٦٦ وبقيت كذلك اثنتين وسبعين سنة . وفي أثناء ذلك ولى اخو لويس ملك فرنسا حكم صقلية ومالطة معاً ، وبعد سنتين تغلب عليه الأمير بطرس الأراغونى ، ثم آل أمرها الى الملك كرويس ملك صقلية فولى عليها الفرسان من نظام ماريوحنا برضى الأهلىن واتفاق دول أوروبا . ثم لما نبغ نابليون واستولى على البلاد سلمت له الجزيرة على أن يرخص للاهلىن في التصرف بحقوقهم ، الا أن الفرنسييس لم يلبثوا ان هتكوا بعض السنن القديمة .

وانتهكوا حرمة الكنائس ، فتحزب عليهم المالطيون تحزباً لم يخل من سفك دم كثير منهم وتلف أموالهم ، الى أن أتت الانكليز فسلموها لهم ، وكان ذلك سنة ١٨٠٠ قلت (أى قال أحمد فارس) : لما دخلها نابليون وجد فيها ألفاً ومائتى مدفع ومائتى ألف رطل من البارود وأربعين ألف بندقية وعدة بوارج و٤٥٠٠ أسير من المسلمين فأطلقهم . وذلك سنة ١٧٩٨ .

ثم رجع الشدياق الى النقل عن المؤلف الذى نقل عنه فقال : ان أخذ المسلمين للمالطة كان من باب المصادقة أولى منه من المغالبة ، وعاملوا الأهلىن أولاً بالرفق والمياسرة ، وقرروا سننهم وأحكامهم ، وامتزجوا بهم للغاية ، حتى كأن الجيلين واحد ، كما يتبين من بقاء لغتهم فيهم .

قال : أما لغة مالطة فذهب بعضهم الى أنها عربية فاسدة ، وذهب آخرون الى أنها فينيقية لأن اليونانيين بعد أن فتحوا الجزيرة لم يخرجوا منها الفينيقيين بل ظلوا فيها آمنين محافظين على لغتهم ، وما برحت مستقلة حتى بعد استيلاء الرومانيين عليها وانها لم تتغير فى مدة القرطاجنيين لأن لغة هؤلاء كانت أيضاً فينيقية . ومع أن دأب الرومانيين كان حمل الناس على التخلف بأخلاقهم والسلوك بسنتهم أينما ملكوا فلم يجبروا الرعية هنا على التكلم بلغتهم . والدليل على ذلك أن الرومانيين الذين كانوا مع ماربولس سموا المالطيين بربرا ولم يكن يطلق هذا الاسم الا على من جهل اللاتينية واليونانية .

قال : ثم بقيت فى دولة المسلمين أيضاً ولم تتغير وانما دخل فيها بعض ألفاظ أجنبية . ويؤيد كونها فينيقية مشابهة بعض ألفاظ منها للعربية ، نحو بير وصيد ، فأنهما فى الفينيقية بر وصد وغير هذا كثير مما له لفظ واحد ومعنى واحد فى كلتا اللغتين . والحاصل أن مأخذ اللغة المالطية من الفينيقية أرجح من أن يكون من العربية وان كانت قريبة من هذه أيضاً . اهـ

قال أحمد فارس : قلت : دليله هذا أوهى من بيت العنكبوت فان البير والصيد ينطق بهما فى لغتهم كما فى لغتنا سواء بما عدا موافقتهما فى تصريف الأفعال والأسماء وفى الضائر وغير ذلك من أساليب الكلام . ومن الغريب أن المؤلف لا يعرف

الفينيقية ولا العربية ولا المالطية ، وإن كانت لغته ، ويتعرض للحكم والاستدلال . فكيف يحكم على الشيء وهو يجهله وكيف يقول : إن لغة المسلمين بقيت في أهل مالطة لشدة الالتحام الذي كان بين الفريقين ثم يقول الآن أنها فينيقية لمجرد وجود كلمتين فيها ؟ وإنما حملة على هذا بنضه وبنض أهل بلاده للعرب وتبرئة أنفسهم أنهم ليسوا منهم بل من الفينيقين اه

قلت : لغة مالطة عربية لا شبهة فيها . وإنما ثبتت العربية في مالطة برغم انقراضها من صقلية وسردانية والأندلس وجنوبي فرنسا وجميع البلدان التي احتلها العرب من أوربة ، لكون أصل لغة تلك الجزائر والبلدان لاتينياً ، فلما تقلص ظل العرب عنها رجعت إليها لغتها الأصلية وانقرض العربي منها بالكلية . فأما مالطة فلغتها الأصلية لم تكن لاتينية بل كانت الفينيقية وهي أخت العربية ، فلما جاءتهم العربية بعد فتح الاسلام لمالطة كانت كأنها نزلت في وطنها وثبتت فيها ثبوتاً لم يزله خروج المسلمين من مالطة كما ذهبت العربية من البلدان الأخرى التي أهلها الأصليون لاتينيون ولغاتهم الأصلية لاتينية

ثم قال أحمد فارس : والظاهر أن المسلمين الذين فتحوا مالطة لم يكونوا من أهل العلم والتمدن ، كالذين كانوا في صقلية وغيرها ، فإني لم أجد قط فيما قرأت من كتب الأدب والتواريخ قال المالطي . والسيوطي رحمه الله لم يناد في كتاب الانساب الذي سماه « لب اللباب » أحداً من أهل العلم إلا ذكره ما خلا المنسوب إلى مالطة اه - قلت : أتذكر أنني قرأت في بعض كتب التراجم ، من مؤلفات أهل الأندلس ، أسماء رجال منسوين إلى مالطة . وفي معجم ياقوت يذكر نقلاً عن السلفي : سمعت أبا العباس أحمد بن طالوت البلسي بالشقر يقول : سمعت أبا القاسم بن رمضان المالطي بها يقول : كان القائد يحيى صاحب مالطة قد صنع له أحد المهندسين صورة تعرف بها أوقات النهار الصنج ، فقلت لعبد الله بن السمطي المالطي أجز هذا المصراع :
جارية ترى الصنج فقال : بها النفوس تبتهج

كأن من أحكمها الى السماء قد عرج
فطالع الأفلاك عن سر البروج والدرج

وأما قول ياقوت أنها بلدة بالأندلس فليس بمانع من كونه يريد بها هذه الجزيرة
المسماة مالطة الواقعة في بحر الروم ، فقد جاء في تاج العروس : ومالطة كصاحبة ووقع
في التكملة مضبوطا بفتح اللام والمشهور على الألسنة سكنها بلدة بالأندلس كما نقله
الصاغاني وهي مدينة عظيمة في جزيرة من بحر الروم ، شديدة الضرر على المسلمين في
البحر ، يعظمها النصارى تعظيماً بالغاً وبها وكلاء عظمائهم من كل الجهات. ولقد حكى لي
من أسرى بها عن زخارفها ومنتانة حصونها وتشديد أبراجها وما بها من عدة الحرب
ما يقضى بالعجب ، جعلها الله دار اسلام بحرمة النبي عليه الصلاة والسلام. فأنت ترى
ان كتاب العرب كانوا يجعلون مالطة من الأندلس كما كانوا يجعلون ميورقة ومينورقة
وسردانية وغيرها

ثم نقل أحمد فارس عن المؤلف الذي اعتمد عليه كلاماً عن جزيرة « كوتزو » من
أخوات مالطة فقال: ان اسمها جزيرة غورش وانها بالافرنجية كوتسو وان هذه اللفظة
يونانية ومعناها مركب مستدير وهي كأنها ذيل انقطع من مالطة وطولها اثنا عشر
ميلاً في عرض ستة ، وأهلها نحو خمسة عشر ألفاً ، وجملة قراها ست ، ومدينتها
تسمى الربط (كأنه محرف عن الربض) وفيها آثار قلعة قديمة . ويقول الجزيرة
وفاكهتها طيبة جداً ، وكذا عسلها . وزعم بعضهم أن مالطة وغورش وكونة كانت
في الأصل جزيرة واحدة وحدث من الزلازل ما فرقتها . اهـ

وأردف أحمد فارس رحمه الله هذا الكلام بقوله : رأيت جزيرة غورش غير مرة .
أما اسمها فأظنه محرفاً عن لفظة اليهودج ، سماها به المسلمون لشدة شبهها به ، كما سموا
الجزيرتين الاخرتين كونة ولفلة لصغرهما . الا أن أهلها ينطقون بها بالغين المعجمة
لا بالمهملة كما ينطق بها أهل مالطة .

ثم ذكر أحمد فارس أن أهل مالطة رغمًا من كون لغتهم فرعاً عن العربية فليس منهم
من يحسن قراءتها والتكلم بها ، وان هناك دار كتب موقوفة فيها ثلاثة وثلاثون ألف

سفر ، وليس فيها من الكتب العربية ما تحته طائل . ثم ذكر أن في لغتهم امالة كثيرة فهم يقولون للتفاح تفيح وللرمان رمين وللبطيخ بتيح بالحاء المهملة وللخيار حيار بالحاء المهملة أيضاً وللأجاص لنجاص وللدلاع دليع وللخبز حبس وللخوخ حوح بالحائين المهملتين ، ويقولون بس بمعنى حسب ، ولكن يبدلون سينها زايا ويكسرون أولها .

ثم قال : انه لا ينكر أن كثيراً من الكلام العربي الذي بقى في مالطة مستعمل بطريقة المجاز اما بذكر اللزوم واردة الملزوم واما بتخصيص العام وتعميم الخاص كقولهم مثلاً « وحلت » للوقوع في الأمر الصعب وأصله الوقوع في الوحل خاصة ، ونحو « الطلاب » للمتكفف وهو اسم فاعل للمبالغة من طلب . ونحو « معلوب » للنجيف وهو اسم مفعول من غلب وهو لازم له غالباً ، وفتيت أى قليل وهو من فتت الشيء اذا كسرتة وصغرت جرمه . قال : وان أهل غورث ينطقون بالأحرف الحلقية على حقا الا أنهم يكسرون ما قبل الواو الساكن فيقولون مكسور ومفتوح ويضمون ما قبل الألف نحو قاعد وهلم جرا ، ويقولون منكم وعليكم بكسر الكاف وهى لغة ربيعة وقوم من كلب كما فى المزهري ويسمى الوكم .

وذكر من اصطلاحاتهم أنهم يعبرون عن الدخول فى الفعل بلفظة « سائر » وهى نظير قول أهل الشام ومصر « رايح » فاذا قال المالى : أنا سائر نسافر فهى كقول الشامي أو المصرى : أنا رايح أسافر .

قلت : يظهر أن سائر هذه كانت مستعملة فى المغرب وقد نحتوها فبقى منها سين مفتوحة ، فيقولون عن شخص مثلاً هو فى حال الأكل سياً كل . وأحياناً يقلبونها تاء فيقولون تياً كل ، ويقولون فى المغرب فى مثل هذه الحالة كياً كل . وأظن الكاف هنا منحوتة من « كائن » وذلك كما ينحت أهل الشام لفظة « عمال » فبدلاً من أن يقول هو عمال يأكل تجده يقول « عمياكل » وفى بعض جهات من شمالى لبنان يقلبون الميم نونا فيقولون « عنياكل » .

ثم ذكر أحمد فارس اصطلاح أهل مالطة على ادخال لفظة « تا » بين المضاف

والمضاف إليه ، فيقولون مثلاً « الرجل تالبيت » وذهب أحمد فارس إلى أنها منجوتة من متاع ، قال : فإن أهل المغرب يدخلونها كثيراً في الإضافة ويتدثرون باليم ساكنة على عادتهم من الابتداء بالساكن وتقصير اللفظ . ومما يؤيد هذا التوجيه أن المالمطين لا ينطقون بالعين إذا وقعت في آخر الكلمة فيقولون مثلاً تلا وقلا في طلع وطلع ، قال أحمد فارس : وقلب العين ألفاً أو همزة هو من أساليب العرب ، كما في تفصي وتفصع ، وأقنى وأقنع ، والشمى والشمع ، وتكأً وتكمكع ، وزقاء الدريك وزقاعه ، وزأزأ وزعزع ، وبدأ وبدع ، والخباء والخباع وغيرها ، حتى أنهم قلبوها متوسطة كما في تأرض وتعرض ، ودأم الحائط ودعمه ، انتهى .

قلنا : إن الهمزة والعين من يخرج واحد فلا عجب أن تأتي ألفاظ بالهمزة وبالعين ومعناها واحد .

ثم قال أحمد فارس : أنهم في مألظة يجعلون الهاء حاء ، وأنشد من شعر المالمطين :
المحبوب تا قلبي سافر ليلى ونهارى نبكيح
جعلناو بدموعى البحر وبالتنهيدات تا قلبي الريح
أى ليلى ونهارى نكيه . وابدال الهاء حاء لغة من لغات العرب ، قالوا المليه والمليح ، والمده والمدح ، وتاه وتاح ، إلى آخره .

قال : ومما بقى عندهم من فصيح العربية قولهم دارنادية . وحققها دارندية ولكنها أفصح من قول أهل مصر والشام دارناطية . ويقولون للداية قابلة ، ويقولون للرهان مخاطرة ، وللعلية غرفة . ويقولون عن لى بمعنى بدالى ، وتجالدوا وهو أفصح من تعاركوا ، وزفن أى رقص ، وبوقال وهى أفصح من قول أهل الشام شربة أو نغارة . ومن فصيح كلامهم يمارى أى لا يقنع بالحق ، ويشرق بالماء ، ويستقصى ، وفرصاد للتوت ، وسفود ، وأهل الشام يقولون سيخ وشيش . ويقولون تقرر أى تباعد من الأدناس ، وعسلوج للقضيب ، وجلوز للبندق الذى يؤكل .

قال : ولكن هذه الألفاظ كلها مستعملة في الغرب وبهذا يرجح أن أصل المالمطين من المغاربة . ولكنه في محل آخر قال : إنه لا شك في كون اللغة المالمطية

عربية ولكنى لست أدري أصل هذا الفرع أشامى هو أم مغربى ، فان فيها عبارات من كلتا الجهتين والغالب عليها الثانية ، غير أن الألفاظ الدينية من الأولى فيقولون مثلاً القداس والقديس والتقربن والأسقف مما لا يفهمه أهل المغرب اه .

قلت : ان فى المالطية ألفاظا واصطلاحات شامية ، وقد ورد هذا الرأى فى الانسيكلوبيدية الافرنسية ، ولكن الألفاظ المغربية هى بدون شك أكثر .

وذكر أحمد فارس من أوزان كلام مالطة فاعلة للمصدر، فيقولون عملته بالواقفة أو بالقاعدة ، والمصدر على هذا الوزن معروف فى العربية قال تعالى ﴿ فَمَنْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ أى من بقاء ، وقال تعالى ﴿ لَيْسَ لَوْعَتِهَا كِذَابَةٌ ﴾ أى كذب . ثم قال : ان بقاء العربية فى مالطة ولو مخرفة مع عدم تقييدها فى الكتب دليل على مالها من القوة والتمكن عند من تصل اليهم من الأجيال ، ألا ترى أن مالطة قد تعاقبت عليها دول متعددة ودوا لو يحملون أهلها على التكلم بلغاتهم فلم يثبأ لهم وبقوا محافظين على ما عندهم خلفاء بعد خلف ، وهؤلاء الانسكايز يزعمون أن لغتهم ستكون أعم اللغات وما ثبأ لهم أن يعمموها عند المالطيين . ويقال ان الذى تحصل عند أهل مالطة من العربية مما هو مأنوس الاستعمال وغير مأنوسه يبلغ عشرة آلاف كلمة

بحث دقيق جليل

عمه مغازى العرب في أوربة ومزائر البحر المتوسط

بقلم

الأستاذ الأفاضل السيد عبد العزيز الثعالبي رئيس الحزب الوطني في تونس

كان بلغنا أن لدى الأستاذ الأجل الأفاضل السيد عبد العزيز الثعالبي ، وثائق ومعلومات لا توجد عند غيره ، في موضوع فتوحات العرب في جنوبي أوربة ، فاقترحنا عليه كتابة شيء في هذا الموضوع نجعله كالقلادة في جيد تأليفنا هذا ، فتفضل علينا حفظه الله ونفع به الاسلام بالخلاصة التالية :

ان أول واضع لخطة الفتوحات الاسلامية في أوربة هو الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه . فانه حين ندب أخاه من الرضاع ، عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، لفتح بلاد شمالي افريقية ، ووافته البشائر بفوز جيوشه على جيوش جيجير وإلى سببيلة من قبل البيزنطيين ، ندب القائد البحريني الجليلي عبد الله بن عبد القيس وعبد الله بن نافع بن الحصين الفهريين ، وكانا على الأسطول ، فأمرهما بالسير إلى الأندلس وكتب لهما وصية سياسية في ذلك . تلك الوصية الخالدة التي يقول فيها : ان القسطنطينية تفتح من قبل الأندلس ، وانكم ان فتحتم ما أتم بسبيله تكونون شركاء لمن يفتح القسطنطينية في الأجر . وقد اتخذ ولاية شمالي افريقية وقواد أجنادها هذه الوصية نبراساً لسياستهم الاسلامية التي يسرون عليها

وأول أمير شرع في اعداد الوسائل والمعدات لتنفيذ تلك الوصية الأمير حسان

ابن النعمان ، شيخ وزراء الدولة الأموية ، بعد أن دان له شمالى افريقية بالطاعة فقد أنشأ بقناء قرطاجنة دار الصناعة لبناء السفن والأساطيل وصنع الأسلحة ، وجلب لها الصناع من قبط مصر ، وسار على منهاجه في ذلك مولاه طارق بن زياد بعد أن ولى المغرب ، فجاز بجيوشه أرض العدو ، وناجز الأندلسيين سنة ٩٢ ثم تلاها في ذلك اسماعيل بن أبي المهاجر الذى تقلد اماره شمالى افريقية في عهد عمر بن عبد العزيز فأغزى أساطيله جنوبى أوردية سنة ١٠٥ وكانت قيادتها لعبد الرحمن بن عبد الله النافق ، ولم يعد إلا بعد أن أثخن في ايطالية ؛ وهذه الغزوة تعتبر كبشير لانقاذ الايطاليين من حكم البيزنطيين الطغاة .

وفي ولاية عبيد الله بن الحبحاب لافريقية جهاز أسطولا كبيرا جعل امارته لقائد جيوشه الموفق حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة الفهرى ، فغزاها سنة ١٢٣ ونكل فيها بالبيزنطيين أشد تنكيل ، ولو لم تحصل ثورة البربر ضد الحكم العربى بسبب تخميس أعشارهم لملك شطوط ايطاليا وطهرها من حكم البيزنطيين كما فعل ذلك من قبل حسان ابن النعمان في شمالى افريقية .

وفي سنة ٢٠٧ ، بعد استقرار الدولة الأغلبية جهاز زيادة الله الأكبر أسطولا بامارة قائده محمد بن عبد الله التميمى لمانزلة سردينية ، ثم أعاد عليها الكرة سنة ٢١٢ ، وكانت اماره الأسطول والجيوش في هذه المرة لقاضى القضاة الامام أسد بن الفرات ، فملك مازرة وحاصر سر كوسة ، وحول أسوارها أدركت الامام الشهادة رضى الله عنه سنة ٢١٣ فتولى القيادة العامة صاحب أسطول الأندلس القائد اصبح المعروف بفرغلوسن . وبعد أن استقرت الأمور في البلاد المفتوحة قلد زيادة الله اماره ايطالية لابن أخيه ابراهيم بن عبد الله بن الأغلب ، وما زال مواليا للجهاد حتى فتح بليرم و نابولى .

وفي ولاية أبي عقاب الأغلب بن ابراهيم استؤنفت حرب التحرير في ايطالية سنة ٢٢٤ وتم فتح صقلية .

وفي ولاية الأمير محمد الأول تقدمت الفتوحات في شطوط ايطالية واستمرت

من سنة ٢٣٣ الى سنة ٢٤٠ ففتحت باتية وقطانية وبشيرة .

وفي ولاية الأمير أبي ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب ندب والى صقلية العباس
ابن الفضل لغزو قصر الحديد ومدينة شلقودة وجهاز الأسطول وأمر عليه أخاه وسره
لفتح جزيرة اقريطش فكان له واقعة مهولة في البحر الرومي مع أسطول بيزنطية

وفي عهد أبي الفرائق محمد الثاني بن أحمد بن محمد بن الأغلب قلد خفاجة
الولاية على ايطاليا وأخرجه سنة ٢٥١ لفتح جنوة ففتحها وتقدم إلى جبال الألب
واستمر فاتحا الى نهاية سنة ٢٥٢ وفي سنة ٢٥٣ سيرت بيزنطية أسطولا ضخما ،
لمحاربة المسلمين في شطوط أوربة الجنوبية ومنع جحافلهم من التقدم في فرنسا ،
فواقعتهم خفاجة على شواطئ جنوة وسركوسة وألحق بهم خسارة عظيمة .

وفي سنة ٢٥٥ غزا الأسطول الأغلبى جزيرة مالطة واستولى عليها وألحقها

بشمالى افريقية .

وفي عهد ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب قلد الحسن بن رباح ولاية جنوبى
أوربة ونهده الى الغزو فيما يليها ؛ فتقدم الى مرسيلية وفتح البروقنص فاستنجدت
فرنسة بالدولة البيزنطية فسيرت لها أسطولا مؤلفا من ١٤٠ مركبا ، فتلقاه الأسطول
الافريقى فى عرض البحر الرومى فدارت بينهما معركة مهولة كان الفوز فيها للبيزنطيين
جمعه أن تحطمت شوانهم والتجأت بقايا الأسطول الافريقى إلى بليرم . لكن الجيوش
الاسلامية كانت تتوغل فى فرنسا واستمرت على ذلك من سنة ٢٦٦ إلى سنة ٢٧٢
فلكت بعض شواطئ الرون واحتلت كولونيا . غير أن عين البيزنطيين لم تنم عن
هذه الفواجع ، فأعادوا فكرة حملتهم البحرية وحاولوا فى هذه المرة قطع خطوط
الاتصال بين جنوبى أوربة وشمالى افريقية ، فاحتل أسطولهم مدينة سبرية فقاومهم
المسلمون مقاومة عنيفة منعهم من التقدم .

وفي سنة ٢٧٥ جهزت افريقية أسطولاً عظيماً لتعقب أسطول البزنطيين وشل حركتهم عن التقدم في الشطوط ، ولم يلبث أن اشتبك بالعدو وضربه الضربة الحاسمة ومكن سيادة المسلمين في إيطاليا وجانب من فرنسا :

واستمر نجم الاسلام صاعداً في أوروبا بعد هذه الواقعة العظيمة وأمرء الأغلبة لا ينفكون عن تعزيز المسلمين في ولايتهم الأوربية ومراقبة حركات الصليبيين مراقبة عنيفة تحبط كل سعى في الانتكاث حتى دان من كان في حوزتهم من النصارى بالاسلام وتذوقوا حلاوة تحريره اياهم من ظلم الأمراء الاقطاعيين ، وطنيان الكنيسة الكاثوليكية واستمر ذلك الى أن ظهرت النبعة الآثمة نبعة الدعوة العبيدية في قبيلة كتامة البربرية من المغرب الأوسط ، وقدر لها أن تحتاح الدولة الأغلبية فتعطل الفتح في أوروبا وانقلبت جيوش افريقية مغيرة على العالم الاسلامي لتقويض دولة بعد أخرى وهدم الخلافة العباسية القائمة في المشرق وبسبب ذلك تحولت السياسة الاسلامية تجاه أوروبا من الهجوم والتوثب الى الدفاع والتسليم .

ولم يحن أحد على الاسلام ما جناه عليه هؤلاء العبيديون أو الفاطميون واليك البيان : لما تغلب عبيد الله المهدي على افريقية وزال عنها حكم بني الأغلب كرهت الولايات الاسلامية في أوروبا أن تقدم طاعتها للمتغلبين ، فأجمع أصحاب الشأن فيها على اعلان الاستقلال حتى يمتنع نقل الجيش من أوروبا الى افريقية ، فبايعوا بالامارة القائد أحمد ابن زيادة الله بن قره ب ؛ وبمجرد انعقاد هذه البيعة كتب الأمير الى المقتدر بالله الخليفة العباسي بالطاعة ، فأنفذ اليه المقتدر بالتقليد والخلع والالوية وطوق من الذهب . ولما بلغ ذلك عبيد الله المهدي أخذ يسمى في بث الدسائس والفتن بين المسلمين في أوروبا ، وما زال بهم حتى اختلت الامور على ابن قره ب فخلع سنة ٣٠٣ وقتل بعد أن وصل الى المهديّة ؛ وعقب ذلك اجتمع أولو الحل والمقد من المسلمين في دار الامارة بيليرم فكتبوا الى المهدي ، وذلك بعد أن بلغهم أنه جهز جيشاً لغزو المشرق

بقيادة الطاغية البربري القائد حباسة بن يوسف يلتمسون منه تعيين الولاية والقضاة وأن يبقى لهم الجيش يدرون به الاخطار أمام الاعداء الى غير ذلك من الشروط التي تضمن لهم الاستقلال الداخلي ولا تجعل بلادهم عرضة للغارة والفتوق ، فأبى أن يجيبهم الى هذه الطلبات العادلة ، وأخرج اليهم الجيوش والاساطيل وعين عليهم سعيد بن المضيف فحاصروهم شهورا ، وكانت البلاد ممتعة عنه فتنحى عنها وأرجل جنود كتامة في أرباض الشواطئ المفتوحة للنهب والسلب ، ففعلوا الافاعيل التي أفزعت النساء والذرية ؛ حتى إذا رأى المسلمون أنه لا طاقة لهم بهذا الفرع نزعوا إلى طلب الأمان فأمّنهم بلا قيد ولا شرط . وعلى أثر ذلك احتل البلاد وهدم أسوار المدن وجرد حاميتها من السلاح والخيول وفرض المغارم الكثيرة ، ونصب سالم بن أبي راشد أميراً عليها وعززه بجيش من كتامة فكان دأبهم الاغشاش في الظلم وسلب الأموال ، فانقبضت النفوس وخارت الهمم عن التوسع حتى طمع فيهم رعاياهم الايطاليون والفرنسيون

وفي عهد أبي القاسم بن عبيد الله المهدي عين لولاية أوربا خليل بن اسحاق الطاغية ؛ فقصى في الحكم أربعة أعوام ارتكب فيها من الجور والفساد ما لم يسمع بمثله ، وجعل المسلمين يفرون أفواجا أفواجا إلى البلاد النصرانية ويتنصرون . ويحدثنا عنه المؤرخون أنه لما عاد سنة ٣٢٩ إلى شمال إفريقيا كان يفتخر بمظالمه ، فقد حضر مجلساً من وجوه الدولة العبيدية في قصر الامارة وكانوا يتباحثون في شئون الدولة ، فقال : إني قتلت في إمارتي ألف ألف نسمة ، فرد عليه أبو عبد الله المؤدب ، وكان من عقلاء الرجال في الدولة الشيعية : « لك يا أبا العباس في قتل نفس واحدة ما يكفيك »

وفي أيام الأمير تميم الملقب بالمعز لدين الله وجه القائد جوهر في الفزوة الثانية على مصر سنة ٣٥٧ بمعد وفاة صاحبها كافور الأخشيدي فاستولى عليها وبني له مدينة

القاهرة . وفي سنة ٣٦١ رحل المعز إلى المشرق وأخذ القاهرة عاصمة للملك واستخلف على افريقية أبا الفتوح يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي مؤسس الدولة الصنهاجية ؛ فكان همه ضبط البلاد وتكوين الشعور بالوحدة البربرية ، فشمرت الأمم النصرانية المتاخمة للمسلمين في أوروبا بسرمان هذا الضعف والانحلال في قوة التماسك بالوحدة الاسلامية ، فأخذوا يواثبون المسلمين في كل مكان ، وما زالوا يجمعون ويؤلبون عليهم الى أن وافقهم سنة ٣٧٢ ، فحشدوا قواهم لمناجزة المسلمين في فرنسا . ولما بلغ ذلك أبا الفتوح أمر عامله على جنوبي أوروبا أن ينهد لقتالها فتحرك اليهم في جيوش كثيفة ودارت بينهم معارك ارتدت فيها النصرانية على الأعقاب وفاز فيها المسلمون فوزاً عظيماً . فما كان من الملك روجار النرماندي قائد هذه الحملات الصليبية الأولى إلا أن استنفر الأمم النصرانية لمحاربة الاسلام في أوروبا وافريقية . وكان النرمانديون نزلوا من شمال فرنسا إلى جنوبها ثم شرعوا يتعقبونهم ويناجزونهم في إيطاليا ويفتكون منهم المدن ، مدينة إثر مدينة ، حتى ملكوا جميع البلاد الاسلامية في جنوب أوروبا . ومما ساعدهم على ذلك تراجع أمر الدولة الصنهاجية أواخر حكم المعز بن باديس إثر الزحفة الهلالية التي سيرها اليهم العبيديون سنة ٤٥٢ من مصر لتقويض معالم شمال افريقية

ولم تقف أطماع النرمانديين على ازالة الحكم الاسلامي من أوروبا ، بل جنحوا الى التغلب على المسلمين في مواطنهم الآمنة بافريقية ، فهجموا في سنة ٤٧٦ على المهدية دار المملكة الصنهاجية بأسطول مؤلف من ٣٠٠ مركب عليه ٣٠ ألف مقاتل ، وكانت المدينة مفتوحة غير محصنة فتغلبوا عليها وعلى زويلة ، وأحدثوا فيها مقتلة ذريعة ، وحرقوا وخربوا المعالم المشهورة وأخيرا صالحهم تميم بن المعز بن باديس على مائة ألف دينار وما اتهموه من الاموال وسبوه من النساء والذرائر .

ولما انتقل الحكم الى الامير حسن بن علي بن تميم بن المعز بن باديس سنة ٥١٦

أراد غسل العار الذي لحق الدولة من فعل النمرنديين ورد ما فقدته من الأقطار الواسعة في أوربا ، فندب لذلك حليفه الأمير على بن يوسف بن تاشفين المكنى صاحب العدوتين أن ينهد لقتال النمرنديين ؛ فأغزى أسطوله شطوط أوربا الجنوبية ، وكان بقيادة أبي عبدالله ميمون ، فأئخن فيها قتلا وسبيا ورد أمم النصرانية على أعقابها بعد أن هلك من الطرفين عدد لا يحصى . ولم تخمد هذه الكارثة هم النمرنديين وتعمد بهم عن استئناف حملتهم على المهديّة ، فأعادوا الكرة عليها في أساطيلهم أواخر جمادى الأولى سنة ٥١٧ فتلقاهم آساد العرين في كل مكان وتخطفتهم السيوف حتى أبيدوا عن آخرهم ، وغنم المسلمون مراكبهم وأسلحتهم وأموالهم ، فكانت وقعة عظيمة أنعشت أرواح المسلمين بعد طول الخمود ؛ ولكن الصليبيين لم يكفوا عن متابعة الغارة فأعادوا الكرة على المهديّة سنة ٥٤٣ فاحتلوها بعد وقائع مهولة وخرج منها السلطان حسن بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بجملته وحاشيته الى جزائر بنى مرزغناى (الجزائر) وجعل الصليبيون المهديّة قاعدة لحركتهم الحربية في شمالى افريقية وشن الغارة منها على ما يليها من الشطوط التى استولوا عليها ، وقد مكثوا بها الى أن أجلاهم عنها أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على فى المحرم سنة ٥٥٥ ولولا نجدة لكانت بلادنا اليوم بلاداً نصرانية من غير شبهة . انتهى

كتابات عربية

على القبور الاسلامية في مالطة

بعد ان آعمنا كتابنا المتضمن غزوات العرب في فرنسا وسويسرة وايطاليا وجزائر البحر المتوسط ومن جملتها جزيرة مالطة اطلعنا على رسالة للمستشرق الايطالى (ايطورى روسي) Ettore Rossi الذى يعد من اعلم المستشرقين باحوال مالطة ان لم يكن اعلمهم وهو الذى حرر الفصل المختص بمالطة في الانسيكلوبيديا الاسلامية واجتمعنا مع الاستاذ المشار اليه في رومة في هذه الايام الاخيرة وتباحثنا في تاريخ مالطة وكثير مما يتعلق بشؤونها وهو الذى قدم لنا رسالته هذه باللغة الايطالية فاحببنا ان ننقل ما جاء فيها من الكتابات العربية التى وجدت على القبور الاسلامية في مالطة والتى جمعها ايطورى روسي وصورها بالفوتوغرافية ونشر صورها في الرسالة المذكورة فنحن آثرنا نقلها كما وجدناها في رسالته آتماما للفائدة

ومما جاء في صدر هذه الرسالة ان نزول العرب في مالطة وقع بحسب الرواية المشهورة في سنة ٢٥٦ للهجرة وانه من المعلوم ان ابا الاغلب ابراهيم غزا جزيرة صقلية سنة ٢٢١ للهجرة اى ٨٣٥ - ٨٣٦ للمسيح واستولى عليها فغير معقول ان يكون استولى على صقلية وترك مالطة وهى اقرب الى افريقية من صقلية فلا بد ان يكون استيلاء المسلمين على مالطة وقع قبل سنة ٢٢٦ للهجرة وفق ٨٦٩ - ٨٧٠ للمسيح

ابا تاريخ استخلاص مالطة من ايدي المسلمين فيذكرون انه وقع بين سنة ٩٩٢ للمسيح وسنة ١٠٢٥ وذلك بالغارة البيزانطية . ولكن مملا شك فيه ان المسلمين بعد ان استرجع المسحيون مالطة بقوا يسكنون الجزيرة نحو من مئتي سنة اى الى سنة ١٢٢٤ بل الى سنة ١٢٤٩ بحسب رواية العلامة آمارى Amari مؤرخ صقلية

وهذه هى نصوص الكتابات التى وجدت في المقابر الاسلامية في مالطة ننقلها كما وجدناها في الرسالة المذكورة :

بسم الله الرحمن الرحيم | صلى الله | على النبي محمد وعلى | آله وسلم تسليما لله | العزة
والبقا وعلى خلقه كتب الفنا ولكم في رسول الله اسوة حسنة هذا قبر | ميمونة
بنت حسان بن علي الهذلي عرف ابن السوسي | توفيت رحمة الله عليها يوم الخميس
السادس عشر | من شهر شعبان السكائن من سنة تسع وستين وخمسمائة | وهي تشهد
ان لا اله الا الله وحده لا شريك له

انظر بعينيك هل في الارض من باقى | أو دافع الموت أو الموت من ر | اقي
الموت اخرجني قصرا فيا اسقى | لم ينجني منه أبواي واغلا | ق
وصرت رهنا بما قدمت من عمل | محصا على وما خلفته باقى
يا من رأى القبر انى قد بليت به | والترب غبر أجفاني و | آماقي
في | مضجعي | ومقامي في البلا | عبر | وفي | نشوري | اذا ما جثت خلاق
| اخي فجد | وتب | .

بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم (. . .)
توفى . . . يوم الأربعاء ودخل قبره يوم الخميس من العشر الاو (. . .)
الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ادعو ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب اله (. . .)
(. . .) محمد وآله وسلم تسليما ان ربكم الله
(. . .) ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر
والنجوم مسخرات
بأمره الا له (؟)

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
تسليما فاز
(كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم) ثم يوم القيامة فمن زحرج عن النار
بوا دخل الجنة فقد

وما الحيات الدنيا الا متاع الغرور هاذا قبر الشيخ المرحو (م . . .)

توفى رحمه الله في العشر الأول من صفر عام ثمانية وسبع (ن . . .)

بسم الله الرحمن الرحيم هذا قبر محمد... توفى يوم الثلاثاء في ذي الحجة سنة
ثلاث و...

(...) الذي يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون
(...)

(...) العلي العظيم لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر
بالطاغوت (...)

(...) لقد جاءكم رسول من أنفسكم رؤوف فان تولوا لا اله الا هو عليه
(...) من شعبان سنة ستة واربعين وخمسة رحمة الله وبرضوانه وهبلى الله على
محمد (...)

(... أجب) وركم يوم القيامة فن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما
الحيات (...)

(...) في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر (...)
كل نفس (...)

سلام على أهل (القبور ...)

... عند الا باذنه يعلم ما بين (...)

... لمطى محمد

قف بالقبور ...

بسم الله الرحمن الرحيم (...)

هذا قبر (...)

(... زح) رج عن النار (...)

(... ا) لا متاع الفوز

(... + ٢٠)

... (الرحيم) هذا قبر أمة الله بنت أبو القاسم ابن عرو (ة).

لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد

... الله ...

وانما تو (فون أجوركم ...)

بسم الله الرحمن (الرحيم)

... (١) براهم الصملى

بسم الله الرحمن الرحيم

... والح ...

توفى يوم الخميس الثامن من ... سنة ...

... وخسائة

بسم الله الرحمن الرحيم (...)

... لله الله (...)

بسم الله الر (حمن الرحيم ..)

... النار وادخل الجنة ...

عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم

لا اله

الا الله

محمد ر

سول الله

بسم الله الرحمن الرحيم الله لا اله الا هو الحى القيوم (...)

أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا (...)

(...) الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع العرور

(...) شربة ولم يأكلوا من كل رطب ويابس
(... صلى الله عليه وسلم وآله تسلياً ان ...) (...)
(...) ... الا له ... (...)
(... أجور) كم يوم القيامة فمن زحرج عن النار و (...)
(... و) لا نوم له ما في السموات وما في الأرض (...)
سلام على أهل القبور الدوارس كأنهم لم يجلسوا في المجالس
ولم يشربوا من بارد الماء شربة ولم يأكلوا ما بين رطب ويابس

هذا قبر ؟

... هبد

العزير ...

ورحم الله من

دعاه بالرحمة

(تم والحمد لله في البدء والنهاية)

٨٥ } التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول تأليف الشيخ منصور على ناصف
مجلد بالقماش في خمسة مجلدات وهذا الثمن مدبة الاشتراك فقط

١٠ أقضية الرسول صلى الله عليه وسلم للقرطبي

١٥ تاريخ التشريع الاسلامي لمحمد بك الخضرى

٢٠ محاضرات الدولة العباسية » »

٣ غوث العباد ببيان الرشاد تأليف الشيخ مصطفى أنى سيف الحماي

٥ دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك الى الامام أحمد فى الرد على ابن تيمية

٨٠ شرح البهجة لشيوخ الاسلام ذكرى الانصارى فى خمسة أجزاء

٤ مبادئ اللغة للخطيب الاسكافى

١٠ ألفية السيوطى فى علم الحديث مع شرح وان لفضيلة الاستاذ احمد محمد شاكر

٢ ألفية السيوطى فى النحو للامام جلال الدين السيوطى

٥ الحكمة البالغة ديوان خطب منبرية للمخضوب

١٨ لطائف المعارف لابن رجب الحنبلى مجلد بالقماش

٢٢ قاموس آيات القرآن الكريم مجلد بالقماش خير مرشد للآيات

٧ } بهجة الحاوى وبهامشه التيسير فى نظم متن التحرير والتدريب فى نظم غاية
التقريب للمعريفلى مجزع

أحسن القصص

٥ مختصر قصص الأنبياء

٨ مختصر أولى العزم من الرسل: نوح، ابراهيم، موسى، عيسى، محمد عليهم الصلاة والسلام

٨ مختصر سير الخلفاء الراشدين

تحت الطبع

مختصر سير أئمة الدين وبعض الصالحين

مختصر سير أمهات المؤمنين وبعض شهيرات النساء المسلمات

فهرست الكتاب

الصفحة

المقدمة	٤
ملحق بالمقدمة	٥
كلمة بين يدي الرحلة لتتبع الآثار العربية في الإقطار العربية	٧
الكلام على طلوزة وقرقشونة	١١
طلوزة	١٣
قرقشونة	١٤
مبدأ غارات العرب على فرنسة وما اعتمد عليه المؤلف من الروايات عنها	١٤
خبر موسى بن نصير وطارق بن زياد	٢٩
الولاية على الأندلس بعد موسى بن نصير	٤٧
رجع الى حديث استيلاء العرب على جنوبي فرنسة	٥٠
حرب القيسية واليمانية	٦٠
الكلام على مدينة أربونة	٦٤
السمح بن مالك الخولاني وغارات العرب على فرنسة	٧١
واقعة بلاط الشهداء	٩٣

الصفحة

غارات العرب على فرنسا ، من بعد جلائهم عن أربونة	
الى عهد استيلائهم على بروفانس سنة ٨٨٩ م	١١٤
أساطيل الاسلام فى الأندلس وافريقية	١٣٩
زول العرب فى بروفانس وغاراتهم من هناك على سافواى	
وييمونت وسويسرة الى دور اجلائهم عن فرنسا	١٦٠
الصفة العامة لغارات العرب هذه والنتائج التى ترتبت عليها	٢٠٦
كتاب غارات العرب على سويسرة فى أواسط القرن	
العاشر - تأليف الدكتور فرديناند كار	٢٤٤
آثار كتابة فى كنيسة القديس بطرس موتجو	٢٦٢
أسماء عربية فى البلاد	٢٦٤
أسوار وطرق وكهوف وغير ذلك	٢٦٦
المسكوكات	٢٦٩
الملابس العربية	٢٧٢
القصص على آثار العرب فى وادى فاله من سويسرة	٢٧٦
فتح المسلمين لمالطة	٢٨٤
مغازى العرب فى أوربة وجزائر البحر المتوسط	٢٩٦
كتابات عربية على القبور الاسلامية فى مالطة	٣٠٣